حديث

الاستهام على السفينة

ومجريات القدر

حديث
الاستهام على السفينة
ومجريات القدر

تأليف
دكتور / سيف الإسلام حسين عبد الباري

مراجعة وتصحيح وتعليق

الأستاذ الدكتور/ السيد مصطفى السيد

الدكتور/ يوسف جمال بكري أحمد

تصميم الغلاف

المهندسة/ الزهراء طلال أحمد خليل

بسم الله الرحمن الرحيم

تحذير:
جميع الحقوق محفوظة " للمؤلف " للنشر والتوزيع وغير مسموح بإعادة نشر أو إنتاج الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه على أجهزة استرجاع أو استرداد إلكتروني أو نقله بأية وسيلة أخرى أو تصويره أو تسجيله على أي نحو دون أخذ موافقة كتابية مُسبقة من المؤلف.

حقوق الطبع محفوظة

* * *

الطبعة الأولى
١٤٤٦هـ - ٢٠٢٥ م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

٨٧٧٢/ ٢٠٢٥م

* * *

الترقيم الدولى

I S B N / 978-977-987-028-1

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ٤٤﴾

[آل عِمْرَان : ٤٤]

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٣٩ إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ١٤٠ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ ١٤١﴾

[الصَّافَّات : ١٣٩ - ١٤١]

﴿ وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ١٧٢ أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ١٧٣ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ١٧٤ ﴾

[الأَعْرَاف : ١٧٢ - ١٧٤]

مضمون البحث

يحتوي البحث على ما يلي:

- في دائرة البحث.
- ثلاثة أقسام.
- خاتمة.
- نتائج.

أولا: في دائرة البحث

وتشتمل على:

إهداء، شكر وتقدير، شكر وإهداء خاص، بين يدي البحث، المقدمة، وكذلك: التمهيد.

والخلاصة، أو أهم ما يدور حوله البحث:

هو بيان فداحة القول بأن المكَلَّف له مطلق الإرادة والاختيار التام - أو ما يطلق عليه التخيير - فيما سوف يحاسب عليه، ثم بيان أن هذا القول يعتبر طعنا في العقيدة، وتعطيلا للقدر.

وبينا أن هذا ليس معناه أننا نقول بالجبر - وكأن الإنسان قد أصبح من جملة الحيوانات - فإن مثل هذا القول لا يليق بالعقلاء، وإنما الذي نؤكده أن المكَلَّف له مطلق الإرادة والاختيار التام فيما تقوم عليه به الحجة، فقط لا غير، ثم يكون ميسرا ومسخرا لما قدِّر له أو عليه، والله أعلى وأعلم.

ثانيا: القسم الأول

دراسة تحليلية لحديث السفينة:

حيث نتناول بإيجاز المعنى المتبادر من الحديث، ثم بيان المعنى الذي قصدنا إليه من هذه الدراسة، ألا وهو بيان أهمية لفظ الاستهام في الحديث الشريف،وأسباب عدم تعرض السابقين لهذا المعنى الذي نقول به، وهل يجوز إحداث قول في أمور الشرع ليس له سلف من أهل القرون الأولى؟.

والله من وراء القصد.

ثالثا: القسم الثاني

حديث السفينة وتعلقه بالقدر:

وفي هذا القسم أشرنا إلى أوجه الإعجاز البياني في الحديث الشريف، وكيف ألمح إلى مسألة القضاء والقدر بما يتسع لكل العقول والأفهام.

وذلك من خلال بيان ما يترتب على تعلق مشيئة العباد بمشيئته سبحانه، وكذا - الأخذ بالأسباب وتعلقه بالقدر، مع التأكيد على ارتباط القدر بالعلم الكاشف، وتعلقه بالقدرة الإلهية معا، والتركيز أيضا في هذا القسم على - مسألة التسخير والحساب، والابتلاء والحساب.

كما ذكرنا أفعال الإنسان وتعلقها بالقدر، وكذلك مسألة الدعاء والقضاء.

وفي هذا القسم اجتهدنا في بيان كيف أن نصوص الشرع قد أكدت على أن بعض أفعال العباد، التي يحاسبون عليها، قد تقع بالقضاء والقدر (وأقصد بذلك تدخل القدرة الإلهية، في أفعال الناس بالتسيير والتسخير، وليست بالعلم الكاشف وحده، دون لبس أو غموض)، وكل هذا بالأدلة القطعية المنقولة عن القرون الخيرية الأولى، والله أعلى وأعلم.

رابعا: القسم الثالث

الظواهر الكونية كالزلازل وغيرها وتعلقها بالقدر:

وفي هذا القسم توقفنا عند الكوارث الكبرى ومنها مسألة الزلازل، والتي يترتب عليها هلاك أعداد كبيرة من البشر، حين يضربهم الزلزال.

وأكدنا على أن هؤلاء الذين ماتوا إنما انتهى أجلهم، وليس معنى تواجدهم في مكان واحد أن موتهم كان اتفاقا، أو كما يقال بالصدفة، بل هو القدر المحتوم الذي يقع ـ والله أعلى وأعلم ـ بتدخل القدرة الإلهية، حتى يجتمع من قدِّرَ موته، ويغيب أو ينجو من لم يأت أجله بعد، وكل ذلك بالقضاء المبرم المحتوم، الذي لا يتبدل ولا يتغير، مهما بدا لعقول البشر.

خامسا: الخاتمة

وفيها : الثمرة المرجوة من البحث، وكذلك: نتائج البحث.

في دائرة البحث

إهداء

أهدي هذا البحث إلى كل أصحاب الحقوق عليَّ ـ بعد اللّه عز وجل ـ وأخص منهم صاحب الفضل الكبير، عمي الموقر المبجل الأستاذ/ **السيد عبد الباري البرعي**.

فقد كان خير عون لي، في رياضاتي الفكرية، والتي لولاها لم أكن لأتمكن من إخراج هذا البحث، على صورته، التي أحسب أنها جيدة بفضل اللّه تعالى.

وما ذلك إلا بسبب هذا الاعتراك الفكري، الذي يملك عمي منه النصيب الأوفر، من التميز والحضور، وانتقاء دقائق المعاني، وإنزالها موضعها الدقيق، في السياق الذي يناسبها.

وكما أن الرياضات البدنية تحتاج إلى المشاركة، لتنمي محفزات النفس، على الصبر والاجتهاد، بشحذ الهمم، واستنفار القدرات، فكذلك كانت حواراتي مع عمي الحبيب، كانت من هذا القبيل، حتى ترسخت المعاني في نفسي وعقلي، واستنارت الأفكار بالحركة والظهور، فكانت سياحتنا الفكرية متعة، من خير متاع الدنيا، وسعادة لا تعدلها سعادة، فجزاه اللّه عني كل الخير، ومتعه اللّه بالصحة والسعادة والعافية.

شكر وتقدير

وشكر من ساق الله على أيديهم الخير لهو من صميم العبادة، فقد ورد في الحديث الشريف عَنْ أبي هُرَيْرَة رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنه قالَ: «لا يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لا يَشْكُرُ النَّاسَ»[1].

وها أنا أمتثل لشرع ربنا، راجيا عفوه ورضاه سبحانه، فأتقدم بالشكر إلى من كانوا عونا وسندا كبيرا في إخراج هذا البحث إلى الوجود، فجزاهم الله عني خير الجزاء.

أتقدم بالشكر والتقدير والعرفان والامتنان إلى كل من:

- فضيلة الشيخ الدكتور/ **أسامة حامد مصيلحي** حفظه الله تعالى، وأعزه ورفع قدره.

فقد كان خير سند لي، عندما ألحقني كباحث شرعي في الأكاديمية الشرعية، التي تهدف إلى إعلاء شرع الله تعالى، على منهج أهل السنة والجماعة، هذه الأكاديمية التي أقامها حسبة لله تعالى، ولا نزكي على الله أحدا، فجزاه الله بعمله هذا خير الجزاء، وجعله خالصا لوجهه الكريم.

- أخي الموقر الأستاذ الدكتور/ **السيد مصطفى السيد** حفظه الله تعالى، وزاده علما وفقها، وتوفيقا وسدادا.

وإن وجوده معي لمن أجل نعم الله علي، لما يحدوني به دائما من تشجيع وتحفيز، حتى أنه كان أول من حثني على إنجاز هذا البحث، وقد أشار إلى ما يدل على أنه يتبنى نفس رؤيتي لهذه

---

[1] سنن أبي داود (٤/ ٢٥٥)، وقال **الشيخ الألباني**: صحيح.

المسألة، بل إنه سبقني بالقول، بمسألة التسخير والحساب، ثم كان مرافقا لي، طوال البحث، بالمشورة والتوجيه، والتصحيح والمراجعة، حتى أتم اللّه نعمته علينا، وانتهينا من البحث، وكلنا أمل ورجاء، أن يكتب اللّه له القبول والرضى، فجزاه اللّه خير الجزاء، لما قام به وأسداه من خير وفضل، وجعل عمله خالصا لوجهه الكريم، وثقل به موازين حسناته، وجعله دوما قامة من قامات العلم الشرعي المنضبط، الذي تنهض به الأمة، كما يحب سبحانه وتعالى ويرضى.

- الابن العزيز الدكتور/ **يوسف جمال بكري أحمد** وفقه اللّه وسدد خطاه، وجعله سبحانه من حملة هذا العلم وخاصته، الذين وصفهم تبارك وتعالى بقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فَاطِر من الآيه : ٢٨]، و نحن جميعا يارب.

فقد تبنى المسألة تماما، وسبقني إلى كثير من الأدلة، التي تضمنها البحث، وليس هذا وحسب بل إنه كان المحاور الجهبذ، الذي يستخرج زُبد الفكر، كما تُستخرج الجواهر من أعماق البحر، وقد فتح اللّه عليه فتحا كريما، بأن أضاف إلى البحث مسألة القضاء والدعاء، ولنعم الإضافة هي، جعل اللّه ما قام به في ميزان حسناته، وأجزل له ولنا جميعا الأجر والمثوبة، إنه سبحانه واسع الجود، عظيم العطاء.

- الأخ العزيز الأستاذ / **ياسر السيد تقي الدين عبد العال**، جعله اللّه دوما من الملهمين المؤيدين بالتوفيق والسداد.

ولكم كان لنا سويا من جولات وجولات، في ميدان الفكر والأدب، منذ أن كنا شبابا، يهفو كل منا إلى الفكر والإبداع، وتباريْنا في محاولة استعراض كل ما كانت عقولنا تطيقه -

في هذه المرحلة المتقدمة من مراحل العمر ـ من مؤلفات فكرية وأدبية مختلفة.

وها هي الأيام تعود بنا إلى هذه المرحلة، في ثوب قشيب، ليقوم ـ بارك الله فيه ـ بالمراجعة النحوية، لهذا البحث، مراجعة أهل الاختصاص والدراية، ولم يمل من التكرار والإعادة، كلما أضفت شيئا، والذي تم على مرات عدة، وليس مرة واحدة، فله مني كل الشكر والتقدير، ودعواتي أن يلهمه الله دوما الخير والصواب، وأن يسدد خطاه بالطاعة والصلاح، كما يحب ربنا تبارك وتعالى ويرضى.

شكر وإهداء خاص

بعد أن منَّ اللّه عليَّ بإتمام هذا البحث، واطمأن قلبي ـ إلى درجة كبيرة ـ بما ناله من رضا وتقدير، من كل من اطلع عليه حتى الآن، شعرت أنه قد آن الأوان أن أزينه بهذا الإهداء، مصحوبا بالشكر والتقدير، لأحب إخوتي إلى قلبي ونفسي، أو أخي الصديق / **طلال أحمد خليل مقادمة** (**أبو أحمد**).

ومن عجب أن إخوتنا وصداقتنا قد بدأت بصورة قدرية، تؤكد ما يدور حوله هذا البحث، وأن كل ما في الكون، إنما يجري بقدر، حتى وإن كان يتم على أيدي الناس وفعلهم.

وكان ذلك قبل خمسين عاما أو يزيد قليلا، في عامنا الأول في جامعة المنصورة، حيث كانت دراستي الجامعية الأولى، والتي أتممتها قبل التحاقي بجامعة الأزهر، بما يقرب من عشرين عاما.

كان الوقت تقريبا ما بين العصر والمغرب، أو قبيل الغروب قليلا، وقد خلت الجامعة من الطلاب ـ في هذا الوقت ـ إلا القليل النادر، وكنا من ضمن هذا القليل النادر، الذين لا يزيد عددهم عن أصابع اليدين.

وقد التقينا عند محطة النقل الداخلي، انتظارا لسيارة للعودة إلى بيوتنا، وكان الانتظار إيذانا ببدأ مرحلة خاصة من حياتنا، لم يفترق فيها قلبانا بعد ذلك أبدا ـ بفضل اللّه تعالى ومنه وكرمه.

وأستطيع أن أجزم أن سحر المكان، على ضفاف النهر، وحانية الطريق، في هدأة هذه الساعة من النهار، كانت كأنها رسولُ القدر، ليربط بين قلبينا، برباط الإخوة في الله، بل لنكون أشد قربا من الإخوة الأشقاء، ويا لها من صحبة، لا يمكن أن تولد إلا بقدر، ولا يملكها البشر من تلقاء أنفسهم، مهما سعوا وبذلوا، فإن مثل هذه المشاعر لا تخضع لعوامل المادة، أو معايير الدنيا، بل هي التوافق والقبول، وما تهفو إليه النفوس، وكل ذلك لا يملكه إلا الخالق سبحانه، وكيف لا وهو القائل عز وجل: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال : ٦٣].

ومضت سنوات الدراسة سريعا وكأنها لمح البصر، وافترقنا وقد عاد إلى بلده (غزة)، وطال الفراق، لكن والله ما افترق قلبانا أبدا، وكم دارت بيننا من حوارات، لم ينطق بها اللسان، ولم يخطها القلم، بل نسجتها أحاسيس تفيض بالحب والاشتياق، وحملتها نسائم الليل وسكنات النهار، وقد غلفتها كلمات قليلة، يحملها خطاب قد تمر عليه أسابيع وأسابيع قبل أن يصل، إليه أو إليّ.

بين يدي البحث

في أواخر مرحلة الطفولة وما بعدها كان أبي دوما يردد في أذني: "خليك في كتب الأصول يا ولدي".
(يقصد بكتب الأصول هنا كتب المتقدمين، أي العصور الثلاثة المشرقة)

ولم أكن أعير اهتماما لهذه النصيحة، وذلك لسببين:

الأول: أن جل مشايخنا الفضلاء كانوا دوما يقولون ابدأ بكتب المعاصرين، ومختصرات المتأخرين، ثم شروحها وحواشيها، ثم لاحقا إن شاء اللّه - والذي لم يأت إلا نادرا - سنشرع في كتب المتقدمين.

الثاني: أن أبي لم يكن متخصصا في العلوم الشرعية، ولا متبحرا فيها، لذلك ظننته قال ذلك بدافع تاريخي، جعله يتحامل على المتأخرين، ضاربا بمنتجاتهم الفكرية، ومؤلفاتهم العلمية عرض الحائط .

إلا أنني وبعد سنوات أصبح لدي يقين راسخ أن الحق كان مع أبي، وإن لم يكن يقصد ما وراء هذه النصيحة، إلا أنه كان محقا تماما، فيما كان يرمي إليه.

والذي أقصده هنا أنني على قناعة تامة بأن المسار العلمي الحالي لأغلب المدارس الشرعية والمحاضن العلمية، يحتاج إلى تعديل جذري، في تقدير المناهج المناسبة، وفي طرق التناول. والذي أعنيه تحديدا أن هناك حججا ظهر عوارها بعد ذلك، وقد

تبينت خطأها بنفسي، بما يعنى أنها لا تحتاج إلى جهد كبير، أو عالم نحرير لإدراك ذلك.

وأذكر طرفا منها، فعلى سبيل المثال كانت الحجة الكبرى أن كتب المتقدمين صعبة لا يمكننا فهمها، وهذ الكلام ليس صحيحا على إطلاقه، بل إن كثيرا منها لهو أوضح في الدلالة على المقصود، وأقوى حجة في الاستدلال عما سواه، مما يجعله من الكتب الأساسية، لتكوين ملكة طالب العلم، وتوسيع مداركه في الفهم والتصور.

إن البعد الطويل عن كتب المتقدمين والاستكثار من شروح المتأخرين لمتون أقرانهم جعلنا نفقد جزءا حيويا من تراث هذه الأمة، بل إنه كنز لا يعوض عنه آلاف المصنفات التي لحقته، فإن ما ينقل إلينا من أقوال الأولين إذا ما غاب عنا فهو بكل تأكيد انحراف عن سبيل الوقوف على الحق من منبعه، ولا يشك في ذلك من عنده مسحة من علم.

فالمنهل الذي يرتوي منه الإنسان يشكل فهمه وتصوره للمسائل، بل ويشكل تأثيره حتى في واقعه المعاصر.

وأريد أن تستحضروا معي كيف أن أي مصنف لابد له من تأثير فيما يكتب، فإذا اكتفينا بما سطره المتأخرون غاب عنا كثير من كنوز ما سطره الأولون، لأنه وبكل تأكيد يوجد فارق في طريقة التناول، مما قد يتأثر بظروف العصر وتطوراته.

وإنه مما يؤكد كلامي هذا مثال عملي أذكره لكم وهو مسألة القدر، وخصوصا التسيير والتخيير، والذي هو لب البحث، وأعظم ما فيه، فقد غاب هذا المفهوم عن جل من تكلم في هذا الشأن، سواء أكان متخصصا في العقيدة، أم كان من علماء الشريعة عموما، ومنهم أكابر الأسماء المعروفة ولن أذكرها.

والسبب الرئيسي في ذلك أمران من وجهة نظري :

الأمر الأول : الاكتفاء بما صنف أكابر المتأخرين في هذا الباب.

الأمر الثاني: عدم إحداث وقفة تدبرية، فيما يؤول إليه كلامهم، ومحاولة فهمه بعمق، عن طريق تدبر نصوص الوحي.

ولكننا حين نقرأ هذا البحث المبارك فإننا نجد الأمر واضحا جليا لدى المتقدمين، ولكنه يحتاج إلى جمع وترتيب وتبويب، وهو ما فعله شيخنا المفضال في هذا البحث، فإنها واللّه ورقات تفيض نورا من نور الوحي، تحتاج أن تبث في المجتمعات المسلمة، وسنرى كم لهذه القضية من أثر في واقع المسلم اليومي .

بقلم

الدكتور/ يوسف جمال بكري أحمد

المقدمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:
فإن عقيدة القضاء والقدر ركن من أركان الإيمان، الذي لا يصح إلا بها، كما جاء في حديث جبريل عليه السلام، ورغم أن أركان الإيمان كلها غيبية إلا أنها هي المحرك، والركيزة الأساس للمسلم، كما أنها ضرورة حياتية لا غنى عنها، لاستقامة الحياة واستدامتها، ولكن لو تأملنا قليلًا في أركان الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره"[1]، فما الذي يعنيه إضافة الإيمان بالقدر، خيره وشره إلى البنود السابقة؟!

[1] عن عُمَرَ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ، وَيُصَدِّقُهُ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ، قَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ» قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا، قَالَ: «أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ

أليس معنى هذا أن القضاء والقدر يختص بمعنى مستقل ـ كما يبينه البحث ـ تؤكده هذه الإضافة؛ وليس فقط علم الله الأزلي السابق على الخلق وحسب؟!

لو كان كذلك لما كانت هناك حاجة إلى إضافة الإيمان بالقدر كعلم، لأن الإيمان بالله وبصفاته يكفي، ولما كان هناك حاجة لزيادة خيره وشره، بل يكفي الإيمان بالقدر كعلم! ثم ما معنى قول نبينا الأعظم ﷺ "مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ"[1] وما معنى "ما قدر يكون"، وما معنى "قدَّرَ الله وما شاء فعل" وما معنى قول الإمام النووي رحمه الله "سوق التقادير للمواقيت"[2]، وما معنى قول الله جل في علاه على لسان يوسف عليه السلام ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَـٰجِدِينَ ۝٤﴾ [يُوسُف : ٤]، وقد لخصت حياة نبي كريم منذ طفولته حتى علا عرش مصر وقد مرت به أحداث جسام، وحركة فردية ومجتمعية، وحِيَل من إخوته، وحيل من يوسف عليه السلام، وإلجاء للمارة ليستقوا من البئر، وإلجاء بإحداث مجاعة وإلجاء للملك برؤيا.

وكل ذلك ليتحقق مراد الله وقضاؤه وقدره، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٢١﴾ [يُوسُف من الآيه : ٢١]، وما الرؤيا إلا

الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ»، قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: «يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟» قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»، صحيح مسلم (١/ ٣٧).

[1] الأسماء والصفات للبيهقي (١/ ٤١٧).

[2] انظر الأربعين النووية.

جزء من الغيب، من القضاء والقدر المكتوب، قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، ثم حققه الله وأتمه كما أراد، على أيدي عباده المخيرين نسبيًا، لحكمة يعلمها سبحانه، وكما سوف يتضح في ثنايا البحث.

وهناك رؤى تحصل لكثير من البشر، تنطلق من الغيب، بقَدَرِ الله وإرادته، لتغير مجرى حياتهم، كرؤيا ملك مصر"[1]، وكما حدث **للدكتور مصطفى محمود**"[2]، وهناك اكتشافات علمية غيرت مجرى البشرية، لم تكن بجهد بشر، بل أطلقها الله بقدر في طريق الناس، لتحدِثَ فيهم أمرا، أراده سبحانه.

وكثير من الملاحدة أوقف الله أمامهم بعض عجائب مخلوقاته، فكانت سببا في تحولهم إلى الإيمان، كما حدث للدكتور

---

[1] قوله تعالى: {وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ} (يوسف: ٤٣).

[2] حيث حكى أنه رأى رؤيا منامية تجمع بين صديقين له، وأنه دار بينهما حوار حوار عن كذا وكذا، وفي اليوم التالي سأل هذا الصديق، فذهل مما قال، حيث أخبره أنه كان بالفعل يسير مع الصديق الآخر، في نفس المكان الذي رآه الدكتور مصطفى محمود في رؤياه، وأنه دار بينهما نفس الحديث، الذي أخبر عنه دكتور مصطفى محمود، وعندها أفاق مما كان فيه من شك، وتأكد لديه باليقين القاطع أن للكون ربا يدير خلقه كما يشاء سبحانه، بدأ بعد هذه الرؤيا السير الجاد في طريق الهداية، وسبحان مقدر الأقدار سبحانه.

السامرائي، بفضل بعوضة"[1]، ويؤكد **الدكتور السامرائي** أنه لولا تيسير الله تعالى ما توقف أمام هذه الآيات، كما يحدث مع كثيرين، يرون آيات الله تعالى التي لا تحصى، ثم لا يتوقفون أمامها، فهو التوفيق والتيسير من الله تعالى ولا شك.

وقد قال **الإمام جعفر الصادق** رحمه الله "أراد الله منا شيئا، وأراد بنا شيئا، فما أراده منا بينه لنا، وما أراده بنا طواه عنا، فما لنا نشتغل بما أراده بنا عما أراده منا"[2] ونحن لا نشتغل في هذا البحث بما أراده الله بنا، والحِكَم التي من وراء ذلك، بل نشتغل بما أمرنا بالإيمان به، من قضاء وقدر بفهم ووعي، فهي عقيدة لا

[1] أخبر دكتور فاضل السامرائي أنه كان يظن ظنا غالبا أنه لا يمكن لأحد أن يثبت له وجود إله للكون يديره عز وجل كما يشاء، ونظرا لأنه كان من الباحثين الجادين، الذين لا يتوقفون عن القراءة والبحث، فقد ساق الله له من البينات التي لمسها بنفسه، ما جعله يقبل على طريق الإيمان، واستفراغ الوسع في بيان أوجه الإعجاز البلاغي في كتاب الله تعالى، وأخبر أن هذا بتيسير من الله تعالى، لا يمكن أن يغفل عنه.

أخبر أن الآية التي استوقفته كثيرا وآمن على هداها، هي أنثى البعوض حيث تضع البيض ثم تموت، ولا ترى صغارها ولا يرونها، ثم يفقس البيض ويخرج من البعوض، في دورة الحياة، حتى تضع الإناث البيض أيضا ثم تموت، بنفس ما كانت تفعله البعوضة الأم تماما، فآمن أن ما تقوم به هذه الحشرات ليس نتيجة الاكتساب بالمعايشة والتعلم، فإنها لم تر أمهاتها، ولهذا فلا يمكن أن يحدث ذلك إلا عن طريق الخالق الذي أعطى كل مخلوق ما به تقوم حياته، كما أراد سبحانه، وبدأ طريق الهداية.

[2] انظر: الإمام جعفر الصادق للإمام محمد أبي زهرة.

يسع أحدٌ فيها عموم العبارات، وإلا لما أدت إلى رسوخ المفاهيم والعقائد، ومن هذه الحِكَم التي تبين القصور المطلق لدى البشر، والتي تطبع عليهم بطابع العبودية، حكمة ابن عطاء الله السكندري رحمه الله حيث يقول "ربما فتح لك باب الطاعة ولم يفتح لك باب القبول.. وربما قضى عليك بالذنب فكان سبب الوصول، ورب معصية أورثت ذلا وانكسارًا خير من طاعة أورثت عزًا واستكبارًا"[1].

وبالله عليكم ما معنى قوله جل شأنه ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ [القصص: ٧]!، هل هذا علم كاشف وفقط، أم أنه قدر محكم، قدَّره عليم خبير، لطيف حكيم قدير، مريد يفعل في ملكه ما يشاء، بعلم وحكمة، لا معقب لحكمه، وليس هناك من نكير من خلقه، وما كان لهم الخيرة.

وهذه قصة من أعجب ما يكون، بجملة من الغيب، يوحي بها الله إلى أم موسى عليه السلام، وتجري الأحداث الجسام منذ الطفولة أيضًا إلى انقضاء رسالته، وما فيها من إلجاء واضح، وتدابير من الله جل في علاه، وتسخير وتسيير للوقائع والأحداث، حتى تنتظم في الطريق الذي أراده الله، بفعل البشر المخيرين نسبيًا، كما يتضح من البحث بإذن الله تعالى.

وما قصة موسى عليه السلام والخضر عليه السلام إلا لمحة جلية عن القضاء والقدر، وكيفية التسيير والتسخير، وتدخل القدر وإجرائه للأحداث، بالقدرة الإلهية، على نحو يريده تبارك وتعالى، ولحكمة يعلمها سبحانه، حكمة تعجز عنها العقول

[1] كتاب حكم ابن عطاء الله السكندري.

والأفهام، بعدل تام، وخير محض، وليس مجرد العلم الكاشف وفقط.

وإن السيرة النبوية لتزخر بمواقف عديدة تؤيد نتائج البحث، التى أرسيت قواعدُها، على هدي آيات الكتاب الحكيم، والسنة المطهرة، وفهم السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين.

فمثلا: أبو طالب رغم تضحيته، ومنافحته عن النبى ﷺ، لم ينطق بكلمة التوحيد، وما كان ذلك ليكون لولا القضاء والقدر، فليست الهداية بيد أحد من الخلق، حتى أحب الخلق إلى الله تعالى، لا يملك لمن أحب شيئا من ذلك ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٥٦﴾ [القصص : ٥٦].

وكذلك: سيدنا حمزة ﷺ، فى قصة إسلامه حين قال مندفعا بحميته: أتسبه وأنا على دينه؟ يقول: لم أبت ليلتى وظللت أقلب وجهي في السماء أن يهدينى، إن كان دين محمد ﷺ هو الحق، وما منعه إلا رجولته، التى تأبى أن تتراجع في كلمة"[1]، وكان قد مضى عليه سنوات ست ولم يسلم، ولكن قدر الله هذا الحدث، ليقع مراد الله تعالى، كما سبق به القضاء والقدر، لتبدأ ملحمة البطولة والجهاد، والشهادة في سبيل الله، وعلى النقيض من ذلك الوليد بن المغيرة الذى شهد لعظمة القرآن ثم تخاذل. وهذا هو عكرمة ﷺ، لما فتحت مكة فر إلى البحر هربا من القتل، وركب السفينة، فهاجت الرياح واضطربت الأمواج، فقَالَ أَصْحَابُ السَّفِينَة: لا يَجُوزُ ها هُنَا أَحَدٌ يَدْعُو شَيْئًا إِلا اللَّهَ وَحْدَهُ مُخْلِصًا، فقَالَ **عِكْرِمَةُ**: وَاللَّهِ لئِنْ كَانَ فِي الْبَحْرِ وَحْدَهُ أنَّهُ فِي الْبَرِّ وَحْدَهُ،

[1] المستدرك على الصحيحين للحاكم (٣/ ٢١٣)، وفيه رواية إسلامه ﷺ.

أقسمُ باللّهِ لأرجعنَّ إلى محمَّدٍ ﷺ، فرجعَ عكرمة مع امرأته، «فدخلَ على رسولِ اللّهِ ﷺ فبايعهُ فقبلَ منه»"[1]، فكان هياج الريح واضطراب الأمواج سببا من الأسباب التي تحمل في طياتها مجريات الأقدار.

والصحابي الذى أمر رسول اللّه ﷺ بقتله، ولو تعلق بأستار الكعبة، يأتيه ـ قبل إسلامه ـ وسط المسلمين، ولم يتحرك أحد من الصحابة رضي الله عنهم لقتله، وعندما خرج قال لهم الرسول ﷺ أليس منكم رجل رشيد يقوم فيقتله؟ فقالوا: هلا أومأت إلينا؟ فقال ﷺ ماكان لنبى أن تكون له خائنة أعين، وهكذا حال القدر بين الصحابة رضي الله عنهم وبين قتله، لأنَّ مقدر الأقدار سبحانه قدر له الإسلام، وهكذا تجري الأقدار وتقع الأسباب، على نحو لا حيلة للبشر فيه، ولكنه هو التسيير والتسخير، الذي تتعلق الأقدار به.

وغيرهم كثير: بمعنى أن تدخل القدر، وبصورة جلية ومؤثرة لا نستطيع غض الطرف عنه.

وكذلك نؤكد أن نتائج البحث تتفق تماما مع علامات الساعة، وأحداث آخر الزمان فمثلا عندما يخبر النبى ﷺ أنه سيخرج من ضئضئ هذا الخوارج"[2].

---

[1] المرجع السابق (٣/ ٢٦٩).

[2] عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه، قَالَ: بَعَثَ عَلِيٌّ رضي الله عنه، إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِذُهَيْبَةٍ فَقَسَمَهَا بَيْنَ الأَرْبَعَةِ الأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ الحَنْظَلِيِّ، ثُمَّ المُجَاشِعِيِّ، وَعُيَيْنَةَ بْنِ بَدْرٍ الفَزَارِيِّ، وَزَيْدٍ الطَّائِيِّ، ثُمَّ أَحَدِ بَنِي نَبْهَانَ، وَعَلْقَمَةَ بْنِ عُلاَثَةَ العَامِرِيِّ، ثُمَّ أَحَدِ بَنِي كِلاَبٍ، فَغَضِبَتْ قُرَيْشٌ، وَالأَنْصَارُ، قَالُوا: يُعْطِي صَنَادِيدَ أَهْلِ نَجْدٍ وَيَدَعُنَا، قَالَ: «إِنَّمَا أَتَأَلَّفُهُمْ». فَأَقْبَلَ رَجُلٌ غَائِرُ العَيْنَيْنِ، مُشْرِفُ الوَجْنَتَيْنِ، نَاتِئُ الجَبِينِ، كَثُّ

أو حديث الجساسة لتميم الداري ﷺ، والدجال، وغيره كيأجوج ومأجوج وهم موجودون بالفعل، ولكنهم سيخرجون ويظهرون أو كما يقال أمور يبديها ولا يبتديها"[1]، وكل ذلك لا يكون إلا بالقضاء والقدر، والتسيير والتسخير، كما يبينه البحث.

اللِّحْيَةِ مَحْلُوقٌ، فَقَالَ: اتَّقِ اللَّهَ يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ: «مَنْ يُطِعِ اللَّهَ إِذَا عَصَيْتُ؟ أَيَأْمَنُنِي اللَّهُ عَلَى أَهْلِ الأَرْضِ فَلاَ تَأْمَنُونِي» فَسَأَلَهُ رَجُلٌ قَتْلَهُ، — أَحْسِبُهُ خَالِدَ بْنَ الوَلِيدِ — فَمَنَعَهُ، فَلَمَّا وَلَّى قَالَ: "إِنَّ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا، أَوْ: فِي عَقِبِ هَذَا قَوْمًا يَقْرَءُونَ القُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يَقْتُلُونَ أَهْلَ الإِسْلاَمِ وَيَدَعُونَ أَهْلَ الأَوْثَانِ، لَئِنْ أَنَا أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ"، متفق عليه، صحيح البخاري (٤/ ١٣٧)، صحيح مسلم (٢/ ٧٤١)، واللفظ للبخاري.

[1] صحيح مسلم (٤/ ٢٢٦٢) وفي الحديث: (...قَالَ: فَانْطَلَقْنَا سِرَاعًا، حَتَّى دَخَلْنَا الدَّيْرَ، فَإِذَا فِيهِ أَعْظَمُ إِنْسَانٍ رَأَيْنَاهُ قَطُّ خَلْقًا، وَأَشَدُّهُ وِثَاقًا، مَجْمُوعَةٌ يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ، مَا بَيْنَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى كَعْبَيْهِ بِالْحَدِيدِ، قُلْنَا: وَيْلَكَ مَا أَنْتَ؟ قَالَ: قَدْ قَدَرْتُمْ عَلَى خَبَرِي، فَأَخْبِرُونِي مَا أَنْتُمْ؟ قَالُوا: نَحْنُ أُنَاسٌ مِنَ الْعَرَبِ رَكِبْنَا فِي سَفِينَةٍ بَحْرِيَّةٍ، فَصَادَفْنَا الْبَحْرَ حِينَ اغْتَلَمَ فَلَعِبَ بِنَا الْمَوْجُ شَهْرًا، ثُمَّ أَرْفَأْنَا إِلَى جَزِيرَتِكَ هَذِهِ، فَجَلَسْنَا فِي أَقْرُبِهَا، فَدَخَلْنَا الْجَزِيرَةَ، فَلَقِيَتْنَا دَابَّةٌ أَهْلَبُ كَثِيرُ الشَّعَرِ، لَا يُدْرَى مَا قُبُلُهُ مِنْ دُبُرِهِ مِنْ كَثْرَةِ الشَّعَرِ، فَقُلْنَا: وَيْلَكِ مَا أَنْتِ؟ فَقَالَتْ: أَنَا الْجَسَّاسَةُ، قُلْنَا: وَمَا الْجَسَّاسَةُ؟ قَالَتْ: اعْمِدُوا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ فِي الدَّيْرِ، فَإِنَّهُ إِلَى خَبَرِكُمْ بِالْأَشْوَاقِ، فَأَقْبَلْنَا إِلَيْكَ سِرَاعًا، وَفَزِعْنَا مِنْهَا، وَلَمْ نَأْمَنْ أَنْ تَكُونَ شَيْطَانَةً، فَقَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ نَخْلِ بَيْسَانَ، قُلْنَا: عَنْ أَيِّ شَأْنِهَا تَسْتَخْبِرُ؟ قَالَ: أَسْأَلُكُمْ عَنْ نَخْلِهَا، هَلْ يُثْمِرُ؟ قُلْنَا لَهُ: نَعَمْ، قَالَ: أَمَا إِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ لَا تُثْمِرَ، قَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ

وكذلك: حديث الرسول ﷺ عندما ذهب ليوقظ السيدة فاطمة وسيدنا على ـ رضى الله عنهما ـ ووجدهما نائمين، فقالا

بُحَيْرَةِ الطَّبَرِيَّةِ، قُلْنَا: عَنْ أَيِّ شَأْنِهَا تَسْتَخْبِرُ؟ قَالَ: هَلْ فِيهَا مَاءٌ؟ قَالُوا: هِيَ كَثِيرَةُ الْمَاءِ، قَالَ: أَمَا إِنَّ مَاءَهَا يُوشِكُ أَنْ يَذْهَبَ، قَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ عَيْنِ زُغَرَ، قَالُوا: عَنْ أَيِّ شَأْنِهَا تَسْتَخْبِرُ؟ قَالَ: هَلْ فِي الْعَيْنِ مَاءٌ؟ وَهَلْ يَزْرَعُ أَهْلُهَا بِمَاءِ الْعَيْنِ؟ قُلْنَا لَهُ: نَعَمْ، هِيَ كَثِيرَةُ الْمَاءِ، وَأَهْلُهَا يَزْرَعُونَ مِنْ مَائِهَا، قَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ نَبِيِّ الْأُمِّيِّينَ مَا فَعَلَ؟ قَالُوا: قَدْ خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ وَنَزَلَ يَثْرِبَ، قَالَ: أَقَاتَلَهُ الْعَرَبُ؟ قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: كَيْفَ صَنَعَ بِهِمْ؟ فَأَخْبَرْنَاهُ أَنَّهُ قَدْ ظَهَرَ عَلَى مَنْ يَلِيهِ مِنَ الْعَرَبِ وَأَطَاعُوهُ، قَالَ لَهُمْ: قَدْ كَانَ ذَلِكَ؟ قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: أَمَا إِنَّ ذَاكَ خَيْرٌ لَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ، وَإِنِّي مُخْبِرُكُمْ عَنِّي، إِنِّي أَنَا الْمَسِيحُ، وَإِنِّي أُوشِكُ أَنْ يُؤْذَنَ لِي فِي الْخُرُوجِ، فَأَخْرُجَ فَأَسِيرَ فِي الْأَرْضِ فَلَا أَدَعَ قَرْيَةً إِلَّا هَبَطْتُهَا فِي أَرْبَعِينَ لَيْلَةً غَيْرَ مَكَّةَ وَطَيْبَةَ، فَهُمَا مُحَرَّمَتَانِ عَلَيَّ كِلْتَاهُمَا، كُلَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَدْخُلَ وَاحِدَةً – أَوْ وَاحِدًا – مِنْهُمَا اسْتَقْبَلَنِي مَلَكٌ بِيَدِهِ السَّيْفُ صَلْتًا، يَصُدُّنِي عَنْهَا، وَإِنَّ عَلَى كُلِّ نَقْبٍ مِنْهَا مَلَائِكَةً يَحْرُسُونَهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَطَعَنَ بِمِخْصَرَتِهِ فِي الْمِنْبَرِ: «هَذِهِ طَيْبَةُ، هَذِهِ طَيْبَةُ، هَذِهِ طَيْبَةُ» – يَعْنِي الْمَدِينَةَ – «أَلَا هَلْ كُنْتُ حَدَّثْتُكُمْ ذَلِكَ؟» فَقَالَ النَّاسُ: نَعَمْ، «فَإِنَّهُ أَعْجَبَنِي حَدِيثُ تَمِيمٍ، أَنَّهُ وَافَقَ الَّذِي كُنْتُ أُحَدِّثُكُمْ عَنْهُ، وَعَنِ الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ، أَلَا إِنَّهُ فِي بَحْرِ الشَّأْمِ، أَوْ بَحْرِ الْيَمَنِ، لَا بَلْ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ مَا هُوَ، مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ مَا هُوَ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ، مَا هُوَ» وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى الْمَشْرِقِ، قَالَتْ: فَحَفِظْتُ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ).

يارسول اللّه أنفسنا بيد اللّه"[1]، **يقول الإمام ابن حجر**: (إِنَّمَا أَنْفُسُنَا بِيَدِ اللَّهِ وَفِيهِ إِثْبَاتُ الْمَشِيئَةِ لِلَّهِ وَأَنَّ الْعَبْدَ لَا يَفْعَلُ شَيْئًا إِلَّا بِإِرَادَةِ اللَّهِ)[2].

وتعليق الرسول ﷺ بقوله : ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ [الكهف من الآيه : ٥٤]، **يختصر** المسألة التى نحن بصددها، فلم يُسلّم لهما الرسول ﷺ بما قالا، بل أظهر تعجبه ﷺ، بما يدل على أن لهما ـ رضي الله عنهما ـ إرادة واختيارا، ولهذا اعتبر النبي ﷺ جوابهما من قبيل الجدل، واللّه أعلى وأعلم.

وكلام السلف الصالح رضي الله عنهم، وأقوال الأئمة العلماء والمفسرين كله يدعم هذا المعنى ويوضحه، بما لا يدع مجالا للشك في هذه الحقيقة التي بينها البحث، إلا أن شأنها شأن القضايا الدينية الأخرى، ركَنَ من يدّعون العلم إلى الراحة والدعة، وآثروا إرضاء الناس، تحت ضغوط الواقع وهجمات الملاحدة والمستشرقين، وولع الناس بالحضارات المادية، **ثم جاء مَنْ يشمله ـ بإذن اللّه تعالى ـ هذا الحديث الشريف**:

---

[1] عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ طَرَقَهُ وَفَاطِمَةَ بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةً، فَقَالَ لَهُمْ: «أَلاَ تُصَلُّونَ»، قَالَ عَلِيٌّ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا أَنْفُسُنَا بِيَدِ اللَّهِ، فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثَنَا، فَانْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ قُلْتُ ذَلِكَ، وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ شَيْئًا، ثُمَّ سَمِعْتُهُ وَهُوَ مُدْبِرٌ يَضْرِبُ فَخِذَهُ وَيَقُولُ: {وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا}، صحيح البخاري (٩/ ١٣٧)، صحيح مسلم (١/ ٥٣٧)، واللفظ للبخاري.

[2] فتح الباري لابن حجر (٣/ ١١).

«يَحْمِلُ هَذَا العِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الغَالِينَ، وَانْتِحَالَ المُبْطِلِينَ، وَتَأْوِيلَ الجَاهِلِينَ»[1]، ليقدم لنا اكتشافًا جديدًا يذهل العقل - ولا يقل عظمة عن الاكتشافات والاختراعات، التي أفادت البشرية - في قول النبي الأعظم ﷺ في حديث السفينة "استهموا"، ثم تلا ذلك بعدة بحوث في غاية الدقة والروعة لاستخراج مفهوم عقيدة القضاء والقدر، من عصر الصحابة والتابعين ﵃، ويرد على كل الشبهات المتعلقة بهذه المسألة، ليزيح الستار عن قضية عقائدية، ظلت قرونًا محل جدال ونقاش، ورفض للخوض فيها، بزعم أنه لا يجوز الاقتراب منها، واستطاع - بفضل الله وتوفيقه - أن يحل لغزا ويفك إشكالية هذه المعضلة، وهي: كيف يحاسب الله عباده - وهو العدل سبحانه - على كل ما يفعلونه، على الرغم من أنهم ليسوا مخيرين تخييرا مطلقا؟ وهو ما أوقع المتأخرين في حيرة ودفعهم إلى القول بأن الإنسان مخير تخييرا مطلقا في كل ما يفعل، وحصروا عدل الله المطلق، وحكمته الباهرة، ومشيئته النافذة، وقدرته العلية المؤثرة في كونه، وفي أنفسهم، حصروا ذلك كله في عقولهم القاصرة، التي لا تحيط بشيء من علمه إلا بما شاء، ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله من فضله، وقنعوا بأن القضاء والقدر علم كاشف ومشيئة نافذة وقدرة مؤثرة ومهيمنة، وأن الله عدل لا يظلم أحدا، لاكتفى منهم بالتسليم لذلك، ولكن وقعت الشبهة عند العلماء بأن خلطوا بين مفهوم

---

[1] الجاهلين السنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ٣٥٤) الإبانة الكبرى لابن بطة (١/ ١٩٨)، وفي رواية: "يَرِثُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ، يَنْفُونَ عَنْهُ تَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ، وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ، وَتَحْرِيفَ الْغَالِينَ".

القضاء والقدر، ومسألة العدل الإلهي، ووقعت الشبهة عند العوام بما يجدونه في حياتهم من أفعال يقومون بها ليست من محض اختياراتهم.

ووالله لو كان الأمر بيدي لجعلتها رسالة من جملة الرسائل الجامعية، حتى ينهل منها كل علماء الشريعة، ليصدعوا بالحق الذي فيها بين الناس، حتى يتغير حالنا إلى أحسن حال، ولن يفلح الوعاظ والدعاة والعلماء والمربون والمصلحون ودعاة التنمية البشرية وخلافهم في دعوتهم إلى زرع البطولة والفداء والشجاعة والإقدام والعزة والكرامة وحسن التوكل على الله إلا بهذا المفهوم، الذي قدمه الباحث أعزه الله ورفع شأنه في الدنيا والآخرة .. ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾ [الأعراف: ١٧٠].

بقلم

الأستاذ الدكتور / السيد مصطفى السيد

التمهيد

نشأت - بفضل الله تعالى - في بيئة يتعلق قلب شبابها بالمساجد، والذي أتاح لنا أن نغنم كثيراً من ثمار الدروس الشرعية، التي حضرناها مباشرة، أو عن طريق السماع، بوسيلة من الوسائل، التي كانت متيسرة في ذلك الحين، والتي مضى عليها ما يقرب من الستين عاما، وكان الدعاة إلى الله يملئون"[1] المساجد، وتلتقطهم المنابر، نظرا لما كان يتميز به الكثيرون منهم من دقائق الفكر، وروعة الأداء.

وكم من مسائل تعتبر من أدق الفروع الشرعية، تم تناولها، وكانت مدار أسئلة لا حصر لها، وبصورة متكررة ودائمة، ومن هذه المسائل مسألة: **الإنسان مسير أم مخير؟.**

وكان هذا السؤال هو الأكثر إلحاحا على ألسنة الباحثين عن فهم دينهم فهما يرفع اللبس، ويزيل الغموض، وتكرار السؤال في هذه المسألة يدل على أن كل ما قيل من أجوبة لم يروِ ظمأ الباحثين عن الفهم، ولم يشفِ صدور أهل الحرص والالتزام.

ولم يكن تكرار السؤال مقصودا به الجدل، بل كان نابعا من حاجة حقيقية إلى الفهم، طمعا في الاطمئنان إلى استقامه الفهم لأمور الدين، وعدم التخبط في الحيرة والاضطراب، وكل هذا يدل على الأهمية القصوى للإجابة المنضبطة الوافية الشافية لهذا السؤال على جهة الخصوص، والله أعلم.

---

[1] وجدت المعاجم القديمة تكتبها يملأون، ولكن المعاجم الحديثة تكتبها يملئون.

وكانت أعجب إجابة قيلت وقتئذ هي: أن الإنسان في الشرق مسير، وفي الغرب مخير، وهي إجابة كنا نعتقد أنها لا تخلو من وجه من أوجه العبقرية، وما ذلك إلا لأنها جسدت أحد أهم المعاني الصعبة، في حياة الناس، حتى وإن كانوا لا يدركون أبعادها على نحو صحيح.

هذا المعنى هو: أن الإنسان محاسب على أفعاله، ولولا ذلك لكانت الحياة نوعا من العبث، والعياذ بالله، وهذا يقتضي أن يكون مختارا فيما سوف يحاسب عليه"[1].

ونظرا لأن أهل الغرب لم يَحجُرْ على عقولهم شيء، فقد انطلقوا، دون أن ينشغل أحدهم بشيء من هذه الفلسفات، التي يصعب إدراك معناها بصورة واضحة، تماما كما كان الحال، على النحو الذي كان متناولا لدينا، وهكذا انطلق الغربيون إلى عالم الابتكار والإبداع واكتشاف كل ما هو جديد، بينما انشغل أهل الشرق بمسائل جدلية، دون النظر إلى الفائدة المرجوة أو عدمها، من هذه المسائل.

وسيطر سحر البيان، والكلام المنمق، على كثير من الدعاة المتأخرين، دون الحرص الحقيقي على فهم ما يقال فهما دقيقا، وتبسيطه للناس، ليكون في متناول عقولهم، وذلك كما في هذه المسألة، الإنسان مسير أم مخير، وهي مسألة لو أحسن عرضُها

---

[1] عبارة **الشيخ الغزالي**، في كتابه عقيدة المسلم، وقد استمعت إلى تأكيده ــ يرحمه الله ــ بقوله: "إن العدل الإلهي يقتضي أن يكون الإنسان مخيرا فيما سوف يحاسب عليه"، ونحن نرفض تماما هذا الإطلاق، ونقطع بأن الإنسان مخير فيما تقوم عليه به الحجة فقط، كما بيناه في البحث بفضل الله تعالى.

في سهولة ويسر، لكان لها أثرها الهائل في تعلق قلوب الناس بربهم، واليأس من كل ما سواه سبحانه.

حديث السفينة ومسألة التخيير والتسيير

ولما قدر لي ـ بتوفيق اللّه تعالى ـ أن أتناول بعض الأحاديث الشريفة، بالبحث والتدقيق في معانيها، استوقفني لفظ الاستهام، والذي ورد في حديث السفينة، والذي يمثل ـ من وجهة نظري ـ أصلا من أصول الإسلام، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ ١١٠﴾ [آل عِمْرَان من الآيه: ١١٠]، والذي يبين ارتباط خيرية هذه الأمة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قادتني دراسة هذا الحديث الشريف إلى مسألة التخيير والتسيير، ومع إيماني أنها مسألة لا يتوقف أمامها عامة المسلمين، بل إن الإيمان الفطري المستقر في قلوب عامتهم هو أن كل ما يجري في الحياة إنما هو بقضاء اللّه وقدره.

ولكن هذا الإيمان لم ينشأ عن فهم ووعي بأبعاد هذه المسألة، حتى يمكنهم تنزيل هذا الإيمان على وقائع أحوالهم، بل إن عقولهم أبعد ما تكون عن المعنى التطبيقي، مما يجعل المجال مفتوحا، أمام ملاحدة العصر، للتلاعب بعقول كثير من الناس وقلوبهم.

فأردت بهذا البحث أن أستوفي هذه المسألة بالشرح والبيان، من خلال دلالتها في حديث السفينة، إعلاء لشرع اللّه تعالى، وسدا لباب فتن تموج كموج البحر، تبغي النيل من عقيدة الناس وإيمانهم، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم.

الفقه والعقيدة

من أهم الركائز التي يستند إليها البحث، ما يتعلق بعلوم العقيدة والحديث عن الغيبيات، والتي نهى الشرع عن الحديث في بعض منها، ولا يجوز قط الحديث عن الجزء الآخر إلا من خلال نصوص الشرع، من قرآن وسنة، والتي لا مجال للعقل فيها مطلقا، إلا فهم النصوص الواردة بشأنها فهما صحيحا، وذلك بطلب التوفيق من اللّه تعالى، وبذل الوسع في الاجتهاد بضوابطه الشرعية.

وأما الركيزة الثانية فتتعلق بعلم الفقه وأصوله، وكيفية الاستنباط الصحيحة للمعاني والأحكام.

وعلم العقيدة وعلم أصول الفقه يمثلان أعلى درجات العلوم الشرعية صعوبة في فهمها على وجه دقيق، ولهذا سعى كثير من أئمة أهل العلم ـ في عصرنا هذا ـ إلى تبسيط هذه المسائل، وتيسيرها على المسلمين قدر الاستطاعة، ومع هذا لم تصبح سهلة أو ميسورة، بل لا يزال التخبط في فهمها قائما.

تبسيط المسألة واضطراب المعنى

اجتهد بعض أهل العلم الأعلام في تبسيط المسألة للعامة، وتقريب المعنى بضرب المثال، ومن هؤلاء الأئمة الأفذاذ، فضيلة **الأستاذ الدكتور محمد أحمد المسير**، أستاذ العقيدة والفلسفة بجامعة الأزهر رحمه الله.**حيث يقول**"[1] : (يتساءل الناس كثيرا عن القضاء والقدر، ويقولون هل الإنسان مسير أم مخير؟ والقضية يسيرة وسهلة ونستطيع أن نقدمها في أمور لا نختلف حولها).

ثم يقول: (فإذاً القضية واضحة لكن الإنسان يخدع نفسه، عندما يتساءل هل هو مخير أو مجبور، ومثل هذه التساؤلات إنما هي دليل على أن الإنسان يخدع نفسه، ويحاول أن يبرر المعصية لنفسه).

ويقول: (فالمهم أيها المستمع الكريم القضية واضحة، الإنسان حر فيما يختار من إطار التكليف الشرعي، وهو مسؤل عن هذا الاختيار، ويستطيع أن يؤمن أو يكفر، ويستطيع أن يفعل الخير أو يفعل الشر، وبناءً على هذا الاختيار سيحاسبه الله عزوجل.

قد يقول قائل وما أدارك ما العلم الإلهي؟ أليس الله تعالى يعلم كل شيء؟

نعم الله تعالى يعلم كل شيء، والله تعالى يقول ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن

[1] الفيديو موجود على اليوتيوب بعنوان سؤال يشغل الأذهان هل الإنسان مسير أم مخير؟

وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٥٩﴾ [الأنعام : ٥٩]، فمقتضى أن الله هو الخالق المدبر الحكيم لابد أن يعلم، ألا يعلم من خلق؟

لكن هذا العلم انكشاف، وانكشاف تام، وهو لا يتخلف، لا لأنه يجبر الإنسان، بل لأنه انكشاف تام.

فعلم الله ليس جبراً، وليس قهراً، وإنما هو يعلم، ويتحقق ما علم المولى سبحانه وتعالى، لأنه صاحب العلم المحيط، ولا يعزب عنه شيء، وليس هناك حواجز، أو موانع تحول دون أن يكون العلم صادقاً.

عندما أخبرك أن فلاناً سيحضر بعد نصف ساعة، ثم يحضر بعد نصف ساعة، هل أنا الذي أجبرته على الحضور؟ أو أن علمي تحقق لأني على بينة أنه سيأتي؟

لكن بما أني بشر قد يتخلف علمي، فقد تحدث ظروف تحول دون حضور هذا الشخص لا أعلمها، أما الله سبحانه وتعالى فليس هناك موانع لعلمه، وليس هناك شيء يخفى عليه، فعلم الله تعالى عام شامل محيط لا يتخلف، لأنه ليس هناك موانع، وليس هناك ما يحول دون تمام المعرفة، وعندما يتحقق العلم فهو يتحقق لأن الإنسان قد اختار ما فعله، وعلم الله اختياره فسجله عليه.

هذه هي القضية ببساطة، وهذه هي القضية بسهولة، لكن الناس يتساءلون ويشككون وهي نواذر"[1] ووساوس شيطانية لا نريد أن تكون في عقولنا ولا في نفوسنا)"[1].

---

[1] أعتقد أنه يقصد بهذا اللفظ معنى وساوس، كنوع تأكيد.

[١] النص بتمامه: (يتساءل الناس كثيرا عن القضاء والقدر ويقولون هل الإنسان مسير أم مخير؟ والقضية يسيرة وسهلة ونستطيع أن نقدمها في أمور لا نختلف حولها. أولاً هل هناك فرق بين الإنسان والحيوان؟ أو ليس هناك فرق؟ إذا قلنا أن هناك فرقاً بين الإنسان والحيوان فهذا الفرق هو العقل، والعقل هو مناط التكليف بحيث إذا سلب هذا العقل سقط التكليف كما يقولون إذا سلب ما وهب سقط ما وجب. فطالما أن هناك عقلاً فلابد أن نكون على مسئولية، ولابد أن نكون نحن نختار أعمالنا بمقياس هذا العقل حتى يحاسبنا الله على هذا الإختيار. ثم نتسائل سؤالاً آخر: هل هناك فرق بين الحركة الاضطرارية والحركة الإختيارية؟ أم ليس هناك فرق؟ بمعنى إنسان مريض يرتعش، يده ترتعش هل يستوي مع إنسان يحرك يديه بإختياره؟ إنسان ألقى بنفسه أمام السيارة فدهمته، وإنسان يعبر الطريق فدهمته سيارة، هل يتساويان؟ بالقطع وبالتأكيد هناك تفرقة واضحة وجلية بين فعل نضطر إليه وبين فعل نختاره، بل إن ربنا جل شأنه عند الاضطرار أسقط عنا التكليف، فمن أكره على شيىء لا يعاقب عليه ولا يحاسب عليه، ومن أكره على الإيمان فهو كافر، ومن أكره على الكفر فهو مؤمن، بمعنى أن الإكراه لا قيمة له ولا يغير ما استقر في القلب. فإذا كان هناك إنسان كافر أكره على الإيمان فلا قيمة لهذا الإيمان ويظل كافراً رغم أنه نطق بكلمة الإيمان. وإذا كان هناك إنسان مؤمن أكره على كلمة الكفر فلا قيمة لهذا الإكراه ويظل مؤمناً ولا يحاسب على هذا الكفر. فإذاً القضية واضحة لكن الإنسان يخدع نفسه عندما يتساءل هل هو مخير أو مجبور، ومثل هذه التساؤلات إنما هي دليل على أن الإنسان يخدع نفسه ويحاول أن يبرر المعصية لنفسه، ثم إن هذا التساؤل لا يأتي إلا لتبرير معصية، يعني نجد الناس يقولون إنسان سرق أو إنسان حرق أو إنسان لا يصلي، ماذا أفعل هذا قدر الله

علي. لكن لو جئنا لإنسان يتصدق ويبني المستشفيات ويبني المساجد ويحج ويصلي ونقول له أن هذه الأعمال لا قيمة لها لأنك مجبور عليها لا أحد يصدق، كيف وأنا تعبت وأنفقت وسهرت وفعلت الخير، كيف لا أحاسب عليه. فالإنسان يخدع نفسه ولا يسأل هذا السؤال إلا لتبرير معصية.

لو أن إنسانا ــ سارقاً ــ سرق مني هذه الساعة، أو سرق مني شيئاً، هل أتقاعس وأجلس وأقول هذا قضاء وقدر؟ ولا أحاول أن أنزع منه ما سرقه مني إذا كنت مستطيعاً لذلك؟ فالمهم أيها المستمع الكريم القضية واضحة الإنسان حر فيما يختار من إطار التكليف الشرعي وهو مسئول عن هذا الاختيار ويستطيع أن يؤمن أو يكفر ويستطيع أن يفعل الخير أو يفعل الشر وبناءً على هذا الإختيار سيحاسبه الله عزوجل، قد يقول قائل وما أدارك ما العلم الإلهي؟ أليس الله تعالى يعلم كل شيىء؟ نعم الله تعالى يعلم كل شيىء، والله تعالى يقول: **{وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ}**، فمقتضى أن الله هو الخالق المدبر الحكيم لابد أن يعلم، ألا يعلم من خلق؟ لكن هذا العلم انكشاف وانكشاف تام وهو لا يتخلف لا لأنه يجبر الإنسان، بل لأنه انكشاف تام، فعلم الله ليس جبراً وليس قهراً وإنما هو يعلم ويتحقق ما علم المولى سبحانه وتعالى لأنه صاحب العلم المحيط ولا يعزب عنه شيىء، وليس هناك حواجز أو موانع تحول دون أن يكون العلم صادقاً، عندما أخبرك أن فلاناً سيحضر بعد نصف ساعة ثم يحضر بعد نصف ساعة، هل أنا الذي أجبرته على الحضور؟ أو أن علمي تحقق لأني على بينة أنه سيأتي؟ لكن بما أني بشر قد يتخلف علمي فقد تحدث ظروف تحول دون حضور هذا الشخص لا أعلمها، أن الله سبحانه وتعالى فليس هناك موانع لعلمه وليس هناك شيىء يخفى عليه، فعلم الله تعالى عام شامل محيط لا يتخلف، لأن ليس هناك موانع، وليس هناك ما يحول دون

قوله : (لكن هذا العلم انكشاف، وانكشاف تام، وهو لا يتخلف، لا لأنه يجبر الإنسان، بل لأنه انكشاف تام)، بيان وتقريب لمسألة أفعال العباد وتعلقها بالقدر، بغرض استيعاب العامة لهذه المسألة قدر الاستطاعة.

ولكن: ونظرا لأن الشيخ يرحمه الله قد تتلمذ على يديه أجيال من طلبة العلم، فقد نقل بعض هؤلاء الطلبة المتخصصين في مجال العقيدة، والذين يعملون في مجال الدعوة والخطابة، نفس المثال الذي يقرب به الشيخ المسألة من أحد أوجهها، ولكنهم

تمام المعرفة. وعندما يتحقق العلم فهو يتحقق لأن الإنسان قد اختار ما فعله، وعلم الله اختياره فسجله عليه.

هذه هي القضية ببساطة، وهذه هي القضية بسهولة، لكن الناس يتساءلون ويشككون وهي نوازر و وساوس شيطانية لا نريد أن تكون في عقولنا ولا في نفوسنا.

لكن نؤكد قضية أخرى أن الإنسان ليس مسيطراً على هذا الكون ولا يعيش وحده، تحكمه نواميس وهذه النواميس قد يكون مقهوراً عليها كالحر والبرد، والصحة والمرض، والحياة والموت، هذه قضايا لا يستطيع الإنسان الفكاك منها ومع ذلك هو غير مسئول عنها، ولن يحاسبه الله عن طلوع الشمس ولا غروبها، ولا يحاسبه على حياته أو موته أو صحته أو مرضه.

فالمسائل المختصة بالكونيات وفي إطار علم الله وقدرة الله لا نكلف بها ولا نحاسب عليها، أما في إطار التكليف الشرعي افعل ولا تفعل فنحن مكلفون ومحاسبون وكل إنسان وما اختار لنفسه، {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}.

اعتبروه معبرا عن المسألة كاملة من شتى جوانبها، وليس الأمر كما يظنون.

ونرد على هؤلاء الدعاة فنقول:

إن قضية العلم والانكشاف التام مسألة مسلمة تماما، ولا يماري فيها أحد، ومسألة نفي الجبر أو القهر عن العباد هي أيضا مسألة مسلمة، فإن البشر جميعا يدركون ويلمسون أنهم عندما يهمون بفعل شيء فلا يوجد من يحول بينهم وبين هذا الفعل، بل هم الذين يتحكمون في كامل أجهزة أجسادهم، فلا جبر ولا قهر، وبالتالي فهذه القضية ليست محل نزاع.

ولكن ربط هؤلاء الدعاة بين مسألة العلم والانكشاف، ومسألة التخيير والتسيير والحساب، أو القدر، مسألة لا نسلم بها مطلقا، ولا نؤمن بها، على النحو الذي عرضوه.

وقد سلك نفس المسلك، بعض المريدين حيث نقلوا عن فطاحل العلماء في العصر الحديث، ومنهم **فضيلة الشيخ الشعراوي**، نابغة المفسرين في عصره ـ رحمه الله ـ ونقلوا أيضا عن العالم الرباني العلامة **الشيخ الألباني** ـ رحمه الله ـ وهو القامة السامقة في علم الحديث، وذلك عندما أراد تقريب المسألة للعامة، الذين لا دراية لهم بعلوم الشريعة، فاستدل بنفس المثال"[1]، وأراد فقط من هذا

[1] كلام **الشيخ الألباني**: (انتهينا أن القدر ليس غصباً وليس رغماً وإنما هو كما شرحنا آنفاً، والآن نضرب مثلاً توضيحيّاً: مدير مدرسة ــ وأنت تتكلم عن الطلاب ــ كيس فطن، قائم بإشرافه الكامل على تلامذته، وعاش معهم بضع سنين، هو يستطيع أن يقول فلان التلميذ أو الطالب سينجح في آخر السنة، وفعلاً بينجح، لماذا؟ لأنه عرف من إشرافه عليهم وممارسته هو وإلى آخره إنه

المثال بيان مسألة العلم الكاشف، حيث صرح في غير هذا الموضع بما يتفق مع البحث، وإن كان ليس مطابقا له، حيث قال: (إذن كل من المذهبين: المعتزلة والجبرية باطل والحق بينهما)، وهذا قطعا قول يتفق مع البحث، وما نقوم به هو تنزيل هذه المعاني العقلية على وقائع الحياة العملية.

ونظرا لأن الشيخ الإمام قد تربى على يديه مَنْ أصبح من أهم رموز الدعوة فيما بعد، وأن هؤلاء قد غفلوا عن أقوال الشيخ الإمام التي تتعلق بنفس المسألة، ولكنها في مواطن متفرقة، والتي تنضبط بها المسألة.

ولهذا فقد استدلوا أيضا بأقوال الإمام بصورة مجتزأة فوقعوا في أخطاء فادحة، ومن ذلك ما نقلوه في هذا المثال حين يقول: (الإنسان فيما كان مخيراً فيه هو مأجور أو مأزور، وفيما وقع منه

هذا كيس فطن مجتهد ما هو كسل ووإلى آخره، فبيعطي النتيجة قبل أن تظهر، وهذا إنسان عاجز بَشَر، وربنا عز وجل الذي علمه ذاتي وليس كسبيًّا كعلمنا نحن، فهو بسابق علمه كما شرحت آنفاً يعلم فلان حينما يأتيه الأمر بالإيمان يؤمن أم يكفر، وكَتَبَهُ مؤمناً إن سبق في علمه أنه سيؤمن، وكَتَبَهُ كافراً إن سبق في علمه أنه يكفر، ... فإذاً كل شيء مسجل على الإنسان لا بد أن يقع كما هو مسجل، لكن نحن درسنا موضوع التسجيل أنه لن يرغم على هذا التسجيل صاحبه، وإنما سجل عليه مسبقاً ما سيفعله، كهذا التلميذ الذي حكم أستاذه بأنه سينجح، وبالمقابل فلان سيسقط؛ لأنه يلهو ليلاً نهاراً ليس سينجح = = فهو ساقط، وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون، فهذا يجب أن يكون الجواب)، موسوعة الألباني في العقيدة (٩/ ٥٩٣).

رغم أنفه فهو غير مسؤول)[1]، واستدلالهم هذا ليس موافقا لمجموع ما قاله الشيخ يرحمه الله.

ونرد عليهم فنقول: إن الشق الأول المتعلق بالتخيير لا يسلم لهم الإطلاق فيه، لأنه يقصر الحساب على ما كان الإنسان مخيرا فيه، بينما ما ورد وبيناه في البحث يؤكد أن الحساب ليس قاصرا على موطن التخيير، حيث إن الجانب الأغلب من أفعال الإنسان ليس مخيرا فيه تخييرا تاما، كما سيتضح في ثنايا البحث، بإذن الله تعالى.

وقد رَكِبتُ مركبا صعبا بتناولي هذا البحث، ولكن لم يفارقني الرجاء والأمل، أن يُتم الله هذا البحث، على خير ما يحب سبحانه، وذلك نظرا لأن هذا القول بالتخيير التام، فيما يحاسب عليه الإنسان، يعتبر - من وجهة نظري - طعنا في العقيدة، وتعطيلا للقدر، ويغلب على الظن أن هؤلاء الدعاة الذين تربَوْا على أيدي هؤلاء الأئمة الأعلام، قد وقعوا في هذا الخطأ، ليس بسبب عدم العلم بالصواب في المسألة، بل بسبب التناول السريع للمسألة، بغية تقريبها لمن لم يسبق لهم الدراسة الشرعية، والله أعلى وأعلم.

ونظرا لأنني أعتقد أن هذه المسألة لا يجوز - بحال من الأحوال - تبسيطها بصورة مجتزأه مطلقا، حيث تؤدي إلى نقيض الهدف المراد، لهذا حرصت على التنبيه على هذا الأمر الجلل.

وبخاصة أنه عند الرجوع إلى أقوال مشاهير الأمة، من العلماء، السابقين، رحمة الله عليهم، نجد الصورة كاملة تماما، وغير مجتزأة إطلاقا، ولكن يصعب فهم المعنى المراد من أقوالهم إلا

[1] موسوعة الألباني في العقيدة (٩/ ٦٥٣).

بالمشقة والعناء، نظرا للطابع الفلسفي في صياغتها، كما في قول **الإمام ابن القيم**، أثناء حديثه في "فَصْلٌ لِطَائِفُ أَسْرَارِ التَّوْبَة" حيث يقول: (فمِنْ بَعْضِهَا: مَا ذَكَرَهُ الشَّيْخُ"[1] أَنْ يَعْرِفَ الْعَبْدُ عِزَّتَهُ فِي قَضَائِهِ، وَهُوَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ الْعَزِيزُ الَّذِي يَقْضِي بِمَا يَشَاءُ، وَأَنَّهُ لِكَمَالِ عِزَّتِهِ حَكَمَ عَلَى الْعَبْدِ وَقَضَى عَلَيْهِ، بِأَنْ قَلَّبَ قَلْبَهُ وَصَرَّفَ إِرَادَتَهُ عَلَى مَا يَشَاءُ، وَحَالَ بَيْنَ الْعَبْدِ وَقَلْبِهِ، وَجَعَلَهُ مُرِيدًا شَائِيًا لِمَا شَاءَ مِنْهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، وَهَذَا مِنْ كَمَالِ الْعِزَّةِ، إِذْ لَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا اللَّهُ، وَغَايَةُ الْمَخْلُوقِ أَنْ يَتَصَرَّفَ فِي بَدَنِكَ وَظَاهِرِكَ، وَأَمَّا جَعْلُكَ مُرِيدًا شَائِيًا لِمَا يَشَاؤُهُ مِنْكَ وَيُرِيدُهُ فَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا ذُو الْعِزَّةِ الْبَاهِرَةِ)[2].

فقوله: (وجعله مريدا شائيا لما شاء منه العزيز الحكيم) يقتضي تدخل القدرة الإلهية في توجيه إرادة العباد، بخلق الدوافع في النفس، وهي التي تقوم بتوجيه العبد إلى الفعل، مما يدل على أن الفعل لم يقع عن إرادة مطلقة واختيار تام، والله أعلى وأعلم.

---

[1] يقصد الإمام الهروي "**الْحَافِظ الْهَرَوِيّ** عبد الله بن مُحَمَّد بن عَليّ بن مُحَمَّد بن مت شيخ الْإِسْلَام أَبُو إِسْمَاعِيل الْأنْصَارِيّ الْهَرَوِيّ الْحَافِظ الْعَارِف هُوَ من ولد أبي أَيُّوب الْأنْصَارِيّ ﷺ كَانَ بكر الزَّمَان فِي فنون الْفَضَائِل وأنواع المحاسن صنف كتاب الْفَارُوق فِي الصِّفَات وَكتاب ذمّ الْكَلَام وَكتاب الْأَرْبَعين حَدِيثا وَله فِي التصوف كتاب منَازِل السائرين، وقصيدة فِي مذْهبه، ومناقب أَحْمد بن حَنْبَل ﷺ وَتُوفِّي فِي ذِي الْحجَّة سنة إِحْدَى وَثَمَانِينَ وَأَرْبَعمِائَة"، الوافي بالوفيات (١٧/ ٣٠٧).

[2] مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/ ٢٢٢).

ومن أجمل ما قاله الإمام ابن القيم: (فَإِذَا عَرَفَ العَبْدُ عِزَّ سَيِّدِهِ وَلَاحَظَهُ بِقَلْبِهِ، وَتَمَكَّنَ شُهُودُهُ مِنْهُ، كَانَ الِاشْتِغَالُ بِهِ عَنْ ذُلِّ المَعْصِيَةِ أَوْلَى بِهِ وَأَنْفَعَ لَهُ، لِأَنَّهُ يَصِيرُ مَعَ اللَّهِ لَا مَعَ نَفْسِهِ.

وَمِنْ مَعْرِفَةِ عِزَّتِهِ فِي قَضَائِهِ: أَنْ يَعْرِفَ أَنَّهُ مُدَبَّرٌ مَقْهُورٌ، نَاصِيَتُهُ بِيَدِ غَيْرِهِ، لَا عِصْمَةَ لَهُ إِلَّا بِعِصْمَتِهِ، وَلَا تَوْفِيقَ لَهُ إِلَّا بِمَعُونَتِهِ، فَهُوَ ذَلِيلٌ حَقِيرٌ، فِي قَبْضَةِ عَزِيزٍ حَمِيدٍ) وهكذا يتعلق قلب العبد بربه دون سواه، لأنه لا حيلة له في شيء يريده إلا بمشيئة الله، ولا وسيلة للجمع بينهما إلا بالتذلل في العبادة والإخلاص في الدعاء.

ثم يقول: (وَمِنْ شُهُودِ عِزَّتِهِ أَيْضًا فِي قَضَائِهِ: أَنْ يَشْهَدَ أَنَّ الكَمَالَ وَالحَمْدَ، وَالغَنَاءَ التَّامَّ، وَالعِزَّةَ كُلَّهَا لِلَّهِ، وَأَنَّ العَبْدَ نَفْسَهُ أَوْلَى بِالتَّقْصِيرِ وَالذَّمِّ، وَالعَيْبِ وَالظُّلْمِ وَالحَاجَةِ، وَكُلَّمَا ازْدَادَ شُهُودُهُ لِذُلِّهِ وَنَقْصِهِ وَعَيْبِهِ وَفَقْرِهِ، ازْدَادَ شُهُودُهُ لِعِزَّةِ اللَّهِ وَكَمَالِهِ، وَحَمْدِهِ وَغِنَاهُ، وَكَذَلِكَ بِالعَكْسِ، فَنَقْصُ الذَّنْبِ وَذِلَّتُهُ يُطْلِعُهُ عَلَى مَشْهَدِ العِزَّةِ.

وَمِنْهَا: أَنَّ العَبْدَ لَا يُرِيدُ مَعْصِيَةَ مَوْلَاهُ مِنْ حَيْثُ هِيَ مَعْصِيَةٌ، فَإِذَا شَهِدَ جَرَيَانَ الحُكْمِ، وَجَعْلَهُ فَاعِلًا لِمَا هُوَ غَيْرُ مُخْتَارٍ لَهُ مُرِيدٌ بِإِرَادَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَاخْتِيَارِهِ، فَكَأَنَّهُ مُخْتَارٌ غَيْرُ مُخْتَارٍ، مُرِيدٌ غَيْرُ مُرِيدٍ، شَاءٍ غَيْرُ شَاءٍ، فَهَذَا يَشْهَدُ عِزَّةَ اللَّهِ وَعَظَمَتَهُ، وَكَمَالَ قُدْرَتِهِ)[1].

[1] المرجع السابق.

وكلام **الإمام ابن القيم** هو ما تدور حوله ـ تقريبا ـ هذه الدراسة، فما نقوله لا يخرج عن قوله رحمه اللّه، وهدفنا هو بيان القول الصواب، وجبر الخلل، الذي يفهم من كلام الدعاة المتأخرين.

ونستعين باللّه تعالى أن يتمها وييسرها على خير وجه، كما يحب سبحانه ويرضى، إنه سبحانه ولي التوفيق، والهداية والرشاد.

مكامن الحكمة في مجريات القدر

وقبل البداية أشير إلى أمر غاية في الأهمية، ألا وهو: إن القول بأن الإنسان مخير في كل ما يحاسب عليه، وكما ذهب إليه أهل العلم المتأخرون، وأن الأقدار إنما تخضع لعلم الله الذي لا يتخلف، ولا يتبدل، وكما يقولون العلم الكاشف "أي العلم وحده دون تدخل القدرة الإلهية".

هذا القول يؤدي بالضرورة إلى فقدان الطريق للوصول إلى حكمة الله البالغة، والتي تحملها أقداره سبحانه لا محالة، وليس هذا وحسب، بل كما أشرنا إن هذ القول طعن في العقيدة وتعطيل للقدر، والعياذ بالله.

ونبين هذا المعنى باستحضار قصة التابعي الجليل سعيد بن جبير رضي الله عنه، مع الحجاج بن يوسف الثقفي، عليه من الله ما يستحق.

يقول الإمام البَلَاذري: (... أن الحجاج أرسل إلى سعيد بْن جبير"[١] فأتي بِهِ فلما دخل عليْهِ قالَ: أنت شقي بْن كسير؟، قالَ: أنا

[١] التدوين في أخبار قزوين (١/ ١٠٠) سعيد بْن جبير بْن هشام أبو عَبْد اللَّه من مشاهير علماء التابعين، كثير العلم والرواية، سمع عباد اللَّه ابن عمر وابن عباس، وابن الزبير وابن عمرو وابن مغفل وأبا هريرة، وأبا موسى الأشعري وعدي بْن حاتم، يروى عن ابن مهدي أن سفيان كان يقدم سعدا على إبراهيم في العلم، وعن خصيف بْن عَبْد الرحمن قَالَ: كان أعلمهم بالطلاق سعيد بْن = = المسيب، وبالحج عطاء وبالحلال والحرام طاؤس وبالتفسير مجاهد وأجمعهم لذلك كله سعيد بْن جبير.)، **ويقول الإمام الأصبهاني:** (وَعَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: لَقَدْ مَاتَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَمَا عَلَى الْأَرْضِ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ مُحْتَاجٌ

سعيد بن جبير، قالَ: أنت شقي بن كسير، قالَ: أمي كانت أعلم باسمي منك، فقَالَ لصاحب عذابه: أسمعني صوته فعذبه صاحب العذاب فلم يسمع لهُ الحجاج صوتا فقَالَ لهُ: ألم آمرك أن تصب عَليْهِ العذاب حَتى تسمعني صوته؟ قالَ: قد عذبته بألوان العذاب فلم أر أصبر منه قط، فدعا بهِ الحجاج فقَالَ: أو تصبر عَلى عذابي؟، قالَ: إن من ذكر عذاب الله هان عَليْهِ عذابك، فقَالَ: لألحقنك بأمك الهاوية، فقَالَ سعيد: لو علمت أن ذَلِكَ إليك لاتخذتك إلها دون الله"[1]، ثمَّ أمر بهِ أن يقتل فتبسم، فقَالَ لهُ: ألم

إِلَى عِلْمِهِ، وَقَالَ أَشْعَثُ بْنُ إِسْحَاقَ: كَانَ يُقَالَ: سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ جَهْبَذُ الْعُلَمَاءِ).
سير السلف الصالحين لإسماعيل بن محمد الأصبهاني (ص: ٧٨٢).

[1] يقول **الإمام ابن الجوزي**: (فَقَالَ أَمِّي سَمَّتْنِي قَالَ شَقِيتَ قَالَ الْغَيْبُ يَعْلَمُهُ غَيْرُكَ قَالَ الْحَجَّاجُ أَمَا وَاللَّهِ لأُبْدِلَنَّكَ مِنْ دُنْيَاكَ نَارًا تَلَظَّى قَالَ لَوْ عَلِمْتُ أَنَّ ذَلِكَ إِلَيْكَ مَا اتَّخَذْتُ إِلَهًا غَيْرَكَ فَسَأَلَهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابَهُ إِلَى أَنْ قَالَ بُتَّ فِي عِلْمِكَ قَالَ إِذًا أَسُوءُكَ وَلا أَسُرُّكَ قَالَ بُتَّ قَالَ نَعَمْ ظَهَرَ مِنْكَ جَوْرٌ فِي حَدِّ اللَّهِ وَجُرْأَةٌ عَلَى مَعَاصِيهِ بِقَتْلِكَ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ قَالَ وَاللَّهِ لأُقَطِّعَنَّكَ قِطَعًا قَالَ إِذًا تُفْسِدُ عَلَيَّ دُنْيَايَ وَأُفْسِدُ عَلَيْكَ آخِرَتَكَ وَالْقِصَاصُ أَمَامَكَ قَالَ الْوَيْلُ لَكَ قَالَ الْوَيْلُ لِمَنْ زُحْزِحَ عَنِ الْجَنَّةِ وَأُدْخِلَ النَّارَ قَالَ اذْهَبُوا بِهِ فَاضْرِبُوا عُنُقَهُ قَالَ سَعِيدٌ فَإِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ لِيُقْتَلَ تَبَسَّمَ فَقَالَ الْحَجَّاجُ مِمَّ ضَحِكْتَ قَالَ مِنْ جُرْأَتِكَ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَقَالَ أَضْجِعُوهُ لِلذَّبْحِ فَأُضْجِعَ فَقَالَ {وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ} فَقَالَ اقْلِبُوا ظَهْرَهُ إِلَى الْقِبْلَةِ فَقَرَأَ سَعِيدٌ {فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله} فَقَالَ كُبُّوهُ عَلَى وَجْهِهِ فَقَرَأَ سَعِيدٌ {مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نخرجكم تَارَةً أُخْرَى} فَذُبِحَ فَبَلَغَ ذَلِكَ الْحَسَنَ بْنَ أَبِي الْحَسَنِ الْبَصْرِيَّ فَقَالَ اللَّهُمَّ

تقل لي أنك لم تضحك قط؟، قال: ضحكت للتعجب من جرأتك على الله واغترارك بحلمه، وانحرف إلى القبلة فعدل به عنها فقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ [البَقَرَةِ من الآيه: ١١٥] [١]، **وقال سعيد**: اللهم لا تمهله، فقدم فضربت عنقه، ويقال ذبح ذبحا، فأخذ الحجاج الزمهرير، وقرح جوفه حتى كانت القديدة تدلى في حلقه ثمَّ

يَا قَاصِمَ الْجَبَابِرَةِ اقْصِمِ الْحَجَّاجَ فَمَا بَقِيَ إلا ثَلاثًا حَتَّى وَقَعَ الدُّودُ فِي جَوْفِهِ فَمَاتَ). انظر: الثبات عند الممات، لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ) (ص: ١٣٩)، وانظر أيضا: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، لنفس المؤلف (٧/ ٦).

[١] (يقول **الإمام ابن عبد البر**: (كَانَ الْحَجَّاجُ عِنْدَ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ أَهْلًا أَنْ لَا يُرْوَى عَنْهُ وَلَا يُؤْثَرُ حَدِيثُهُ وَلَا يُذْكَرُ بِخَيْرٍ لِسُوءِ سِرِّهِ وَإِفْرَاطِهِ فِي الظُّلْمِ وَمِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ طَائِفَةٌ تُكَفِّرُهُ وَقَدْ ذَكَرْنَا أَخْبَارَهُمْ فِيهِ بِذَلِكَ فِي بَابٍ مُفْرَدٍ لَهُ وَلِيَ الْحِجَازَ ثَلَاثَ سِنِينَ وَوَلِيَ الْعِرَاقَ عِشْرِينَ سَنَةً قَدِمَ عَلَيْهِمْ سَنَةَ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ وَمَاتَ سَنَةَ خَمْسٍ وَتِسْعِينَ رَوَى سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي حَفْصَةَ قَالَ لَمَّا أَتَى الْحَجَّاجُ بِسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ إِنَّهُ شَقِيُّ بْنُ كَسِيرٍ فَقَالَ مَا أَنَا إِلَّا سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ بِذَلِكَ سَمَّانِي أَبَوَايَ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِذًا أَكُونُ كَمَا سَمَّانِي أَبِي سَعِيدًا وَقَالَ دَعُونِي أُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ فَقَالَ الْحَجَّاجُ وَجِّهُوهُ إِلَى قِبْلَةِ النَّصَارَى فَقَالَ سَعِيدٌ {فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ} قَالَ فَضَرَبَ عُنُقَهُ، قَالَ سُفْيَانُ فَلَمْ يَقْتُلْ بَعْدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا، انظر: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠هـ) (٤/ ٢٩٠)، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي (المتوفى: ٤٦٣هـ) (١٠/ ٦)

تجبذ فيخرج فيها الدود وهو يصيح: مالي ولسعيد بْن جبير، فلم يزل كذلك حَتى مات)[1].

وقفة وتأمل

ونبدأ البيان بالسؤال، هل تعتبر وقائع هذه القصة من الأعمال يحاسب عليها الإنسان أم لا؟

والجواب عن ذلك:

وكما فصله أهل العلم المتأخرون، أن أفعال الإنسان على ثلاثة أقسام:

واقع عليه: كالظلم على السبيل المثال، فالمظلوم فيه مكره لا طاقة له على دفعه.

وواقع فيه: كالابتلاء بالمرض، والعجز، وما شابه ذلك، فلا حيلة له في منعه.

وواقع منه: وهو كل ما يفعله بغير إجبار من الغير، أو اضطرار أكرهه على هذا الفعل، وهذا القسم هو الذي قالوا عنه إنه مخير فيه تخييرا تاما، لأنه هو محل الثواب والعقاب.

ومن هنا: نجد أن فعل الحجاج يدخل ضمن القسم الثالث، والذي يعتبرونه مخيرا فيه تخييرا تاما، فهل هذا صواب؟

[1] أنساب الأشراف للبلاذري لأحمد بن يحيى بن جابر بن داود البَلَاذُري (المتوفى: ٢٧٩هـ) (٧/ ٣٦٩).

الجواب:

حتى يكون الجواب وافيا لابد أن ننظر في نفس الواقعة إلى فعل سيدنا سعيد بن جبير رضي الله عنه حيث قد وقع الظلم عليه، ولم يقع منه، فهو بحسب التقسيم غير مختار فيما وقع عليه من الظلم.

وبالنظر إلى هذه المسألة من خلال أقوال المتأخرين نستطيع أن نقول، إنهم يعتبرون أن مقتل سيدنا سعيد بن جبير رضي الله عنه على يد الحجاج بن يوسف الثقفي، إنما كان قدرا، بناء على علم اللّه تعالى الذي لا يتخلف ولا يتبدل أبدا، ولا دخل للقدرة الإلهية في ذلك.

ونؤكد بيقين أن هذا القول طعن في العقيدة وتعطيل للقدر، وتضييع لحكمة اللّه تعالى في قضائه وقدره، والعياذ باللّه.

ونبدأ بالنقطة الأولى :

هل كان الحجاج مخيرا تخييرا تاما في قتل سيدنا سعيد رضي الله عنه؟

أن القول بذلك معناه أن آجال الخلق معلقة بإرادة البشر، وأن مشيئة الخالق تابعة لمشيئة العباد، وكل هذا من أبطل الباطل، ولا يقول به عاقل، ونؤكد أن أهل العلم الذين انزلقوا إلى هذا القول ما أرادوا ذلك أبدا، ولكنهم تساهلوا في التمثيل، فسقطوا في المحذور، واللّه أعلى وأعلم.

وليس معنى ذلك أن الحجاج كان مجبرا أو مقهورا على القتل، بل إن الأمر يقتضي بالضرورة تدخل القدرة الإلهية، إما بترك الاختيار التام للحجاج لتقوم عليه الحجة بين يدي الخالق سبحانه، وهذا يقتضي أن تُخلق الدوافع وتتهيأ الأسباب، المحيطة بسيدنا سعيد رضي الله عنه، فيمتنع عن الاختباء، ويتمكن منه جند الحجاج، ليقتادوه إلى الحجاج، وليتم مراد اللّه تعالى، كما

قضى وقدر، وفق مشيئته سبحانه، وذلك لا يكون بالعلم وحده، بل لابد من تدخل القدرة الإلهية، والله أعلى وأعلم، وهذا أحد الأوجه.

والوجه الثاني: إما بتسخير الحجاج للقتل، ولا يكون ذلك أبدا إلا وقد قامت الحجة عليه قبل ذلك، فاستحل القتل العمد العدوان، وبعد قيام الحجة عليه أستعمله الله بالتسخير، لأداء مراده جل شأنه، والذي لا يتأتى إلا وقد ختم الله على قلب الحجاج وسمعه، وجعل على بصره غشاوة، وتمكنت شهوة القتل من قلبه، وكل هذا بالقدرة الإلهية، وليس بالعلم وحده، وذلك ليضاعف له العذاب يوم القيامة، والعياذ بالله.
فلما اقتيد إليه سيدنا سعيد قتله، ولم يعف عنه.

أما الوجه الثالث: فيكون بالتسخير والتسيير للطرفين معا، وكل ذلك لا يعلمه إلا الخالق سبحانه، ولحكمة بالغة، لو اجتهد الناس في التعرف عليها، لازدادوا إيمانا، وتمكن اليقين بالله من قلوبهم.

أما النقطة الثانية: فتتمثل في كيف يكون القول بالتخيير التام تعطيلا للقدر، ونزعا لنصوص الشرع من معانيها، والعياذ بالله.

وتقريب هذه المسألة كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ ٦٧﴾ [المَائـِدَة: ٦٧].

ولا يمكن أن يعصم الله رسوله ﷺ ويمنعه من الناس، إلا بتدخل القدرة الإلهية، ولو كانت الأقدار إنما كتبت بناء على ما كشفه العلم وفقط، لكان معنى ذلك أن العصمة مرهونة بتصرفات المتربصين برسول الله ﷺ، وليست قائمة، ومؤكدة

حتى ولو اجتمع عليه أهل الأرض جميعا، فما كان الله ليبتعثه ﷺ برسالته، ثم يتركه لا حول له ولا قوة ﷺ في مواجهة أهل الشرك والضلال، إن مثل هذا الكلام ضلال وبهتان وفقدان للحق والصواب، ولم يقل به أهل العلم بل وقعوا فيه دون قصد منهم، لأنه ما يترتب حتما على القول بتوقف أفعال الإنسان التي يحاسب عليها على التخيير التام، وهذا ما نقول ببطلانه.

أما تعطيل النصوص ونزعها من معانيها: فلأن القول بالتخيير التام يقتضي أن من أراد السوء بالرسول ﷺ سيترك لمراده، ويترك له الخيار، لأنه سوف يحاسب على فعله، كما يدعون، وهكذا تخلو الآية من المعنى، والعياذ بالله تعالى من مثل هذا القول.

أما النقطة الثالثة : القول بأن المظلوم كان فريسة سائغة لقاتله بموجب التخيير التام، فيما يحاسب عليه القاتل، قول مؤداه فساد الحياة الدنيا، لأن وجود الظلم أصل من أصول الخلق، ويشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ۝٩١﴾ [المَائِدَة : ٩١]، فوظيفة الشيطان هي إشعال العداوات، ونشر الظلم بكل صوره، وقد أمهله الله إلى قيام الساعة.

وعلى هذا لو ترك الناس وما أرادوا لفسدت الأرض، ولتعطلت الغاية من وجود الحياة الدنيا، لأنها لن تكون مرهونة بمشيئة الإله بل بمشيئة الأفراد، ليأكل قويهم ضعيفهم، ويضيع الأمن وينعدم الملاذ، والعياذ بالله، وصدق الحق تبارك وتعالى إذ يقول، ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٢٢﴾ [الأَنبِيَاء : ٢٢]، وكذلك: يصبح الدعاء عديم الجدوى، لأن دعاء المظلوم لو لم يتعلق بالقدرة الإلهية، التي تتدخل في كف

يدي الظالم، لن ينفع الدعاء، وكل هذا باطل ولا يمكن أن يقال بحال من الأحوال، واللّه أعلى وأعلم.

مكامن الحكمة في هذه القصة

إذا آمنا أن الأقدار إنما تجري بقدرة الله تعالى وعلمه جميعا، وليس بالعلم وحده، أيقنا أن مقتل سيدنا سعيد بن جبير على يدي الحجاج إنما وقع لحكمة يريدها الله تعالى، تماما كما كان ما أصاب المسلمين على أيدي المشركين يوم أحد، لحكمة بالغة، وتعظيما لطاعة الله ورسوله ﷺ، ولهذا دارت الدائرة على المسلمين، بعد أن ترك الرماة مكانهم، وخالفوا تعاليم الرسول ﷺ، الخاصة بهذه الواقعة، ولو شاء الله ما وقع شيء من ذلك أبدا.

ولعل الحكمة من ذلك أن يدرك المسلمون أن وجود الحجاج وأمثاله في موقع التحكم في رقاب الناس، لا يُقبل ولا يليق بأمة الإسلام أبدا، مهما قيل عن عظم ما تم علي يديه من فتوحات إسلامية، فكل هذه الفتوحات لو كان ثمنها استحلال دم أمرئ مسلم بغير حق، فلا قيمة لها، عند الله، ولعل هول الفجيعة - أي فجيعة - هو الذي يبقيها ظاهرة في أذهان الناس، على مر السنين والعصور، حتى يتعلم أهل الإسلام أن إعلاء شرع الله تعالى، هو أصل الرسالة، وليس اتساع رقعة الدولة الإسلامية على حساب الرسالة، والله أعلى وأعلم.

ومن مكامن الحكمة كذلك:

أن يرى أهل الإيمان ثبات أهل الحق على دينهم، مهما بلغ ما ألمَّ بهم من جسامة الخطوب، ويتمثل ذلك في مواقف سيدنا سعيد بن جبير رضي الله عنه وكيف واجه هذا الطاغية السفاح باليقين في الله، والقوة في الصدع بالحق، إيمانا بأن كل ما يجري في الكون إنما هو بقدر اللّه تعالى، وليس بمراد البشر، مهما أظهروا من تجبرٍ وتمادٍ في الضلال، والعياذ باللّه.

ومن ذلك أيضا :

صدق التوكل على اللّه تعالى في كل الأمور، دقها وجليلها، إيمانا بأن الإنسان لا يملك من أمر نفسه شيئا، إلا بمشيئة اللّه تعالى، حتى الهداية، والضلال، والتوفيق والغواية.

وهكذا هيأ الخالق سبحانه الأسباب، بما نسميه التسيير، وفق مشيئته سبحانه، ليرفع شأن سيدنا سعيد رضي الله عنه بين الناس، ويطيب ذكره، فكان القدر في صورة سلب الرغبة في الاختباء، وتمكن الجند منه، والطمس على قلب الحجاج، لينال بذلك سيدنا سعيد أعلى مراتب الشهادة في سبيل اللّه، بتوفيق اللّه تعالى وهدايته، واللّه أعلى وأعلم.

وسوف نؤكد على هذه المعاني في وقائع عدة في ظلال آيات القرآن الحكيم، وسنة رسوله ﷺ المطهرة، واللّه من وراء القصد.

من ثمرات حديث الاستهام على السفينة

سوف نتعرض للبيان المراد - بإذن الله تعالى - في ظلال هذا الحديث الشريف - حديث السفينة - حيث نطوف هنا وهناك، بين رياحين عطائه، وجوامع حكمته، وعجائب بلاغته، حيث قام ركاب السفينة بالاستهام - أي إجراء القرعة - وبناء على عملية الاقتراع انقسموا بين العلو والسفل.

ورأينا كيف أن تعامل الشراح مع النص قد اقتصر على الناحية الخبرية فقط، فأخلوا بالمعنى المقصود من لفظ الاستهام، وحصروه في مشروعية القرعة وأحكامها، بينما تناول اللفظ في السياق القصصي، الذي يستوجب النظر واستحضار كل المعاني المتعلقة باللفظ، في سياق التشبيه في المثال المضروب، يقودنا إلى هذه المسألة، التي تعتبر من أهم المسائل العقدية، التي لا يخلو من البحث فيها عصر ولا مكان، نظرا لتعلقها التام بكل أفعال الإنسان وتصرفاته.

هذه هي مسألة أفعال الإنسان، وموقعها من التسيير والتخيير، وهي ليست بالمسألة الهينة اليسيرة، كما قد تبدو في ظاهرها، وكما ذهب بعض أهل العلم إلى ذلك، حيث أثبتوا للإنسان الاختيار التام، في كل ما يحاسبه الله عليه من أفعال، بمعنى أن تخييره فيها مطلق، ولا قيد عليه، وحجتهم في هذا القول أن الخالق سبحانه وتعالى عدل، لا يظلم أحدا، فلا يحاسبهم على شيء إلا وهم قد فعلوه بكامل اخياراتهم وإرادتهم.

وهذا القول هو ما تعلمناه صغارا وسمعناه - تقريبا - من كل أهل العلم، والدعاة الذين تناولوا هذا الموضوع.

منهجي في هذا البحث

اعتمدت في هذا البحث على عدة ركائز:

الركيزة الأولى: الاستدلال بعصور الإجماع المعتبرة

ولذلك لم أستدل على مسألة مما يتعلق بالبحث إلا من خلال النقل عن الأئمة المعتبرين في عصري الإجماع:

الأول: عصر الصحابة رضي الله عنهم وهو العصر الأول للإجماع المتيقن، والمعتبر.

الثاني: عصر الأئمة رحمة الله عليهم وهو العصر الثاني للإجماع المعتبر.

وأستطيع أن أقول إن نهاية عصر الإجماع الثاني ـ تقريبا ـ ما بين ٣٥٠ هـ : ٤٠٠ هـ، ولهذا لم أستدل على أصل أي مسألة بعد هذا التاريخ، أما أي نقل بعده فكان للتوضيح ومزيد بيان، وليس تأصيلا للمسألة.

الركيزة الثانية: الاستطراد والتكرار

وذلك يعود إلى صعوبة تبسيط مسائل القدر، ولهذا كان التكرار والاستطراد بهدف توضيح المعاني المرادة، قدر الاستطاعة، مع التأكيد على أن التكرار، كان بالاستدلال بالأدلة المتنوعة، وليس بتكرار نفس الأدلة، عسى أن يتأكد المعنى، بغير لبس أو غموض.

ولست أدعي أنني وفقت تماما في التعبير عن مرادي على وجه واضح جلي، في كل ما أحببت أن أوضحه، ولهذا كان التكرار، والإكثار من الأدلة، محاولة مني لسد هذا الخلل، قدر استطاعتي، والله من وراء القصد.

ولعل مما يعذرني في ذلك أن أوجه التكرار التي اضطررت إليها، ليست من قبيل تكرار المطابقة، بل من قبيل تكرار المعنى، بصور مختلفة ومتعددة، وليس من قبيل التكرار الذي تنعدم فائدته، بل هو من قبيل ترسيخ المعاني وتأكيدها، ولن يعدم القارئ الأجر والثواب، بإذن الله تعالى، بما يستعرضه من آيات القرآن الحكيم، وأوجه تفسيرها، ودقة المعاني التي نبحث عنها، وكذلك الحال مع نصوص السنة المطهرة.

الركيزة الثالثة: الإكثار من الأدلة

والعلة من ذلك أن كل دليل، مهما يبدو وجه التكرار فيه، إلا أنه يضيف فائدة زائدة، عن أي دليل آخر، مهما كان قدر هذه الزيادة صغيرا، إلا أنه من الناحية الشرعية يعتبر من الأهمية بمكان كبير.

كذلك فإن الإكثار من الأدلة، ينفي أي شبهة في تأويل المعنى المراد، تأويلا يخرج به عن المضمون الذي نؤكده ونهدف إليه، ولهذا ونظرا للتفاوت في قناعات الناس، فقد يقوم دليل بالنسبة لبعض المهتمين بالبحث بالغرض المطلوب، بينما لا يقوم بنفس الغرض بالنسبة لبعض آخر، بل يقوم بالبيان دليل غير هذا الدليل الأول، ولهذا أكثرت من الأدلة وأوجه الاستدلال، تحقيقا لهذا الغرض - بإذن اللّه.

ولما كانت الأدلة هي نصوص الشرع، فقد أسعدني كثيرا، أن أفطن إلى واحد من وجوه الإعجاز البياني الخالد في كتاب اللّه تعالى، والذي لم أفطن إليه من قبل، وقد انبثق شعاع هذا الوجه البياني، وتلألأ بالنور عند الاستدلال بهذه النصوص على مسألة القضاء والقدر، والذي استوجب الغوص في معاني النص، وسبر أغوارها، ومكامن الحسن فيها، بغية بيان وجه الاستدلال لهذه المسألة الصعبة، وهكذا تتضح من المعاني التي يتضمنها النص، ما لم نكن نفطن إليه من قبل، على الرغم من أن كثيرا من هذه النصوص قد سبق الاطلاع على تفاسيرها، ولكن سعة اللفظ القرآني العظيم تؤكد أنه لا يمكن الإحاطة التامة بكل معاني البيان فيه، بل معين عطائه لا ينضب، وهذا وجه من أوجه

الإعجاز التي ينفرد بها كتاب اللّه تعالى، وكيف لا وهو كلام الخالق سبحانه، ولهذا قيل: "إن القرآن يأتي بكرا يوم القيامة كأنه لم يمس"، وليس أدل على ذلك من استمرار الجهود المبذولة في تفسير القرآن الكريم، على الرغم من كثرة التفاسير التي حوتها المكتبة الإسلامية، ومع هذا يأتي المفسرون يوما بعد يوم بالجديد من أوجه البيان والإعجاز اللفظي، دون تكلف أو ادعاء، وكيف لا والقرآن الكريم هو حجة اللّه على العباد منذ أن بعث اللّه به رسوله ﷺ وحتى قيام الساعة.

وما من من شك في أن هذا الجديد من المعاني هو ثمرة من ثمرات التدبر التي أمرنا اللّه بها، ويتحقق بها مقام من مقامات العبودية الحق، للّه رب العالمين، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النِّسَاء : ٨٢]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [مُحَمَّد : ٢٤] فهنيئا لمن صفا قلبه، وانشرح صدره، ليتزود من هذه الثمرات، والدرر النفيسة الغالية، قدر استطاعته.

واللّه أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه سبحانه، وأن يكتب له القبول الحسن بين عباده، وينفع به كل من أقبل عليه، إنه سبحانه سميع قريب مجيب الدعاء.

الركيزة الرابعة: بيان المصطلحات المستعملة

فمن المعلوم أن اللفظ قد يستعمل في أكثر من معنى، على سبيل الاشتراك، مما يؤدي إلى عدم إدراك المعنى المراد في كثير من الأحيان، و قد يصل الأمر إلى حمل اللفظ على نقيض معناه المراد.

ولهذا آثرت أن أبين المعنى الذي أقصده فيما يلي من مصطلحات، رفعا للغموض، وخروجا من الالتباس، والله الموفق.

وفيما يلي أهم الألفاظ المستعملة:

التخيير: وعبرت عنه أحيانا بمصطلح: الإرادة الحرة والاختيار التام.

التسيير: ويقصد به الجبر في كلامهم، ولكني استخدمت لفظ التسيير والتسخير من جهة تعلقهما بالقدر، من جهة التوفيق أو الإلهام أو الرؤى، أو غير ذلك.

الإرادة، والمشيئة: (وَالْمُحَقِّقُونَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ يَقُولُونَ: الْإِرَادَةُ فِي كِتَابِ اللَّهِ نَوْعَانِ: إِرَادَةٌ قَدَرِيَّةٌ كَوْنِيَّةٌ خَلْقِيَّةٌ، وَإِرَادَةٌ دِينِيَّةٌ أَمْرِيَّةٌ شَرْعِيَّةٌ.
فَالْإِرَادَةُ الشَّرْعِيَّةُ هِيَ الْمُتَضَمِّنَةُ لِلْمَحَبَّةِ وَالرِّضَا، وَالْكَوْنِيَّةُ هِيَ الْمَشِيئَةُ الشَّامِلَةُ لِجَمِيعِ الْحَوَادِثِ)[1].

[1] شرح الطحاوية – ط الأوقاف السعودية (ص: ٦٩).

(في شرح العقائد للنسفي قال: الإرادة والمشيئة عبارتان عن صفة في الحيّ توجب تخصيص أحد المقدورين في أحد الأوقات بالوقوع مع استواء نسبة القدرة إلى الكلّ)[1].

وعند **الإمام الجرجاني**: (مشيئة اللّه: عبارة عن تجلي الذات والعناية السابقة لإيجاد المعدوم أو إعدام الموجود.

وإرادته: عبارة عن تجليه لإيجاد المعدوم، فالمشيئة أعم من وجه من الإرادة.

ومن تتبع مواضع استعمالات المشيئة والإرادة في القرآن يعلم ذلك، وإن كان بحسب اللغة يستعمل كل منهما مقام الآخر)[2]، وفي بحثنا هذا استعملت كل منهما مقام الآخر.

[1] كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم (٢/ ١٥٥٣).

[2] التعريفات للجرجاني (ص: ٢١٦).

القسم الأول

حديث السفينة
دراسة تحليلية

الاستهام على السفينة

نتناول - بتوفيق اللّه تعالى وعونه - حديث الاستهام على السفينة، نظرا لدلالته على عظم الفرق الشاسع بين تناول المعنى الذي تحمله ألفاظ الحديث الشريف في إطار الخبر المجرد، ومعناه في إطار السياق القصصي، الذي لا يُفهم المعنى المراد منه إلا في إطار المضمون الشامل للقصة أو الحكاية، أو المثال في حديثنا هذا، والذي يمثل ركنا هاما من أركان الفهم الصحيح، والذي لا غنى عنه للوصول إلى مجامع الحِكَم في لفظ الرسول ﷺ.

وتناولنا لهذا الحديث محكوم بالمنهج العلمي، بغرض إعلاء شرع اللّه تعالى بين خلقه عامة، وبين طلاب الفهم الشامل للشريعة خاصة، وليس المقصود الوعظ والحكاية المجردة، التي تخاطب المشاعر في المقام الأول، والتي يمكن أن تستفاد بطرق شتى، ليس منها هذا التناول، لأن التناول العلمي يتسم غالبا بالحاجة إلى المجهود العقلي، والذي قل أن يتوفر، إلا عند أهل المقاصد الشرعية الواضحة الجلية، الذين يدركون تماما أن العلم لا يُطلب إلا بالجهد والمشقة، واللّه ولي التوفيق.

نص الحديث الشريف

ورد الحديث الشريف في صحيح **الإمام البخاري** عن النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، على روايتين:

الرواية الأولى: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ المَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا، وَنَجَوْا جَمِيعًا"[1].

وفي الرواية الثانية: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "مَثَلُ المُدْهِنِ فِي حُدُودِ اللَّهِ، وَالوَاقِعِ فِيهَا، مَثَلُ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا سَفِينَةً، فَصَارَ بَعْضُهُمْ فِي أَسْفَلِهَا وَصَارَ بَعْضُهُمْ فِي أَعْلاَهَا، فَكَانَ الَّذِي فِي أَسْفَلِهَا يَمُرُّونَ بِالْمَاءِ عَلَى الَّذِينَ فِي أَعْلاَهَا، فَتَأَذَّوْا بِهِ، فَأَخَذَ فَأْسًا فَجَعَلَ يَنْقُرُ أَسْفَلَ السَّفِينَةِ، فَأَتَوْهُ فَقَالُوا: مَا لَكَ، قَالَ: تَأَذَّيْتُمْ بِي وَلاَ بُدَّ لِي مِنَ المَاءِ، فَإِنْ أَخَذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَنْجَوْهُ وَنَجَّوْا أَنْفُسَهُمْ، وَإِنْ تَرَكُوهُ أَهْلَكُوهُ وَأَهْلَكُوا أَنْفُسَهُمْ"[2].

وقد وردت روايات أخرى للحديث، في كتب السنة المطهرة، نتناولها بالبيان فيما بعد، بتوفيق الله عز وجل.

---

[1] صحيح البخاري (٣/ ١٣٩).

[2] صحيح البخاري (٣/ ١٨١).

🕮 أهم معاني مفردات الحديث:

(قَوْلُهُ مَثَلُ الْمُدْهِنِ"[1] أَيِ الْمُحَابِي"[2] وَالْمُدْهِنُ وَالْمُدَاهِنُ وَاحِدٌ وَالْمُرَادُ بِهِ مَنْ يُرَائِي وَيُضَيِّعُ الْحُقُوقَ وَلَا يُغَيِّرُ الْمُنْكَرَ")[3].

(قوْله: "مثل القَائِم على حُدُود اللّه تعَالَى" أي: المُسْتَقيم على مَا منع اللّه تعَالَى من مجاوزتها، وَيُقَال: القَائِم بِأمْر اللّه مَعْنَاهُ: الْآمِر بِالمَعْرُوفِ والناهي عَن المُنكر، ومعنى القائم على حدود اللّه: الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر، والواقع فيها: أي مرتكبها الواقع في المحرَّم، والمدهِنُ وَالمداهن: الساكت)[4].

المعنى المتبادر من الحديث الشريف:

يؤكد الحديث الشريف على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هما من أهم مقومات نجاة المجتمع المسلم من الهلكة والانهيار، وأن الساكت عن إنكار المنكر لا يختلف عن الواقع في المعصية نفسه، بل هما سواء.

ويبين **الإمام ابن حجر** أن عناصر التشبيه عبارة عن فريقين، مع أن روايات الحديث المختلفة تبين أنهم ثلاثة، ومع هذا فإن فرقتين

---

[1] بِضَمِّ أَوَّلِهِ وَسُكُونِ الْمُهْمَلَةِ وَكَسْرِ الْهَاءِ بَعْدَهَا نُونٌ.

[2] بِالْمُهْمَلَةِ وَالْمُوَحَّدَةِ.

[3] فتح الباري لابن حجر (٥/ ٢٩٥)، وانظر أيضا: _والْمُدْهِنِ والمداهِنُ: المصانع المحابي، الغاشُّ في حدود الله، التارك للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع القدرة عليه، لاستحياء أو قلة مبالاة في الدين"، "مشارق الأنوار"، وحاشية السندي على "مسند أحمد". المعجم الكبير للطبراني (٢١/ ٤٧).

[4] عمدة القاري شرح صحيح البخاري أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابى الحنفى بدر الدين العينى (ت: ٨٥٥هـ) (١٣/ ٥٦).

من الثلاثة يجمعهما وصف مشترك، وهو عدم إنكار المنكر، ولهذا فهما في الحقيقة فرقة واحدة، من حيث التقسيم الذي يهدف إليه الحديث الشريف، وهكذا يرتفع الإشكال بين الروايات بعضها وبعض، فيقول: (قَوْلُهُ وَالوَاقِع فِيهَا، ومِنْ وَجْهٍ آخَرَ مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالوَاقِع فِيهَا وَهُوَ أَصْوَبُ لِأَنَّ المُدْهِنَ وَالوَاقِعَ أَيْ مُرْتَكِبَهَا فِي الحُكْمِ وَاحِدٌ وَالقَائِمُ مُقَابِلُهُ، وقوله: مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالوَاقِع فِيهَا، يَشْمَلُ الفِرَقَ الثَّلَاثَ: وَهُوَ النَّاهِي عَنِ المَعْصِيَةِ، وَالوَاقِعُ فِيهَا، وَالمُرَائِي فِي ذَلِكَ.

وفي رواية : مَثَلُ الوَاقِع فِي حُدُودِ اللَّهِ تَعَالَى وَالنَّاهِي عَنْهَا وَهُوَ المُطَابِقُ لِلْمَثَلِ المَضْرُوبِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَقَعْ فِيهِ إِلَّا ذِكْرُ فِرْقَتَيْنِ فَقَطْ لَكِنْ إِذَا كَانَ المُدَاهِنُ مُشْتَرِكًا فِي الذَّمِّ مَعَ الوَاقِع صَارَا بِمَنْزِلَةِ فِرْقَةٍ وَاحِدَةٍ.
وَبَيَانُ وُجُودِ الفِرَقِ الثَّلَاثِ فِي المَثَلِ المَضْرُوبِ أَنَّ الَّذِينَ أَرَادُوا خَرْقَ السَّفِينَةِ بِمَنْزِلَةِ الوَاقِع فِي حُدُودِ اللَّهِ ثُمَّ مَنْ عَدَاهُمْ إِمَّا مُنْكِرٌ وَهُوَ القَائِمُ وَإِمَّا سَاكِتٌ وَهُوَ المدهن)[1].

ثم يبين المعنى العام للحديث فيقول : (قَوْلُهُ فَإِنْ أَخَذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَيْ مَنَعُوهُ مِنَ الحَفْرِ أَنْجَوْهُ وَنَجَّوْا أَنْفُسَهُمْ هُوَ تَفْسِيرٌ لِلرِّوَايَةِ المَاضِيَةِ حَيْثُ قَالَ نَجَوْا وَنَجَوْا أَيْ كُلٌّ مِنَ الآخِذِينَ وَالمَأْخُوذِينَ وَهَكَذَا إِقَامَةُ الحُدُودِ يَحْصُلُ بِهَا النَّجَاةُ لِمَنْ أَقَامَهَا وَأُقِيمَتْ عَلَيْهِ وَإِلَّا هَلَكَ العَاصِي بِالمَعْصِيَةِ وَالسَّاكِتُ بِالرِّضَا وَفِيهِ اسْتِحْقَاقُ العُقُوبَةِ بِتَرْكِ الأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَتَبْيِينُ العَالِمِ الحُكْمَ بِضَرْبِ المَثَلِ وَوُجُوبُ الصَّبْرِ عَلَى أَذَى الجَارِ إِذَا خَشِيَ وُقُوعَ مَا هُوَ أَشَدُّ ضَرَرًا وَأَنَّهُ

[1] فتح الباري لابن حجر (٥/ ٢٩٥).

لَيْسَ لِصَاحِبِ السُّفْلِ أَنْ يُحْدِثَ عَلَى صَاحِبِ الْعُلْوِ مَا يَضُرُّ بِهِ وَأَنَّهُ إِنْ أَحْدَثَ عَلَيْهِ ضَرَرًا لَزِمَهُ إِصْلَاحُهُ وَأَنَّ لِصَاحِبِ الْعُلْوِ مَنْعَهُ مِنَ الضَّرَرِ[1].

وهذا المعنى الذي بينه **الإمام ابن حجر** واضح لا خفاء فيه، واتفق عليه الشراح جميعا، ولكن نستطيع أن نقول: إن هذا هو المعنى العام الظاهر للحديث الشريف، بينما توجد ـ أيضا ـ معانٍ، مستفادة من التشبيه وضرب المثال، أشار إليها بعض الشراح وذلك كما يتضح مما يلي:

تقريب البيان بضرب المثال:

يعتبر التشبيه بضرب الأمثلة من أهم المقومات التي تحرص عليها نصوص القرآن والسنة، ومن ذلك هذا المثال المبهر، الذي يصور حال الأمة المسلمة بالسفينة الجارية في متاهة البحر، والتي لا يمكن لها الوصول الآمن إلى البر، إلا بإعلاء شرع الله تعالى بين أفرادها، وذلك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأخذ على يد المسيء.

فائدة المثال في حديث رسول الله ﷺ:

رسالة الإسلام هي الرسالة الخاتمة، ولعل من لوازم هذا وجود الإجمال والخفاء في كثير من النصوص، والذي يستوجب البحث والاجتهاد، حتى يُفهم النص فهما صحيحا، والحاجة إلى البحث والاجتهاد واستخلاص العبر ليست قاصرة على نصوص العظة والاعتبار، بل وقع مثل ذلك ـ أيضا ـ في النصوص الشرعية، التي

---

[1] المرجع السابق (٥/ ٢٩٥) وما بعدها، بتصرف لا يخل بالمعنى.

تتناول الأحكام التكليفية، من الأمر والنهي"[1]، ولعل المقصود من ذلك ـ والله أعلى وأعلم ـ أن تكون أمة الإسلام أمة اجتهاد وبحث وعلم، وليست أمة رهبنة وزهد، وعزوف عن الحياة.

والخفاء وعدم التصريح بالمعنى المراد، بل الإشارة إليه، بطرق تختلف من نص إلى آخر، كل ذلك مقصود من الشارع، ليظل مقام العبودية، الذي خُلق الإنسان من أجله حاضرا، ومتمكنا من النفس، فلا يضيع الشرع، بالرتابة والاعتياد، والإلف والعادة ومرور الزمن، وتغير الأحوال، فكان الخفاء في اللفظ دافعا إلى دوام التفكر، والبحث عن الحِكَم المستفادة منه، بما يحمله من معانٍ، تدفع العقل وتضطره إلى النظر في هذه المعاني، وما هو المراد منها.

ثم إن وجود الخفاء والإجمال في بعض النصوص، يؤدي حتما إلى اختلاف العقول في فهم المراد منها، وتعدد الحِكم المستنبطة،

---

[1] وعلى سبيل المثال، قوله تعالى: {فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ} [النساء: ١١]، والحكم المستفاد من الآية كما يبينه **الإمام ابن حزم**: (فَإِنْ كَانَ لَهُ ثَلَاثَةٌ مِنْ الْإِخْوَةِ ذُكُورٍ أَوْ إنَاثٍ، أَوْ بَعْضُهُمْ ذَكَرٌ، وَبَعْضُهُمْ أُنْثَى: فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ، لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ} وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما.

وَقَالَ غَيْرُهُ: بِاثْنَيْنِ مِنْ الْإِخْوَةِ تُرَدُّ الْأُمُّ إلَى السُّدُسِ، وَلَا خِلَافَ فِي أَنَّهَا لَا تُرَدُّ عَنْ الثُّلُثِ إلَى السُّدُسِ بِأَخٍ وَاحِدٍ، وَلَا بِأُخْتٍ وَاحِدَةٍ، وَلَا فِي أَنَّهَا تُرَدُّ إلَى السُّدُسِ بِثَلَاثَةٍ مِنْ الْإِخْوَةِ ــ كَمَا ذَكَرْنَا ــ إنَّمَا الْخِلَافُ فِي رَدِّهَا إلَى السُّدُسِ بِاثْنَيْنِ مِنْ الْإِخْوَةِ) المحلى بالآثار (٨/ ٢٧١).

فلفظ الإخوة أدى إلى اختلاف المجتهدين في الحكم الشرعي، مع أن معنى اللفظ ليس خافيا، ولكن دلالته هي التي أدت إلى البحث والاجتهاد.

وكل هذا مقصود للشارع تبارك وتعالى، بما يمثله من التيسير وسعة النصوص لاستيعاب كل زمان ومكان، كما أنه يمثل الكمال المطلق في بيان المراد، يقول تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٥٥﴾ [الزُّمَر: ٥٥] ، والأحسن لا يوجد فيه شيء من فضول القول، والذي يمكن الاستغناء عنه، أو أن يتم المعنى المراد بدونه، بل هو الغاية في البلاغة وحسن البيان، والوصول إلى المقصود بأبلغ العبارات، وأحكم الطرق.

وليس هذا قاصرا على اللفظ القرآني فقط، بل أيضا لفظ الرسول ﷺ، هو الأكمل والأتم، مقارنة بكلام المخلوقين جميعا، مهما بلغوا من البراعة والإبداع.

ومما يؤكد هذا المعنى أنَّ **سيدنا أبا هُرَيْرَةَ** رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: «بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَبَيْنَا أَنَا نَائِمٌ أُتِيتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الأَرْضِ فَوُضِعَتْ فِي يَدِي»[1].

ويبين **الإمام البخاري** المعنى بقوله: قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ"وَبَلَغَنِي أَنَّ جَوَامِعَ الكَلِمِ: أَنَّ اللَّهَ يَجْمَعُ الأُمُورَ الكَثِيرَةَ، الَّتِي كَانَتْ تُكْتَبُ فِي الكُتُبِ قَبْلَهُ، فِي الأَمْرِ الوَاحِدِ، وَالأَمْرَيْنِ، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ".

ومما لا شك فيه أن جوامع الكلم، لا تكون بينة بذاتها، بيانا وافيا، بل لابد من البحث والاجتهاد، وصولا إلى فهم المراد منها، وتعدد معانيه.

ويعتبر ضرب المثال من أهم مقومات البلاغة والإيجاز، والذي يجمع من المعاني ما لو فصِّلَ لاحتاج إلى بعض الكتب، حيث

[1] صحيح البخاري (٩/ ٣٧).

تكون الحكاية، أو القصة التي يحملها التشبيه، والمثال، وسيلة إلى فهم واستنباط المعاني المرادة، التي لم يصرح بها النص.

يقول أهل الأدب والبلاغة: "يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية، فهو نهاية البلاغة"[1].

فالإيجاز والكناية، توجبان التدقيق في المعاني، للوصول إلى المراد من العبارة، وإذا كان الأمر كذلك، فليس من المستغرب أن تحمل الأمثلة القصصية ما لا تحمله الأخبار المجردة من معانٍ وحِكم، ولكن ليس جميع ما تحمله يكون في متناول كل أحد، بل منه ما لا يَظفر به إلا خواص أهل العلم، وهذا أحد أوجه الإعجاز البياني في كل من القرآن الكريم والسنة المطهرة، حيث ما تزال الصور البيانية ـ في التشبيه والمثال ـ تعطي المزيد من المعاني والحِكم، والتي لم يتعرض لها السابقون، وهذا بغير شك من أوجه الإعجاز في الكتاب الكريم والسنة المطهرة.

وحديث السفينة، واحد من هذه الأمثلة، فإن رسول الله ﷺ يضرب المثال، لأنه أدعى أن يستقر في أذهان الناس، وترتسم صورته في مخيلتهم، حتى ليكاد العامي منهم يدرك الغرض المطلوب من التشبيه، حتى وإن لم يمكنه استخلاص الحِكم الشرعية التي يستخلصها أهل الفقه والاجتهاد.

فمن أهم أسرار ضرب الأمثلة، أن التشبيه يأخذ صورة القصة، أو الحكاية المحببة إلى النفس، والتي تستحوذ على الآذان، فتهيم بها النفوس والعقول، دون كلفة أو عناء"[1].

---

[1] قصة الأدب في الحجاز (ص: ٢٦١).

[1] يقول الأستاذ النابغ علي علي صبح: (روعة التصوير الفني في هذا الحديث الشريف؛ لأنه اتخذ أسلوبًا قصصيًا، يقوم على التشبيه التمثيلي، في صورة كلية، بأسلوب الحوار والقصص، تستمد شخصياتها ومشاهدها وعناصرها في = الواقع المحسوس، فقد شُبه الذي يطيع الله فيما أمر ونهى ويتقي حدوده فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، والذي لا يعمل بذلك، شبِّها بفريقين اقتسموا سفينة تمخر عباب البحر، وأنت ترى أن العناصر الواقعية هي السفية وركابها، وما تحتوي من آلات ومعدات، والبحر وما يضم من كائنات وعوالم، وما فيه من تيارات وأمواج وعواصف ومياه، وما حدث من صراع ومساهمة واقتراع، وغير ذلك من مظاهر الطبيعة والحياة.

كما ترى أيضا التصوير الأدبي حيويًا ورائعًا في بلاغة التعبير عن الحياة والمجتمع فيها بالسفية، التي تمخر عباب الماء، في بحر متلاطم الأمواج والعواصف، فهي ليست قصرًا شامخًا مستقرًا على أرض ثابتة في البر، وإنما هي ألواح من الخشب، تطفو فوق سطح الماء في بحر عميق، ينتابه بين حين وآخر ريح عاصفة وأمواج هائجة متلاطمة، تتصدع لها أركان السفينة، وتتحطم جوانبها المختلفة، فيغرق من فيها جميعًا، تلك هي الحياة الغرورة كالمسرح تختفي وراء أستاره الفتن والأحداث، قال تعالى: {وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ} (سورة آل عمران: من الآية ١٨٥)، وجاءت أيضًا صورة المجتمع الإنساني بالسفينة، التي تجمع بين البَرِّ والفاجر، والصالح والطالح، وأهل الخير والحق والجمال، مع أهل الشر والباطل والسوء، فالإنسانية في صراع دائم بين الخير والشر، على سبيل الفتنة والاختبار، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حي عن بينة) التصوير النبوي للقيم الخلقية والتشريعية في الحديث الشريف لعلي علي صبح (ص: ١٤٣).

فالتشبيهات التمثيلية تشرئب إليها الأعناق، وتتنبه لها الأسماع، حتى وكأنها تغرس المعنى في النفس، قبل أن يتنبه له العقل بالفهم والتدقيق، مما يدل على أن هذا اللون الفني في الحديث مطلوب لغاية لا تحققها الأخبار المجردة[1] مهما بلغت من الدقة والإيجاز، وبراعة الصياغة.

وإذا كان اللفظ الخبري المجرد ينقل المعنى المراد، دون خفاء أو غموض، إلا أنه من السهل نسيانه أو الغفلة عنه، وكثيرا ما يكون المعنى المستفاد من السياق المتكامل بعضه مع بعض، أكثر كثيرا من مجموع المعاني المستفادة من كل خبر في العبارة على حدة.

[1] يقول الأستاذ: أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي: (ولا شك: أن هذا المشهد البديع: يستوقف نظرك، ويستثير اعجابك من شدَّة الرّوعة والجمال المُستمدّة من التشبيه، بفضل (البيان) الذي هو سر البلاغة) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع (ص: ٢١٦).

دلالة اللفظ في سياق الأخبار وفي سياق التشبيه

عندما يكون اللفظ في سياق الإخبار عن واقع ما، فإن دلالته تكون محصورة فيما يتعلق بهذا الواقع، وما حوله من مؤثرات وأحوال، بينما يختلف الأمر إذا ما كان اللفظ في سياق التشبيه، والذي لا يفيد المطابقة التامة بين المشبه والمشبه به، ولهذا تنشأ دلالات زائدة، تقتبس من اختصاص المشبه به، بصفات ذاتية لا توجد في المشبه.

وكذلك عند المزج بين الطرفين ـ المشبه والمشبه به ـ تنشأ أيضا معاني كثيرة منها المقصود، ومنها ما لا يكون مقصودا، وكل هذا لا يمكن الوصول إلى استخلاص حقائقه، إلا بالاجتهاد والتدقيق، والفهم المتكامل لكل عناصر التشبيه، ومن هنا كان الفرق الجوهري بين دلالة اللفظ في السياق الخبري، ودلالته في سياق التمثيل والتشبيه، يقول الإمام الدهلوي: (إن حملت هذه القصة على الواقع وإخباره ﷺ عما وقع في سالف الزمان فلا بعد، لكن الذي يتبادر إلى الذهن هو ذكره على سبيل الفرض والتمثيل، والله أعلم)[1].

---

[1] (فَصَارَ بَعْضُهُمْ فِي أَسْفَلِهَا) أَيْ: مِنَ الْمَنَازِلِ (وَصَارَ بَعْضُهُمْ فِي أَعْلَاهَا) أَيْ: فِي الْمَجْلِسِ (فَكَانَ الَّذِي) أَيْ: وَلَوْ كَانَ وَاحِدًا (فِي أَسْفَلِهَا) أَيْ: فِي الْبَعْضِ الَّذِي مُسْتَقِرٌّ فِي أَسْفَلِهَا، فَأَفْرَدَ الْمَوْصُولَ نَظَرًا إِلَى لَفْظَةِ الْبَعْضِ، وَإِيمَاءً إِلَى أَنَّهُ وَلَوْ كَانَ وَاحِدًا فَالْأَمْرُ كَذَلِكَ، وَإِشْعَارًا بِأَنَّ الصُّلَحَاءَ فِي الْأُمَّةِ كَثِيرُونَ، وَأَنَّ الطُّلَحَاءَ قَلِيلُونَ مَغْلُوبُونَ مَقْهُورُونَ، أَوْ إِيمَاءً إِلَى أَنَّ الصَّالِحَ وَإِنْ كَانَ وَاحِدًا فَهُوَ كَثِيرٌ كَبِيرٌ عَالٍ بِعُلُوِّ الدِّينِ، وَالْفَسَقَةَ وَإِنْ كَانُوا جَمَاعَةً فَهُمْ فِي مَرْتَبَةِ الْقِلَّةِ وَمَنْزِلَةِ الذِّلَّةِ وَمَقَامِ أَسْفَلِ السَّافِلِينَ) انظر: لمعات التنقيح في شرح مشكاة المصابيح لعبد الحق بن سيف الدين بن سعد اللَّه البخاري الدِّهلوي (٨/ ٣٧١)، مرقاة

والراجح كما يظهر من الحديث أنه من قبيل المثال والتشبيه، وليس من أخبار الأمم السابقة، نظرا لأن الحديث صرح بالفعل بكونه من الأمثلة، وليس من أخبار السابقين.

ومن هنا : لسنا في حاجة إلى البحث في أخبار السابقين، لنعرف أحوالهم وطبيعة بيئتهم، حتى نفهم المراد من الحديث الشريف، بل إن الحديث هو من قبيل التشبيه، يقول الشيخ الطاهر بن عاشور: وقوله: «كمثل قوم استهموا سفينة» إلى قوله: «فأخذ فأساً» هو تمهيد للتمثيل المقصود التشبيه به، وليس هو جملة التمثيل، ولكنه تصوير للحالة التي يترتب عليها التمثيل، فمحل التمثيل هو قوله: «فأخذ فأساً»[1] إلى آخر الحديث".

وقد فُهِم من قوله : «فإن أخذوا على يديه» وقوله: «وإن تركوه» إلخ، تفصيل حالتي المدهن، أي إن استمر المدهن على إدهانه أهلك وهلك، وإن أخذ بالنهي والزجر أنجى غيره ونجا، فالمشبه بالفريق الذي في أعلى السفينة هو غير الواقع في حدود الله باختلاف

المفاتيح شرح مشكاة المصابيح علي بن (سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري (٨/ ٣٢١٠).

[1] عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْمُدَاهِنِ فِي حُدُودِ اللَّهِ مِثْلُ ثَلَاثَةِ نَفَرٍ جَلَسُوا فِي سَفِينَةٍ: أَحَدُهُمْ فِي صَدْرِهَا وَالْآخَرُ فِي أَسْفَلِهَا وَالْآخَرُ فِي وَسَطِهَا فَجَعَلَ يَحْفِرُهَا بِفَأْسٍ مَعَهُ، فَقَالَ الَّذِي يَلِيهِ: لَا تَحْفِرْ فَتُغْرِقْنَا وَقَالَ الْآخَرُ: دَعْهُ فَإِنَّمَا غَرَّقَ نَفْسَهُ" أمثال الحديث لأبي الشيخ الأصبهاني (ص: ٣٧٠).

حالتيه، والمشبه بالفريق الذين أخذوا ينقرون السفينة هو الواقع في حدود الله"[١].

ولو نظرنا في كلام **الشيخ الطاهر بن عاشور** فسوف نجد أنه قد حمل التشبيه على وجه لا يخرج عن أقوال شراح الحديث بصفة عامة، ما عدا أنه حرص على بيان عناصر التشبيه، بصورة خاصة، وتكتمل الصورة إلى درجة كبيرة عند الذين اهتموا بعناصر التشبيه بقول **الإمام الدهلوي**: (فكذلك إن منع الناس العاصي من العصيان نجوْا من عذاب الله ونجا، وإن تركوه يفعل المعاصي، ولم ينهوه عن ذلك، نزل عليه العذاب بعصيانه، وعليهم بالمداهنة أو بشؤم معصيته، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴿٢٥﴾﴾ [الأنفال من الآيه : ٢٥] ، وإنما كرر الفعل في (أنجوه ونجوا أنفسهم)، و (أهلكوه وأهلكوا أنفسهم) إشارة إلى أن كل واحد من الفريقين مستقل ومستبد، في النجاة والهلاك، وارتفاع العذاب ونزوله، فافهم، فالذي في أعلى السفينة مثل للمدهن في الحدود، والذي في أسفلها مثل للواقع فيها، والأخذ باليد للنهي، ونجاة الناهي والمنهي لفائدة النهي، وهلاكهما لعاقبة تركه، وإنما جمع فرقة النهاة ووحّد الناقر إشارة إلى أن المسلمين لا بد أن يتعاونوا على النهي، كذا قال **الطيبي**.

ويمكن أن يقال: وإلى أن المعصية ينبغي أن تكون أقل وقوعًا بين المسلمين)[١].

---

[١] النظر الفسيح عند مضائق الأنظار في الجامع الصحيح للطاهر بن عاشور (ص: ٧٨).

وهكذا تكتمل الصورة رويدا رويدا، عندما تجتمع الأجزاء التي تفرقت بين أقوال أهل العلم والاجتهاد.

[1] انظر: لمعات التنقيح في شرح مشكاة المصابيح، لعبد الحق بن سيف الدين بن سعد اللَّه البخاري الدِّهلوي والتنقيح في شرح مشكاة المصابيح تحقيق وتعليق: الأستاذ الدكتور تقي الدين الندوي (٨/ ٣٧٢).

الموازنة بين روايات الحديث

مما يساعد على اكتمال الصورة أن نستحضر الروايات المختلفة للحديث الشريف، لأنها تحمل في ثناياها ما اختص به كل راوٍ من فهم للسياق التمثيلي، والذي يمكن أن تكتمل صورة المشبه ـ إلى درجة كبيرة ـ من خلال تجميع أجزاء الصورة، المتفرقة في الروايات المختلفة، **وذلك على النحو التالي:**

الرواية الأولى: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قالَ: "مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ المَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا، وَنَجَوْا جَمِيعًا"[1].

في هذه الرواية: نلاحظ أن الحجة التي ساقها الذين في أسفل السفينة من الإقدام على خرقها كانت نابعة من نية حسنة، حيث قالوا: "لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا"، وإشارتهم إلى أن الخرق في نصيبهم يدل ـ أيضا ـ على نيتهم الحسنة، فهم أرادوا أن لا يؤذوا من فوقهم، ولا يعتدوا على حقهم، فخصوا الخرق بنصيبهم.

ويقتضي السياق القصصي أن نبين كيف يمكن لمن هموا بخرق السفينة أن يظنوا أنهم لن يتعرضوا للغرق.

---

[1] صحيح البخاري (٣/ ١٣٩).

ولعل الجواب: أنهم لم يكونوا ممن سبق لهم دراية بركوب البحر، أي أن الذي همَّ بخرق السفينة ظن ـ مثلا ـ أنه يمكنه أن يستقي الماء ثم يسد الخرق، فلا يتسرب الماء مرة أخرى، أو غير ذلك، وهذه جزئية لم يهتم شراح الحديث ببيانها، نظرا لأنها قد تكون لا أهمية لها في المعنى المراد من الحديث، ولكنها مع هذا قد تكون محل انتباه كثير من العقول، وهذا وجه من أهم أوجه الثراء في دلالة التشبيه والتمثيل عن الخبر المجرد، فإن التشبيه يُثرِي الكلام بمعانٍ كثيرة، يظن بعضنا أنها لا أهمية لها، بينما يرى آخرون أن لها معنى في السياق، لا يستغنى عنه، وهكذا.

والقصد من هذا التفصيل هو بيان أهمية السياق القصصي، في التعبير عن المراد، في نصوص الشرع، وسواء أدركنا الصواب أم لم ندركه، في هذه النقطة، فليس هذا هو المقصود من سوق الحديث، بل المقصود هو الوصول إلى ما خفي في الحديث من معان وعبر، وأن الغاية المؤكدة هي إصابة الحق والصواب، على وجهه الأتم الأكمل، ولكن ما كان لبشر أن يجزم أن اجتهاده قد أصاب الحق الذي أراده الخالق سبحانه، ولكن غاية مراده هو غلبة الظن بذلك، وهذا هو المقدور بالنسبة للبشر، والله ولي التوفيق والهداية والرشاد.

وفي الرواية الثانية في الصحيح أيضا : قالَ النَّبيُّ ﷺ: "مَثَلُ المدْهِنِ فِي حُدُودِ اللَّهِ، وَالوَاقِعِ فِيهَا، مَثَلُ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا سَفِينَةً، فَصَارَ بَعْضُهُمْ فِي أَسْفَلِهَا وَصَارَ بَعْضُهُمْ فِي أَعْلاهَا، فَكَانَ الذِي فِي أَسْفَلِهَا يَمُرُّونَ بِالمَاءِ عَلَى الذِينَ فِي أَعْلاهَا، فَتَأَذَّوْا بِهِ، فَأَخَذَ فَأْسًا فَجَعَلَ يَنْقُرُ أَسْفَلَ السَّفِينَةِ، فَأَتَوْهُ فَقَالُوا: مَا لَكَ، قَالَ: تَأَذَّيْتُمْ بِي وَلا بُدَّ

لِي مِنَ الماءِ، فإِنْ أخَذُوا عَلَى يَدَيْهِ أنْجَوْهُ وَنَجَّوْا أنْفُسَهُمْ، وَإِنْ تَرَكُوهُ أهْلَكُوهُ وَأهْلَكُوا أنْفُسَهُمْ"[1].

وهذه الرواية جاء فيها ذكر المدْهِنِ في حدود اللّه، وكأن القائم على حدود اللّه سيُفْهَم مقامه من سياق الحديث، كما يبينه قوله ﷺ "فإِنْ أخَذُوا عَلَى يَدَيْهِ"، وفيه إشارة أن هؤلاء الذين تصدوا للمنكر، هم القائمون على حدود اللّه تعالى، بينما المدْهِنِ هو الساكت الذي لا يعنيه الأمر"[2]، كما سيتضح فيما بعد.

وكذلك تبين هذه الرواية تأذي الذين في أعلى السفينة، فأراد من في الأسفل أن يرفعوا عنهم الأذى، وذلك بخرق السفينة من أسفل، بينما الرواية الأولى لم تصرح بتأذي الذي في الأعلى، حيث سيفهم ذلك من السياق أيضا، ويشير إليه قولهم في الرواية الأولى: "وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا".

ولعل التشبيه الذي يدور عليه الحديث يبين أن القائمين على حدود اللّه تعالى يتأذون إذا ما انتهكت حرمات اللّه، وأن التأذي من الاجتراء على حدود اللّه قد أصبح خلة في نفوسهم، وسجية في أخلاقهم، لا تنفك عنهم في كل أحوالهم.

ومع هذا فإن التأذي ـ أو الغيرة على حدود اللّه تعالى ـ لا يكفي وحده للنجاة والسلامة، أو إبراء الذمة أمام اللّه تعالى، بل إن الشرع لا يرضى من عباده المخلصين أن يكونوا سلبيين،

---

[1] صحيح البخاري (٣/ ١٨١).

[2] المحابي: الـمراد به من يرائي ويضيع الحقوق ولا يغير المنكر، فتح الباري لابن حجر (٥/ ٢٩٥).

كحال "المدْهِنِ"، بل لابد أن يكون لهم تأثير، وأثر في معالجة الخلل، وأقل ذلك هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وفي رواية **الإمام الترمذي**: قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالمدْهِنِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فِي البَحْرِ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا، وَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الذِينَ فِي أَسْفَلِهَا يَصْعَدُونَ فَيَسْتَقُونَ الماءَ فَيَصُبُّونَ عَلَى الذِينَ فِي أَعْلَاهَا فَقَالَ الذِينَ فِي أَعْلَاهَا: لَا نَدَعُكُمْ تَصْعَدُونَ فَتُؤْذُونَنَا، فَقَالَ الذِينَ فِي أَسْفَلِهَا: فَإِنَّا نَنْقُبُهَا مِنْ أَسْفَلِهَا فَنَسْتَقِي، فَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ فَمَنَعُوهُمْ نَجَوْا جَمِيعًا وَإِنْ تَرَكُوهُمْ غَرِقُوا جَمِيعًا"[1].

وفي هذه الرواية: جاء ذكر صنفين أيضا دون ذكر الواقع فيها: "مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالمدْهِنِ فِيهَا"، فقد ذكر "المدهن فيها" ولم يذكر الواقع فيها، بينما في رواية الإمام البخاري التي جاء فيها ذكر المدهن جاء معه ذكر الواقع فيها: "مَثَلُ المدْهِنِ فِي حُدُودِ اللَّهِ، وَالوَاقِعِ فِيهَا"، ويمكن أن نفهم من جمع الروايات ككل، أن المدهن إما أن يكون هو الساكت عن المنكر، أو يكون هو بالفعل كالواقع في المنكر، وهذا صحيح إذا كان الساكت قد رضي المنكر الذي وقع من سواه، ولم يحرك ساكنا لرفعه، ومنعه.

وهذا المعنى بينه **الإمام ابن حجر** بقوله: ونظرا لما وقع في بعض الشروح من لبس وخفاء بين هذه الفرق الثلاثة فإنه يشير إلى بعضها ثم يجيب عما وقعوا فيه من إشكال بقوله: (وَقَالَ

[1] سنن الترمذي (٤/ ٤٠).

الكَرْمَانِيُّ"[1] : **قوله**: مَثَلُ القَائِمِ وَهُنَا مَثَلُ المُدْهِنِ وَهُمَا نَقِيضَانِ فَإِنَّ القَائِمَ هُوَ الآمِرُ بِالمَعْرُوفِ وَالمُدْهِنَ هُوَ التَارِكُ لَهُ، **ثُمَّ** أَجَابَ: بِأَنَّهُ حَيْثُ قَالَ القَائِمِ نَظَرَ إِلَى جِهَةِ النَّجَاةِ وَحَيْثُ قَالَ المُدْهِنِ نَظَرَ إِلَى جِهَةِ الهَلاكِ وَلا شَكَّ أَنَّ التَشْبِيهَ مُسْتَقِيمٌ عَلَى الحَالَيْنِ)"[2].

ويكمل قوله قائلا: (قُلْتُ: كَيْفَ يَسْتَقِيمُ هُنَا الِاقْتِصَارُ عَلَى ذِكْرِ المُدْهِنِ وَهُوَ التَارِكُ لِلْأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَعَلَى ذِكْرِ الوَاقِعِ فِي الحَدِّ وَهُوَ العَاصِي وَكِلَاهُمَا هَالِكٌ فَالذِي يَظْهَرُ أَنَّ الصَّوَابَ مَا تَقَدَّمَ وَالحَاصِلُ أَنَّ بَعْضَ الرُّوَاةِ ذَكَرَ المُدْهِنَ وَالقَائِمَ وَبَعْضَهُمْ ذَكَرَ الوَاقِعَ وَالقَائِمَ وَبَعْضَهُمْ جَمَعَ الثَلاثَةَ، وَأَمَّا الجَمْعُ بَيْنَ المُدْهِنِ وَالوَاقِعِ دُونَ القَائِمِ فَلا يَسْتَقِيمُ)[3].

ورواية **الإمام الترمذي** توضح ـ أيضا ـ أن الذين في أعلى السفينة قد تصدوا للذين يصعدون من أسفل السفينة ليستقوا الماء، ومع هذا لم يكن هذا التصرف وحده هو سبيل النجاة، بل لابد أن

---

[1] البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (٢/ ٢٩٢) مُحَمَّد بن يُوسُف بن علي الكرماني ثمَّ البغدادي ولد فِي جُمَادَى الْآخِرَة سنة ٧١٧ سبع عشرَة وَسَبْعمائة واستوطن بَغْدَاد وَدخل الشَّام ومصر وَسمع البخاري بالجامع الْأَزْهَر وصنف شرحا للبخاري سَمَّاهُ الْكَوَاكِب الدراري وَهُوَ فِي مجلدين ضخمين قَالَ ابْن حجر فِي الدرران شرح صَاحب التَّرْجَمَة مُفِيد على أَوْهَام فِيهِ فِي النَّقْل لِأَنَّهُ لم يَأْخُذهُ إلا من الصُّحُف، وقَالَ ابْن حجر تصدى لنشر الْعلم بِبَغْدَاد ثَلَاثِينَ سنة وَكَانَ مُقبلا على شَأْنه لَا يتَرَدَّد إِلَى أَبنَاء الدُّنْيَا قانعا باليسير ملازما للْعلم متواضعاً وَتوفى مرجعه من الْحَج فِي محرم سنة ٧٨٦ هـ.

[2] فتح الباري لابن حجر (٥/ ٢٩٥)

[3] نفس المرجع.

يكون التصدي على بينة، وإلا لكانت النتيجة واحدة وهي الهلاك، بمعنى أن التصدي يجب أن يكون مصحوبا ببيان السبيل الذي يستقون به الماء، دون أن يخرقوا السفينة، أما الاكتفاء بإبعاد الأذي عن النفس فقط، فلن يكون سبيلا إلى النجاة، وفيه إشارة إلى أن المجتمع المسلم وحدة واحدة، يشد بعضه بعضا، ففي الحديث عَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «المؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا» وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ)[1].

والمعنى المستفاد أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس مجرد كلمات تقال إبراء للذمة، بل لابد أن تكون رسالة حقيقية إيجابية، تعالج الخلل وتصف العلاج، أما الاكتفاء بالصورة الشكلية دون علاج حقيقي، فليست هي الرسالة الشرعية الصحيحة، فالشرع يُوجب على من يقوم على حدود الله تعالى أن يحب لأخيه ما يحبه لنفسه.

وفي رواية مسند الإمام أحمد : عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالرَّاتِعِ فِيهَا، وَالمُدَّهِنِ فِيهَا، مَثَلُ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا، وَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، وَأَوْعَرَهَا، وَإِذَا الذِينَ أَسْفَلَهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ المَاءِ مَرُّوا عَلَى أَصْحَابِهِمْ، فَآذَوْهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا، فَاسْتَقَيْنَا مِنْهُ، وَلَمْ نَمُرَّ عَلَى أَصْحَابِنَا فَنُؤْذِيَهُمْ، فَإِنْ تَرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا جَمِيعًا".

وهذه الرواية أشارت إلى ما يفيد أن أسفل السفينة يكون وعرا (وَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، وَأَوْعَرَهَا)، كما انفردت رواية

---

[1] متفق عليه، صحيح البخاري (٣/ ١٢٩)، صحيح مسلم (٤/ ١٩٩٩).

أخرى للطبراني ببيان وصف السفل بأنه أوعر وأخبث، وفي رواية لغيرهما وأشر، (لأَحَدِهِمْ أَسْفَلُهَا وَأَوْعَرُهَا وَأَخْبَثُهَا، وَكَانَ لِلآخَرِ أَوْسَطُهَا، وَكَانَ للآخَرِ أَعْلاهَا)، وفي مسند الحميدي (فصَارَ لِأحَدِهِمْ أَسْفَلُهَا وَأَوْعَرُهَا وَشَرُّهَا)

وقد يكون هذا الوصف، لطبيعة مكان السفل من السفينة، من أهم الأسباب التي كشفت عن الحاجة التي ألجأت إلى إجراء عملية الاستهام، نظرا للفروق الكبيرة فيما يتعلق بعلو السفينة وسفلها.

وتوجد روايتان أخريان في مسند الإمام أحمد، ولكنهما تدوران في إطار المعاني السابقة"[١].

وفي رواية للإمام الطبراني: عن النعمانِ بنِ بَشيرٍ ﷺ، عن النبيِّ ﷺ قال: «مَثلُ القَائمِ علَى حُدُودِ اللّهِ وَالواقِعِ فِيهَا وَالمُدْهِنِ فِيهَا، مَثلُ نَفرٍ استَهمُوا فِي سَفِينَةٍ، فَأصَابَ بَعْضُهُمْ أعْلاهَا، وَأصَابَ بَعْضُهُمْ أسْفَلَهَا، وَأصَابَ بَعْضُهُمْ وَسَطَهَا؛ فَكَانَ إِذَا أَرادَ أَنْ يَسْتَقِيَ مِنَ المَاءِ مَرَّ عَلَى الذِينَ مِنْ فَوْقِهِ فَتَأذَّوْا بِهِ. فَلمَّا رَأَوْا ذَلِكَ، أَخَذَ الفَأسَ قَالَ: أَنْقُبُ هَهُنَا فَأَسْتَقِي مِنْ قَرِيبٍ. قَال الذِينَ فَوْقَهُ: لا تَصْنَعْ؛ تُرِيدُ

---

[١] مسند أحمد: عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالرَّاتِعِ فِيهَا، وَالْمُدَّهِنِ فِيهَا، مَثَلُ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا، وَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، وَأَوْعَرَهَا، وَإِذَا الَّذِينَ أَسْفَلَهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى أَصْحَابِهِمْ، فَآذَوْهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا، فَاسْتَقَيْنَا مِنْهُ، وَلَمْ نَمُرَّ عَلَى أَصْحَابِنَا فَنُؤْذِيَهُمْ، فَإِنْ تَرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا جَمِيعًا"

أنْ تُهْلِكَنا؟! فقَالَ الآخَرُ: وَيْحَهُ! فإِنَّمَا يَصْنَعُ فِي نَصِيبِهِ. فَإِنْ أخَذُوا عَلَى يَدَيْهِ نَجَوْا وَنَجَا، وإِنْ لمْ يَفْعَلُوا هَلَكَ وَهَلَكُوا»[1].

وهذه الرواية ورواية أخرى للطبراني أيضا بينت أن أقسام السفينة ثلاثة "فأَصَابَ بَعْضُهُمْ أعْلاهَا، وَأصَابَ بَعْضُهُمْ أسْفَلَهَا، وَأصَابَ بَعْضُهُمْ وَسَطَهَا"[2].

والذي يغلب على ظني أن هذا الاختلاف في هذه الرواية إنما يرجع إلى أن الراوي فهم أن الأقسام ثلاثة (وهم القائم، والراتع، أو الواقع فيها، والمدهن وهو الساكت عن الحق، "القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللّهِ وَالرَّاتِعِ فِيهَا، وَالمُدَّهِنِ فِيهَا")، فظن أن ذلك يقتضي أن تكون أقسام السفينة ثلاثة أيضا، وكل هذا لا يخرج عن فهم الرواية الصحيحة التي رواها **الإمام البخاري**، رحمة الله عليهم جميعا.

---

[1] المعجم الكبير للطبراني من جـ ٢١ (٢١/ ٥٢).

[2] المرجع السابق: «مَثَلُ الْمُدَاهِنِ فِي الْحُدُودِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا وَالقَائِمِ عَلَيْهَا، كَمَثَلِ ثَلاثَةِ نَفَرٍ رَكِبُوا فِي سَفِينَةٍ، فَاسْتَهَمُوا مَنَازِلَهُمْ، فَوَقَعَ لأَحَدِهِمْ أَسْفَلُهَا وَأَوْعَرُهَا وَأَخْبَثُهَا، وكَانَ لِلآخَرِ أَوْسَطُهَا، وكَانَ للآخَرِ أَعْلاهَا؛ فَكَانَ مُخْتَلَفُهُ وَمُهَرَاقُ مَائِهِ عَلَيْهِمْ، فَلَمْ يَنْذَرُوا بِهِ حَتَّى إذَا هُوَ يُرِيدُ أَنْ يَخْرِقَ فِيهَا خَرْقًا؛ يَقُولُ: أَقْرُبُ مِنَ الْمَاءِ؛ فَلا يَكُونُ مَجَازِي عَلَيْكُمْ. فَقَالَ بَعْضُهُمْ: دَعُوهُ– أَبْعَدَهُ الله! – إِنَّمَا يَخْرِقُ فِي نَصِيبِهِ. وَقَالَ الآخَرُ: لا تَدَعُوهُ؛ إنَّمَا يُهْلِكُنَا. فَإِنْ أَخَذُوا عَلَى يَدَيْهِ سَلِمُوا، وَإِنْ تَرَكُوهُ هَلَكُوا». أي: لم يعلموا به؛ يقال: نَذِرَ بالشيء وبالعدوِّ يَنْذَرُ– كفرح يفرح– نَذَارةً ونِذارةً ونَذَرًا: علمه فَحَذِرَه، "تاج العروس". مَجَازي، أي: مُرُوري؛ من جاز المكانَ يَجُوزه: سار فيه.

و «مَجَاز» هنا مصدرٌ ميميٌّ على وزن «مَفْعَلٍ». وانظر: "المصباح المنير".

وتوجد روايات أخرى في الكتب المذكورة، ولكن لا تخرج عن المعاني السابقة"[1].

[1] المعجم الكبير للطبراني من جـ ٢١ (٢١/ ٤٦) «مَثَلُ الْمُدَاهِنِ فِي أَمْرِ اللهِ كَمَثَلِ رَهْطٍ رَكِبُوا سَفِينَةً، فَاقْتَرَعُوا عَلَى الْمَنَازِلِ فِيهَا، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَى السَّفِينَةِ وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَاطَّلَعَ مُطَّلِعٌ مِنَ الَّذِي أَعْلَى السَّفِينَةِ؛ فَإِذَا بَعْضُ مَنْ أَسْفَلَهَا يَخْرِقُهَا، فَقَالَ لَهُ: مَا تَصْنَعُ يَا فُلَانُ؟ قَالَ: أَخْرِقُ مَكَانًا أَسْتَقِي مِنْهُ وَأَتَوَضَّأُ وَأَشْرَبُ. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فَإِنْ غَيَّرُوا عَلَيْهِ نَجَا وَنَجَوْا بِإِذْنِ اللهِ، وَإِنْ تَرَكُوهُ يَخْرِقُهَا غَرِقَ وَغَرِقُوا».

المعجم الكبير للطبراني (٢١/ ٤٩) عن الشعبيِّ، قال: سمعتُ النعمانَ بنَ بَشيرٍ؛ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ مَثَلُ قَوْمٍ رَكِبُوا سَفِينَةً، وَاقْتَرَعُوا مَنَازِلَهَا، فَكَانَ مَكَانُ النَّتْنِ وَمُهَرَاقُ الْمَاءِ وَمُخْتَلَفُ الْقَوْمِ لِأَحَدِهِمْ، فَضَجِرَ، فَأَخَذَ الْقَدُومَ فَنَقَرَ فِي السَّفِينَةِ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ لِلآخَرِ: أَتُرِيدُ أَنْ تُغْرِقَنَا وَتُغْرِقَ سَفِينَتَهُمْ؟ قَالَ الآخَرُ: دَعُوهُ؛ فَإِنَّمَا يَخْرِقُ مَكَانَهُ!!».

المعجم الكبير للطبراني (٢١/ ٥٢) عن النعمانِ بنِ بَشيرٍ ﷺ، عن النبيِّ ﷺ قال: «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا وَالْمُدْهِنِ فِيهَا، مَثَلُ نَفَرٍ اسْتَهَمُوا فِي سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاهَا، وَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، وَأَصَابَ بَعْضُهُمْ وَسَطَهَا؛ فَكَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَسْتَقِيَ مِنَ الْمَاءِ مَرَّ عَلَى الَّذِينَ مِنْ فَوْقِهِ فَتَأَذَّوْا بِهِ. فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ، أَخَذَ الْفَأْسَ قَالَ: أَنْقُبُ هَهُنَا فَأَسْتَقِي مِنْ قَرِيبٍ. قال الَّذِينَ فَوْقَهُ: لا تَصْنَعْ؛ تُرِيدُ أَنْ تُهْلِكَنَا؟! فَقَالَ الآخَرُ: وَيْحَهُ! فَإِنَّمَا يَصْنَعُ فِي نَصِيبِهِ. فَإِنْ أَخَذُوا عَلَى يَدَيْهِ نَجَوْا وَنَجَا، وإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا هَلَكَ وَهَلَكُوا» وأخرجه الحميدي، والإمام أحمد.

أسباب اختلاف الروايات

نخلص مما سبق إلى أن الاختلاف بين الروايات إنما يرجع إلى الفرق بين المضمون الخبري المجرد، والمضمون الخبري بالتكامل مع السياق، حيث المعنى المستفاد من الجمع بين الروايات، يمكن أن يستفاد من كل رواية على حدة، دون الجمع مع باقي الروايات، إذا ما أخذ بعين الاعتبار السياق القصصي، الذي يحمل في ثناياه ما لا يحمله الخبر المجرد.

وقد نشأ الخلاف بسبب تغليب بعض الرواة للأخبار المجردة، في نص الحديث، وبين نقل رواة آخرين المعنى في سياق النص مكتملا، وكذلك فالذين رووا بالمعنى عبروا عنه بالألفاظ الشائعة لدى كل منهم، فاختلفت الألفاظ للمعنى الواحد، كمثل: فلمْ يَتَذَرُوا بهِ، مَجَازِي عَلَيْكُمْ، مهراق الماء، وغير ذلك، مع أن المعنى المراد عند الجميع يرجع إلى لفظ واحد، هو اللفظ الذي رواه **النعمان بن بشير** رضي الله عنه.

ولتوضيح المقصود:

نقول إنه يمكن أن نردّ هذه الروايات إلى نص واحد، وذلك بأنّ من نقل تأذي الذين في أعلى السفينة ـ على سبيل التوضيح ـ منهم من تبادر إلى ذهنه أنهم اعترضوا بسبب تأذيهم، ومنهم من نبه على حدوث التأذي، دون بيان رد فعلهم، وهذا وجه لاختلاف الروايات.

وقد سبق بيان أسباب ذكر الأصناف الثلاثة في بعض الروايات، والاقتصار على اثنين في روايات أخرى، وأن ذلك ـ أيضا ـ يمكن أن يستفاد من النص الواحد، ولكن الاختلاف نشأ بسبب اللفظ

الخبري المجرد، وبين اللفظ في السياق القصصي، وتعبير كل راوٍ للصورة والمثال كما فهمه هو.

📖 **من جانب آخر:**

فإن المثال والتشبيه قد أفسح المجال واسعا لاستخلاص وجه الشبه والبلاغة فيه، دون إغفال أهم هدف من التشبيه ألا وهو "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"، لندرك أن الأصل فيمن يقوم على حدود الله تعالى أنه يتأذى بحدوث المنكر، ولا يرضاه، حتى وكأنه يصيبه بما يكره في نفسه مباشرة، وهذا المعنى يستفاد من ذكر التأذي في الرواية.

وكذلك لا يكفيه أن يأمر وينهى، بل لابد أن يشارك في العلاج، وهذا مع كون العلاج لم يُذكر تصريحا في الحديث، إلا أنه يستفاد من السياق أيضا، لأنه لا يمكن أن يُمنع من في الأسفل من الشرب، حتى ولو تأذى من فوقهم، ولهذا فلابد من بديل لهم عن عملية الخرق في أسفل السفينة، حتى ولو كان العلاج هو عودتهم مرة أخرى للاستقاء من أعلى، ويتوافقون مع من بالأعلى، بما يقلل من الأذى، إلى أقل درجة، أو يمنعه، وهذا هو العلاج المقصود للمشكلة.

ونشير أيضا إلى معنى في رواية **الإمام الترمذي**، وفي رواية عند **الإمام أحمد**"[1] لم تذكره أكثر الروايات الأخرى، التي أوردناها،

---

[1] مسند أحمد ط الرسالة (٣٠/ ٣١٠) قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ، وَالْمُدَّهِنِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فِي الْبَحْرِ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، وَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا يَصْعَدُونَ، فَيَسْتَقُونَ الْمَاءَ، فَيَصُبُّونَ عَلَى الَّذِينَ فِي أَعْلَاهَا، فَقَالَ الَّذِينَ فِي أَعْلَاهَا: لَا نَدَعُكُمْ

حيث بينت هذه الرواية أن الاستهام كان فِي البَحْرِ، "كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فِي البَحْرِ"

فالزيادة المذكورة ـ هذه ـ تبين أن عملية الاستهام تمت في البحر، وليس على البر قبل الركوب، ويستفاد من ذلك بيان أنهم لم يكونوا بالفعل ذوي دراية بركوب البحر ومعرفة السفن، ولهذا لجأوا إلى الاستهام بعد ما عرفوه واطلعوا عليه، من حال السفينة بعد معاينتها، وهذا المعنى أيضا يمكن أن يستفاد من السياق، حتى ولو لم ينص عليه باللفظ، ولهذا فهذه الروايات لا تعارض حقيقي بينها، والله أعلم.

ويمكن أن تشير الزيادة ـ في البحر ـ إلى أن حال الدنيا، كحال البحر، مجهول، من جهة الحقيقة، بالنسبة للعباد، لأنهم لا دراية لهم بها، إلا بعد معايشتها، والتعرض لأحوالها، فالدنيا تحمل دائما المجهول بالنسبة للإنسان، كما أن السفينة مجهولة بالنسبة لمن لم يعاينها من قبل، والله أعلم بالمراد.

ثم تضيف هذه الزيادة أيضا: إنه قد حدث بين الركاب نزاع، أو خلاف، بعد معاينة السفينة، فاحتكموا إلى القرعة والاستهام، وقد يكون هذا سببا مفهوما لعملية الاستهام، لأن الاستهام قبل الركوب قد لا يكون معقولا أو مفهوما، حيث من الممكن أن يتم التمايز بين الركاب بأسبقية الركوب، أو بأن الأعلى أجرا يكون في العلو، والأقل أجرا يكون في السفل، وغير ذلك.

تَصْعَدُونَ، فَتُؤْذُونَنَا، فَقَالَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا: فَإِنَّنَا نَنْقُبُهَا مِنْ أَسْفَلِهَا، فَنَسْتَقِي" قَالَ: "فَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ، فَمَنَعُوهُمْ، نَجَوْا جَمِيعًا، وَإِنْ تَرَكُوهُمْ غَرِقُوا جَمِيعًا "

ونحن نحاول فهم هذه النقطة، نظرا لأن عليها مدار الفهم الصحيح للحديث، والذي يجعلنا نبحث عن الدافع إلى عملية الاستهام"[1].

وبخاصة أن الحديث قد مثل للقائمين على حدود اللّه بمن كان نصيبهم من السفينة بالأعلى، بينما مثل للواقعين فيها لمن كان نصيبهم بالأسفل، وهذا ما سوف نتناوله، بتوفيق اللّه عز وجل بالتفصيل والبيان.

[1] وسوف نبين ــ بتوفيق الله تعالى ــ أن الدافع قد يكون أمرا قدريا دُفعوا إليه دفعا، بسبب النزاع بعد الركوب، أو غير ذلك، والله أعلى وأعلم.

تعدد الروايات والاعتداد بها شرعا

بينا أن تعدد الروايات إنما يرجع إلى أن الرواة منهم من نقل الحديث بلفظه الذي سمعه من الصحابي الجليل **النعمان بن بشير** ﷺ، ومنهم من نقله بالمعنى الذي فهمه من لفظ الحديث، ويختلف نقل المعنى من راو إلى آخر، كما سبق وبينا، ويبعد أن يكون الحديث قد قاله الرسول ﷺ في أكثر من موقف، نظرا لأن هذه الروايات المذكورة كلها مروية عن صحابي واحد ﷺ، ولو كان الرسول ﷺ قد قاله أكثر من مرة لرواه أكثر من صحابي ﷺ، فليس من معهود الشرع أن يتكرر النص في أكثر من موقف، دون موجب لهذا التكرار، ولهذا نرجح أن رواية **النعمان بن بشير** ﷺ عن الرسول ﷺ واحدة لم تتكرر، وقد يكون الصحابي الجليل ﷺ هو من تكررت منه الرواية"[1]، فاختلفت ألفاظها مرة عن الأخرى، وإن كنا لا نجزم بذلك، والله أعلى وأعلم.

---

[1] النظر الفسيح عند مضائق الأنظار في الجامع الصحيح، للشيخ الإمام محمد الطاهر ابن عاشور (ص: ٧٧) وقع هذا الحديث في رواية زكرياء عن الشعبي بلفظ: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها». واللفظ لفظ رسول الله ﷺ فالظاهر أن النعمان حدث به مرة بلفظ: «القائم» ومرة بلفظ: «المدهن»، فيتعين أن يكون اللفظان بمعنى واحد، فالمراد بـــ «القائم». الواقف عند الحد لم يقتحمه ولم يبعد عنه، فهو يرى الواقع في الحدود، ولكنه لا يقع معه. وكذلك «المدهن»: هو الذي يرى الواقع في الحدود ولا يجترئ على أنه ينهاه ويمنعه، فهو يصانعه؛ فلذلك سمي مدهناً؛ لأن الإدهان هو المصانعة. ولعل رسول الله ﷺ قد مثل مرة بالقائم ومرة بالمدهن، وسمع منه النعمان بن بشير كليهما، فحدث مرة بهذا

ونؤكد أن الرواة رضي الله عنهم كانوا حريصين على نقل نص الحديث الشريف، كما قاله رسول الله ﷺ، أو نقل معناه دون الخروج عن النص مطلقا، ويرجع ذلك إلى الخوف من الكذب على النبي ﷺ ففي الحديث: «إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدٍ، مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[1].

وقد زكاهم الخالق سبحانه بقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التَّوْبَة من الآيه : ١٠٠]، ورضا الله عنهم ورضاهم عنه سبحانه يؤكد أنهم أهل طاعته، القائمين على إعلاء شريعته ـ تبارك وتعالى ـ كما يحب سبحانه ويرضى.

وكون رواة الحديث هم ضمن هؤلاء المعنيين بهذه الآية، وما في معناها، فيرجع إلى اتفاق الأمة على أن صحيح البخاري ـ رحمه الله تعالى ـ هو أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى، وما ذلك إلا لتحريه الشديد في من يروي عنهم من الرجال، ومن هنا علمنا أن هؤلاء الرواة هم معنيون بهذه الآية، وكذلك غيرهم من رواة الحديث، لأن الذين صححوا الروايات الأخرى، إنما صححوها بسبب الثقة في رواتها، من جهة العدل والضبط أيضا.

وإذا كان الأمر كذلك: فلن يَعْدِلَ أحدٌ من هؤلاء الرواة عن لفظ الرسول ﷺ عمدا، ولكن بسبب أمر قهري لا طاقة على دفعه، كأن يكون نسي اللفظ فذكر معناه، أو يكون التبس

ومرة بهذا، أو كذلك حدث الشعبي عن النعمان بن بشير)، وهذا هو ما نرجحه كما ذكرنا في المتن، أن الحديث لم يتكرر من رسول الله ﷺ.

[1] متفق عليه: صحيح البخاري (٢/ ٨٠)، صحيح مسلم (١/ ١٠).

عليه اللفظ والمعنى، فذكر ما غلب على ظنه أنه هو اللفظ الذي سمعه، وكان في حقيقته هو المعنى، أو غير ذلك من مثل هذه الأسباب الاضطرارية.

وهكذا نتأكد أن ما نقل إلينا من روايات مختلفة للحديث هي نصوص شرعية معتبرة في شرع الله جل في علاه، مع الأخذ بعين الاعتبار ما قاله أهل الجرح والتعديل فيما يتعلق برواة كل رواية، والله أعلى وأعلم.

المغزى العام المستفاد من الحديث

بعد عرض هذه الروايات المختلفة، للحديث الشريف، نطمئن إلى أن المقصد من الحديث والمغزى منه هو وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وليس هذا فحسب، بل لابد أن يكون الآمر والناهي سبَّاقا إلى علاج الخلل، إن كان له بذلك قدرة، وأن الإخلال بهذا الواجب، مع المقدرة عليه، يكون سببا في الهلكة والعذاب، والذي يعم الجميع، حتى ولو كان الساكت ليس ممن ارتكب الحرام.

فإن انتهاك حرمات الله تعالى جرم عظيم، لا يرتضيه ويسكت عنه إلا هالك، ومما يدل على هذا ما ورد عنْ السيدة عائِشَة، رضي الله عنها، قالت: «مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا قطُّ بِيَدِهِ، وَلَا امْرَأَةً، وَلَا خَادِمًا، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قطُّ، فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ، إِلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللَّهِ، فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»[1].

فالرسول ﷺ ينتقم لله عز وجل، وليس الإنكار فقط، ولهذا لابد أن يكون الداعي إلى الله تعالى - الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر- حريصا على إعلاء شرعه سبحان حتى وإن أدى ذلك إلى الانتقاص من بعض ما يتمتع به في حياته، من طمأنينة وسعة، ففي الحديث عَنْ قَيْسٍ، قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ: بَعْدَ أَنْ حَمِدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذِهِ الْآيَةَ، وَتَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَوَاضِعِهَا: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴿١٠٥﴾﴾ [المائدة من الآيه : ١٠٥]، قَالَ: عَنْ خَالِدٍ (راوي الحديث)، وَإِنَّا

[1] صحيح مسلم (٤/ ١٨١٤).

سَمِعْنَا النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ، أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ» وَقَالَ عَمْرٌو: عَنْ هُشَيْمٍ، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي، ثُمَّ يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يُغَيِّرُوا، ثُمَّ لَا يُغَيِّرُوا، إِلَّا يُوشِكُ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ مِنْهُ بِعِقَابٍ»[1]، ويستفاد أيضا من بيان سيدنا أبي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه أن نصوص الشرع لا يصلح أن تفهم بالاقتصار على ظاهرها، وكأنها أخبار مجردة، منقطعة عن السياق الذي يبين معناها الصحيح.

وكذلك يفهم من بيانه رضي الله عنه أن نصوص الشرع لو حملت على ظاهرها وحده، أو كما نعبر عنه بالخبر المجرد، لكان معنى ذلك أن نضرب نصوص الشرع بعضها ببعض، وهذا باطل لا يجوز، فظاهر الآية يمكن أن يحمل على وجه يؤدي إلى أن يكون شاغل الإنسان هو نفسه وفقط، وليس يعنيه ما يجري حوله في مجتمعه، وهذا يعارضه قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ ١١٠﴾ [آل عِمرَان : ١١٠]، فمقصود الآية {عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ} ليس كما يتبادر من ظاهره، أي إيثار الراحة والدعة، وعدم التعرض لما يمكن أن يكون سببا في الانتقاص من مكتسبات الإنسان، التي تعينه على لين العيش، بل المقصود أن الإنسان ليس مسئولا عن غيره، إذا ما قام بما في وسعه، من أجل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعندها لا يحاسب عن ظلم غيره ولا تقصير المقصر، ومن ذلك حديث سفيان بن عقال قال: قيل لابن عمر: لو جلست

[1] سنن أبي داود (٤/ ١٢٢): وقال الألباني: صحيح.

في هذه الأيام فلم تأمر ولم تنه، فإن الله تعالى ذكره يقول: "عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم"؟ **فقال ابن عمر**: إنها ليست لي ولا لأصحابي، لأن رسول الله ﷺ قال: "ألا فليبلّغ الشاهد الغائبَ"، فكنّا نحن الشهودَ وأنتم الغيَب، ولكن هذه الآية لأقوام يجيئون من بعدنا، إن قالوا لم يقبل منهم)[1].

(**عن الحسن: أن ابن مسعود سأله رجل عن قوله :** {عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلّ إذا اهتديتم}، قال: إن هذا ليس بزمانها، إنها اليوم مقبولة، ولكنه قد أوشك أن يأتي زمانٌ تأمرون بالمعروف فيصنع بكم كذا وكذا، أو قال: فلا يقبل منكم، فحينئذ: عليكم أنفسكم، لا يضركم من ضلّ)[2].

وعند الإمام الماتريدي: (ظن بعض الناس أن الآية رفعت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والسعة في ترك ذلك، وليس فيه رفع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - ولكن فيه إنباء أن ليس علينا فيما يُرد، ولا يُقبل، من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر - شيء، وهو كقوله تعالى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام من الآيه : ٥٢] وكقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ ﴾ [النور من الآيه: ٥٤]، ليس فيه رخصة ترك تبليغ الرسالة إليهم، ورفعه عنه، ولكن إخبار أن ليس عليه فيما يرد وترك القبول شيء، كقوله: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ [الشورى من الآيه : ٤٨]، فعلى ذلك الأول، والله أعلم.

---

[1] تفسير الطبري (١١/ ١٣٩).

[2] المرجع السابق (١١/ ١٤١).

ويقول: ويحتمل: أن يكون في الآية دليل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأنه قال: {لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ} بترك قبول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر {إِذَا اهْتَدَيْتُمْ} أنتم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب، وبذلك وصف الله هذه الأمة بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ١١٠﴾ [آل عِمْرَان من الآيه : ١١٠])[١].

وهكذا: يتضح بجلاء، ما أفاده الحديث الشريف، من أهمية الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتوقف سلامة المجتمع المسلم على ذلك.

ومع هذا: نقول إن المغزى من الحديث لم يكتمل بهذا المعنى، الذي نقلناه عن أئمة الشرع، بل نطمئن إلى أنهم اقتصروا على المعنى الظاهر من الحديث فقط، ولعل ما دفعهم إلى ذلك أن هذا المعنى هو الذي يترتب عليه حكم تكليفي، يستوجب المدح والثواب، أو الذم والعقاب، وهذا الحكم هو الأمر بالمعرف والنهي عن النكر، بينما المغزى المتعلق بالعظة والاعتبار غفلوا عنه، ولم يتعرضوا له، لانشغالهم بالحكم التكليفي، كما ذكرت سابقا، وقد يكون سبب هذا، أن خفاء المعنى، أو صعوبة استيعاب العامة له، جعلهم لا يتعرضون له بالذكر والتوضيح، أو بسبب غير ذلك.

---

[١] تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (٣/ ٦٣٦).

زيادة المبنى وأثره في خفاء المعنى

والأصل أن زيادة المبنى تؤدي - عادة - إلى وضوح المعنى، كما هو الحال في كلام البشر، ولكن ليس الأمر على إطلاقه في نصوص الشرع، لأن زيادة المبنى ترتبط في نصوص الشرع بحكمة مرادة، وقد لا تتحقق هذه الحكمة لو ظهر المعنى جليا لكل العيان، ولهذا يكون الخفاء، الذي تؤدي إليه زيادة المبنى سببا في التدقيق، واستفراغ الوسع بالاجتهاد في البحث طمعا في الوصول إلى الحكمة المرادة، والله أعلى وأعلم.

ولهذا: وبعد أن عرضنا شروحا وافية للحديث، والمغزى منه، ونقلنا تعدد الروايات فيه، نلاحظ أنه لا أحد من الشراح توقف أمام عملية الاقتراع أو الاستهام، من جهة تعلقها بالمعنى المراد من الحديث، بل إن كل ما نُقل عنهم هو التعامل مع لفظ القرعة أو الاستهام، بعيدا تماما عن سياق الحديث، ومعناه الكلي، والمغزى المراد منه.

ومن هنا خفي المعنى المراد من لفظ الاستهام، وبدلا من أن يكون زيادة المبني اللفظي - وهي لفظ "استهموا" - وسيلة إلى الوضوح والبيان، غاب المعنى الأهم عن اهتمام الشراح، وتناولوه تناولا لا علاقة له بسياق الحديث، وقد يكون هذا واحدا من أهم الإشكاليات، من جهة أنه هل يجوز أن يقع ذلك من الأئمة العلماء؟، وبخاصة أنه قد وقع منهم ذلك بالفعل، كما في تناول **الامام ابن حجر** لعملية الاستهام بقوله: (قَوْلُهُ اسْتَهَمُوا سَفِينَةً أَيِ اقْتَرَعُوهَا فَأَخَذَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ سَهْمًا أَيْ نَصِيبًا مِنَ السَّفِينَةِ بِالْقُرْعَةِ بِأَن تكون مُشْتَرَكَةً بَينهم إِمَّا بِالْإِجَارَةِ وَإِمَّا بِالْمِلْكِ،

وَإِنَّمَا تَقَعُ الْقُرْعَةُ بَعْدَ التَّعْدِيلِ ثُمَّ يَقَعُ التَّشَاحُ"[1] فِي الْأَنْصِبَةِ فتقَعُ القُرْعَةُ لفصل النزاع، قالَ بن التين"[2] وَإِنَّمَا يَقَعُ ذَلِكَ فِي السَّفِينَةِ وَنَحْوِهَا فِيمَا إِذَا نَزَلُوهَا مَعًا، أَمَّا لَوْ سَبَقَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فالسَّابِقُ أحَقُّ بِمَوْضِعِهِ"، قلْتُ وَهَذَا فِيمَا إِذَا كَانَتْ مُسَبَّلَةً"[3] مَثَلًا، أَمَّا لَوْ كَانَتْ مَمْلُوكَةً لهُمْ مَثَلًا فالقُرْعَةُ مَشْرُوعَةٌ إِذَا تَنَازَعُوا وَاللَّهُ أَعْلَمُ)[4].

ويتضح من هذا الشرح مدى الاهتمام بعملية الاقتراع، حسما لأي نزاع، وهو المعنى الذي استخلصوه من قوله ﷺ: "اسْتَهَمُوا".

ومسألة النزاع المذكورة في هذا الشرح لا يوجد ما يبررها، حتى ولو كانت من الأمور التي تحدث أحيانا، في مثل هذه المواقف، ولكن التشبيه لم ينتفع منها مطلقا - في ظل هذه الشروح - بل على العكس، أبعدنا تماما عن المغزى المقصود من التشبيه، حتى أنه نقل قول ابن التِينِ وَإِنَّمَا يَقَعُ ذَلِكَ فِي السَّفِينَةِ وَنَحْوِهَا

---

[1] معجم لغة الفقهاء (ص: ١٣١) التشاح: من الشح، والشح البخل مع حرص، تشاح الرجلان على الأمر: حرص كل منهما على أن لا يفوته.

[2] تراجم المؤلفين التونسيين ابن التين (٦١١ هـ) (١٢١٤ م) عبد الواحد بن عمر بن عبد الواحد بن ثابت المعروف بابن التين الصفاقسي، أبو عمرو، وأبو محمد، المحدث، الفقيه. توفي بصفاقس له شرح على صحيح البخاري سمّاه المخيّر الفصيح الجامع لفوائد مسند البخاري الصحيح، ينقل في شرحه عن أبي جعفر أحمد بن نصر الداودي (هو طرابلسي توفي بتامسان سنة ٤٤٠/ ١٠٥٠ له النصيحة في شرح البخاري)، وعن هذا الشرح ينقل الحافظ ابن حجر في فتح الباري، مناقشا له غالبا.

[3] مُسَبَّلَةً، جعلها في سبيل الله أي مباحة، أي خصصها ونذرها.

[4] فتح الباري لابن حجر (٥/ ٢٩٥).

فِيمَا إِذَا نَزَلُوهَا مَعًا، أَمَّا لَوْ سَبَقَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فَالسَّابِقُ أَحَقُّ بِمَوْضِعِهِ).

وموضوع أنهم نزلوا السفينة معا، محل نظر، ومع هذا فقد بيَّنَ أنهم لو لم ينزلوها معا لما كان هناك حاجة إلى القرعة والاستهام، نظرا لأحقية من جاء أولا في أفضل الموضعين، وليس هذا فقط بل إن اختلاف الأجور يرفع الحاجة إلى الاقتراع والاستهام، ولهذا لا يوجد ما يبرر إجراء القرعة والاستهام في هذه المسألة، على الوجه الذي تناولوه بالشرح، حيث بينوا مشروعية القرعة، والفائدة منها في حسم النزاع، وهذا وجه لا تأثير له في المثال المضروب، وهذا هو أهم سبب لتعرضنا لهذا الحديث بالشرح.

ويؤكد الاهتمام بمغزى الاستهام، كحكم مستقل، بعيدا عن السياق القصصي للحديث، ما ذهب إليه **الإمام ابن بطال**"[1] مبينا أقوال الفقهاء، واختلافهم في الأخذ بالقرعة، إذ يقول: (القرعة سنة لكل من أراد العدل في القسمة بين الشركاء، والفقهاء متفقون على القول بها، وخالفهم بعض الكوفيين، وردوا الأحاديث الواردة فيها، وزعموا أنه لا معنى لها، وأنها تشبه الأزلام التي نهى الله عنها"[2]، وحكى **ابن المنذر**، عن **أبي حنيفة** أنه

---

[1] أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك (المتوفى: ٤٤٩هـ).

[2] الموسوعة الفقهية الكويتية (٣/ ١٣٨) قال الأزهري: الأزلام كانت لقريش في الجاهلية، مكتوب عليها: أمر ونهي، وافعل ولا تفعل، قد زلمت وسويت، ووضعت في الكعبة، يقوم بها سدنة البيت، فإذا أراد الرجل سفرا أو نكاحا أتى السادن فقال: أخرج لي زلما، فيخرجه وينظر إليه، فإذا خرج قدح (الأمر) مضى على ما عزم عليه، وإن خرج قدح (النهي) قعد عما أراده، وربما كان

جوزها، وقال: القرعة في القياس لا تستقيم، ولكنا تركنا القياس في ذلك وأخذنا بالآثار والسنة)[1].

ثم يبين خطأ من قال بعدم جواز القرعة بقوله: (وقال **إسماعيل بن إسحاق**: وليس في القرعة إبطال شيء من الحق، كما زعم الكوفيون، وإذا وجبت القسمة بين الشركاء في أرض أو دار، فعليهم أن يعدلوا ذلك بالقيمة، ثم يستهموا ويصير لكل واحد منهم ما وقع له بالقرعة مجتمعًا، مما كان له في الملك مشاعًا، فيصير في موضع بعينه، ويكون له ذلك بالعوض الذي صار لشريكه؛ لأن مقادير ذلك قد عدل بالقيمة)[2].

ويقول: (وإنما منعت القرعة أن يختار كل واحد منهم موضعًا بعينه، وهذا إنما يكون فيما يتشابه من الدور والأرض والعروض، وما تستوي رغبة الناس في كل موضع مما يقترع عليه)[3]. **ويستدل بهذا الحديث على حجية القرعة في شرع الله تعالى، حيث**

مع الرجل زلمان وضعهما في قرابه، فإذا أراد الاستقسام أخرج أحدهما، والفقهاء يذكرون الأزلام على أنها السهام التي كان أهل الجاهلية يستقسمون بها في أمور حياتهم، وروي عن العزيزي: أنها السهام التي كان أهل الجاهلية يستقسمون بها على الميسر، والذي تحصل من كلام أهل النقل ــ كما جاء في فتح الباري والقرطبي والطبري ــ أن الأزلام: منها ما هو مخصص للاستقسام بها في أمور الحياة، من نكاح وسفر وغزو وتجارة وغير ذلك، ومنها ما هومخصص للميسر "القمار".

[1] شرح صحيح البخاري لابن بطال (٧/ ١٢).

[2] المرجع السابق.

[3] نفس المرجع (٧/ ١٣).

يقول: (وفى قوله، عليْهِ ﷺ: "كَمَثَلِ قوْمٍ اسْتهَمُوا علَى سَفِينَةٍ"، جواز القرعة، لإقرار النبي ﷺ لها، وأنه لم يذم المستهمين في السفينة، ولا أبطل فعلهم، بل رضيه وضربه مثلاً، لمن نجى نفسه من الهلكة في دينه)[1].

ومن الغريب حقا أن يُستدل بهذا الحديث على جواز القرعة، حتى أنه أكد على هذا المعنى بقوله: (وقد ذكر البخارى أحاديث كثيرة فى القرعة فى آخر كتاب الشهادات، وترجم له باب القرعة فى المشكلات)[2]، مع أن سياق الحديث بعيد تماما عن موجبات الاقتراع.

وكما قلنا: ومن خلال الشروح، وبيان المغزى من الحديث، فإن سياق الحديث يبين أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأما حكم الاستهام على النحو الذي تعرض له الشراح يمكن الاستغناء عنه تماما، وقد وُجدَ بالفعل ما يدل على استغناء الحديث عن لفظ الاستهام، في تقدير بعض أهل العلم، من السلف ومَنْ بعدَهم.

ومن ذلك: ما قال به بعض الشراح، ومنهم **الإمام الهروي**، إذ يقول: (اسْتهَمُوا سَفِينَةً) أيِ: اقتسَمُوا مَحَالهَا وَمَنَازِلهَا بِالْقُرْعَةِ، وَهَذَا قيْدٌ اتِّفَاقِيٌّ[3]، وَإِنَّمَا يُتصَوَّرُ فِي جَمْعٍ خَاصٍّ مَلكُوهَا بِالشَّرِكَةِ

---

[1] المرجع السابق.

[2] نفس المرجع السابق.

[3] والقيد الاتفاقي هو قيد غير مقصود من ذكره معنى معين، بل إنه يخرج مخرج العادة، كما لو قلنا ــ مثلا ــ إن القوم قد صلوا الظهر، والشمس

المُتساوِيَة، وَإلا فقدْ يكُونُ الِاقتِسَامُ بِحَسَبِ أمْرِ صَاحِبِ السَّفِينَة علَى مُقْتضَى الإِجَارَةِ وَغَيْرِهَا، وَقالَ بَعْضُهُمْ: فِيهِ نَدْبُ القَرْعَة إذَا تشَاجَرُوا أيْ: تنَازَعُوا علَى الجُلُوسِ فِي الأعْلَى وَالأسْفَلِ، وَذلِكَ إذَا نَزَلوا فِيهَا جُمْلَة أمَّا إذَا نَزَلوا مُتفرِّقِينَ، فَمَنْ سَبَقَ مِنْهُمْ إلى مَكَانٍ فهُوَ أحَقُّ لهُ مِنْ غَيْرِهِ. قلْتُ: وَهَذَا لَا يَصِحُّ إلا إذَا كَانَتِ السَّفِينَة مَوْقوفة علَى الفُقرَاءِ، أوْ علَى الحُجَّاجِ وَالغُزَاةِ، بِخِلَافِ مَا إذَا كَانَتْ مَمْلوكَة لِأحَدٍ أوْ جَمَاعَةٍ علَى سَبِيلِ الِاشْتِرَاكِ)[1].

فقوله : (وَهذَا قيْدٌ اتِّفَاقِيٌّ) يدل على أنه يمكن الاستغناء عنه، دون أن يخل بالمعنى المراد. ودعوى القيد الاتفاقي، يلجأ إليها المجتهدون عند العجز عن الوصول للمعنى المراد، فهي دليل عجز لا غير، والأصل أن نصوص الشرع تنزه عن أن يكون من ألفاظها ما هو زائد، ويتم المعنى بدونه.

ومما يؤكد ذلك، أنه وردت بعض الروايات لم تذكر لفظ الاستهام، كما في مسند أحمد وغيره: "مَثلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ، وَالوَاقِعِ فِيهَا، المُدَّهِنِ فِيهَا، مَثلُ قوْمٍ رَكِبُوا سَفِينَة، فَأصَابَ

ساطعة، فلفظ الشمس ساطعة لا يراد منه معنى خاص، بل هو خرج مخرج العادة، فهو قيد اتفاقي.

[1] مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح لعلي بن (سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري (المتوفى: ١٠١٤هـ) (٨/ ٣٢١٠)

بَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، وَأَوْعَرَهَا، وَشَرَّهَا، وَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا، فَكَانَ الذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا المَاءَ،... الخ[1].

ومما لا شك فيه أن العمل بالقرعة مشروع، ودليل مشروعيته منصوص عليه في كتاب الله تعالى"[1]، وسنة رسوله ﷺ وبأكثر

---

[1] مسند أحمد (٣٠/ ٣٢٢)، وفي أمثال الحديث لأبي الشيخ الأصبهاني، قَالَ: سَمِعْتُ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ، يَخْطُبُ يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: "مَثَلِي وَمَثَلُ الْأُمَرَاءُ كَمَثَلِ قَوْمٍ رَكِبُوا سَفِينَةً، فَأَصَابَ رَجُلٌ مِنْهُمْ مَكَانًا، فَقَالَ: يَا هَؤُلَاءِ طَرِيقُكُمْ وَمَمَرُّكُمْ عَلَيَّ، وَإِنِّي ثَاقِبٌ هَهُنَا ثُقْبًا فَأَسْتَقِي وَأَتَوَضَّأُ وَأَقْضِي فِيهِ حَاجَتِي، فَإِنْ هُمْ تَرَكُوهُ هَلَكَ وَأَهْلَكَهُمْ، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى يَدَيْهِ نَجَا وَنَجَوْا"، وفي المعجم الأوسط، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ مَثَلَ الْفَاسِقِ فِي الْقَوْمِ كَمَثَلِ قَوْمٍ رَكِبُوا سَفِينَةً فِي الْبَحْرِ، فَاقْتَسَمُوهَا، فَصَارَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَكَانٌ فَعَمَدَ أَحَدُهُمْ إِلَى مَكَانِهِ لِيَخْرِقَهُ، فَقَالُوا: أَتُرِيدُ أَنْ تُهْلِكَنَا؟ فَقَالَ: وَمَا أَنْتُمْ مِنْ مَكَانِي؟ فَإِنْ تَرَكُوهُ غَرِقُوا وَغَرِقَ مَعَهُمْ، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى يَدَيْهِ نَجَوْا وَنَجَا، فَذَلِكَ مَثَلُ الْفَاسِقِ»، لَمْ يَرْوِ هَذَا الْحَدِيثَ عَنْ سَلَمَةَ إِلَّا ابْنُهُ مُحَمَّدٌ، وَلَا عَنْ مُحَمَّدٍ إِلَّا حَسَّانُ، تَفَرَّدَ بِهِ الْأَزْرَقُ.

وفي المعجم الصغير للطبراني، النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "مَثَلُ الْمُدَاهِنِ فِي أَمْرِ اللَّهِ وَالْقَائِمِ فِي حُقُوقِ اللَّهِ كَمَثَلِ قَوْمٍ رَكِبُوا سَفِينَةً فَأَصَابَ رَجُلٌ مِنْهُمْ مَكَانًا فَقَالَ: يَا هَؤُلَاءِ، طَرِيقُكُمْ وَمَمَرُّكُمْ عَلِيٌّ، وَإِنِّي ثَاقِبٌ ثُقْبًا هَا هُنَا فَأَتَوَضَّأُ مِنْهُ وَأَسْتَقِي مِنْهُ وَأَقْضِي فِيهِ حَاجَتِي " قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «فَإِنْ هُمْ تَرَكُوهُ هَلَكَ وَأَهْلَكَهُمْ، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى يَدَيْهِ نَجَا وَنَجَوْا» لَمْ يَرْوِهِ عَنْ شُعْبَةَ إِلَّا شُعَيْبُ بْنُ الصَّفَّارِ، تَفَرَّدَ بِهِ مُهَلَّبُ بْنُ الْعَلَاءِ

من دليل، ويؤخذ بها في المواضع التي لا يمكن فيها العدل بين الشركاء إلا بها.

ونظرا لأن هذا الحديث مروي عن صحابي واحد ﵁، فإن اختلاف الروايات يرجع إلى فهم من رووا عنه ﵁ ومن رووا عن الرواة، وعدم ذكر لفظ الاستهام في بعض الروايات يؤكد - إلى درجة كبيرة - أن بعض الرواة رأى أن لفظ الاستهام اتفاقي، أو خرج مخرج العادة، كما يقولون، بمعنى أنه مستغن عنه في الحديث الشريف، ونظرا لأنه لم يرو الحديث بلفظه عن رسول اللّه ﷺ فقد روى كل راوٍ المعنى الذي استقر في ذهنه للحديث، واللّه أعلى وأعلم.

ومن هنا: إن قلنا بعدم وجود إشكال في عدم ذكرهم مسألة الاستهام، فإننا بذلك ندعي أنه يمكن الاستغناء عن لفظ من ألفاظ الشرع، وكما قلنا فإن هذا باطل.

ولهذا لا نملك إلا أن نقول إن هذا قد حدث، بسبب إغفال الأئمة لهذا اللفظ وضرورته في سياق الحديث الشريف، وليس لأنه يمكن الاستغناء عنه، وقد يكون السبب أنه لا يترتب عليه تكليف شرعي، أو غير ذلك، واللّه أعلم.

---

[1] {وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ} [آل عمران: ٤٤]، {فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ} [الصافات: ١٤١].

ما يترتب على الفهم التام للحديث

إن الفهم التام المتكامل للحديث الشريف، يقتضي عدم الوقوف عند أقوال السابقين فقط، بل لابد من الاجتهاد لاستكمال المعنى -قدر الاستطاعة- **فهل يعد هذا طعنا في السابقين؟.**

والجواب عن ذلك: لا يعد ذلك طعنا في السابقين، لأن لفظ الاستهام الوارد في الحديث الشريف لا يترتب عليه إثبات حكم شرعي، حيث قد وردت مشروعية القرعة بأدلة الكتاب الكريم، فالحكم ثابت بغير لفظ الاستهام الوارد في الحديث.

كذلك فمن المعلوم أن كثيرا من أقوال السابقين قد فقدت، أو دُمِّرت عمدا كما فعل التتار، أو غير ذلك من الأسباب، غير أن الله عز وجل حفظ شرعه، فلا يمكن أن يفقد دليل لا يوجد دليل غيره ينوب عنه في إثبات الحكم، وليس هذا وحسب بل لابد أن يوجد أيضا من أقوال الأئمة الأعلام، رحمة الله عليهم، ما يبين الحكم المستفاد من الدليل.

ونفصل هذه المسألة قليلا فيما يلي:

حكم الزيادة على مجموع أقوال السلف:

ولبيان هذه المسألة نقول إن نصوص الشرع من جهة التكليفية وعدمها تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: نصوص تتناول أحكام التكاليف الشرعية.

القسم الثاني: نصوص لا تتعلق بالأحكام الشرعية، بل بإقامة الحجة والإثبات بالبرهان.

وأصل هذا التقسيم يرجع إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذَّارِيَات : ٥٦] ، والمعنى: أن الغاية من خلق الإنسان هي الخضوع للخالق سبحانه وتعالى بالعبودية والإذعان بالعبادة.

وحتى تستقيم العبادة كما يحب سبحانه وتعالى، فلابد أن تكون العبادة امتثالا لمراده تبارك وتعالى، كما في قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٠﴾ [يُوسُف من الآيه : ٤٠]، والوصول إلى ذلك لا يكون إلا بأداء التكاليف الشرعية من الأوامر والنواهي، والتي جاءت بها نصوص الشرع، ولا تتحقق العبادة إلا بأدائها، وهي دليل الخضوع والاستقامة، إذ قال عز من قائل: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البَيِّنَة : ٥].

وهذا القسم لا يمكن أن يُفقد منه دليلٌ قط، ولهذا فإن كل ما قيل عن فقد بعض نصوص من السنة المطهرة، فإن اليقين الذي لا شك فيه أنه وُجدَ من النصوص ما يقوم مقام الدليل المفقود، أو يكون الدليل المفقود مما تم نسخه، وانتهى التعبد به، وكل ذلك يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحِجْر : ٩]، فقد تعبد الله العباد بشرعه، الذي أنزله على رسوله ﷺ حتى قيام الساعة، ولهذا تكفل سبحانه بحفظه دون سواه، تبارك وتعالى.

وهذا هو القسم الأول.

ومن رحمته سبحانه أن حبب العبادة إلى عباده، ويسرها لهم، وذلك بإقامة الحجج والبراهين، حيث قال جل في علاه: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فُصِّلَت: ٥٣]، هذه الآيات حجة الله على العباد، التي تؤكد استحقاقه تبارك وتعالى، أن يعبد وحده دون سواه، لا شريك له.

وهذا هو القسم الثاني من نصوص الشرع.

ويمكن أن نقول إن القسم الثاني يتسع ويناسب كل عقول وأفهام المكلفين، على مر أزمانهم، واختلاف ثقافاتهم وعلومهم، وإلى أن تقوم الساعة، لأن هذا القسم هو الرسول والنذير إلى كل أحد، فقد انتهت الرسالات البشرية بخاتم الأنبياء ﷺ، وبقي كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ هما خطاب الله تعالى إلى البشر، الذي لا انتهاء له ولا انقطاع، قال تعالى ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الإسراء: ٩ - ١٠]، وقال عز من قائل: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾ [النِّسَاء: ٨٠]، وغير ذلك من الأدلة كثير.

📖 **ويترتب على هذا التقسيم ما يلي :**

بالنسبة لما يتعلق بمقام العبودية جعل له الخالق سبحانه سياجا واقيا يحفظ شرعه من التبديل والتغيير في كل زمان ومكان، وهذا السياج هو الإجماع"[1].

---

[1] الإجماع هو اتفاق المجتهدين من أمة محمد ﷺ على حكم شرعي، في عصر من العصور.

ومما يتعلق بهذه المسألة: هل الحق عند الله تعالى واحد أم متعدد؟

ذهب أهل السنة والجماعة إلى أن الحق عند الله واحد، بينما ذهب من عندهم فساد في العقيدة، ومنهم المعتزلة إلى أن الحق عند الله متعدد بتعدد المجتهدين.

والذي يراد بالحق: "هو القول الموافق لحكم الله تعالى في نفس الأمر"، انظر: شرح النووي على مسلم (١٢ / ٤٠)، ومعنى أن الحق واحد أي أن الله أراد لكل مسألة حكما واحدا، سواء أكان بالحل، أم بالحرمة، أم كان حكما بين هذا وذاك، فهو واحد منها فقط.

فهذا الحكم قديم، حَكَمَ به العليم الخبير بعلمه الأزلي، وليس حادثا بحدوث المسألة المحكوم فيها، وأنزل سبحانه من الأدلة ما يقودنا للوصول إلى معرفة هذا الحكم، واستعبدنا به.

ومن أهم ثمرات أن الحق عند الله تعالى واحد أن المجتهدين مطالبون باستفراغ الوسع في الوصول إلى عين الحق الذي أراده الله تعالى، ويعذر منهم من لم يصبه، إذا طلبه في مظانه الشرعية بالأسباب، والوسائل التي شرعها الله تعالى.

ثم كان تكليف كل من ليس من المجتهدين أن يتحرى الصواب، من أقوال العلماء أهل الاجتهاد، واستنباط الأحكام، إما بنفسه إن كان

وكون الإجماع هو السياج الواقي، فلأنه يمنع من الخروج عن مجموع أقوال السلف ﷺ جميعا، وسواء أكان هذا الإجماع

يملك أداة الترجيح، وإما بسؤال أهل العلم، كما قال تعالى: {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} (النحل: من الآية ٤٣، الأنبياء: من الآية ٧)، وكلما كان الحق غيبا لا يطلع عليه أحد، كلما تجدد طلبه إما بالاجتهاد في الاستنباط، أو الاجتهاد في التحري، وهكذا يظل مقام العبودية حاضرا في القلوب والأذهان، وتتحرر العبادة من نمط الرتابة والغفلة، إلى درجة كبيرة.

ومعنى التعدد أن حكم أي مسألة عند الله تعالى يكون حادثا بحدوث المسألة، ولهذا فهو يتعدد بتعدد المجتهدين في المسألة، فهو يقبل أن يكون مثلا: حراما أو مباحا في نفس الوقت، أو يكون حلالا ومكروها في نفس الوقت، وغير ذلك من أوجه التعدد.

وبالمعنى الأول: يكون الاختلاف خطأ وصوابا، وبهذا المعنى لا يغفل الناس عن المهمة التي خلقوا من أجلها، وهي العبادة الحق لله رب العالمين.

وبالمعنى الثاني: يكون الاختلاف صوابا وصوابا، وبهذا المعنى يصبح العمل بالحق باتباع أي من أقوال المجتهدين، وينتفي طلب الاجتهاد في الترجيح والتحري، مما يسهل غفلة الناس عن رسالة ربهم.

ويبين هذه المسألة: حديث الرسول ﷺ: "إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ" صحيح مسلم (٥ / ١٣١)، وهذا الحديث يعتبر من أهم الأصول والقواعد في هذه المسألة، فهو يدل على أمور منها ما يلي:

أولا: المجتهد يخطئ ويصيب، وأن من أصاب له أجران، **ثانيا:** تفاوت الأجر بين المجتهدين، **ثالثا:** أن المجتهد المخطئ له أجر، وعمله مقبول.

صريحا[١]، أو سكوتيا[٢]، لأن هذه الأقوال هي التي يعرف بها مراد اللّه تعالى، من التكاليف الشرعية، وبدونها ينتفي مقام العبودية، الذي خلق من أجله الإنس والجن.

ويستفاد من ذلك عدم جواز إحداث قول جديد، يخالف أقوال السلف أو يعود على أقوالهم بالإبطال"[٣]، لأن هذا الجديد لا يوافق مراد اللّه تعالى، ولذلك فهو باطل غير مقبول.

ونخلص من ذلك إلى عدم جواز إبطال أقوال السابقين، في كل ما يتعلق بالتكاليف الشرعية، أي الأوامر والنواهي.

وأما فيما يتعلق بمقام الحجة والبرهان :

فقد ذهب بعض أهل العلم إلى إلحاقه بمقام الأحكام أيضا، من جهة عدم جواز إحداث قول جديد يخرج عن أقوال السلف، وأنه يخضع للإجماع الأصولي، كالأحكام الشرعية تماما.

بينما ذهب آخرون إلى أن هذا القسم لا يخضع للإجماع الأصولي، وهو الذي نرجحه، وعلة ذلك: أنه مقام حجة وإثبات بالبرهان، حتى يؤدي المطلوب منه من العظة والاعتبار، طمعا في الوصول إلى درجة الإذعان والإقرار، بأن الخالق سبحانه واحد لا إله

---

[١] وهو أن يتفق مجتهدو العصر على حكم واقعة، بإبداء كل منهم رأيه صراحة، بفتوى أو قضاء، أي أن كل مجتهد يصدر منه قول أو فعل يعبر صراحة عن رأيه.

[٢] إذا قال بعض الصحابة قولاً، وظهر هذا القول للباقين، وسكتوا عن مخالفته، أو الإنكار عليه حتى انقرض العصر، كان إجماعاً سكوتيا، وكذلك نفس الحكم في عصر الأئمة من بعدهم.

[٣] تفصيل ذلك في كتب أصول الفقه.

غيره ولا متصرف في الكون سواه، وأن الإيمان به تبارك وتعالى واجب، ولا منجى ولا ملجأ منه إلا إليه سبحانه، وهو مقام يقتضي مراعاة أحوال العبيد، لأن الغرض منه هو الإعانة على القيام بمقتضيات العبودية، فناسب أن يكون لكل عبد ما يعينه فعلا، وهذا مما يختلف من إنسان إلى آخر، ولهذا لم يكن لهذا المقام حدود، ولا موانع إلا ما يتعلق بالصدق والإخلاص، أما مسألة الفهم والاعتبار فهي مطلقة، ولا حدود لها، واللّه أعلم.

حديث السفينة بين مقام التكليف ومقام الحجة والبرهان

بالعودة إلى الحديث الشريف والنظر فيما يتعلق بلفظ الاستهام، نجد أن أهل العلم قد استخلصوا الجانب التكليفي منه، وهو جواز القرعة، كما تم بيانه، ولم يخرجوا عن هذا الوجه.

ومن هنا نخص هذا الشرح ببيان الوجه الآخر للاستهام - في حديث السفينة - والذي لم يتعرضوا له، فهو قول زائد عما قال به الأولون، ونرى أن هذا اجتهاد مقبول، بإذن الله تعالى، وذلك من وجهين:

الوجه الأول: أنه لا يعود على أقوال الأولين بالإبطال، وهذا يجعله مقبولا، على ما قال به بعض أهل العلم.

والوجه الثاني : أن المعنى الذي نتحدث فيه يدخل ضمن نصوص القسم الثاني، والخاصة بإقامة الحجة والبرهان، والتي تتعلق بمقومات العظة والاعتبار، وبالتالي فإحداث الجديد من المعاني في هذا القسم مقبول شرعا، على الراجح من أقوال أهل العلم، والله أعلى وأعلم.

ويمكن أن نقول - أيضا - إن هذا المعنى يدخل ضمن الاجتهاد في استنباط الحكمة، سواء أكانت تتعلق بالأحكام الشرعية التكليفية، أو ما كان يتعلق بالأمور الاعتقادية القلبية، وكثير من هذه الأحكام لا يمكن القطع بوجه الحكمة منها، إلا بالتقريب وغلبة الظن، ولهذا فلا مانع بإحداث جديد فيها، لا يخل بالأصول الشرعية، والله أعلى وأعلم.

القسم الثاني

لفظ الاستهام وتعلقه بالقدر

حتمية الاستهام في حديث السفينة

دللنا فيما سبق على أن بعض الرواة لم يذكر لفظ الاستهام، وكذلك نقلنا من أقوال أهل العلم ما يفهم منه عدم لزوم الاستهام لركاب السفن، إلا كما قالوا في حالات خاصة، ومدار الحديث يتعلق بالعموم وليس الخصوص، وعلى ذلك فمن الممكن أن يستغنى عن لفظ الاستهام، ولا يختل المعنى الذي بينه شراح الحديث.

ولكن القول بالاستغناء عن لفظ في نص شرعي قول غير سديد، ولا يصار إليه - من جهة المعنى - إلا بالعجز عن بيان المعنى الحقيقي من هذا اللفظ.

أما كون لفظ الاستهام على السفينة لا يستغنى عنه في الحديث فيرجع إلى أن التشبيه قد قسم من على السفينة إلى فريقين مختلفين، حيث إن أحد الفريقين هم القائمون على حدود الله تعالى، بينما الفريق الآخر هم الواقعون فيها والمدهن فيها، ولا يوجد في الحديث الشريف ما يبين على أي اعتبار تم هذا الفصل سوى لفظ الاستهام.

وإن قال قائل: إن التشبيه لا يلزم منه المطابقة بين المشبه والمشبه به، نجيب بأن هذا مسلم، ولكن في حديث السفينة، كان يمكن أن نذهب إلى القول بعدم المطابقة، لو وجدنا للفظ الاستهام معنى مقبولا، غير المعنى القدري، لسلمنا به، ولكنه لم يوجد كما بينا، ولهذا ذهبنا إلى القول بالمعنى القدري، على الوجه الذي نبينه في ثنايا هذا البحث، والذي يؤكد - أيضا - أن المعنى القدري مراد، هو أن السفينة ترمز إلى دنيا الناس، وهذه

الدنيا يصاحبها المعنى القدري في كل شيء، كما سنوضحه تفصيلا، والله ولي الهداية والتوفيق.

وفي ظل هذا المعنى نقول إن التشبيه قد أفاد أن القائمين على حدود الله تعالى هم الذين في العلو، ونسب الخرق ـ وهو منكر ـ إلى من في السفل، فهم الواقعون في حدود الله تعالى.

فهل تم توزيع الأماكن عن طريق الاستهام والقرعة، فوقعت أماكنهم متفقة تماما مع ما يجب أن تكون مواقعهم عليه؟ بحيث يكون القائمون على حدود الله تعالى في الأعلى، والواقعون فيها في الأسفل، هكذا أو كما يقولون: بالاتفاق أوالصدفة، إن القول بذلك طعن في الدين"[1].

فلا يوجد في الكون كله شيء قد وقع بالصدفة والحظ، أو بالاتفاق والعادة، بل قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ۝﴾ [الفُرْقَان من الآيه:٢]، ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ۝﴾ [القَمَر : ٤٩]، وأفعال الإنسان من ضمن الأشياء التي خلقها الله تعالى بقدر، لا يتخلف منها عن مشيئته شيء.

إن ضرب المثال ـ وهو التشبيه بالسفينة في هذا الحديث الشريف ـ لا يعنى مطلقا تطابق المشبه والمشبه به من كل وجه، وإلا لما كان هناك حاجة إلى التشبيه، ولهذا لا يمكن إغفال طبيعة المشبه ـ وهو الحياة البشرية ـ والتي لا يوجد فيها الطائع

---

[1] حقيقة التوحيد بديع الزمان سعيد النورسي (المتوفى: ١٣٧٩هـ) (ص: ١٦٦) فَلَيْسَ الْخَالِق لشَيْء إِلَّا الْوَاحِد الْأَحَد الصَّمد بَيْنَمَا الْأَسْبَاب الطبيعية الَّتِي يَسُوقهَا أهل الضَّلَالَة هِيَ مُتعَدِّدَة فضلا عَن أَنَّهَا جاهلة لَا يعرف بَعْضهَا بَعْضًا، علاوة على أَنَّهَا عمياء ولَيْسَ بَين يَديهَا إِلَّا الصدفة العمياء.

وغير الطائع إلا بفعل الإنسان واختياره، وإن كان لا يقع إلا بتقدير اللّه عز وجل، كما سوف نوضحه بإذن اللّه تعالى.

إن لفظ الاستهام ـ في هذا الحديث الشريف ـ جمع بين هذين الأصلين، أن اللّه عز وجل خالق كل شيء، وأن الإنسان محاسب على أفعاله، واختياره.

فالاستهام في ظاهره عمل يقوم به إنسان ما وموافقة آخرين، ليكون ما يتجه إليه السهم ملزما لما اتفقوا عليه، فكأن قيامهم بالاستهام باختيارهم ترتب عليه الرضى بالنتيجة، وكذلك عمل الإنسان سوف يحاسب عليه، لأنه لم يقهره عليه أحد.

ومع هذا فالأمر ليس مطابقا لهذا الظاهر، بل إن الغائب فيه هو كيف تأتى نتيجة الاستهام، هل هي بفعل البشر، أم أنه القدر؟

هذا المعنى لم يتعرض له شراح الحديث ـ بأي وجه ـ إلا ما نقلناه عن أحد أعلام البلاغة والنقد الأدبي، وهو الأستاذ النابه علي علي صبح"[1].

ولعل مما ساعد على إغفال الشراح السابقين لهذا المعنى الذي أشرنا إليه ـ وهو في غاية الأهمية ـ أنه يتعلق بمقام الحجة والبرهان، أو العظة والاعتبار، أكثر من تعلقه بالأحكام التكليفية، كما ذكرنا.

كما أن كثيرا من أهل العلم المتأخرين وقعوا في خطأ جسيم عندما اعتبروا أفعال الإنسان التي سوف يحاسب عليها أمام اللّه تعالى محكومة بتخييره كاملة، وهذا في غاية البطلان، ويترتب عليه الطعن في العقيدة وتعطيل القدر، فليس لمخلوق

---

[1] على على مصطفى صبح مفكر وناقد أدبي، المكتبة الشاملة.

قط إرادة مطلقة واختيار تام، فيما يفعل، كما سنبينه بالتفصيل، بتوفيق اللّه عز وجل.

ومن هنا أدركنا أن لفظ الاستهام ـ في حديث السفينة ـ يحمل هذا المعنى القدري العظيم الجليل، الذي يعتبر الإيمان به من أصول العقيدة الصحيحة، عند أهل السنة والجماعة.

وأما كيف يكون عند بعض أهل العلم من قبيل الحجة والبرهان، التي تتعلق بالعظة والاعتبار، وليس من قبيل الأحكام التكليفية، وهو هو من حيث مكانه في العقيدة الصحيحة؟

📖 **فالجواب عنه ما يلي:**

أن كل نصوص الحجة والبرهان والمتعلقة بالعظة والاعتبار في الشريعة هي في حقيقتها متعلقة بالعقيدة الصحيحة، لأن الهدف منها هو إقامة الحجة على البشر أجمعين، أن اللّه هو الخالق، وهو الإله الواحد ولا إله غيره، لا شريك له في ملكه، وأنه سبحانه هو المعبود بحق ولا معبود بحق سواه.

ومع هذا، ولأن هذه النصوص لا تحمل أمرا ولا نهيا مباشرا، فقد اصطلح على كونها ليست من نصوص التكاليف الشرعية، بل هي من نصوص إقامة الحجة والبرهان، والتي تنبه على جوانب العظة والاعتبار، وصولا إلى التوحيد الخالص، بفضل اللّه وعونه.

📖 **وعلى سبيل المثال:**

قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ ﴿٤٥﴾﴾ [العَنكَبُوت : ٤٥] ، **الصلاة فريضة وهذا حكم تكليفي، واجب الأداء.**

أما قوله تعالى: { إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ }، فيتعلق به حكم تكليفي وهو وجوب الانتهاء عن الفحشاء والمنكر، وهذا النص يتعلق أيضا بالعظة والاعتبار، ولا تعارض بينهما.

أما جانب العظة والاعتبار فيه فيختلف من إنسان إلى آخر، فمن الناس من يرى أن إقامة الصلاة على وجهها التام يجعلها هي بذاتها تمنع صاحبها من الوقوع في الفحشاء والمنكر، وكأنها قذفت كراهية ذلك في قلب صاحبها، وكأنها علاج حسي طبَعَ أجهزة جسده بالنفور من كل المنكرات، بينما يرى آخر أنها تذكر صاحبها دوما أنه لا يليق بمن سجد للّه خشوعا وخضوعا أن يقترف ما نهى اللّه عنه، فهي من قبيل التذكير الدائم الذي لا يغيب عن صاحبه، بينما يرى ثالث أن الصلاة كأنها سترت حواسه عن رؤية دواعي الوقوع في الفحشاء والمنكر، فلم يعد يكابد مقاومتها، ولا يكون هذا إلا منحة من اللّه تعالى الذي أعطى كل مخلوق خواصه، التي تؤهله للوظيفة التي خلقه لها، وهو القادر سبحانه على التحكم فيها، كيف يشاء تبارك وتعالى، وهكذا، وكل هذا مما يمكن أن يُتأكد من صدقه، والقطع به كل من لامسه، وعايشه معايشة عمليه، من خلال إقامة الصلاة والخشوع فيها، على وجهها الأتم الأكمل.

فكل هذه المعاني نقول إنها لا تتعلق بالحكم التكليفي، وإن كانت تقود إليه لا محالة، فهي الدافع والحافز والقائد إلى الامتثال لجميع الأحكام الشرعية، فكأن هذه المعاني هي طرق مختلفة، ولكنها تقود جميعا إلى غاية واحدة، ولهذا فلا حجر على أحد أن يستشعر الصلاة بالمعنى الذي يزيده رهبة وخشوعا للّه، وقوة وصلابة في اجتناب محارمه، فهناك من يستحضر معية اللّه تعالى عند أداء العبادة، بينما الطمع في دخول الجنة يغلب

على قسم آخر، والبعض الآخر يستشعر الخوف من النار، وهكذا تختلف المشاعر، وكلها تهدف إلى مقصد صحيح، فلا لوم على أحد من هؤلاء ولا عتب.

بينما الأحكام التكليفية تختص بجهة: كيفية الأداء، والأركان والشروط، فلا يحل لأحد قط أن يتصرف فيها، إلا في الإطار المسموح به من الشرع فقط، وهو المحكوم بالاتباع وعدم الابتداع، ففي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»[1].

وعلى سبيل المثال فريضة الصلاة، من الجهة التكليفية محكومة بحديث الرسول ﷺ: «وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي»[2]، فالصلاة لها شروط وأركان لا يُزاد عليها ولا يُنقص منها، مهما اختلفت الأحوال والأماكن والأزمان، وهكذا يظهر الفرق بين النظر إلى الصلاة من الجهة التكليفة والنظر إليها من جهة العظة والاعتبار، والله أعلى وأعلم.

وكذلك هو لفظ الاستهام، يحمل حكما تكليفيا، وهو مشروعية القرعة، وكذلك جانب العظة والاعتبار، من جهة أن القرعة يتحكم فيها البشر، من جهة الظاهر، بينما هي من جهة الحقيقة محكومة بقدر الله تعالى، والله أعلى وأعلم.

ولهذا كان الجانب التكليفي في الحديث، هو ما يتعلق بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فتوسع الشراح في شرحه وبيانه.

بينما لفظ الاستهام ـ في مسألة السفينة ـ لا يترتب عليه إثبات تكليف، لأنه لو كان من قبيل التكليف، لكان لزاما أن

---

[1] متفق عليه، صحيح البخاري (٣/ ١٨٤)، صحيح مسلم (٣/ ١٣٤٣)، واللفظ لمسلم.

[2] صحيح البخاري (١/ ١٢٨).

يستهم كل من ركب السفينة، وهذا غير صحيح، والدليل أن الشراح أشاروا إليه على أنه مشروع عند النزاع، وموضع التشبيه في هذا الحديث لا يتعلق بالنزاع، لأن القائم على حدود اللّه، والواقع فيها لا يتنازعان على ذلك.

أهمية لفظ الاستهام في الحديث الشريف

لو كان الحديث يهدف فقط إلى بيان أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لما كان هناك أي حاجة إلى ذكر لفظ الاستهام، لأن هذا المعنى يتم كاملا، وغير منقوص بغير ذكره، كما أشرنا.

ولكن نظرا لأنه قد جاء نص الحديث وفيه لفظ الاستهام، فإن غلبة الظن، أو المعنى الراجح أنه يوجد معنى زائد عن مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يقتضيه هذا اللفظ.

وقد عثرت ـ بفضل اللّه تعالى ـ على أحد الشراح المحدَثين الذي فطنَ إلى المعنى الذي يجعل لفظ الاستهام لا يمكن الاستغناء عنه ـ في الحديث الشريف، يقول **الأستاذ النابغ على على صبح:** (وأما روعة التصوير الأدبي في بلاغة التعبير عن القضاء والقدر، فقد شبه قدرُ الإنسان وحظُه من متاع الحياة الدنيا بتقدير اللّه عز وجل وحده، بصورة الاقتراع والاستهام على أعلى السفينة أو أسفلها، لأن الإنسان في ذلك لا يملك اختيار أحدهما بل اللّه وحده يقدر الأقدار، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [يس : ٨٢] [1].

---

[1] التصوير النبوي للقيم الخلقية والتشريعية في الحديث الشريف لعلي علي صبح (ص: ١٤٥) ويقول: وأما روعة التصوير الفني في بلاغة التعبير عن انتصار الخير، واجتياز الفتنة، ومقاومة الأنانية والفساد والتدمير، وذلك في صورة حية شاخصة، تستمد عناصرها من الصراع العنيف بين الفريقين على ضروروات الحياة، من الشرب لدفع العطش والهلاك، فإذا أحس الفريق الأسفل بالعطش،

فها هو يكشف الغطاء عن أهمية لفظ الاستهام في الحديث الشريف، بذكر القضاء والقدر، وهو نفس ما ذهبنا إليه، بخصوص هذا اللفظ.

وقد أحسن كثيرا بتنزيل عناصر التشبيه من المشبه به ـ السفينه ـ على المشبه ـ حياة البشر ـ ووصوله إلى إحدى أهم المسائل العقدية بقوله: (لأن الإنسان في ذلك لا يملك اختيار أحدهما بل الله وحده يقدر الأقدار)، وهذا المعنى المستفاد من لفظ الاستهام لا يمكن الاستغناء عنه مطلقا، في سياق الحديث، بل من المحتم واللازم أن معناه المراد أصل في التشبيه، وهذا هو ما دفعنا إلى تناول هذا الحديث بالشرح والبيان، والله من وراء القصد.

أرادوا أن يخرقوا خرقًا في أسفل السفينة، فإذا تركهم الفريق الأعلى وما أرادوا غرقوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم، وأفسحوا لهم أن يشربوا من أعلى السفينة متعاونين جميعًا، نجوا كلهم، قال تعالى: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ}، ويقول كذلك: وأما روعة التصوير الأدبي في بلاغة التعبير عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حين صور الآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر بصورة إيجابية فعالة، لا سلبية مدمرة في صورة بليغة رشيقة، عندما أراد من في أسفلها أن يخرقوا خرقا؛ ليشربوا بقاء على حياتهم، فيأمرهم من في أعلاها بالمعروف وينهونهم عن المنكر، لينجوا جميعًا، كما ورد في الحديث الشريف: "فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعًا).

📖 **والذي نقصده بلفظ الحتمية هنا أمران :**

أولهما : أنه بالفعل ورد في جميع الروايات الصحيحة، وهذا يؤكد أنه لفظ الرسول ﷺ، وقد أوتي ﷺ جوامع الكلم، ولهذا لا يمكن الاستغناء عنه في الحديث، لأنه وحي من الله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النَّجم : ٣ - ٤].

ثانيهما : أن التشبيه الوارد في الحديث الشريف لا يمكن أن يستغني عن لفظ الاستهام.

📖 **ولتأكيد صواب ذلك ما يلي :**

أن المعنى الذي قال به الشراح السابقون يتم كاملا بغير حاجة إلى لفظ الاستهام، ومن أجل ذلك وردت بعض الروايات بدون لفظ الاستهام، كما في رواية **الإمام أحمد**: "مَثلُ القَائِمِ عَلى حُدُودِ اللَّهِ، وَالوَاقِعِ فِيهَا، المُدَّهِنِ فِيهَا، مَثلُ قَوْمٍ رَكِبُوا سَفِينَةً، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، وَأَوْعَرَهَا، وَشَرَّهَا، وَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاهَا، فَكَانَ الذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا المَاءَ، مَرُّوا عَلى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَآذَوْهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا، فَاسْتَقَيْنَا مِنْهُ، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ تَرَكُوهُمْ وَأَمْرَهُمْ، هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلى أَيْدِيهِمْ، نَجَوْا جَمِيعًا"[1].

وكل ما ذكره الشراح متحقق في هذه الرواية، التي لم يرد فيها لفظ الاستهام، ولكن ورود اللفظ في نص الحديث، يوجب حمله

[1] مسند أحمد (٣٠/ ٣٢٢)، إسناده صحيح على شرط الشيخين. زكريا: هو ابن أبي زائدة، وقد صرح بالتحديث من عامر، وهو ابن شراحيل الشعبي.

على معنى يحتاجه السياق، ولا يُصرف عن هذا المعنى إلا بالعجز عن العثور على المعنى المراد به.

وأما وجه كونه يتعلق بالعظة والاعتبار: فلأن نصوص الشرع لا ينتهي عطاؤها أبدا، سواء أكان ذلك النص القرآني الحكيم، أم نص السنة المطهرة، على صاحبها أزكى الصلاة وأتم التسليم، يقول تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [النَّمل : ٩٣].

والمخاطب في الآية الكريمة هو رسول الله ﷺ والمعنيون هم المشركون في عهده ﷺ، ومع هذا فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، لأنه ﷺ أرسل إلى العالمين كافة، والرسالة مخاطب بها كل الخلق، من عصر الرسالة إلى أن يأذن الله تعالى برفع الرسالة، قبل قيام الساعة.

ولأن المعاندين في عهده ﷺ قد تراجع كثير منهم، بما عاينوا من آيات الله تعالى: ففي التفسير: (عن مجاهد، قوله: {سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَاۚ} قال: في أنفسكم والسماء والأرض والرزق)[١].

فكذلك هو الحال من بعده ﷺ، يشرح الله صدور عباده للإيمان ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأَنعَام : ١٢٥]، وهؤلاء الذين شرح الله صدورهم سيهتدون بتوفيق الله عز وجل، إما بآية من آيات الله المنظورة، وإما بآية من آيات الله المقروءة.

---

[١] تفسير الطبري (١٩/ ٥١٢).

وهذه الآيات المنظورة والمحسوسة، لا يمكن لعاقل أن ينكرها، ولكن كما قال سبحانه: {وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ}.

فمن رحمته أن الآيات الدالة على صدق ما جاء به الرسول ﷺ تناسب كل العقول، والعلوم والأماكن والأزمنة، وكيف لا وهي صنع الخالق سبحانه العليم الخبير ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ١٤٩﴾ [الأَنْعَام : ١٤٩] ، (ويعني بـ"البالغة"، أنها تبلغ مراده في ثبوتها على مَنْ احتج بها عليه من خلقه، وقطع عُذْرِه إذا انتهت إليه فيما جُعِلت حجة فيه)[1].

وكل هذا هو من قبيل العظة والاعتبار، الذي تقوم به الحجة على الخلق، والتي لا يمكنهم أن ينكرونها، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ١٤﴾ [المُلْك : ١٤].

[1] تفسير الطبري (١٢/ ٢١٢).

الاستهام ودلالة النهي عن الكلام في القدر

إذا أردنا أن نفهم المغزى من عملية الاستهام في نصوص الشرع، بصفة عامة، فلابد لنا من الخوض في مسألة عقدية ليست هينة، ألا وهي مسألة التسيير والتخيير، حيث يعتبر بعض أهل العلم أن الكلام في هذه المسألة مما يتعلق بالقدر، وقد شاع عن السلف النهي عن الكلام في القدر"[1].

---

[1] في كتاب السنة لعبد الله بن أحمد بن حنبل: حَدَّثَنِي أَبِي، نا كَثِيرٌ، عَنْ فُرَاتٍ، قَالَ: سَمِعْتُ مَيْمُونًا، يَقُولُ: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ، وَلَا تَعَلَّمُوا النُّجُومَ، وَلَا تُجَالِسُوا أَوْ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْقَدَرِ»

وعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ، قَالَ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ {يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} [القمر: ٤٩] «فِي أَهْلِ الْقَدَرِ»

عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ أَبِي حَجَّاجٍ الْأَزْدِيِّ، عَنْ سَلْمَانَ، قَالَ: لَقِيتُهُ بِمَاءِ سَبَذَانَ، قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: أَخْبِرْنِي كَيْفَ الْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ؟ قَالَ: "أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَلَا تَقُلْ: لَوْلَا كَذَا لَكَانَ كَذَا، وَلَوْ لَمْ يَفْعَلْ كَذَا لَكَانَ كَذَا"

حَدَّثَنِي أَبِي، نا إِسْحَاقُ بْنُ سُلَيْمَانَ الرَّازِيُّ، سَمِعْتُ أَبَا سِنَانٍ، عَنْ وَهْبِ بْنِ خَالِدٍ الْحِمْصِيِّ، عَنِ ابْنِ الدَّيْلَمِيِّ، قَالَ: وَقَعَ فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنْ هَذَا الْقَدَرِ فَأَتَيْتُ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ، فَقُلْتُ: أَبَا الْمُنْذِرِ وَقَعَ فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنْ هَذَا الْقَدَرِ، فَخَشِيتُ أَنْ يَكُونَ فِيهِ هَلَاكُ دِينِي وَأَمْرِي، حَدِّثْنِي عَنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ لَعَلَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَنْفَعُنِي بِهِ، فَقَالَ: لَوْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَلَوْ كَانَ لَكَ جَبَلُ

ولكن الذي نراه أن مثل هذه المسألة ليست من المنهي عن الكلام فيه، وبخاصة وقد روي عن حبر الأمة **سيدنا عبد الله بن عباس** رضي الله عنهما بيان المنهي عنه، **ففي الأثر**: (عَنِ الحَكَمِ بْنِ أَبَانَ، قالَ: ثنا عِكْرِمَةُ، قالَ: كُنْتُ حَاضِرًا عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا أَبَا عَبَّاسٍ أَخْبَرَنِي مِنَ الْقَدَرِيَّةِ فَإِنَّ النَّاسَ قَدِ اخْتَلَفُوا عِنْدَنَا بِالْمَشْرِقِ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْقَدَرِيَّةُ قَوْمٌ يَكُونُونَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، دِينُهُمُ الْكَلَامُ، يَقُولُونَ: إِنَّ اللَّهَ لَمْ يُقَدِّرِ الْمَعَاصِيَ عَلَى خَلْقِهِ، وَهُوَ مُعَذِّبُهُمْ عَلَى مَا قَدَّرَ عَلَيْهِمْ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْقَدَرِيَّةُ فَأُولَئِكَ هُمْ مَجُوسُ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَأُولَئِكَ مَلْعُونُونَ عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّينَ أَجْمَعِينَ، فَلَا تُقَاوِلُوهُمْ فَيَفْتِنُوكُمْ، وَلَا تُجَالِسُوهُمْ، وَلَا تَعُودُوا مَرْضَاهُمْ، وَلَا تَشْهَدُوا جَنَائِزَهُمْ، أُولَئِكَ أَتْبَاعُ الدَّجَّالِ، لَخُرُوجُ الدَّجَّالِ أَشْهَى إِلَيْهِمْ مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا أَبَا عَبَّاسٍ، لَا تَجِدَّ عَلَيَّ، فَإِنِّي سَائِلٌ مُبْتَلًى بِهِمْ، قَالَ: قُلْ، قَالَ: كَيْفَ صَارَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ مَجُوسٌ وَهَذِهِ الْأُمَّةُ مَرْحُومَةٌ؟ قَالَ: أُخْبِرُكَ لَعَلَّ اللَّهَ يَنْفَعُكَ، قَالَ: افْعَلْ، قَالَ: إِنَّ الْمَجُوسَ زَعَمَتْ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَخْلُقْ شَيْئًا مِنَ الْهَوَامِّ وَالْقَذَرِ، وَلَمْ يَخْلُقْ شَيْئًا يَضُرُّ، وَإِنَّمَا يَخْلُقُ الْمَنَافِعَ وَكُلَّ شَيْءٍ حَسَنٍ، وَإِنَّمَا الْقَذَرُ هُوَ الشَّرُّ، وَالشَّرُّ كُلُّهُ خَلْقُ إِبْلِيسَ وَفِعْلُهُ، وَقَالَتِ الْقَدَرِيَّةُ: إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَخْلُقِ الشَّرَّ وَلَمْ نُبْتَلَى بِهِ، وَإِبْلِيسُ رَأْسُ الشَّرِّ كُلِّهِ، وَهُوَ مُقِرٌّ بِأَنَّ اللَّهَ خَالِقُهُ، قَالَتِ الْقَدَرِيَّةُ: إِنَّ اللَّهَ أَرَادَ مِنَ الْعِبَادِ أَمْرًا لَمْ يَكُنْ، وَأَخْرَجُوهُ عَنْ مُلْكِهِ وَقُدْرَتِهِ،

أُحُدٍ أَوْ مِثْلُ جَبَلِ أُحُدٍ ذَهَبًا أَنْفَقْتَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا قَبِلَهُ اللَّهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَكَ [ص:٣٨٩] لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَإِنَّكَ إِنْ مِتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا دَخَلْتَ النَّارَ).

وَأرادَ إبْلِيسُ مِنَ العِبادِ أمرًا وَكانَ إبْلِيسُ عِنْدَ القَدَرِيَّةِ أقوَى وَأعَزَّ، فهَؤلاءِ القَدَرِيَّةُ وَكَذَبُوا أعْداءُ اللَّهِ)[1].

وما من شك أن هؤلاء المجوس والقدرية قد طعنوا في مقام الألوهية ـ والعياذ بالله ـ فاستحقوا اللعن والنكير، وتحذير الأمة من كلامهم.

📖 **ثم يبين الحبر** رضي الله عنه **الفرق بين قول أهل الحق وهذه الأقوال الباطلة فيقول**: (إنَّ اللَّهَ يَبْتَلِي وَيُعَذِّبُ عَلَى مَا ابْتَلَى، وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ، لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ، وَيَمُنُّ وَيُثِيبُ عَلَى مَنِّهِ إِيَّاهُمْ، وَهُوَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ، وَلَكِنَّهُمْ أَعْدَاءُ اللَّهِ، ظَنُّوا ظَنًّا فَحَقَّقُوا ظَنَّهُمْ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ وَقَالُوا: نَحْنُ العَامِلُونَ وَالمُثَابُونَ وَالمُعَذَّبُونَ بِأَعْمَالِنَا، لَيْسَ لِأَحَدٍ عَلَيْنَا مِنَّةٌ، وَذَهَبَ عَلَيْهِمُ المن مِنَ اللَّهِ، وَأَصَابَهُمُ الخِذْلانُ)[2].

ولعل كل هذه الأقوال الكفرية ترجع إلى شيوع الجدل والفلسفة وما إلى ذلك من مناهج وسفسطة، لا تؤمن بوجود إله قاتلهم الله.

📖 **وفي الأثر أيضا**: (قالَ سُوَيْدُ بْنُ سَعِيدٍ: لا إِلهَ إلا اللَّهُ ما أَوْحَشَهُ مِنْ قَوْلٍ، وَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الهَادِي وَالمُضِلُّ الرَّاحِمُ المُعَذِّبُ، فَقَالَ الرَّجُلُ: الحَمْدُ لِلَّهِ الذِي مَنَّ بِكَ عَلَيَّ يا أبا عَبَّاسٍ وَفَقَكَ اللَّهُ، نَصَرَكَ اللَّهُ، أعَزَّكَ اللَّهُ، أمَا وَاللَّهِ لقَدْ كُنْتُ مِنْ أشَدِّهِمْ قولا أدِينُ اللَّه بِهِ، وَقَدِ اسْتَبَانَ لِي قَوْلُ الضِّيَاءِ، فَأنَا أشْهِدُ اللَّهَ وَأشْهِدُكُمْ أنِّي تَائِبٌ إلى اللَّهِ وَرَاجِعٌ مِمَّا كُنْتُ أقُولُهُ، وَقَدْ أيْقَنْتُ أنَّ الخَيْرَ مِنَ اللَّهِ وَأنَّ المَعَاصِيَ مِنَ اللَّهِ يَبْتَلِي بِهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَلا مُقَدِّرَ إلا اللَّهُ

[1] شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة لأبي القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري الرازي اللالكائي (المتوفى: ٤١٨هـ) (٤/ ٧٦٩).

[2] المرجع السابق.

وَلا هَادِيَ وَلا مُضِلَّ غَيْرُهُ، قَالَ عِكْرِمَةُ: فَمَا زَالَ الرَّجُلُ عِنْدَنَا بَاكِيًا حَتَى خَرَجَ غَازِيًا فِي الْبَحْرِ فَاسْتُشْهِدَ رَحِمَهُ اللَّهُ)[1].

وهذا الذي ندين الله به، أن كل ما يجري في الكون فإنما هو بقدر الله تعالى، ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس : ٨٣].

وفي نفس المعنى قول **الإمام ابن عبد البر**: (وَقَالَ الْعُلَمَاءُ وَالْحُكَمَاءُ قَدِيمًا الْقَدَرُ سِرُّ اللَّهِ فَلَا تَنْظُرُوا فِيهِ، فَلَوْ شَاءَ اللَّهُ أَلَا يُعْصَى مَا عَصَاهُ أَحَدٌ فَالْعِبَادُ أَدَقُّ شَأْنًا وَأَحْقَرُ مِنْ أَنْ يَعْصُوا اللَّهَ إِلَا بِمَا يُرِيدُ، وَقَدْ رُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ لَا يُعْصَى مَا خَلَقَ إِبْلِيسَ وَقَالَ مُطَرِّفُ بْنُ الشِّخِّيرِ لَوْ كَانَ الْخَيْرُ فِي يَدِ أَحَدٍ مَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَجْعَلَهُ فِي قَلْبِهِ حَتَى يَكُونَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - هُوَ الَّذِي يَجْعَلُهُ فِيهِ)[2].

[1] نفس المرجع السابق.

[2] الاستذكار لابن عبد البر: (٨/ ٢٦٣).

المنهي عنه من الكلام في القدر

إن كل ما نتحدث فيه - بفضل الله تعالى - يمكن أن يكون من قبيل الشرح لهذه الأقوال التي نقلها **الإمام ابن عبد البر**، وليس فيه - ولله الحمد والمنة - أي خوض في المنهي عنه.

كذلك قد يكون المنهي عنه هو ما كان كأقوال الذين ينفون القدر، والذين أطلق عليهم - أيضا - القدرية"[1].

كما يمكن أن يكون المنهي عنه هو الكلام في الأمور الغيبية، ولعل منه ما يخص جانب لم فعل الله كذا، ولم لم يفعل كذا، ليس بحثا عن الحكمة، وإنما من قبيل الخوض فيما ليس للعقل طاقة به، ولا يمكن أن يطلع عليها البشر، وقد يكون الخوض فيها بابا من أبواب العبث والاستخفاف بمقام

---

[1] شرح النووي على مسلم (١/ ١٥٤): (وَاعْلَمْ أَنَّ مَذْهَبَ أَهْلِ الْحَقِّ إِثْبَاتُ الْقَدَرِ وَمَعْنَاهُ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَدَّرَ الْأَشْيَاءَ فِي الْقِدَمِ وَعَلِمَ سُبْحَانَهُ أَنَّهَا سَتَقَعُ فِي أَوْقَاتٍ مَعْلُومَةٍ عِنْدَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَعَلَى صِفَاتٍ مَخْصُوصَةٍ فَهِيَ تَقَعُ عَلَى حَسَبِ مَا قَدَّرَهَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَأَنْكَرَتِ الْقَدَرِيَّةُ هَذَا وَزَعَمَتْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمْ يُقَدِّرْهَا وَلَمْ يَتَقَدَّمْ عِلْمُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِهَا وَأَنَّهَا مُسْتَأْنَفَةُ الْعِلْمِ أَيْ إِنَّمَا يَعْلَمُهَا سُبْحَانَهُ بَعْدَ وُقُوعِهَا وَكَذَبُوا عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَجَلَّ عَنْ أَقْوَالِهِمُ الْبَاطِلَةِ عُلُوًّا كَبِيرًا وَسُمِّيَتْ هَذِهِ الْفِرْقَةُ قَدَرِيَّةً لِإِنْكَارِهِمُ الْقَدَرَ قَالَ أَصْحَابُ الْمَقَالَاتِ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ وَقَدِ انْقَرَضَتِ الْقَدَرِيَّةُ الْقَائِلُونَ بِهَذَا الْقَوْلِ الشَّنِيعِ الْبَاطِلِ وَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ عَلَيْهِ وَصَارَتِ الْقَدَرِيَّةُ فِي الْأَزْمَانِ الْمُتَأَخِّرَةِ تَعْتَقِدُ إِثْبَاتَ الْقَدَرِ وَلَكِنْ يَقُولُونَ الْخَيْرُ مِنَ اللَّهِ وَالشَّرُّ مِنْ غَيْرِهِ تَعَالَى اللَّهُ عَنْ قَوْلِهِمْ).

الألوهية، ونعوذ بالله من ذلك، وكل ما هو من هذا القبيل لم نتكلم فيه، ولم نتطرق إليه، ولله الحمد والمنة.

📖 مدار حديثنا عن التسيير والتخيير:

حديثنا في مسألة التسيير والتخيير يدور كله من خلال النصوص الشرعية، من القرآن والسنة، وكيفية فهمها على الوجه الصحيح، ومن خلال ما تكلم به المفسرون، وأهل العلم، وبخاصة من كانوا في عصر الأئمة المتبعين، الذين شهدت لهم الأمة بذلك، رضي الله عنهم أجمعين.

ولكن كما هو حال كلام السابقين على العموم، فإن ألفاظهم وتعبيراتهم أصبحت من الصعوبة بمكان كبير، ويصعب على المتأخرين من أهل الإسلام فهمها، أو فهمها على وجه صحيح، نظرا لعدم تمرسهم على تدارس مناهج الأولين ولغتهم، ولهذا ضاعت كثير من المعاني، التي ألمح إليها الأولون، إلا على خواص أهل العلم من المتأخرين.

وكان هذا هو الدافع إلى الكتابة في هذا الشأن، من خلال الشرح لحديث الاستهام على السفينة، ونحسب أن هذا الشرح ينزل منزلة الضرورات والتي تبيح المحظورات، إن كان يوجد محظور، نظرا للتخبط الشديد الذي يتخبط فيه الناس، بهذا الخصوص"[1].

وهذا الشرح ليس من قبيل الابتداع - عافانا الله من ذلك - فها هو **الإمام ابن تيمية** - على سبيل المثال - يتناول هذه المسألة، مع أنه جاء بعد السلف بزمنٍ ليس بقليل، ومع هذا لابد من شرح كلامه حتى يفهم على نحو صحيح، حيث يقول: (وتؤمن

[1] شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٤/ ٧٦٩).

الفرقة الناجية ـ أهل السنة والجماعة ـ بالقدر: خيره وشره والإيمان بالقدر على درجتين كل درجة تتضمن شيئين:

فالدرجة الأولى: الإيمان بأن الله تعالى علم ما الخلق عاملون بعلمه القديم الذي هو موصوف به أزلا، وعلم جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال، ثم كتب الله في اللوح المحفوظ مقادير الخلق: {فأول ما خلق الله القلم قال له: اكتب، قال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه جفت الأقلام وطويت الصحف} كما قال سبحانه وتعالى ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج : ٧٠] ، وقال: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الحديد : ٢٢] وهذا التقدير ـ التابع لعلمه سبحانه ـ يكون في مواضع جملة وتفصيلا، فقد كتب في اللوح المحفوظ ما شاء، وإذا خلق جسد الجنين قبل نفخ الروح فيه بعث إليه ملكا؛ فيؤمر بأربع كلمات فيقال له: اكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد، ونحو ذلك فهذا القدر قد كان ينكره غلاة القدرية قديما ومنكره اليوم قليل).

ومن أفدح السقطات، التي وقع فيها بعض أهل العلم المتأخرين، أنهم رتبوا الأقدار على العلم الأزلي الكاشف وحده، دون تدخل القدرة الإلهية، فيما سيحاسب عليه المكلفين، مع أن **الإمام ابن تيمية** قد فصل بحرف العطف حيث قال: "ثم كتب الله في اللوح المحفوظ مقادير الخلق "ليبين عدم التلازم، بين العلم والقدر، بل إن القدر أمر مختلف عن العلم الكاشف، وقد يتوافقان في بعض المواضع ويختلفان في الكثير منها، حيث يتوقف القدر في هذا

الكثير على القدرة الإلهية، ومسألة التسيير والتسخير، والله أعلى وأعلم.

ونستكمل **كلام الإمام ابن تيمية: (وأما الدرجة الثانية: فهو** مشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة وهو الإيمان بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه ما في السموات والأرض من حركة ولا سكون، إلا بمشيئة الله سبحانه، لا يكون في ملكه إلا ما يريد، وأنه سبحانه وتعالى على كل شيء قدير، من الموجودات والمعدومات. فما من مخلوق في الأرض ولا في السماء إلا الله خالقه، سبحانه لا خالق غيره ولا رب سواه، ومع ذلك فقد أمر العباد بطاعته، وطاعة رسله، ونهاهم عن معصيته، وهو سبحانه يحب المتقين والمحسنين والمقسطين، ويرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولا يحب الكافرين، ولا يرضى عن القوم الفاسقين، ولا يأمر بالفحشاء، ولا يرضى لعباده الكفر، ولا يحب الفساد)[1].

فالله عز وجل شاء أن يكون مبنى العبودية على الابتلاء، ولهذا شاء أن يوجد الشر والفساد، ومع هذا فإنه سبحانه أمر باجتناب كل شر وفساد ونهى عن إتيانه، فخلق الشر ووجوده ليس معناه أن الله يحبه ويرضاه مطلقا"[2].

---

[1] مجموع الفتاوى (٣/ ١٤٩).

[2] التوحيد للماتريدي (ص: ٢٩٧) الْفرق بَين الْمحبَّة وَالرِّضَا وَبَين الْإِرَادَة والمشيئة بقوله {وَلَا يرضى لِعِبَادِهِ الْكفْر} وَقَوله {وَالله لَا يحب الْفساد} وَقَوله {إِن الله يحب التوابين} {لَا يحب الْمُعْتَدِينَ} وَقَالَ فِي الْمَشِيئَة {من يشإ الله يضلله وَمن يَشَأْ يَجعله على صِرَاط مُسْتَقِيم} وَغير ذَلِك مِمَّا يُوجب تَخْصِيص الْمحبَّة وَالرِّضَا

📖 **ونواصل عرض كلام الإمام ابن تيمية نظرا لأهميته القصوى إذ يقول**: (والعباد فاعلون حقيقة والله خالق أفعالهم، والعبد هو المؤمن والكافر، والبر والفاجر والمصلي والصائم، وللعباد قدرة على أعمالهم ولهم إرادة، والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم كما قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ [التَّكۡوِير : ٢٨] ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التَّكۡوِير : ٢٩]، **وهذه الدرجة من القدر**: يكذب بها عامة القدرية الذين سماهم النبي ﷺ مجوس هذه الأمة، وَيَغْلُو فِيهَا قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْإِثْبَاتِ، حَتَّى يَسْلُبُوا الْعَبْدَ قُدْرَتَهُ وَاخْتِيَارَهُ، وَيُخْرِجُونَ عَنْ أَفْعَالِ اللَّهِ وَأَحْكَامِهِ؛ حِكَمَهَا وَمَصَالِحَهَا)[1].

وأستطيع أن أقول: إن كل ما أقوم به في هذا الشرح لا يخرج قيد أنملة عن **قول الإمام ابن تيمية**: (والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم)، ومعنى هذا أنه لا توجد قدرة، ولا إرادة للعباد من عند أنفسهم، كما ذهب أهل الأهواء والبدع.

وتعميم الْمَشِيئَة والإرادة مَعَ مَا يُوصف بهما من أَفعاله وَلَا يُوصف بِالرِّضَا والمحبة على أَن الْمَشِيئَة صرفهَا إِلَى الْقُوَّة حَتَّى جعلهَا بِحكم القسر فَلذَلِك قوتها توجب ذَلِك والأصل فِي ذَلِك أَن الْمحبَّة والسخط مَعْنيانِ يوجبان بِفعل الْعباد وَلَيْسَت الْمَشِيئَة كَذَلِك لما لَيْسَ فِي أَفعَال الْعباد معنى يُوجب الْمَشِيئَة إِلَّا أَن يُرَاد بهَا الرِّضَا أَو التمنى وَلَا قُوَّة إِلَّا بِاللَّه، وَفِي الشَّاهِد قد يفعل الرجل مَا لَا يرضى بِهِ وَلَا يُحِبهُ ومحال حَقِيقَة فعل لَا يُرِيدهُ وَكَذَا معنى الْإِرَادَة مُتَقَدم عِنْدهم على الْفِعْل وَعِنْدنَا معنى يكون مَعَه وَلَا وَجه لَهَا بعده وَأمر الرِّضَا والسخط والمحبة وَنَحْو ذَلِك يكون من بعد فِي الْمُتَعَارف أبدا وَلَا قُوَّة إِلَّا بِاللَّه

[1] مجموع الفتاوى (٣/ ١٥٠).

والمقصود بالإرادة"[1] في هذا اللفظ ليس من السهل الوصول إلى معناه الصحيح إلا بالبحث والاجتهاد، لأن الإرادة هي التي تؤدي إلى الاختيار من بين الممكنات، ثم الفعل، الذي يقع بقدرة العبد التامة، دون قهر أو إجبار.

ومع هذا يفهم أن الفعل وإن كان يقع باختيار فاعله، من جهة تقدير العقول، إلا أنه ـ أي الفعل ـ في الحقيقة مخلوق للّه تعالى، ومعنى كونه مخلوقا للّه يفهم منه أن الفعل تابع للخلق أو القدر، وليس الخلق، المتمثل في القدر، أثرا للفعل"[2]، **وبعبارة أخرى:** أن القدر ليس مرهونا بما يكشف عنه العلم الأزلي، بل

[1] انظر: التعريفات (ص: ١٦) الإرادة: صفة توجب للحي حالًا يقع منه الفعل على وجهٍ دون وجه. وانظر أيضا: التوقيف على مهمات التعاريف (ص: ٤٥) وقال الراغب: في الأصل قوة مركبة من شهوة وحاجة وأمل، وجعلت اسما لنزوع النفس إلى الشيء مع الحكم بأنه ينبغي أن يفعل أو لا، وفي كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم (١/ ١٣٣) نعم قد يستعمل المتكلمون الاختيار بمعنى الإرادة أيضا حيث يقولون إنه فاعل بالاختيار وفاعل مختار. وكذلك: الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي (ص: ٦٤) وصف زائد على الذات من شأنه تخصيص الشيء عن مثله وليس ذلك إلا الإرادة.

[2] المعنى المقصود أن كل شيء في الكون مخلوق لله تعالى، وأنه قبل الخلق قدره الله عز وجل في اللوح الوح المحفوف أنه سوف يخلق ويقع لا محالة، فلم يقع الفعل وعلمع الله تعالى بعلمه الأزلي ثم قضى به، بل إن قضاء الله تعالى سبق كل شيء ولم يتوقف على العلم وحده بل القدرة المؤثرة، والعلم الكاشف معا، فلا يقع شيئا أبدا إلا ما أراده الله تعالى.

إن القدر سابق على ذلك تماما، وسوف نفصل القول في المسألة بإذن الله تعالى على قدر الاستطاعة، والله المستعان.

📖**ونقول:** لو كان المقصود بأن الله عز وجل هو خالق أفعال العباد أنه سبحانه هو الذي أعطى أجهزة الجسم القدرة على القيام بالأفعال وفقط، لكان يكفي من كلام **الإمام ابن تيمية قوله**: (والله خالقهم وخالق قدرتهم)، لأن القدرة عامة وشاملة لكل خلايا الجسد، لكنه قال: (والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم)، فزيادة لفظ الإرادة في كلام **الإمام ابن تيمية** تعنى أن الإرادة ليست هي نفس القدرة على الفعل، بل هي شيء آخر، وهذا الشيء الآخر هو الرغبة، أو الدافع، أو القصد، وكل هذا يعني أن الفعل الذي قام به الإنسان بناء على هذه الإرادة، لم يكن بمطلق إرادته ورغبته، بل إن الله يسره لذلك، أو سخره له، أو دفعه إليه وهيأه له، وهذا هو ما يفهم منه معنى التسيير والتخيير، والله أعلم.

وفي موضع آخر يفصل **الإمام ابن تيمية** المعنى النظري بالمثال الواضح البين، **فيقول**: وأما أهل السنة فعندهم يمتنع أن يريد الله تحريك جسم، ويجعل العبد مريداً لأن يجعله ساكناً مع قدرته علي ذلك، فإن الإرادة الجازمة مع القدرة تستلزم وجود المقدور، فلو جعله الرب مريداً مع قدرته لزم وجود مقدوره، فيكون العبد يشاء مالا يشاء الله وجوده، وهذا ممتنع، بل ما شاء الله وجوده يجعل القادر عليه مريداً لوجوده، لا يجعله مريداً لما يناقض مراد الرب)[1].

[1] درء تعارض العقل والنقل (١/ ٨٤).

ومحاولة فهم هذه المعاني - على وجه صحيح - لا يعتبر من المنهي عنه، وإلا أدى ذلك إلى وقوع الناس في الفتن، والعياذ بالله.

ومما يؤكد أن النهي عن الكلام في القدر ليس متعلقا بمسألة التسيير والتخيير، ما ننقله من أقوال الأئمة الأربعة - رحمة الله عليهم أجمعين - في هذه المسألة، والتي ندور في إطارها بالبيان، دون أن نخرج عما قالوه، بفضل الله تعالى.

ففي الفقه الأكبر **للإمام أبي حنيفة**: يقول رحمة الله تعالى عليه: (خلق الله تعالى الأشياء لا من شيء وكان الله تعالى عالما في الأزل بالأشياء قبل كونها وهو الذي قدر الأشياء وقضاها ولا يكون في الدنيا ولا في الآخرة شيء الا بمشيئته وعلمه وقضائه وقدره وكتبه في اللوح المحفوظ ولكن كتبه بالوصف لا بالحكم والقضاء، والقدر والمشيئة صفاته في الأزل بلا كيف، يعلم الله تعالى في المعدوم في حال عدمه معدوما ويعلم انه كيف يكون إذا أوجده، ويعلم الله الموجود في حال وجوده ويعلم أنه كيف فناؤه، ويعلم الله القائم في حال قيامه قائما، وإذا قعد فقد علمه قاعدا في حال قعوده، من غير ان يتغير علمه، أو يحدث له علم ،ولكن التغير والاختلاف يحدث عند المخلوقين)[1]

فقوله: (ولا يكون في الدنيا ولا في الآخرة شيء الا بمشيئته وعلمه وقضائه وقدره وكتبه في اللوح المحفوظ) هو ما نقصده بالشرح والبيان، وليس ما عداه.

[1] الفقه الأكبر للإمام أبي حنيفة.

وأما قوله: ﴿وَلكِن كتبه بِالوَصْفِ لا بالحكم وَالقَضَاءِ وَالقدرِ﴾، فيفهم منه أن الكتابة ليست بالنتيجة التي قدرها اللّه، ولكن بالوصف الذي وقعت به وعليه، ومثال ذلك ـ واللّه أعلم ـ قدَّر سبحانه وقضى أن يموت إنسان ما، فالذي يفهم من كلام الإمام أبي حنيفة رحمه اللّه تعالى، أنه في اللوح المحفوظ ليس مكتوبا إنه مات، بل مكتوب ـ واللّه أعلى وأعلم ـ أنه سوف يموت بالمرض مثلا، أو بالقتل، وكيف قتل، أو بالتردي من شاهق، مثلا، أو غير ذلك.

اعتقاد الأئمة الأربعة

وفيما يتعلق بباقي الأئمة الأربعة: (أخرج أبو نعيم عن ابن وهب قال: «سمعت مالكًا يقول لرجل: سألتني أمس عن القدر؟ قال: نعم، قال: إن الله تعالى يقول: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝١٣﴾ [السَّجْدَة: ١٣]، **فلا بد** أن يكون ما قال الله تعالى»

وقول الإمام مالك رحمه الله: (فلا بد أن يكون ما قال الله تعالى) هو ما نبين المقصود به، وكيف يكون ما قال الله تعالى، دون قهر أو إجبار.

وبالنسبة للإمام الشافعي رحمة الله عليه:

(**أورد البيهقي في مناقب الشافعي رحمه الله أنه قال:** «إن مشيئة العباد هي إلى الله تعالى ولا يشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين، فإن الناس لم يخلقوا أعمالهم وهي خلق من خلق الله تعالى»).

وهذا الكلام وكل ما يجري في نفس معناه لو لم يفهم فهما صحيحا فإنه قد يأتي بنتيجة سلبية، كما رأينا بالفعل بين الناس، ولهذا كان من الضروري بيان المعنى الصحيح له.

وعن الإمام أحمد رحمه الله:

(**وجاء في كتاب السُنَّة للإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى قوله:** «والقدر خيره وشره وقليله وكثيره، وظاهره وباطنه، وحلوه ومره، ومحبوبه ومكروهه، وحسنه وسيئه، وأوله وآخره من الله قضاء قضاه على عباده وقدر قدره، ولا يعدو واحد منهم مشيئة الله عز وجل ولا يجاوز قضاءه».

وكذلك قوله : «سمعت أبا عبد اللّه يقول: فاللّه عزّ وجلّ قدّر الطاعة والمعاصي، وقدر الخير والشر، ومن كتب سعيدًا فهو سعيد، ومن كتب شقيًا فهو شقي»[1].

فقضاءِ اللّه الذي قضاه سبحانه على العباد، منه ما يتعلق بأفعالهم، ومنه ما لا يطلع عليه مخلوق، وكل ما نتحدث فيه هو فيما يتعلق بأفعال العباد، التي نراها ونعاينها، لا غير. **وهذا كلام بعض أهل العلم المتأخرين في نفس المسألة:**

يقول الشيخ عبد العزيز الراجحي: (فالمؤمنون وأهل السنة والجماعة يقولون: إن اللّه تعالى خالق كل شيء، كما قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ ۝١٦﴾ [الرَّعْد من الآيه: ١٦] ، **فخلقَ العبادَ وخلقَ أفعالهم،** ولكن اللّه سبحانه أعطى العباد مشيئة وقدرة واختيارا، وجعل مشيئتهم تابعة لمشيئته، فالإنسان يعلم من نفسه أنه قادر يستطيع أن يأكل، ويستطيع أن يمتنع عن الأكل، ولا أحد يمنعه، ولكنك إذا شئت شيئاً فلا بد أن تكون مشيئتك تابعة لمشيئة اللّه كما قال سبحانه: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾ [التَّكوِير : ٢٩])[2].

وها هو يقول : (ولكن اللّه سبحانه أعطى العباد مشيئة وقدرة واختيارا، وجعل مشيئتهم تابعة لمشيئته)، ولعله يقصد نفس المعنى الذي قاله **الإمام ابن تيمية**، وذلك من خلال قوله: (وجعل مشيئتهم تابعة لمشيئته).

[1] اعتقاد الأئمة الأربعة لمؤلفه: محمد بن عبد الرحمن الخميس، المملكة العربية السعودية.

[2] شرح الحموية لابن تيمية ، لعبد العزيز بن عبد الله الراجحي، دروس صوتية.

وكذلك قوله: (ولكنك إذا شئت شيئاً فلا بد أن تكون مشيئتك تابعة لمشيئة الله).

والذي نفهمه أن التبعية هذه ليست من حيث الترتيب وحسب، بل أيضا التبعية من جهة التأثير، ولا يكون التأثير إلا بقدرة، وهذا هو عين التسيير والتسخير، والله أعلى وأعلم.

ويقول الشيخ الشنقيطي: (إِذَا كَانَ الْكَثِيرُونَ يَسْتَدِلُونَ فِي قَضِيَّةِ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ بِهَذِهِ الْآيَةِ"[1]، فَإِنَّهُ يَنْبَغِي أَلا تُغْفَلَ أَهَمِّيَّتُهَا فِي جَانِبِ الضَّرَاعَةِ إِلَى اللَّهِ دَائِمًا، بِطَلَبِ التَّفَضُّلِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْنَا بِالْمَشِيئَةِ بِالِاسْتِقَامَةِ فَضْلًا مِنْ عِنْدِهِ، كَمَا أَمَرَنَا فِي الصَّلَاةِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ مِنْهَا أَنْ نَطْلُبَهُ هَذَا الطَّلَبَ: اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)[2].

وقد بين - أعزه الله - أن المعنى الصحيح لفهم قضية التسيير والتخيير يستوجب التذلل بالخوف والرجاء، بين يدي الله تعالى، كما أمر سبحانه.

ومن خلال هذا البيان نطمئن - بتوفيق الله تعالى - إلى أن ما نتحدث فيه هو مذهب أهل السنة والجماعة، وأن ما نقوم به يدخل ضمن شرح الأصول التي تحدث عنها السلف الصالح، والتي لا غنى عن شرحها حتى يفهمها الناس، فهمًا يمنع من الوقوع في ضلالات من يتحدثون في هذا الأمر على غير بصيره.

وليس هذا وفقط بل نهدف - والله هو الهادي إلى سواء السبيل - إلى انتشال كثير من الناس من غياهب التخبط والحيرة، بسبب

---

[1] {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}

[2] أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٨/ ٤٤٨)

عدم وضوح المعنى في مسألة التسيير والتخيير، والتي يتحدثون فيها دون استيعاب أو فهم صحيح لها، والله ولي التوفيق.

ومما لا شك فيه، أن التوسع في الشرح وبيان هذه المسألة كان يمكن أن يكتفى فيه بالإشارات السريعة، والبيان الموجز، ولكن نظرا لأنها من كبرى المسائل التي تتناولها الألسنة فقد آثرت أن اجتهد قدر استطاعتي - والله ولي التوفيق - طمعا في توضيح المعنى توضيحا يقطع الحيرة، ويمنع من الانزلاق فيما لا يحمد عقباه، ولهذا أطلت الكلام واستطردت إلى درجة كبيرة، ولكن لا حيلة في اختصاره، نظرا لأهميته، وبخاصة أنها أدلة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، وتعدد الأدلة يسمح باستيعاب الأمر من كافة وجوهه، إضافة إلى أنه من قبيل الفهم الصحيح للقرآن والسنة، والله أعلى وأعلم.

دلالة لفظ الاستهام في الحديث الشريف

نرجع إلى حديث السفينة ونؤكد أن المغزى الصحيح من لفظ الاستهام - في الحديث الشريف - ليس ما يتعلق بالسفينة المذكورة، ولكن المقصود هو دنيا البشر، ولهذا أهميته في البحث عن مغزى هذا اللفظ.

وكما قلنا، فلعل من كانوا بالسفينة لم يكن لهم دراية بركوب البحر، أو أحوال السفن، ولهذا لما اطلعوا على السفينة، وخبروها أثناء السير، رأوا أن منها طوابق ليست سواء، من حيث التميز والراحة، وكذلك لا يكفيهم الطابق العلوي جميعا، بل لابد من توزيعهم، ولهذا احتكموا إلى عملية الاستهام.

وظاهر الأمر أن أحد الركاب قد اقترح عملية الاستهام، ومع أن هذا قد يحدث بالاختيار المطلق من صاحب هذا الاقتراح، إلا أن أهمية الاستهام في هذا الحديث تؤكد أن حقيقة ما جرى لم يكن كذلك.

بل الذي يغلب على الظن - في ظل النقول السابقة - أن الخالق سبحانه - وهو أعلم بمراده جل في علاه - يُلهم الركابَ أو بعضَهم، أو يدفعهم دفعا إلى الاستهام، من خلال خلق الشعور في نفوسهم بالحاجة إليه.

ولو أراد اللّه غير ذلك - واللّه أعلم بمراده - لمَا شعروا بهذه الحاجة، بل يزين الخالق - على سبيل المثال - لبعض الركاب الركوب في أسفل السفينة، برغبة ورضى، أو غير ذلك، فاللّه عز وجل يهيء الأسباب، ويخلق الدوافع، التي تؤدي إلى قيام الركاب بما يريد سبحانه، وكذلك الحال في أمور الخلق جميعا، واللّه أعلى وأعلم.

ومما يؤكد مسألة خلق الدوافع حديث رسول الله ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالى إِذَا أَرَادَ قَبْضَ رُوحِ عَبْدٍ بِأَرْضٍ، جَعَلَ لَهُ فِيهَا ـ أَوْ قَالَ: بِهَا حَاجَةً"[1].

وهكذا كان ذكر لفظ الاستهام في هذا الحديث الشريف، والذي تظهر أهميته الكبرى من خلال التفكر في هذا المعنى، المعنى الذي يبين أن كل ما يجري في دنيا البشر، هو قضاء الله وقدره النافذ لا محالة، سواء أكان في السفينة أم في غيرها، ووضوح هذا المعنى يجعل من يدركه إدراكا صحيحا يوقن أنه ـ أي إنسان كان ـ وإن كان هو الفاعل لحركاته وسكناته، إلا أنه في الحقيقة إنما يَظهرُ فيه قضاءُ الله وقدره، وأن هذا القضاء لا يعلمه إلا الله، ولا يدري مخلوق قط على أي وجه يكون هذا القضاء، قبل أن يوجد، وهذا يجعل الإنسان بين الخوف والرجاء، الخوف أن يقع عليه ما يكره، والرجاء أن ينجيه الله من المكاره، ويسبغ عليه نعمه.

ولا وسيلة للوصول إلى هذا المبتغى إلا بالتذلل بين يديه سبحانه، بالقيام بواجب العبودية الحق، وذلك بأداء التكاليف الشرعية، من الأوامر والنواهي، كما يحب سبحانه ـ وكما يشير إليه حديث السفينة ـ ومع كل هذا لا يفتر لسانه عن الدعاء ، واللجوء إليه سبحانه جل في علاه، طلبا للاطمئنان والسكينة والرضا.

ولن يوفق إلى هذا إلا من خلصت نيته لله تعالى، وصدق في التوكل عليه، وما التوفيق إلا من عند الله.

[1] مسند أحمد (٢٤/ ٣٠١)، الأدب المفرد (ص: ٤٣٦)، وقال الشيخ الألباني: صحيح.

مشيئة الخالق ومشيئة العباد

بعد أن نقلنا موقف أئمة الهدى من مسألة القدر، وتعلق القضاء والقدر بالمشيئة، نشرع الآن - بإذن الله تعالى - في بيان المراد بالمشيئة، وما يترتب على المعنى المراد منها، وذلك في عدة مطالب، مع الأخذ بعين الاعتبار أن تكرار الاستدلال بالأدلة ليس تكرارا من كل وجه، بل هو متعلق بتنزيل الدليل على كل مسألة بخصوصها، ولهذا نوجه الدليل الواحد في مواضع مختلفة، كل بما يناسبه، والله ولي التوفيق.

وفي هذا المطلب نتحدث عن مشيئة الله، وأن مشيئة العباد تبع لمشيئة الله، وتعلقها بالتخيير والتسيير.

ونظرا لما ورد من أدلة تتضمن لفظ الإرادة، ومنها ما يتضمن لفظ المشيئة، نبين الاتفاق والاختلاف بينهما، وذلك فيما يتعلق بمشيئة العباد، وإرادتهم وذلك كما يقول **الإمام الجرجاني**: (الفرق بين الإرادة والمشيئة: قيل: الإرادة هي العزم على الفعل، أو الترك بعد تصور الغاية، المترتبة عليه من خير، أو نفع، أو لذة ونحو ذلك، وهي أخص من المشيئة، لأن المشيئة ابتداء العزم على الفعل، فنسبتها إلى الإرادة نسبة الضعف إلى القوة، والظن إلى الجزم، فإنك ربما شئت شيئا ولا تريده، لمانع عقلي أو شرعي، وأما الإرادة فمتى حصلت صدر الفعل لا محالة، وقد يطلق كل منهما على الآخر توسعا)[1].

---

[1] معجم الفروق اللغوية، لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ) (ص: ٣٥).

وأعتقد أن إطلاق كل منهما على الآخر، في بحثنا هذا، لن يترتب عليه خلل ما، وهذا ما سوف نسير عليه بإذن الله تعالى.

فالذي نهدف إليه ـ من هذا البحث ـ هو تأكيد أن مشيئة العبد يقصد بها الهم والرغبة والإرادة في إيجاد الفعل، وأما ما يقع في الحقيقة، فقد يكون موافقا أو مخالفا، بسبب خارج عن إرادة العبد ومشيئته، فالعبد لا يملك إنفاذ ما يريد على النحو الذي أراده، إلا إذا شاء الله تعالى له ذلك، وإلا فلا.

ثم يبين الإمام أبو هلال العسكري المراد بمشيئته سبحانه قائلا: (وإرادته عز وجل للشئ نفس إيجاده له، ويشهد لذلك الأخبار، منها ما روي عن صفوان قال: قلت لأبي الحسن أخبرني عن الإرادة من الله، ومن الخلق، فقال: الإرادة من الخلق: الضمير وما يبدو لهم بعد ذلك من الفعل، وأما من الله تعالى فإرادته إحداثه لا غير ذلك، لأنه لا يروي"[1]، ولا يهم، ولا يتفكر، فهذه الصفات منفية عنه تعالى، وهي صفات الخلق، فإرادة الله الفعل لا غير، يقول له: كن فيكون)[2].

وتفصيل الفرق كما في تفسير **المنتصر الكتاني** لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ٣٠﴾ [الإنسان: ٣٠].

يقول: (وذاك في سابق علمه وقدره في اللوح المحفوظ، ولذلك كانت عقيدة أهل السنة والجماعة أن الهداية وسط بين قول الجبرية بأن العبد مسير"[3]، وقول المعتزلة بأن العبد يخلق أفعاله،

[1] لعل المراد الروية: أي التفكر في الأمر.

[2] معجم الفروق اللغوية (ص: ٣٥).

[3] لفظ التسيير في هذا السياق يقصد به الجبر والقهر.

فلسنا نخلق أفعالنا، ولسنا مجبرين، بل هناك مشيئة وهناك كسب، فمن قال بقول الجبرية هلك، ومن قال بخلق الأفعال كاد يشرك، لأنه جعل مع اللّه من يخلق ومن ينشيء ومن يوجد، واللّه الخالق لكل شيء، وهو النافع والضار جل جلاله).

ويقول أيضا : (أما في دار الدنيا فلا يستطيع أحد أن يقطع أنه من أهل الجنة أو النار، لكننا نعمل ونرجو اللّه، وندعوه، فما هو كائن في علم اللّه سيقع ولا أحد يعلمه، فعلينا أن نكثر من العبادة ومن الإخلاص ومن الطاعة، ونكثر من الدعاء كما أمرنا اللّه ورسوله به، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ٨٢﴾ [الشُّعَرَاء : ٨٢])[1].

وهو كلام غاية في الأهمية والوجاهة، ولكن كل هذا الكلام يحتاج إلى شرح وبيان، حتى لا يتخبط الناس في تيه وضلال.

ولعل هذا المعنى يفسره ما ورد عن **الإمام ابن تيمية :** (وقوْله تعَالى: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ} لا يدُلُّ علَى أنَّ العَبْدَ ليْسَ بفَاعِلٍ لِفِعْلِهِ الِاخْتيَارِيِّ ولا أنّهُ ليْسَ بقَادِرٍ عليْهِ ولا أنّهُ ليْسَ بمُرِيدٍ، بلْ يدُلُّ علَى أنّهُ لا يشَاؤُهُ إلا أنْ يشَاءَ اللّهُ وَهذِهِ الآيَة ردٌّ علَى الطّائِفَتيْنِ: المُجْبِرَةِ الجَهْمِيَّة وَالمُعتزِلة القَدرِيَّة فإِنّهُ تعَالى قَالَ: {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ} فأثْبتَ لِلْعبْدِ مَشِيئَة وَفِعْلا ثمَّ قَالَ: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} فبيَّنَ أنَّ مَشِيئَة العَبْدِ مُعلّقَة بمَشِيئَة اللّهِ.

---

[1] تفسير القرآن الكريم، لمحمد المنتصر بالله بن محمد الزمزمي الكتاني الإدريسي الحسني (المتوفى: ١٤١٩هـ) دروس صوتية، بتصرف يسير، (المكتبة الشاملة).

وسِيَاقُ الْآيَةِ يُبَيِّنُ أَنَّ الْمُرَادُ : وَمَا تَشَاءُونَ بَعْدَ أَنْ أَمِرْتُمْ بِالفِعْلِ أَنْ تَفْعَلُوهُ إلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ فإِنَّهُ تَعَالى ذَكَرَ الأمْرَ وَالنَّهْيَ وَالوَعْدَ وَالوَعِيدَ ثمَّ قالَ بَعْدَ ذَلِكَ: {إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا} {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ}، وَقَوْلُه: {وَمَا تَشَاءُونَ} نَفْيٌ لِمَشِيئَتِهِمْ فِي المُسْتقبَلِ، وَكَذَلِكَ قوْلُهُ: {إلا أنْ يَشَاءَ اللَّهُ} تَعْلِيقٌ لها بِمَشِيئَةِ الرَّبِّ فِي المُستقبَلِ فإِنَّ حَرْفَ (أنْ) تُخَلِّصُ الفِعْلَ المُضَارِعَ لِلاسْتِقبَالِ فالمَعْنَى: إلا أنْ يَشاءَ بَعْدَ ذَلِكَ والأمْرُ مُتقدِّمٌ عَلى ذَلِكَ وَهذا كَقَوْلِ الإنْسَانِ: لا أفعَلُ هذا إلا أنْ يَشَاءَ اللَّهُ، وَقدْ اتَّفقَ السَّلَفُ وَالفُقهَاءُ عَلى أنَّ مَنْ حَلفَ فقالَ: لأصَلِّيَنَّ غَدًا إنْ شَاءَ اللَّهُ أوْ لأقضِيَنَّ دَيْنِي غَدًا إنْ شَاءَ اللَّهُ وَمَضَى الغَدُ وَلمْ يَقْضِهِ أنَّهُ لا يَحْنَثُ وَلوْ كَانَتْ المَشِيئَةُ هِيَ الأمْرَ لحَنِثَ، لِأنَّ اللَّه أَمَرَهُ بِذَلِكَ وَهذا مِمَّا احْتجَّ بِهِ عَلى القَدَرِيَّةِ وَليْسَ لهُمْ عَنْهُ جَوابٌ وَلِهَذا خَرَقَ بَعْضُهُمْ الإِجْمَاع القَدِيمَ وَقَالَ إنَّهُ يَحْنَثُ)[١].

وخلاصة القول : أن مشيئته سبحانه نافذة قطعا دون تغيير أو تبديل، بينما مشيئة العبد تعْرُضُ لها الموانع، كما تعرض لها الأخطاء، وسوف نتناوله في موضعه بإذن الله تعالى.

📖 ونبدأ هذا البيان من خلال حديث السفينة :

يدور حديث السفينة حول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد رأينا كيف قسم العلماء ركاب السفينة إلى أقسام ثلاثة، القائم على حدود الله والمدهن، والواقع فيها، **فهل نشأت هذه الأقسام**

[١] مجموع الفتاوى (٨/ ٤٨٨)

الثلاثة بسبب تصرف الركاب وأفعالهم في السفينة، أم أن انقسام من كانوا في السفينة بالاستهام، قد أظهر ما هم عليه، ولم ينشئه؟

ولعل الجواب عن هذا السؤال يبين كيف وقع كثيرون من أهل العلم في متاهة، سببها عدم القدرة على التوفيق بين أصول ثلاثة لا يمكن الفصل بينها ألا وهي:

الأصل الأول: أن الله ليس بظلام للعبيد.

الأصل الثاني: أن مشيئة الله نافذة.

الأصل الثالث: أن مشيئة العبد مقيدة وليست مطلقة.

وبإذن الله تعالى نجتهد قدر الاستطاعة - والله المستعان - في تجلية هذه المسألة، وإزاحة الغموض عنها، وبخاصة أن بعض الأدلة تظهر أن الهداية والتوفيق بيد الله وحده، ومشيئته سبحانه، هي الفيصل بين الهدى والضلال، ولا مشيئة للبشر ولا حيلة لهم فيها، ومع هذا فليس المعنى على هذا الوجه، بل المعنى الحقيقي أن مشيئة العباد لا تنفك عن مشيئة الله عز وجل، سواء في الهداية أو الضلال، ولكن بعد قيام الحجة عليهم، فكما قلنا وأوضحنا، أنه توجد للعباد مشيئة وإرادة مطلقة واختيار تام، تتحقق في بعض الأمور، التي تقوم بها الحجة عليهم، فإذا ما قامت الحجة، حكمتهم الأقدار، بالتسيير والتسخير، والله أعلى وأعلم.

ولتوضيح هذا المعنى نقول: إن الله قد أخذ العهد والميثاق على العباد، وقامت عليهم الحجة بهذا العهد، وتقررت مصائر العباد، قبل أن يوجد منهم أحد في دنيا الوجود، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ

شَهِدْنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ [الأَعْرَاف : ١٧٢ - ١٧٤]، **وهذا العهد أو الميثاق**، قد يكون هو أهم أصل في هذه المسألة، وغلبة الظن - والله أعلم - أن هذا الميثاق هو الذي تحقق فيه للمكلفين الإرادة الحرة والاختيار التام، في الإقرار بألوهية الخالق سبحانه، وأنه المعبود بحق سبحانه، وحده لا شريك له، ولعل قوله تعالى: {أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ}، يؤكد هذا المعنى، والذي طبعت عليه الفطرة، لتكون دليلا على هذا الميثاق، ففي تفسير **الإمام أبي السعود**: (قوله تعالى {أَن تَقُولُواْ يَوْمَ القيامة إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافلين} ... **والمعنى**: فعلنا ما فعلنا من الأمر بذكر الميثاق وبيانه كراهة أن تقولوا أو لئلا تقولوا أيها الكفرة يوم القيامة إنا كنا غافلين عن ذلك الميثاق لم ننبه عليه في دار التكليف وإلا لعملنا بموجبه، أو المعنى: اذكر لهم الميثاق المأخوذ منهم فيما مضى لئلا يعتذروا يوم القيامة بالغفلة عنه أو بتقليد الآباء)[1].

والذي نقصده: إن هذه الآيات القرآنية تثبت قيام الحجة على العباد، كما أخبرت الآيات الكريمة، بوجه من الوجوه، تلك الحجة التي تنفي الظلم تماما عند الحساب والمآل يوم القيامة، ولو قلنا إن هذه الآيات دليل على أن الله فطر العباد على الوحدانية[2]

---

[1] تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٣/ ٢٩١)

[2] وفي الحديث: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُشَرِّكَانِهِ» فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ أَرَأَيْتَ لَوْ مَاتَ قَبْلَ ذَلِكَ؟ قَالَ: «اللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ»، صحيح مسلم (٤/ ٢٠٤٨)

كما في آيات الفطرة، لو اكتفينا بهذا المعنى في دلالة الآيات،لكنا بذلك قد ألغينا الكثير من دلالة هذه الآيات، والتي فيها قطع العذر، الذي لا تثبته آيات الفطرة، لأن الفطرة تدل على وجود الخالق سبحانه، وقد تدل أيضا على وحدانيته، جل وعلا، ولكن آية الميثاق تزيد على ذلك، في أنها تثبت قيام الحجة، من خلال التكليف الشرعي {أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا}، وهذا المعنى هو أصل قيام الحجة، على العباد.

📖 **وفي هذا المعنى يقول الإمام الطبري**: (عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: جمعهم يومئذٍ جميعًا، ما هو كائن إلى يوم القيامة، ثم استنطقهم، وأخذ عليهم الميثاق ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢ - ١٧٣]، قال: فإني أشهد عليكم السموات السبع والأرضين السبع، وأشهد عليكم أباكم آدم: أن تقولوا يوم القيامة لم نعلم بهذا! اعلموا أنه لا إله غيري، ولا رب غيري، ولا تشركوا بي شيئًا، وأني سأرسل إليكم رسلا يذكرونكم عهدي وميثاقي، وسأنزل عليكم كتبي! قالوا: شهدنا أنك ربُّنا وإلهنا، لا رب لنا غيرك، ولا إله لنا غيرك. فأقرُّوا له يومئذٍ بالطاعة، ورفع عليهم أباهم آدم، فنظر إليهم، فرأى منهم الغنيّ والفقير، وحسن الصورة، ودون ذلك، فقال: رب لولا ساويت بينهم! قال: فإني أحب أن أشكر، قال: وفيهم الأنبياء عليهم السلام يومئذٍ مثلُ السُّرُج)[1].

[1] تفسير الطبري (١٣/ ٢٣٨).

فقوله تعالى في هذا الحديث: (اعلموا أنه لا إله غيري، ولا رب غيري، ولا تشركوا بي شيئا) نص في هذه المسألة، أقصد قيام الحجة بالتكليف الشرعي، وكل هذا لا طاقة لعقول البشر بإدراكه، ولكن الخالق سبحانه أخبر عنه، فهو الحق الذي لا مرية فيه، ويؤيد ذلك ما ورد من أحاديث صحيحة، وقد ذكرت في ثنايا هذا البحث"[1].

وكذلك يقول **الإمام الطبري** تأكيدا لهذا المعنى: (الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: { أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ } ، يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: شَهِدْنَا عَلَيْكُمْ أَيُّهَا الْمُقِرُّونَ بِأَنَّ اللَّهَ رَبُّكُمْ، كَيْلَا تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ، إِنَّا كُنَّا لَا نَعْلَمُ ذَلِكَ وَكُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْهُ، أَوْ تَقُولُوا: {إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ}، اتَّبَعْنَا مِنْهَاجَهُمْ {أَفَتُهْلِكُنَا}، بِإِشْرَاكِ مَنْ أَشْرَكَ مِنْ آبَائِنَا، وَاتِّبَاعِنَا مِنْهَاجَهُمْ عَلَى جَهْلٍ مِنَّا بِالْحَقِّ؟، وَيَعْنِي بِقَوْلِهِ {بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ} ، بِمَا فَعَلَ الَّذِينَ أَبْطَلُوا فِي دَعْوَاهُمْ إِلَهًا غَيْرَ اللَّهِ)[2].

---

[1] كما في الصحيحين: عَنْ عَلِيٍّ ﷺ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِي جَنَازَةٍ، فَأَخَذَ شَيْئًا فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِهِ الأَرْضَ، فَقَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ الجَنَّةِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلاَ نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا، وَنَدَعُ العَمَلَ؟ قَالَ: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ»، ثُمَّ قَرَأَ: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالحُسْنَى}، البخاري (٦/ ١٧١)، مسلم (٤/ ٢٠٤٠)، واللفظ للإمام البخاري.

[2] تفسير الطبري (١٣/ ٢٥١).

وهكذا يبين **الإمام الطبري** فساد قول المشركين أنهم اتبعوا سبيل آبائهم، لعدم علمهم بالحق الذي أمر به الخالق سبحانه، فكان هذا الميثاق قطعا لأي عذر لهم، ولو قلنا إن آيات الفطرة تشير إلى وحدانية الخالق واستحقاقه عز وجل العبادة وحده لا شريك له، لم يكن مستبعدا، ولكن آية الميثاق نص صريح في المسألة، بينما آيات الفطرة تدل بالإشارة غير المباشرة، والله أعلى وأعلم.

وفي هذا المعنى يقول الشيخ ابن عاشور: (وَالمَعْنَى: أنَّ ذَلِكَ لمَّا جُعِلَ فِي الفِطْرَةِ عِنْدَ التَّكْوِينِ كَانَتْ عُقُولُ البَشَرِ مُنْسَاقَةً إلَيْهِ، فَلَا يَغْفُلُ عَنْهُ أحَدٌ مِنْهُمْ فَيَعْتَذِرُ يَوْمَ القِيَامَةِ، إذَا سُئِلَ عَنِ الإشْرَاكِ، بِعُذْرِ الغَفْلَةِ، فَهَذَا إبْطَالٌ لِلِاعْتِذَارِ بِالغَفْلَةِ، وَلِذَلِكَ وَقَعَ تَقْدِيرُ حَرْفِ نَفْيٍ أيْ أنْ لَا تَقُولُوا إلَخْ)[1].

والذي نراه: أن آيات الميثاق هي الأصل، والفطرة هي الدليل، أما كون هذا الميثاق لا يذكره البشر، فيجاب عنه بقوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ١٤﴾ [المُلْك : ١٤]، فالذي خلق البشر العليم بهم هو الذي أخبر عن هذا الميثاق، وهو الذي طبعهم على الفطرة بذلك، ومع هذا أرسل الرسل، رحمة منه بالعباد، ولعل آية الميثاق ودليل الفطرة يؤكدان كيف لا يكون حساب الكافرين بنار جهنم ظلما، مع أن الغالبية العظمى منهم لم ينتفعوا بهداية الرسول ﷺ المباشرة، وكل هذا لا يعلم حقيقته إلا الخالق سبحانه، وما نفعله هو تقريب المسألة للفهم على نحو مقبول، قدر الاستطاعة، والله ولي التوفيق.

---

[1] التحرير والتنوير (٩/ ١٦٩).

وبناء على هذا التصور، فإن ما يجري في دنيا الوجود لا يتعلق بمشيئة العباد، فإن ما يجري عليهم إنما هو القدر المحتوم، أما مشيئتهم فليست على نسق واحد في مجريات حياتهم، بل هي محكومة بمراد الله تعالى، الذي لا يعلمه إلا هو سبحانه، فقد توجد مشيئتهم ولا يوجد الفعل، بسبب مانع من الموانع، أو خطأ من الأخطاء، وقد توجد ويوجد الفعل دون تغيير ولا تبديل، كما في مسألة الاستهام على السفينة، كما نراه من خلال الأدلة المجتمعة، وقد توجد المشيئة ويوجد الفعل على نحو مختلف، بسبب من الأسباب أيضا، وكل ذلك لا يعلمه أحد من العباد، بل هو الغيب الذي اختص به نفسه رب العباد، رب الأرباب جميعا جل في علاه.

📖 **والذي أريد أن أثبته من خلال هذا البحث هو:**

أنه: "لا يوجد لمخلوق قط إرادة كاملة واختيار مطلق في أفعاله التي يحاسبه الله عليها، لأن القول بذلك طعن في العقيدة وتعطيل للقدر".

وليس معنى ذلك نفي وجود الإرادة والاختيار للإنسان، بل المنفي هو الإرادة والاختيار المطلقين، وحسب.

بمعنى: أننا لو افترضنا أن الارادة الكاملة والاختيار المطلق يمثلان - مثلا - مئة كاملة تامة، فإننا نقول إن إرادة الإنسان واختياره قد تكون - على سبيل الاجتهاد والظن - عشرة بالمئة أو عشرين أو أكثر من ذلك أو أقل، لا يعلم ذلك إلا الله تعالى، ولا يطلع عليه بشر.

وكذلك: قد تكون هذه النسبة الخاصة بالإنسان موزعة بين الأفعال توزيعا يناسب مراد الله تعالى - والله أعلم بمراده - فمثلا

تكون بعض أفعال الإنسان إرادته واختياره فيها كاملا تاما، وبعض آخر إرادته واختياره فيها محدودا، والبعض الآخر ـ مثلا ـ على النصف أو الثلث أو الربع، أو أقل أو أكثر، وتختلف النسبة بما يوافق مراد الله تعالى، والله أعلى وأعلم.

والذي أؤكد عليه ـ من خلال هذا البحث ـ أنه قد يكون للإنسان إرادة مطلقة وإختيار تام في بعض الأفعال، ولا يعلم ذلك إلا الله، ولكنه سبحانه وتعالى يقيم الحجة على العباد، وكل ذلك له حِكمٌ عظيمة، قد نحيط ببعضها أو تغيب عنا، ولكنها من المؤكد موجودة، فالخالق سبحانه وتعالى لا يأمر ولا ينهى، إلا وله حكمة سبحانه، فكل صفات العظمة والكمال له وحده سبحانه.

ونستطيع أن نقول إن أكبر مشكلة عند من يقولون بالتخيير التام فيما يحاسب عليه الإنسان هي: هل يمكن أن يحاسب الخالق سبحانه عبده على شيء فعله، ولم يكن مخيرا تماما في فعله هذا؟

وسوف نبين ـ بتوفيق الله تعالى ـ أنه على الرغم من نفي التخيير التام في الغالب الأعم مما يتعلق بأفعال المخلوقين، إلا أنه لا ظلم عند الحساب، كما قد يتوهم البعض، فإن الله عدل لا يظلم أحدا.

وإن فهم هذه المسألة فهما صحيحا، يعين تماما على استيعاب الأمر على وجه ينفي أي توهم للظلم، بل يدرك من يفهم جيدا جوانب الرحمة الواسعة في الحساب، والله أعلى وأعلم.

ونبين ـ بتوفيق الله تعالى ـ قدر المستطاع، هذا المعنى من خلال الأدلة التالية:

📖 **الدليل الأول:** قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٤١﴾ [المَائِـدَة: ٤١].

يقول الإمام الطبري: (يقول تعالى ذكره: لا يحزنك تسرُّعهم إلى جحود نبوَّتك، فإني قد حَتمْتُ عليهم أنهم لا يتوبون من ضلالتهم، ولا يرجعون عن كفرهم، للسابق من غضبي عليهم، وغير نافعهم حزنك على ما ترى من تسرُّعهم إلى ما جعلته سببًا لهلاكهم واستحقاقِهم وعيدي)[1].

والمعنى من قوله: (فإني قد حَتمْتُ عليهم أنهم لا يتوبون من ضلالتهم، ولا يرجعون عن كفرهم) يبين أن مشيئة الله تعالى أن يبقوا على ضلالهم، ومع هذا ليس معناه القهر والإجبار، بل يفهم من سياق الآية أن قلوبهم لم تخلص العبودية الحق لله رب العالمين، ولهذا لا قيمة مطلقا لإرادتهم ومشيئتهم للتوبة - حتى وإن تابوا - لأنها ليست توبة صحيحة، فلو حال الله بينهم وبين هذه التوبة فلم يظهروها، لما كان في ذلك أي ظلم لهم.

ويؤكد هذا قول الإمام الطبري: (ومعنى "الفتنة" في هذا الموضع: الضلالة عن قصد السبيل، ومن يرد الله، يا محمد، مَرْجعه بضلالته عن سبيل الهدى، فلن تملك له من الله استنقاذًا مما أراد

[1] تفسير الطبري (١٠/ ٣١٦).

الله به من الحيرة والضلالة، فلا تشعر نفسك الحزن على ما فاتك من اهتدائه للحق)[1].

فقدر الله تعالى هو موتهم على الفتنة، ومن هنا نفهم أن مشيئة العباد، لا قيمة لها، بل إن أفعالهم لابد أن تؤدي إلى هذا القدر المحتوم، سواء أوافقت مشيئتهم أم خالفتها، وستقوم عليهم الحجة بمشيئتهم وأفعالهم، أما كيفية ذلك، فلا يعلمه على وجه التحقيق إلا الله، والله أعلى وأعلم.

ومع هذا فإن الظلم منتفٍ، لأن هؤلاء الذين قدِّر عليهم أن يموتوا على الضلال إنما هم الذين اختاروا الغواية والضلال، عندما كانوا مخيرين تماما فيما يفعلون، والذي قامت عليهم به الحجة فأبوا الهداية، فاستحقوا ما توعدهم الله به، وحق عليهم سوء العاقبة المتمثلة في قدرهم المحتوم.

📖 **الدليل الثاني**: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَـٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ١٩٨ - ٢٠١].

يقول الإمام الطبري: (عن قتادة: {وَلَوْ نَزَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ} **قال**: لو نزله الله أعجميا كانوا أخسر الناس به، **لأنهم لا يعرفون** بالعجمية، وهذا الذي ذكرناه عن قتادة قول لا وجه له، لأنه وجَّه الكلام أن معناه: ولو أنزلناه أعجميا، وإنما التنزيل {وَلَوْ نَزَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ} **يعني**: ولو نزلنا هذا القرآن العربي علي بهيمة من

---

[1] تفسير الطبري (١٠/ ٣١٦).

العجم أو بعض ما لا يفصح، ولم يقل: ولو نزلناه أعجميا، فيكون تأويل الكلام ما قاله.

وقوله {فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ} **يقول**: فقرأ هذا القرآن على كفار قومك يا محمد الذين حتمت عليهم أن لا يؤمنوا ذلك الأعجم ما كانوا به مؤمنين)[1].

ويمكن أن توجد منهم مشيئة الإيمان، ولكنها مشيئة مخادعة، لا تعبر عن نية صادقة، ولهذا لم تنفعهم هذه المشيئة، حتى لو آمنوا فسيكون إيمانهم نفاقا وليس إيمانا حقا، والله أعلى وأعلم.

ثم يقول الإمام الطبري: (يقول: لم يكونوا ليؤمنوا به، لما قد جرى لهم في سابق علمي من الشقاء)، والشقاء يتحقق بعدم الإيمان ابتداء، أو بالإيمان نفاقا، ومعناه أنهم حتى ولو أظهروا الإيمان، على غير ما يبطنون، فلن تخفى على الله سريرتهم، سواء أفضحهم بذلك، أم لم يفضحهم سبحانه، والله أعلى وأعلم.

ويستكمل الإمام الطبري شرحه بقوله: (وهذا تسليَة من الله نبيه محمدا ﷺ عن قومه، لئلا يشتد وجدُه بإدبارهم عنه، وإعراضهم عن الاستماع لهذا القرآن، لأنه كان ﷺ شديدا حرصه على قبولهم منه، والدخول فيما دعاهم إليه، حتى عاتبه ربه على شدّة حرصه على ذلك منهم، فقال له: {لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} (الشعراء: ٣)، ثم قال مؤيسه من إيمانهم وأنهم هالكون ببعض مثلاته، كما هلك بعض الأمم الذين قص عليهم قصصهم في هذه السورة، ولو نزلناه على بعض الأعجمين يا

---

[1] تفسير الطبري (١٩/ ٤٠٠).

محمد لا عليك، فإنك رجل منهم ويقولون لك:ما أنت إلا بشر مثلنا، وهلا نزل به ملك، فقرأ ذلك الأعجم عليهم هذا القرآن، ولم يكن لهم علة يدفعون بها أنه حق وأنه تنزيل من عندي، ما كانوا به مصدقين، فخفض من حرصك على إيمانهم به،ثم وكد تعالى ذكره الخبر عما قد حتم على هؤلاء المشركين الذين آيس نبيه محمدا ﷺ من إيمانهم من الشقاء والبلاء، فقال: كما حتمنا على هؤلاء أنهم لا يؤمنون بهذا القرآن{وَلَوْ نزلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ}{كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ} التكذيب والكفر {فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ}، ويعني بقوله:سلكنا:أدخلنا، والهاء في قوله {سَلَكْنَاهُ } كناية من ذكر قوله {مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ}، كأنه قال: كذلك أدخلنا في قلوب المجرمين ترك الإيمان بهذا القرآن)[1].

ومن المعلوم أن القلب هو منشأ الإرادة والمشيئة، ولهذا فإن تغير القلب، والبعد عن الإيمان سيؤدي ـ لا محالة ـ إلى مشيئة المعصية والضلال، حتى وإن كانت المشيئة لخير ما، فلن يكون موافقا لمراد الله، بل هو الرياء والنفاق والشرك والعياذ بالله، والله أعلى وأعلم.

يقول الإمام ابن بطة"[2]: (فلهذا كان ﷺ يكثر في دعائه من القول يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك {رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ} (سورة آل عمران: الآية ٨) فسأل ﷺ الثبات من ربه فلو كان الأمر بيد العبد لا يحتاج إلى

[1] تفسير الطبري (١٩/ ٤٠٠).

[2] الإمام: أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان العُكْبَري المعروف بابن بَطَّة (المتوفى: ٣٨٧هـ).

مَشِيئة الرب وإرادته كَمَا تدعيه القَدَرِيَّة التِي تزْعم أن للْعَبد مَشِيئة مُسْتقلَّة عَن مَشِيئته سُبْحَانهُ لما سَأَلَ ﷺ الثبَات والاستقامة من ربه)[1].

📖 **الدليل الثالث:** قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف: ٢٩].

ظاهر الدليل أن مشيئة العباد مطلقة، وأنهم مخيرون فيما يفعلون {فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ}، وهذا المعنى يغاير حديثنا في هذا البحث، ولهذا نبين كيف يمكن التوفيق بين هذا الظاهر وبين عدم وجود مشيئة مطلقة للمخلوقين، فنقول: إن المراد بالآية ليس على ظاهره، بل إن المراد هو التهديد، وليس التخيير"[2]، وبهذا التوضيح تستقيم المعاني في الأذهان على وجه صحيح، لأن التهديد يؤكد كون مشيئة العباد مقيدة، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٩].

ويمكن أن نفهم أيضا أن التهديد يحمل في ثناياه معنى التعجيز، وكأن المعنى ـ والله أعلم بمراده ـ من كان يظن أيها العبيد أن له مشيئة مطلقة فليثبت ذلك، بأن يظهر الإيمان بما جاء به الرسول ﷺ، حتى ولو نفاقا أو رياء، ولن يستطيع ذلك، إلا

[1] الإبانة الكبرى لابن بطة (٣/ ٢٠٢)

[2] في تفسير الماوردي (٣/ ٣٠٣) (قوله عز وجل: {وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر} هذا وإن كان خارجاً مخرج التخيير فهو على وجه التهديد والوعيد).

[3] تفسير القرطبي (١٠/ ٣٩٣).

أن يشاء الله، فلو شاء الله أن يعجز اللسان عن النطق بكلمة الإيمان، فلن ينطق حتى ولو شاء صاحبه، وإن شاء الله أن تتحقق المشيئة لعبد من العباد، ولا تنفعه، فسينطق اللسان، بما يخالف ما في القلب، ليستحق العذاب الذي توعده الله به، وكل هذا لا طاقة للعباد على علمه، فلم يبق لهم إلا الاستسلام لله تعالى، طوعا أو كرها، والله أعلم.

يقول الإمام الطبري: «وقد بينا أن العرب تُخرِج الكلام بلفظ الأمر ومعناها فيه النهي أو التهديد والوعيد، كما قال جل ثناؤه: {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}، وكما قال: {لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} (النحل:٥٥، الروم:٣٤)، فخرج ذلك مخرج الأمر، والمقصود به التهديد والوعيدُ والزجر والنهي»[1].

ثم يبين أن مقادير الخلق لا تتعلق بمشيئة العباد، ولكن ما شاء الله كان، وليس في ذلك ظلم للعبيد، كما سنتناول وجه عدم الظلم في موضعه من البحث، بتوفيقه عز وجل.

فيقول: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وقل يا محمد لهؤلاء الذين أغفلنا قلوبهم عن ذكرنا، واتبعوا أهواءهم، الحقّ أيها الناس من عند ربكم، وإليه التوفيق والخذلان، وبيده الهدى والضلال، يهدي من يشاء منكم للرشاد فيؤمن، ويضلّ من يشاء عن الهدى فيكفر، لَيْسَ إِلَيَّ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ، وَلَسْتُ بطارِدٍ لِهَوَاكُمْ مَنْ كَانَ لِلحَقِّ مُتبعًا، وَبِاللَّهِ وَبِمَا أُنْزِلَ عَلَيَّ مُؤْمِنًا، فَإِنْ شِئْتمْ فَآمِنُوا، وَإِنْ شِئْتمْ فاكْفُرُوا، فإنكم إن كفرتم فقد أعد لكم ربكم على كفركم به نارا أحاط بكم سرادقها، وإن

[1] تفسير الطبري (٧/ ٥٤٧).

آمنتم به وعملتم بطاعته، فإن لكم ما وصف الله لأهل طاعته، وروي عن **ابن عباس** في ذلك ما حدثني عليّ، قال: ثنا **عبد الله**، قال: ثني **معاوية**، عن **عليّ**، عن **ابن عباس**، قوله: {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ} **يقول**: من شاء الله له الإيمان آمن، ومن شاء الله له الكفر كفر، وهو قوله: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} وليس هذا بإطلاق من الله الكفر لمن شاء، والإيمان لمن أراد، وإنما هو تهديد ووعيد)[1].

ويؤكد **الإمام القرطبي** معنى التهديد والوعيد، وينفي أن يكون المقصود هو التخيير فيقول: (فاللهُ يُؤتِي الحقَّ مَنْ يَشَاءُ وَإِنْ كَانَ ضَعِيفًا، ويَحْرِمُهُ مَنْ يَشَاءُ وَإِنْ كَانَ قوِيًّا غَنِيًّا، وَلَسْتُ بِطَارِدِ المُؤْمِنِينَ لِهَوَاكُمْ، فَإِنْ شِئْتُمْ فَآمِنُوا، وَإِنْ شِئْتُمْ فَاكْفُرُوا، وَلَيْسَ هَذَا بِتَرْخِيصٍ وَتَخْيِيرٍ بَيْنَ الإِيمَانِ وَالكُفْرِ، وَإِنَّمَا هُوَ وَعِيدٌ وَتَهْدِيدٌ. أيْ إِنْ كَفَرْتُمْ فَقَدْ أعَدَّ لَكُمُ النار، وإن آمنتم فلكم الجنة)[2].

وأما قوله تعالى: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}، وبيان أن المعنى المراد من الآية {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}، ليس التخيير، ما أورده **الإمام الطبري** في هذا الأثر إذ يقول: (قوله: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} يقول تعالى ذكره: وما تشاءون أيها الناس الاستقامة على الحقّ، إلا أن يشاء الله ذلك).

---

[1] تفسير الطبري (١٨/ ١٠).

[2] تفسير القرطبي (١٠/ ٣٩٣).

وذكر أن السبب الذي من أجله نزلت هذه الآية، ({لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ} **قال أبو جهل**: الأمر إلينا، إن شئنا استقمنا، وإن شئنا لم نستقم، فأنزل الله: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ})[1].

📖 ومن الأدلة كذلك:

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّـٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [المَائِدَة: ٤١].

يقول الإمام الطبري: (يقول له تعالى ذكره: لا يحزنك تسرُّعهم إلى جحود نبوَّتك، فإني قد حَتمْتُ عليهم أنهم لا يتوبون من ضلالتهم، ولا يرجعون عن كفرهم، للسابق من غضبي عليهم، وغير نافعهم حزنك على ما ترى من تسرُّعهم إلى ما جعلته سببًا لهلاكهم واستحقاقِهم وعيدي)[2].

📖 ونخلص من هذه الأدلة إلى:

أن مشيئة العباد مقيدة وليست مطلقة، وأن كل ما يجري في الحياة إنما هو ما قدره الله وقضاه أزلا، وأن الظلم منتف، حيث قامت الحجة عليهم، وقت أن شاء الله أن يكونوا مخيَّرين تماما، ولهذا المعنى مزيد بيان بإذن الله تعالى.

[1] تفسير الطبري (٢٤/ ٢٦٤).

[2] تفسير الطبري (١٠/ ٣١٦).

مشيئة العباد والأخذ بالأسباب

كما قلنا فإن مشيئة العباد مقيدة وليست مطلقة، وقد يفهم من هذا أن الإنسان غير قادر على الاختيار، والأخذ بالأسباب، وبذل الوسع والاجتهاد، طلبا لمحاسن الأمور، والوصول إلى الغايات، وكأن القدر آتيه لا محالة، سواء اجتهد وأخذ بالأسباب المناسبة، أو ركن إلى الخمول والبلادة، بدعوى التوكل، وانتظارا للقدر، وكل هذا باطل وغير صحيح، والصواب أن على الإنسان السعي والاجتهاد، والأخذ بالأسباب، التي أقامها الله تعالى، تحقيقا للغايات، والتي لا غنى للناس عنها.

وسنبين كل هذه المعاني في المطلب التالي، بتوفيق الله تعالى.

الأخذ بالأسباب وتعلقه بالقدر

مما يتعلق بمسألة القدر ـ أيضا ـ مسألة الأخذ بالأسباب، وهذه المسألة تبين ـ إلى درجة كبيرة ـ مدى عجز المخلوق وضآلته، مهما ظن أنه ارتقى وارتفع، فقد اضطرب الناس في مسألة الأسباب اضطرابا كبيرا، ولعلهم لو اجتهدوا في التعرف على عظمة الخالق سبحانه على ـ قدر استطاعتهم ـ لانزاح عن كاهلهم الشيء الكثير من هذا الحمل الثقيل، ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزُّمَر: ٦٧].

وتقريب هذه المسألة يكمن ـ كما نظن ـ في إدراك أن الأسباب إنما هي مخلوقة لله تعالى، ومحكومة بمراده عز وجل، ولهذا تتفاوت النتائج من إنسان إلى آخر، عند الأخذ بالسبب الواحد، وكذلك تتغير النتائج إذا أعمل الإنسان نفسه هذا السبب مرات متعددة، في أوقات وأحوال مختلفة، مما يؤكد أن الأسباب ليست ذواتاً جامدة، كما في منظور البشر، بل هي عالم من عوالم المخلوقات، التي أبت أن تحمل أمانة التكليف، وأشفقن منها، وأقرت للخالق سبحانه وتعالى بالعبودية المطلقة، والانصياع التام.

ومن حكمته سبحانه وتعالى أن أحكم نظام الكون بالأسباب، حتى تستقيم أموره ويتمكن الخلق من التطور والارتقاء، كلما دانت لهم الأسباب، وهكذا هي الأسباب والوسائل نظام متشابك، لا ينفك بعضه عن بعض، ولها ناموس دقيق لا يختل، إلا بإرادة الخالق سبحانه، ولحكمة يريدها

تبارك وتعالى، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾ [آل عِمْرَان : ٥٩]، فقد خلق آدم على غير نسق وبغير سبب، وكذلك عيسى عليهما السلام، نقضَ الله الأسباب التي عاشها الناس وعاينوها، ليدركوا أن الأسباب إنما هي أدوات ووسائل، لتستقيم حياتهم، ولكنها في كل أحوالها مأمورة محكومة، لا حيلة لها ولا اختيار، فالذي خلق السبب يخلق بغير سبب وبغير وسيلة، وكذلك يخلق سبحانه بنقيض السبب، فلا يعجزه شيء سبحانه ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يس : ٨٢].

ومع هذا فإن حياة الناس لا تستغني عن الأسباب، فقد علق الله حوائج الناس بالأسباب، وقهر الناس بالأسباب والدوافع لتستقيم حياتهم، حتى ولو شاءوا غير ذلك، فجعل الجوع سببا ليبحث الإنسان عن الطعام، والذي لابد منه حتى تستمر الحياة، ومع هذا فقد يتناول الإنسان الطعام فيموت، ولكن ليس هذا هو الأصل، ولا يختل الأصل إلا لحكمة يريدها الله تبارك وتعالى، وكل هذا ليضطر الناس إلى البحث في الأسباب، ليتعرفوا ـ ولو رغما عنهم ـ على عظيم خلقه تعالى، ودلائل قدرته، وجلال عظمته عز سلطانه، ولتقوم الحجة عليهم بين يديه سبحانه، وهكذا يكون النظر إلى الأسباب، والأخذ بها في إطار نصوص الشرع من أصول العبودية، التي خلق الإنسان من أجلها، والله أعلم.

ومما يؤكد أن الأخذ بالأسباب ـ بضوابط الشرع ـ من أصول العبودية :

من ذلك قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ۝١٠١﴾ [يُونُس : ١٠١]، فالنظر في ملكوت الله تعالى

سبب ووسيلة ليتعرف الخلق على إله الكون سبحانه لا شريك به، فيكون سببا لإيمانهم كما أمر الخالق جل في علاه.

يقول الإمام الطبري: (يقول تعالى ذكره: قل، يا محمد، لهؤلاء المشركين من قومك، السائليك الآياتِ على صحة ما تدعوهم إليه من توحيد الله وخلع الأنداد والأوثان: انظروا، أيها القوم، ماذا في السمواتِ من الآيات الدالة على حقيقة ما أدعوكم إليه من توحيد الله، من شمسها وقمرها، واختلافِ ليلها ونهارِها، ونزول الغيث بأرزاق العبادِ من سحابها = وفي الأرض من جبالها، وتصدُّعها بنباتها، وأقوات أهلها، وسائر صنوف عجائبها، فإن في ذلك لكم إن عقلتم وتدبَّرتم موعظة ومعتبرًا، ودلالة على أن ذلك من فعل من لا يجوز أن يكون له في ملكه شريك، ولا له على تدبيره وحفظه ظهير يُغنيكم عما سواه من الآيات)[1].

وكذلك **الإمام الماتريدي** يؤكد على هذا المعنى بأن النظر أحد أهم الأسباب الموصلة للإيمان، وذلك من جوانب عديدة: (وقوله تعالى: {قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} تأويله ـ والله أعلم ـ أي: انظروا إلى آثار نعمه وإحسانه التي في السماوات والأرض لكي تشكروه أو يقول: انظروا إلى آثار ربوبيته وألوهيته في السماوات والأرض، فتوحدوه وتؤمنوا به أو يقول: انظروا إلى آثار سلطانه وقدرته فتخافوا نقمته وعقابه، أو انظروا إلى أجناس الخلق واتساقه على تقدير واحد ليدلكم على وحدانيته و نحو

[1] تفسير الطبري (١٥/ ٢١٤).

ذلك، ليس شيء في السماوات والأرض يقع عليه البصر إلا وفيه دلالة الربوبية حتى طرفة العين ولحظه البصر)[1].

ويؤكد **الإمام الفخر الرازي** على المعنى الشرعي التكليفي الذي يحمله الأمر بالنظر فيقول: (أنَّ اللَّهَ تَعَالَى أمَرَ بِالنَّظرِ فقَال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النِّسَاء من الآيه : ٨٢]، ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغَاشِيَة : ١٧ - ٢٠]، ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فُصِّلَت من الآيه : ٥٣]، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرَّعْد من الآيه : ٤١]، ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يُونُس من الآيه : ١٠١]، ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأَعْرَاف : ١٨٥])[2].

ومن هنا: يمكن أن نستوعب الحكمة من قوله تعالى: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾ [مَرْيَم : ٢٥]، ومعلوم أن النخلة لم تكن لتساقط الرطب بفعل السيدة مريم وبخاصة وهي في قمة الضعف والعناء، ولكن الخالق سبحانه وتعالى له حكمة أن لا تستقيم حياة الخلق إلا مع الأخذ بالأسباب، فأمرها في حالتها هذه وهي المصطفاة على نساء العالمين، ليعلم الخلق جميعا أن الأخذ بالأسباب ـ بضوابطه الشرعية ـ فرض واجب، مع أنه سبحانه وتعالى رزقها بغير سبب وبغير عمل، ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ

[1] تفسير الماتريدي (٦/ ٨٩).

[2] تفسير الرازي (٢/ ٣٢٧).

عِندَهَا رِزْقًاۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ [آل عِمْرَان : ٣٧].

ولكن هذا إنما كان لحكمة بالغة، ألا وهي إظهار المعجزة ـ بالمسيح عليه السلام ـ التي تؤكد صدق السيدة مريم، في خبرها حين أتت به قومها تحمله.

ومن هنا كان التفكر في آيات الله تعالى على النحو الذي أمر به سبحانه بالتدبر واستحضار عظمة الخالق جل في علاه، يجعلنا نتأكد أن الذي يرزق بغير سبب، رزقا ماديا، مما تحتاجه حياة الناس في معايشهم، لا يأمر من تفضل عليها بهذا الرزق بالأخذ بالسبب، طلبا للرزق لذات الرزق، بل ـ والله أعلى وأعلم ـ للقدوة والتأسي، بالفعل المادي الملموس، ومع هذا لا تتعلق قلوب العباد بالأسباب بل برب الأسباب ـ جل في علاه ـ فها هي السيدة مريم ـ عليها السلام ـ في موطن هي فيه في غاية الضعف البشري ـ مخاض الولادة ـ بينما رزقها بغير سبب، وهي في قمة عافيتها وقوتها، لا يمكن أن يكون هذا الأمر إلا لحكمة بالغة.

وأدلة الشرع إنما أقامها الله عز وجل تحقيقا لمصالح الناس في الدنيا والآخرة، ولهذا فلابد أن نبحث عن الحكمة في دلالة هذا النص، الذي تعلق برزق السيدة مريم، عليها السلام.

ولعل من أوجه الحكمة في هذا النص القرآني الحكيم ـ والله أعلم ـ أن لا يتكل الناس، بل لابد من السعي، ومع هذا لا يركنون إلى الأسباب، بل يتعاملون معها على أنها من جنود الله تعالى في الحياة، التي تقوم بما أنيط بها من رسالة إلى الخلق، كما أمر سبحانه وقدر.

وفي نفس هذا المعنى يقول الإمام ابن العربي: ﴿قَوْلُهُ ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [التَّوْبَة من الآيه : ٢٨] ، **الْمَعْنَى**: إنْ خِفْتُمْ الْفَقْرَ بِانْقِطَاعِ مَادَّةِ الْمُشْرِكِينَ عَنْكُمْ بِالتِّجَارَةِ الَّتِي كَانُوا يَجْلِبُونَهَا فَإِنَّ اللَّهَ يُعَوِّضُ عَنْهَا، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ تَعَلُّقَ الْقَلْبِ بِالْأَسْبَابِ فِي الرِّزْقِ جَائِزٌ، وَإِنْ كَانَ الرِّزْقُ مَقْدُورًا، وَأَمْرُ اللَّهِ وَقَسْمُهُ لَهُ مَفْعُولًا، وَلَكِنَّهُ عَلَّقَهُ بِالْأَسْبَابِ حِكْمَةً؛ لِتَعْلَمَ الْقُلُوبُ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِالْأَسْبَابِ مِنْ الْقُلُوبِ الَّتِي تَتَوَكَّلُ عَلَى رَبِّ الْأَرْبَابِ، وَلَيْسَ يُنَافِي النَّظَرَ إلَى السَّبَبِ التَّوَكُّلُ مِنْ حَيْثُ إنَّهُ مُسَخَّرٌ مَقْدُورٌ، وَإِنَّمَا يُضَادُّ التَّوَكُّلَ النَّظَرُ إلَيْهِ بِذَاتِهِ، وَالْغَفْلَةُ عَنْ الَّذِي سَخَّرَهُ فِي أَرْضِهِ وَسَمَاوَاتِهِ﴾[1].

وقوله: ﴿وَإِنْ كَانَ الرِّزْقُ مَقْدُورًا، وَأَمْرُ اللَّهِ وَقَسْمُهُ لَهُ مَفْعُولًا﴾، قد أرجعه بعض أهل العلم من المتأخرين إلى العلم الأزلي الكاشف، فقالوا إن الله عز وجل قد علم أزلا ما سوف يكون من العباد، فقسم أرزاقهم بحسب هذا العلم، وهكذا كان ربط الأرزاق بالأعمال.

وهذا الكلام وإن كان صحيحا في أصله، أن الله يعلم كل شيء أزلا، إلا أن الرزق لم يرهن بالعمل، من كل وجه، بل هو مرهون بالقضاء والقدر قبل الأخذ بالسبب.

ولعل هذا يفسر قوله: ﴿وَلَيْسَ يُنَافِي النَّظَرَ إلَى السَّبَبِ، التَّوَكُّلُ، مِنْ حَيْثُ إنَّهُ مُسَخَّرٌ مَقْدُورٌ﴾، فالتوكل لا يتعارض مع الأخذ بالأسباب، مع أن الرزق مسخر مقدور، ولكن لابد من إعلاء مقام العبودية، كما أمر سبحانه.

---

[1] أحكام القرآن لابن العربي (٢/ ٤٧١)

ومن آكد الأدلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأَعْرَاف: ٩٦].

يقول الإمام الماتريدي: (أي: لأعطوا كل خير ينال من السماء والأرض، والبركة ما ينال من كل خير على غير ـ مؤنة وقيل: البركة: كل شيء ينال بلا تبعة عليه ولا شدة)[1].

والمعنى المستفاد: أن البركة، وهي ليست أمرا ماديا ملموسا، تجعل ثمرة الأخذ بالسبب مختلفة قلة وكثرة، ووجودا وعدما، وتوفيقا وخذلانا، وكل ذلك مع وجود السبب والعمل الواحد، ولكن بالبركة التي لا يملكها إلا الخالق سبحانه، والتي تتوافق مع القدر المقدور، وليس مع السبب المادي المجرد، تتحقق الثمرة على أرجى ما يكون، والله أعلى وأعلم.

[1] تفسير الماتريدي (٤/ ٥١٠).

تعلق السبب بالقدر

تعلق السبب بالقدر سر من أسرار الخالق جل في علاه، ولهذا ليس كل سبب له دوافع ضرورية، بل تتنوع الدوافع، ومنها ما هو مأمور به كما في الأحكام الشرعية، ومنها ما هو منهي عنه، ومنها المسكوت عنه، ومنها القهري الذي لا طاقة للبشر على دفعه، كما في وظائف أجهزة الجسد، والتي جعلها الله أسبابا للحياة، وكل ذلك ليتحقق مقام العبودية، الذي خلق الناس من أجله، ويكون حال الناس تماما كما قضى وقدر سبحانه.

ومن هنا كان اختلاف الناس، في النظر إلى الأسباب، والإذعان لها، والأخذ بها، وكأن هذا الخلاف ليسير كل مخلوق إلى قدره المحتوم، دون تبديل ولا تغيير، وكل هذا ولا يدري أحد هل سخره الله بالسبب، أم سخر السبب له، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الأَنْعَام : ٤٢]، والأصل أن الإنسان إذا أصابه الضر لجأ إلى من بيده رفع الضر عنه، وذلك بالتضرع والاستكانة، فالبأساء والضراء من الأسباب والدوافع التي تلجيء الناس إلى الطاعة ـ غالبا ـ ولكن هؤلاء لم ينتفعوا بهذه الأسباب، وكأنهم هم الذين سُخّروا للأسباب، وليسوا منْ سُخّرت لهم الأسباب ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأَنْعَام : ٤٣].

وعلى النقيض من ذلك نجد من (اعْتَمَدَتْ قلُوبُهُمْ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ) فسخر الله لهم الأسباب، كما يدل عليه حال خليل الرحمن، أبو الأنبياء ﷺ عندما ألقي في النار، فلم يجزع ولم يفزع، بل

اطمأن قلبه بذكر الله تعالى (عن أرقم: أن إبراهيم قال حين جعلوا يوثقونه ليلقوه في النار: لا إله إلا أنت سبحانك ربّ العالمين، لك الحمد، ولك الملك لا شريك لك)[1]، فكانت النتيجة مباشرة كما في قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾ [الأنبياء : ٦٩]، وهكذا يقوم السبب برسالته التي أقامه الله لها، فها هي النار قد فقدت خصائصها، التي يعرفها الناس، بل جمعت بين النقيضين، اللهب والبرد، والسلامة منهما على أبي الأنبياء ﷺ.

وكل هذا يمكن أن يفهم منه أن خصائص الأشياء ليست بالضرورة هي فقط الخصائص التي اطلع عليها الناس، بل قد تكون فيها من الخصائص الذاتية ـ أيضا ـ ما لم يطلع عليه الناس، ولا يظهر أثرها إلا عندما يأتيها الأمر من الله عز وجل، ولهذا كان الخطاب: {قُلْنَا يَانَارُ كُونِي ..}، وكان المتبادر ـ كما في مقتضيات العقول ـ أن يكون ـ مثلا ـ فجعلناها بردا وسلاما، أي بالجعل والتكوين ﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣١﴾ [الأنبياء : ٣١]، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يس : ٨٢]، ولكن لا شك أن هذا الخطاب الكريم ـ {قُلْنَا يَانَارُ ..} ـ ينبيء عن وجه من أوجه إذعان كل ما في الكون، بالعبودية الحق، لصاحب العظمة والملكوت سبحانه، ولم يخرج عن هذا إلا الإنس والجن، كما أخبر عز وجل في قوله ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا

[1] تفسير الطبري (١٨/ ٤٦٧)

ٱلْإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ [الأَحْزَاب : ٧٢]، فالإنس والجن اختاروا أن يكون إذعانهم عن فهم وتعقل، وإرادة واختيار، فآمن منهم من آمن، وضل من ضل، بخلاف سائر المخلوقات التي أسلمت لله رب العالمين.

يقول الإمام الفخر الرازي: (قال أبو مسلم الأصفهاني في تفسير قوله تعالى: قلنا يا نار كوني بردا المعنى أنه سبحانه جعل النار بردا وسلاما، لا أن هناك كلاما كقوله: أن يقول له كن فيكون أي يكونه، وقد احتج عليه بأن النار جماد فلا يجوز خطابه، والأكثرون على أنه وُجد ذلك القول، ثم هؤلاء لهم قولان: **أحدهما**: **وهو قول سدي**: أن القائل هو جبريل عليه السلام، **والثاني**: **وهو قول الأكثرين أن القائل هو الله تعالى، وهذا هو الأليق الأقرب بالظاهر**، **وقوله**: النار جماد فلا يكون في خطابها فائدة، قلنا: لم لا يجوز أن يكون المقصود من ذلك الأمر مصلحة عائدة إلى الملائكة)[1].

ومع هذا نعترض على قوله: (النار جماد فلا يكون في خطابها فائدة)، لأن هذا هو ما تراه العقول، ولهذا نقلوا لفظ الخطاب عن حقيقته، فاعتبروا أن قوله تعالى: قلنا يا نار كوني بردا، بمعنى أنه سبحانه جعل النار بردا وسلاما، وما هذا إلا بسبب عجز العقول عن استيعاب كلام الجمادات، مع أن هذا قد أتى في نصوص الشرع كثيرا"[2].

---

[1] تفسير الرازي (٢٢/ ١٥٩)

[2] ففي تفسير الطبري (٢٠/ ٣٥٧) عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قوله (يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ) يقول: سبحي معه.

ولهذا : يعتبر هذا النهج غير سديد، لأنهم جعلوا عجزهم سببا في تعطيل حقيقة اللفظ، ولو أنهم أذعنوا بالعجز وتوقفوا، لأمكن تجلي المعاني الحقيقية للفظ، ووصولها إلى من يشاء الله من عباده، وقد يؤكد هذا المعنى، حديث جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ»[1]، والله أعلى وأعلم.

وليس هذا وحسب بل قد حفل القرآن الكريم بكثير من خطابات الجماد، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾ [الإسراء من الآيه : ٤٤]، ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ١٠﴾ [سبأ : ١٠]، ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ١١﴾ [فُصِّلَت : ١١].

ومن جانب آخر : قد يشير خطاب رب العزة المباشر للنار إلى معنى دقيق آخر، ألا وهو: أنه قد يكون من خصائص المادة ما يغوي البشر بالتعلق بالأسباب، ورضوخهم لها، وكأن قلوبهم تعلقت بما فيها من خصائص كامنة ـ فقد قيل إن للإجسام طاقة لا يطلع على حقيقتها البشر، تؤثر فيما حولها، أو فيما يتعلق بها، تأثيرا قد لا يُدرَك كنهُه على حقيقته، ومن هنا يمكن أن يكون للأسباب تأثير، غير التأثير المادي، أو المعلوم، لهذا التأثير أوجه كثيرة ومتعددة يجهلها الإنسان، ومن هذه الأسباب ـ على سبيل المثال، أو التقريب ـ شهوة النفس، وغرور المال والولد، وسطوة الجاه والسلطان، وغير ذلك، وكل هذا تستشعره قلوب

[1] صحيح مسلم (٤/ ١٧٨٢).

الغافلين عن رب الأسباب، فتتعلق به، دون أن يدركوا كنهها، وما تخفيه من مجهول، ولكن هكذا هو حال من قست قلوبهم، فضلوا الطريق، ولم تنتفع قلوبهم بتحذيره سبحانه، فكانت سوء عاقبتهم، والعياذ بالله ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ١١٣﴾ [هُود: ١١٣].

ولعل هذا يقرب كيف تتعلق الأسباب بالأقدار، وأثر السبب فيمن أخذ به، أو تعلق به، وكأن السبب يسوق صاحبه إلى قدره المحتوم، وقضائه المقدر، دون أن يدرك العقل الأثر والكيفية، والله أعلى وأعلم.

وكذلك يمكن استيعاب كيف تتعلق القلوب القاسية بالأسباب المادية، الجامدة، والله أعلى وأعلم.

وما يذكره **الإمام القرافي** من حال البشر مع الأسباب يقرب هذه المعاني، **حيث يقول**: (وَقَدْ انْقَسَمَتْ الْخَلَائِقُ فِي هَذَا الْمَقَامِ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ قِسْمٌ عَامَلُوا اللَّهَ ـ تَعَالَى ـ بِاعْتِمَادِ قُلُوبِهِمْ عَلَى قُدْرَتِهِ ـ تَعَالَى ـ مَعَ إهْمَالِ الْأَسْبَابِ وَالْعَوَائِدِ فَلَجَّجُوا فِي الْبِحَارِ فِي زَمَنِ الْهَوْلِ وَسَلَكُوا الْقِفَارَ الْعَظِيمَةَ الْمُهْلِكَةَ بِغَيْرِ زَادٍ إلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ هَذِهِ التَّصَرُّفَاتِ، فَهَؤُلَاءِ حَصَلَ لَهُمْ التَّوَكُّلُ وَفَاتَهُمْ الْأَدَبُ مَعَ اللَّهِ ـ تَعَالَى ـ وَهُمْ جَمَاعَةٌ مِنْ الْعِبَادِ أَحْوَالُهُمْ مَسْطُورَةٌ فِي الْكُتُبِ فِي الرَّقَائِقِ، وَقِسْمٌ لَاحَظُوا الْأَسْبَابَ، وَأَعْرَضُوا عَنْ التَّوَكُّلِ، وَهُمْ عَامَّةُ الْخَلْقِ وَشَرُّ الْأَقْسَامِ، وَرُبَّمَا وَصَلُوا بِمُلَاحَظَةِ الْأَسْبَابِ وَالْإِعْرَاضِ عَنْ الْمُسَبِّبِ إلَى الْكُفْرِ، وَالْقِسْمُ الثَّالِثُ اعْتَمَدَتْ قُلُوبُهُمْ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ ـ تَعَالَى ـ طَلَبُوا فَضْلَهُ فِي عَوَائِدِهِ مُلَاحِظِينَ

فِي تِلْكَ الأَسْبَابِ مُسَبِّبَهَا وَمُيَسِّرَهَا فجَمَعُوا بَيْنَ التوكُّلِ وَالأدَبِ وَهَـؤلَاءِ النَّبِيُّـونَ وَالصِّدِّيقُـونَ، وَخَاصَّةُ عِبَادِ اللَّهِ – تَعَالَى)[1].

[1] الفروق للقرافي (٤/ ٢٢١): اعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ الْتَبَسَ هَاتَانِ الْقَاعِدَتَانِ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ الْفُقَهَاءِ وَالْمُحَدِّثِينَ فِي عِلْمِ الرَّقَائِقِ فَقَالَ قَوْمٌ: لَا يَصِحُّ التَّوَكُّلُ إلَّا مَعَ تَرْكِ الْأَسْبَابِ، وَالِاعْتِمَادِ عَلَى اللَّهِ، قَالَهُ الْغَزَالِيُّ فِي إحْيَاءِ عُلُومِ الدِّينِ وَغَيْرِهِ، وَقَالَ آخَرُونَ: لَا مُلَازَمَةَ بَيْنَ التَّوَكُّلِ وَتَرْكِ الْأَسْبَابِ، وَلَا هُوَ هُوَ وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ؛ لِأَنَّ التَّوَكُّلَ هُوَ اعْتِمَادُ الْقَلْبِ عَلَى اللَّهِ فِيمَا يَجْلِبُهُ مِنْ خَيْرٍ، أَوْ يَدْفَعُهُ مِنْ ضُرٍّ، قَالَ الْمُحَقِّقُونَ: وَالْأَحْسَنُ مُلَابَسَةُ الْأَسْبَابِ مَعَ التَّوَكُّلِ لِلْمَنْقُولِ وَالْمَعْقُولِ، أَمَّا الْمَنْقُولُ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ} [الأنفال: ٦٠] فَأَمَرَ بِالِاسْتِعْدَادِ مَعَ الْأَمْرِ بِالتَّوَكُّلِ فِي قَوْله تَعَالَى {وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [آل عمران: ١٢٢] وَقَوْله تَعَالَى {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا} [فاطر: ٦] أَيْ تَحَرَّزُوا مِنْهُ فَقَدْ أَمَرَ بِاكْتِسَابِ التَّحَرُّزِ مِنْ الشَّيْطَانِ كَمَا يُتَحَرَّزُ مِنْ الْكُفَّارِ، وَأَمَرَ – تَعَالَى – بِمُلَابَسَةِ أَسْبَابِ الِاحْتِيَاطِ وَالْحَذَرِ مِنْ الْكُفَّارِ فِي غَيْرِ مَا مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَيِّدُ الْمُتَوَكِّلِينَ وَكَانَ يَطُوفُ عَلَى الْقَبَائِلِ وَيَقُولُ مَنْ يَعْصِمُنِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي.

وَكَانَ لَهُ جَمَاعَةٌ يَحْرُسُونَهُ مِنْ الْعَدُوِّ حَتَّى نَزَلَ قَوْله تَعَالَى {وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ} [المائدة: ٦٧] وَدَخَلَ مَكَّةَ مُظَاهِرًا بَيْنَ دِرْعَيْنِ فِي كَتِيبَتِهِ الْخَضْرَاءِ مِنْ الْحَدِيدِ، وَكَانَ فِي آخِرِ عُمُرِهِ وَأَكْمَلِ أَحْوَالِهِ مَعَ رَبِّهِ – تَعَالَى – يَدَّخِرُ قُوتَ سَنَةٍ لِعِيَالِهِ، وَأَمَّا الْمَعْقُولُ فَهُوَ أَنَّ الْمَلِكَ الْعَظِيمَ إذَا كَانَتْ لَهُ جَمَاعَةٌ، وَلَهُمْ عَوَائِدُ فِي أَيَّامٍ لَا يَحْسُنُ إلَّا فِيهَا أَوْ أَبْوَابٌ لَا تَخْرُجُ إلَّا مِنْهَا، أَوْ أَمْكِنَةٌ لَا يُدْفَعُ إلَّا فِيهَا

فَالْأَدبُ معَهُ أَنْ لَا يُطْلَبَ مِنْهُ فِعْلٌ إِلَّا حَيْثُ عوَّدَهُ، وَأَنْ لَا يُخَالفَ عوَائِدَهُ بَلْ يَجْرِي علَيْهَا، وَاللَّهُ – تَعَالَى – مَلِكُ الْمُلُوكِ وَأَعْظَمُ الْعُظَمَاءِ بَلْ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ رَتَّبَ مُلْكَهُ علَى عوَائِدَ أَرَادَهَا، وَأَسْبَاب قَدَّرَهَا، ورَبَطَ بِهَا آثَار قُدْرتِهِ، ولَوْ شَاءَ لَمْ يَرْبِطْهَا فَجعَلَ الرَّيَّ بِالشُّرْبِ، وَالشِّبَعَ بِالْأَكْلِ، وَالِاحْتِرَاقَ بِالنَّارِ وَالْحَيَاةَ بِالتَّنَفُّسِ فِي الْهوَاءِ فَمَنْ طَلَبَ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى حُصُولَ هَذِهِ الْآثَارِ بِدُونِ أَسْبَابِهَا فَقَدْ أَسَاءَ الْأَدَبَ مَعَ اللَّهِ – سُبْحَانَهُ وتَعَالَى – بَلْ يَلْتَمِسُ فَضْلَهُ فِي عوَائِدِهِ.

وَالْعَارِفُونَ بِمُعَامَلَتِهِ جعَلَنَا اللَّهُ – تَعَالَى – مِنْهُمْ بِمَنِّهِ وكَرَمِهِ فَهؤُلَاءِ هُمْ خَيْرُ الْأَقْسَامِ الثَّلَاثَةِ، وَالْعَجبُ مِمَّنْ يُهْمِلُ الْأَسْبَابَ ويُفَرِّطُ فِي التَّوكُّلِ بِحيْثُ يَجْعلُهُ عدَمَ الْأَسْبَابِ أَوْ مِنْ شَرْطِهِ عدَمُ الْأَسْبَابِ إِذَا قِيلَ: الْإِيمَانُ سَبَبٌ لِدُخُولِ الْجَنَّةِ وَالْكُفْرُ سَبَبٌ لِدُخُولِ النَّارِ بِالْجَعْلِ الشَّرْعِيِّ كَسَائِرِ الْأَسْبَابِ فَهَلْ هُوَ تَارِكٌ هَذَيْنِ السَّبَبَيْنِ أَوْ مُعْتَبِرُهُمَا فَإِنْ تَركَ اعْتِبَارَهُمَا خَسِرَ الدُّنْيَا، وَإِنْ اعْتَبرَهُمَا فَقَالَ: لَا بُدَّ مِنْ الْإِيمَانِ، وتَرْكَ الْكُفْرِ فَيُقَالُ لَهُ: مَا بَالُ غَيْرِهِمَا مِنْ الْأَسْبَابِ إِنْ كَانَ هَذَانِ لَا يُنَافِيَانِ التَّوكُّلَ فَغَيْرُهُمَا كَذَلِكَ نَعَمْ مِنْ الْأَسْبَابِ مَا هُوَ مُطَّرِدٌ فِي مَجْرَى عوَائِدِ اللَّهِ – تَعَالَى – كَالْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ وَالْغِذَاءِ وَالتَّنَفُّسِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَمِنْهَا مَا هُوَ أَكْثَرِيٌّ غَيْرُ مُطَّرِدٍ لَكِنَّ اللَّهَ – تَعَالَى – أَجْرَى فِيهِ عَادَةً مِنْ حَيْثُ الْجُمْلَةُ كَالْأَدْوِيَةِ وَأَنْوَاعِ الْأَسْفَارِ لِلْأَرْبَاحِ ونَحْوِ ذَلِكَ وَالْأَدبُ فِي الْجمِيعِ الْتِمَاسُ فَضْلِ اللَّهِ – تَعَالَى – فِي عوَائِدِهِ ولَذَلِكَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُ بِالدَّوَاءِ وَالْحِمْيَةِ وَاسْتِعْمَالِ الْأَدْوِيَةِ حَتَّى الْكَيِّ بِالنَّارِ «فَأَمَرَ بِكَيِّ سَعْدٍ»، وفي الأثر: «الْمَعِدَةُ بَيْتُ الدَّاءِ، وَالْحِمْيَةُ رَأْسُ الدَّوَاءِ، وَصَلَاحُ كُلِّ جِسْمٍ مَا اعْتَادَ» وَإِذَا كَانَ حَالُهُ فِي الْأَسْبَابِ الَّتِي لَيْسَتْ مُطَّرِدَةً مِنْ الْحِمْيَةِ وَإِصْلَاحِ الْبَدَنِ بِمُوَاظَبَةِ عَادَتِهِ فَمَا ظَنُّك بِغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْعوَائِدِ، فَهَذَا هُوَ الْحَقُّ الْأَبْلَجُ، وَالطَّرِيقُ الْأَنْهَجُ).

ونعود إلى حديث السفينة لنقترب من فهم تعلق الأخذ بالأسباب بالقدر الأزلي المحتوم، والذي نحاول تجليته قدر المستطاع، والله المستعان.

حديث السفينة وتعلقه بالسبب والقدر

انقسم ركاب السفينة، بناء على نتيجة الاستهام، إلى من في العلو ومن في السفل، وترتب على هذا الانقسام بيان أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والذي يمثل الركيزة الكبرى في حديث السفينة، إشارة إلى ضرورته في حياة الناس.

فكان أول الأسباب المحتمة الوجود ـ كما أوضحنا سابقا ـ هو الاستهام، ليتم توزيع الركاب ـ بما يناسب ما قدّر لكل فرد أزلا، ومن هنا نفهم المعنى المقصود من خلق الدوافع، ومسألة التسيير والتسخير، والتي لا يعلم حقيقتها ولا يملكها إلا اللّه، بما ينبيء عن عظمته سبحانه، الذي أحاط بكل شيء علما ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطَّلَاق من الآيه : ١٢].

ثم كان السبب الثاني الذي يلزم وجوده أيضا، ألا وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، «فإنْ أخذُوا على يدَيْهِ نجَوْا ونَجَا، وإنْ لمْ يفْعَلوا هلَكَ وهلَكُوا»[١]، فلولا الحاجة الملجئة إلى الماء، والسعي لخرق السفينة، لما اتضح المراد من المثال المضروب بالسفينة، والمقصود به حياة البشر.

فهل يؤثر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مصائر البشر، كما في تأثير التصدي لخرق السفينة، في النجاة من الهلاك؟

وهل معنى ذلك تغير القضاء والقدر، وقد قال تعالى ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ [ق : ٢٩].

---

[١] المعجم الكبير للطبراني من جـ ٢١ (٢١/ ٥٢).

والجواب: لما كان كل ما يجري في دنيا البشر، هو قضاء الله وقدره النافذ لا محالة، فليس معنى هذا الاتكال وعدم الأخذ بالأسباب، فالذي قدر الأقدار سبحانه، هو الذي خلق الأسباب، وأمر بالأخذ بها، ولما كان القدر من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله عز وجل، فإن أحدا لا يدري ما هو قدره، ولا ماذا يترتب على تصرفه، إن أخذ بالأسباب أو تركها، وكل ما يقوم به ويقع منه معلوم أزلا، قد أحاط سبحانه به علما، ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾ [طه : ٥٢].

ومع الأخذ بعين الاعتبار مسألة التخيير والتسيير، فما يدري أحد من البشر هل سخره الله أو يسره للأخذ بهذا السبب، ليوافق القدر المحتوم، أم أن الله عز وجل تَرَكَهُ واختياره التام ليقع القدر المحتوم أيضا، أم أنه مسخر ومسير لقدره المحتوم وذلك بخلق الدوافع التي تحتم الأخذ بأسباب بعينها، وكل هذا لا يعلمه إلا الخالق سبحانه، فلم يبق أمام المخلوق إلا بذل الوسع واستنفاد الوسائل والأسباب، ومع كل هذا التضرع إلى الله تعالى بالدعاء والاستغاثة.

وهذا معنى دقيق عميق يبينه الإمام ابن القيم حيث يقول: (الأصل الرابع: أنه سبحانه ربط الأسباب بمسبباتها شرعا وقدرا، وجعل الأسباب محل حكمته في أمره الديني والشرعي وأمره الكوني القدري ومحل ملكه وتصرفه، فإنكار الأسباب والقوى والطبائع جحد للضروريات وقدح في العقول والفطر ومكابرة للحس وجحد للشرع والجزاء، فقد جعل سبحانه مصالح العباد في معاشهم ومعادهم والثواب والعقاب والحدود والكفارات والأوامر والنواهي والحل والحرمة كل ذلك مرتبطا بالأسباب قائما بها،

بل العبد نفسه وصفاته وأفعاله سبب لما يصدر عنه بل الموجودات كلها أسباب ومسببات والشرع كله أسباب ومسببات والمقادير أسباب ومسببات والقدر جار عليها متصرف فيها، فالأسباب محل الشرع والقدر، والقرآن مملوء من إثبات الأسباب كقوله: {بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}، {بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ}، {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ}، {فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ})[1].

وقوله: (أنه سبحانه ربط الأسباب بمسبباتها شرعا وقدرا)، معناه أنه سبحانه ربطها بها شرعا أي بالتكاليف الشرعية من الأوامر والنواهي، والتي يترتب عليها وجوب الأخذ بالأسباب، كما في حديث السفينة ووجوب التصدي للواقع في حدود الله بخرق السفينة، ففي هذا الحديث من الإعجاز التصويري، أو التشبيه، ما يعجز عن مثله إلا من أوتي جوامع الكلم ﷺ.

فإن سلامة السفينة حتى تصل إلى وجهتها المحتومة مقدرٌ أزلا، ولهذا فإن أصحاب العلو، وهم في دنيا الناس القائمون على حدود الله، لابد أن يفطنوا إلى خرق السفينة ممن في الأسفل، أو الواقعين في حدود الله في دنيا الناس، وذلك إذا كان مقدرا لهم السلامة.

بينما عند القدر المحتوم بالغرق فسيتم الخرق ولن ينتبه إليه أحد، أما متى وكيف فكل ذلك لا يعلمه إلا الله عز وجل، وكذلك دنيا الناس، كما أخبر سبحانه ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٣٤﴾ [الأعراف: ٣٤]، ولكن كيف ومتى، لا يعلم ذلك إلا الخالق، جل في علاه.

---

[1] شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (ص: ١٨٨).

وأما ربط كل ذلك قدرا بالأسباب، مع أن النتيجة محتومة، فلا يتم ذلك إلا بالعلم والقدرة الإلهية، ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾ [الأَحْزَاب من الآيه: ٣٨]، وقد أحاط سبحانه بكل شيء علما، ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه : ٩٨].

يقول الإمام ابن الوزير: (والذي قدَّر الخير قدَّره بسببٍ، وكذلك الشر قدر لدفعه سبباً، فلا تناقض بين هذه الأمور عند من انفتحت بصيرته)[1].

فمن عظيم حكمته سبحانه أنه وحده الذي قدر الأقدار، وأن الغيب سر من أسراره، لا يطلع عليه أحد، إلا بإذنه عز وجل، ولا يعلم أحد سواه ما كان وما يكون وما لمْ يَكُنْ أنْ لوْ كَانَ كَيْفَ يَكُونُ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ [الجن : ٢٦ - ٢٧].

فالذي خلق دوافع الاستهام يعلم ـ سبحانه ـ علما أزليا لا يتبدل ولا يتخلف ماذا سيفعل ركاب السفينة، لو لم يدفعهم إلى الاستهام، فقد يقع الاستهام بالتسخير والتسيير كما بينا، أو يقع بالأخذ بالأسباب المؤدية إليه، سواء أكانت أسبابا شرعية، أو أسبابا عادية، وكل هذا يدخل تحت أمره سبحانه بالأخذ بالأسباب: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هُود : ٦١]، قوله تعالى: {وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا}، أي: جعلكم عمار الأرض تعمرونها

---

[1] العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم (٦/ ٣٨٣).

لمعادكم ومعاشكم، جعل عمارة هذه الأرض إلى الخلق هم الذين يقومون بعمارتها وبنائها وأنواع الانتفاع بها)[1].

وقال عز شأنه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [المُلْك : ١٥] ، (يعني امضوا وسيروا في نواحيها)[2]، مع أن النتيجة بعد السعي والاجتهاد هي قدر محتوم، وهذا القدر منه ما علقه الله بالأسباب، ومنه ما لا يتعلق بها، وكل هذا لا يطلع عليه مخلوق قط.

ومن هنا لا وسيلة للاتكال، أو التواكل والكسل، بل لابد من السعي والحركة والاجتهاد، امتثالا لما أمر به سبحانه.

فقد يتكل الإنسان في أمر، أطلق الخالق سبحانه له الاختيار فيه، وقد يكد ويعاني في أمر كفاه الله مؤنته، ولا حيلة له في معرفة هذا من ذاك، فلم يبق له إلا حسن التوكل، والخضوع لأوامره سبحانه، ثم بعد ذلك يطمئن نفسا، ويترك النتائج لأقدار الله سبحانه، مسلما بالقبول والرضا.

---

[1] تفسير الماتريدي (٦/ ١٤٩)

[2] التصاريف لتفسير القرآن مما اشتبهت أسمائه وتصرفت معانيه للفراء، أبي زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء (المتوفى: ٢٠٧هـ) (ص: ١١٧)

القدر والسبب الغيبي غير المعلوم

لا يتعلق القدر بالأسباب العادية دائماً[1]، بل يهدي الله مَنْ يشاء لما يريد، بفضله ومنه وكرمه، وكما قلنا في مسألة الاستهام يخلق الدوافع سبحانه، ليقع الأمر بسبب غير عادي، وكما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ١١١﴾ [المَائـِدَة: ١١١].

ووجه الاستدلال أن الله عز وجل خصَّ الحواريين دون غيرهم ـ من قومهم ـ بالوحي إليهم، أن يؤمنوا، وهذا يدل على وجه من أوجه التزكية والهداية لهم، والتي كانت ثمرتها امتثالهم لمراد الله تعالى بالطاعة، دون توقف على سبب من جهتهم، والله أعلى وأعلم.

يقول الإمام أبو زكريا الفراء: (وقوله: {وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوارِيِّينَ ...} يقول عز وجل: ألهمتهم، كما قالَ: {وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً} أي ألهمها)[2].

ويعرف الإمام المناوي الإلهام بقوله: (الإلهام: ما يلقى في الروع بطريق الفيض)[1]، ويختص من جهة الله والملأ الأعلى، ويقال

---

[1] السبب العام: أي الأسباب التي يهتدي إليها الناس عادة بالخبرة والتجربة، وليس منها ما يكون بالإلهام أو الوحي، نظرا لأنها ليست متاحة لكل أحد كما في السبب العادي.

[2] معاني القرآن للفراء (١/ ٣٢٥).

إيقاع شيء في القلب يطمئن له الصدر يخص الله به بعض أصفيائه)[2].

وفي تفسير الإمام الطبري: (قال أبو جعفر: فتأويل الكلام إذًا: وإذْ ألقيتُ إلى الحواريين أنْ صدّقوا بي وبرسولي عيسى، فقالوا:{آمنا}، أي: صدقنا بما أمرتنا أن نؤمنَ يا ربنا، {واشهد} علينا {بأننا مسلمون}، يقول: واشهد علينا بأننا خاضِعُون لك بالذّلة، سامعون مطيعُون لأمرك)[3].

وقد علمنا أن الحواريين لم يأتهم ملك من قبل الخالق سبحانه، بل هم بشر ألهمهم الله، فقذف في قلوبهم الإيمان بالمسيح عليه السلام.

والوحي"[4] قد يكون المراد به الإلهام، وقد يراد به الأمر، أي أمرهم الله باتباع المسيح عليه السلام، كما أمر البشر جميعا باتباع

[1] دستور العلماء، جامع العلوم في اصطلاحات الفنون لمؤلفه: القاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري (ت ١٢٠٠هـ) (١/ ١٠٨) الإلهام إِلْقَاء الْمَعْنى فِي الْقلب بطرِيق الْفَيْض أَي بِلَا اكْتِسَاب.

[2] التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي (ص: ٦٠)

[3] تفسر الطبري (١١/ ٢١٨).

[4] تفسير القرطبي (٤/ ٨٥): وَالْإِيحَاءُ هُنَا الْإِرْسَالُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ. وَالْوَحْيُ يَكُونُ إِلْهَامًا وَإِيمَاءً وَغَيْرَ ذَلِكَ، وَأَصْلُهُ فِي اللُّغَةِ إِعْلَامٌ فِي خَفَاءٍ، وَلِذَلِكَ صَارَ الْإِلْهَامُ يُسَمَّى وَحْيًا، وَمِنْهُ "وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوارِيِّينَ"، وقوله: "وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ"، وَقِيلَ: مَعْنَى"أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوارِيِّينَ" أَمَرْتُهُمْ، يُقَالُ: وَحَى وَأَوْحَى، وَرَمَى وَأَرْمَى، بِمَعْنَاهُ. قَالَ الْعَجَّاجُ: أَوْحَى لَهَا الْقَرَارَ فَاسْتَقَرَّتْ أَيْ أَمَرَ الْأَرْضَ بِالْقَرَارِ. وَفِي الْحَدِيثِ: (الْوَحْيَ الْوَحْيَ) وَهُوَ السُّرْعَةُ، وَالْفِعْلُ مِنْهُ تَوَحَّيْتُ

تَوَحِّيًا. قَالَ ابْنُ فَارِسٍ: الْوَحْيُ الْإِشَارَةُ وَالْكِتَابَةُ وَالرِّسَالَةُ، وَكُلُّ مَا ألقيته إلى غيرك حَتَّى يَعْلَمَهُ وَحْيٌ كَيْفَ كَانَ. وَالْوَحْيُ: السَّرِيعُ. وَالْوَحَيُ: الصَّوْتُ، وَيُقَالُ: اسْتَوْحَيْنَاهُمْ أَيِ اسْتَصْرَخْنَاهُمْ.

وفي الوجوه والنظائر لأبي هلال العسكري (ص: ٤٩١): أصل الوحي الإشارة، يقال: وحيت إليه بطرفي أي: أشرت، قال الله: (فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا) ثم صار كل شيء دللت به على شيء وحيا، وحييت الكتاب وأوحيته إذا كتبته؛ لأنك تشير بالكتابة إلى المعاني التي تريدها، وهو بمعنى الإلهام، وبمعنى الإرسال وبمعنى الرؤيا، ويجوز أن يكون أصله السرعة، ومنه الوحي يقصر ويمد يقال: الوحا الوحا يراد السرعة، ويقال: من الوحي وحا، وأوحى، وهو في القرآن على خمسة أوجه: الأول: الإرسال، قال: (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ) وقوله: (وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ) أي.: أرسل به إليَّ. الثاني: الإلهام، قال الله: (وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ) أي: ألهمتهم الإيمان، ومثله: (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ) جمع واحده: نحلة مثل: نحل ونحلة، والمعنى أنه ألهمها اتخاذ المساكن وادخار العسل كما في غيرها من الحيوان التصرف في وجوه منافعها واجتناب أسباب مضارها، ومثله قوله: (بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا). الثالث: الإشارة، قال الله: (فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا) أي: أومأ، ودليل هذا، قوله: (آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا) والرمز تحريك الشفتين والحاجين والعينين، وقال بعضهم: الوحي هاهنا الكتاب أي: كتب إليهم وقال ذلك [لأن الإشارة لا تنبئ عن الصلاة بكرة وعشيا]. الرابع: الأمر، قال الله: (وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا) أي: أمر أهلها بما يصلح الأمر به. الخامس: الوسوسة، قال الله تعالى: (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى

رسوله ﷺ ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥٨﴾ [الأَعْرَاف: ١٥٨].

ولولا أن كتاب الله تعالى قد جاء بخبر الحواريين، ووحي الله إليهم، لما كان لأحد، ولا هم أنفسهم، أن يعلموا أنهم إنما آمنوا وصدَّقوا لأن الله قد منَّ عليهم بصفة خاصة، فهداهم للإيمان، وشرح صدورهم لطاعة المسيح عليه السلام ـ بدلالة لفظ الإلهام في الآية ـ ولولا الآية الكريمة التي أخبرت عن ذلك لما علمنا أنهم قد أوحي إليهم بوحي خاص.

والمعنى المستفاد:

أنه لا وسيلة أمام الإنسان ـ أي إنسان ـ للتأكد مما يعمل ويفعل بجوارحه وأعضاء جسده، هل يفعل هذا بتوفيق الله تعالى له، إذ يسره وسيره للقيام بما قام به، من فعل وعمل، أم أن هذا الفعل أو العمل قام به بمطلق إرادته واختياره التام.

وهكذا هو حال البشر جميعا، ينطلقون في الحياة في كل اتجاه، ويتفاوتون في الأخذ بالأسباب وتركها، دون أن يتمكنوا من معرفة حقيقة ما يقومون به، هل هو من قبيل التسيير والتسخير، أم إنه من قبيل الإرادة والاختيار.

أوَ ليست كل تصرفات الإنسان تخضع لعقله وقلبه، وسائر حواسه، وكلها بين يدي الله يقلبها كيف يشاء؟ يقول تعالى:

أَوْلِيَائِهِمْ) أي: يوسوسون إليهم، ومثله: (يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ) وقال بعضهم: تقدير هذا بمعنى الأمر، أي: يأمر بعضهم بعضا بذلك.

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١١٠﴾ [الأنعام : ١١٠].

يقول الإمام الطبري: (عن مجاهد: (وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ)، قال: نحول بينهم وبين الإيمان، ولو جاءتهم كل آية فلا يؤمنون، كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة)[1]، وواضح تماما من **الإمام مجاهد** رضي الله عنه عامل التسيير والتسخير، لأن الحيلولة بينهم وبين الإيمان لم تكن بأمر مادي محسوس، يطلع عليه الناس، بل كانت - والله أعلى وأعلم - عن طريق حواسهم، وأجهزة أجسادهم، التي يعرفونها حق المعرفة، ولا يملكون من أمرها إلا ما شاء الله تعالى أن يكون، وفي الحديث: عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ»[2].

ولو أن العباد أحسنوا التفكر في آيات الله لتغير حالهم إلى أحسن الأحوال، ولكن قلَّ من يُخلص النية لله تعالى ويسعى جاهدا جهد استطاعته، ليتعرف على حِكَم الله تعالى في خلقه وكونه، وأنه لا حيلة له في شيء من أمره إلا بما شاء الله، ويمكن أن نقول - والله أعلم - إن الإنسان لا يملك حواسه وأجهزة جسده إلا من جهة الظاهر، بينما هي في حقيقتها محكومة بتسيير الله تعالى، وتسخيره لها، ولا يملك هذا الإنسان الذي

[1] تفسير الطبري (١٢/ ٤٤).

[2] سنن الترمذي (٤/ ٤٤٨)، وقال الشيخ الألباني: صحيح.

يحملها من أمرها إلا ما أذن اللّه به، وكل هذا يجري في الحياة واعتاده الناس، حتى أنهم كثيرا ما يفعلون أشياء ثم يعجبون من أنفسهم، لم فعلوا ذلك، أو كيف فعلوه، ويتكرر طوال حياتهم، وقليل من يستوقفه ذلك ليعلم هذا المعنى الذي أشار إليه الحديث «إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ» وكأن ما يجري في حياة البشر من هذه الأشياء التي يفسرونها بالإلهام، أو الهاتف أو الحدس النفسي، أو التخييل أو الوميض الذهني، أو غير ذلك، مما اعتاده الناس وعايشوه دون أن يهتموا بتفسيره، التفسير الصحيح، ما هو إلا تحقيق لمراد اللّه ومشيئته، ولو أدرك الناس هذه الحقيقة لنطقت ألسنتهم بالحق الذي جاءت به نصوص القرآن والسنة، واللّه أعلى وأعلم.

ولو جمعنا بين هذه المعاني وبين مفهوم الوحي للبشر، وتعلق كل ذلك بعملية الاستهام على السفينة، فيمكن أن نفكر سويا فنقول:

هل كان حال أصحاب السفينة، من جهة الاستهام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هو الأخذ بالسبب العادي، أم كان متعلقا بالوحي، كما كان حال الحواريين متعلقا به، وهل كان الوحي إلى الحواريين مصاحبا لهم منذ ولادتهم، (وكأنهم مفطورون)[1] على الإيمان الذي هو ثمرة الوحي إليهم، والذي يظهر في الوقت المناسب له، بما يعني أن كل حركة في حياة البشر معلومة محسوبة، ومحكومة بقدر اللّه، منذ ولادتهم وحتى

[1] كما في البرمجة البشرية للآلات المختلفة، والتي تجعل الآلة تسير على نمط لا يتخلف، وتنزه الله تعالى عن الشبيه والمثيل.

الممات، ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الجن من الآيه: ٢٨]، أي: (علم عدد الأشياء كلها، فلم يخف عليه منها شيء)[1].

نقول نعم هذا هو ما يغلب على الظن، أن به تسير حياة البشر، ولكن لا نقطع به.

بمعنى: أن كل البشر قد طبعت خلايا أجسادهم، أو ألقي إليهم في روعهم، كل ما سوف يقومون به من أفعال وتصرفات، حتى ما كان منها ما هو بكامل إرادتهم واختيارهم، أو بغيرها.

القدر وفطرة الخلق:

ولعل مما يقرب هذا المعنى، ويرجح أن الفطرة تحمل كل شيء، قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [النَّحل: ٦٨ - ٦٩].

فهل يتجدد الإلهام مع خروج كل نحلة إلى الحياة، أم أن الوحي والإلهام مفطور في خلايا النحل جميعا، ينتقل بالتوارث، ولا يتخلف أبدا؟[2]

---

[1] تفسير الطبري (٢٣/ ٦٧٤)

[2] أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ١٣٦) الْوَحْيَ يَنْقَسِمُ عَلَى ثَمَانِيَةِ أَقْسَامٍ: مِنْهَا الْإِلْهَامُ، وَهُوَ مَا يَخْلُقُهُ اللَّهُ فِي الْقَلْبِ ابْتِدَاءً مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ ظَاهِرٍ، وَهُوَ مِنْ قَوْله تَعَالَى: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا}، وَمِنْ ذَلِكَ الْبَهَائِمُ وَمَا يَخْلُقُ اللَّهُ فِيهَا مِنْ دَرْكِ مَنَافِعِهَا، وَاجْتِنَابِ مَضَارِّهَا، وَتَدْبِيرِ مَعَاشِهَا. وَمِنْ عَجِيبِ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي النَّحْلِ أَنْ أَلْهَمَهَا لِاتِّخَاذِ بُيُوتِهَا مُسَدَّسَةً؛ فَبِذَلِكَ اتَّصَلَتْ حَتَّى صَارَتْ

الذي نعتقده أن النتيجة واحدة، ولكن نبين فقط ما يقطع التساؤل في مثل هذه الأمور، لينصرف الناس إلى العمل، والذي يقتضي الأخذ بالأسباب على الوجه الذي خلقها الله له، دون الانشغال بما لا طاقة لهم بعلمه، وهل هذا قدر تعلق بالسبب العادي، أم تعلق بغيره من الأسباب، فكل هذا لن ينكشف لهم بحال، فلم يبق إلا السعي والكسب والاجتهاد، والله من وراء القصد.

كَالْقِطْعَةِ الْوَاحِدَةِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْأَشْكَالَ مِنْ الْمُثَلَّثِ إِلَى الْمُعَشَّرِ إِذَا جُمِعَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا إِلَى أَمْثَالِهِ لَمْ يَتَّصِلْ، وَجَاءَتْ بَيْنَهُمَا فُرَجٌ إِلَّا الشَّكْلَ الْمُسَدَّسَ فَإِنَّهُ إِذَا جُمِعَ إِلَى أَمْثَالِهِ التَّسْدِيسُ، يَحْمِي بَعْضُهَا بَعْضًا عِنْدَ الِاتِّصَالِ. وَجُعِلَتْ كُلُّ بَيْتٍ عَلَى قَدْرِهَا، فَإِذَا تَشَكَّلَ عِنْدَ حَرَكَةِ النَّحْلَةِ بِقُدْرَةِ اللَّهِ وَعِلْمِهِ، وَمَلَأَتْهُ عَسَلًا انْتَقَلَتْ إِلَى غَيْرِهِ بِتَسْخِيرِ اللَّهِ وَتَقْدِيرِهِ وَتَذْلِيلِهِ، إِنْ تُرِكَتْ عَسَّلَتْ، وَإِنْ حُمِلَتْ اتَّبَعَتْ، وَهِيَ ذَاتُ جَنَاحٍ، وَلَكِنَّ الْقَابِضَ الْبَاسِطَ هُوَ الَّذِي سَخَّرَهَا وَدَبَّرَهَا.

الأسباب والوسائل وتعلقها بالنتائج

ومع صعوبة الوصول إلى الفهم التام الصحيح لهذه المسألة، إلا أنها تؤكد أنه لا مهرب من الله إلا إليه، فالذي يعمل ويأخذ بالسبب قد يعجز تماما عن الوصول إلى مراده، مهما قدم وأتقن واجتهد، لا لشيء إلا لأن الله عز وجل قدر ذلك، ولهذا فالذي ينكر ذلك وأرجع الأمور إلى الأسباب وفقط، لن ينجو من الحيرة والقلق والاضطراب، مهما بدا عليه غير ذلك.

أما الذي أخذ بالأسباب وقلبه معلق تماما بخالق الأسباب ومقدر الأقدار، فسواء لديه الوصول إلى مبتغاه أو عدم الوصول، فقلبه مطمئن راضٍ، لأنه يوقن أن أمره في كل أحواله خير، ففي الحديث: "عَنْ صُهَيْبٍ ﵁، قالَ: قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ المُؤْمِنِ، إنَّ أمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وليسَ ذاكَ لأَحَدٍ إلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إنْ أصابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكانَ خَيْرًا له، وإنْ أصابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكانَ خَيْرًا له»[1].

ولا نبعد كثيرا إذا قلنا إن هؤلاء الذين أرجعوا الأمور إلى قضاء الله وقدره، فسعوا إلى مرادهم بالدعاء والعبادة دون الأخذ بالأسباب التي أمر بها الخالق سبحانه، قد فاتهم الأدب مع الله، ولم يتأسوا بقدوة الخلق رسول الله ﷺ، وهؤلاء لا يعلم حقيقتهم إلا الله تعالى، لأن المطلع على القلوب هو الخالق سبحانه ولا شريك له في ذلك: (قِسمٌ عامَلوا اللهَ باعْتِمادِ قلُوبِهِمْ عَلى قدْرَتِهِ - تعالى - مَعَ إهْمالِ الأسْبابِ والعَوائِدِ فلجَّجُوا فِي البِحارِ فِي زَمَنِ الهَوْلِ وَسَلكُوا القِفارَ العَظِيمَةَ المُهلِكَةَ بغَيْرِ زادٍ إلى غَيْرِ ذلِكَ مِنْ

[1] صحيح مسلم (٤/ ٢٢٩٥).

هَذِهِ التصرُّفاتِ، فهَؤلاءِ حَصَلَ لهُمْ التوكُّلُ"[1] وَفاتهُمْ الأدبُ مَعَ اللّهِ)[2].

وأما اليقين الذي نعتقده فهو أن الإنسان محاسب على أفعاله، مع أن منها ما لا حيلة له حقيقة في هذا الفعل، ومنها ما له فيها حيلة، ومنها ما هو وسط بين هذا وذاك، وكل هذا لا يعلمه إلا الله تعالى، فلا أمان إلا بالطاعة والامتثال، والله أعلى وأعلم.

---

[1] وفي «تهذيب الفروق» للشيخ محمد بن علي بن حسين (٤/ ٢٩٨) يقول: وَلِذَلِكَ عَابَ الْعُلَمَاءُ وَغَلَّطُوا جَمَاعَةً مِنْ الْعُبَّادِ حَيْثُ تَوَسَّطُوا الْقِفَارَ مِنْ غَيْرِ زَادٍ وَلَجَّجُوا فِي الْبِحَارِ فِي زَمَنِ الْهَوْلِ أَوْ فِي غَيْرِ الزَّمَنِ الْمُعْتَادِ طَالِبِينَ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى خَرْقَ عَوَائِدِهِ لَهُمْ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ فَهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ سَائِرُونَ إلَى اللَّهِ وَهُمْ ذَاهِبُونَ عَنْهُ ظَانِّينَ أَنَّ هَذِهِ الْحَالَةَ هِيَ حَقِيقَةُ التَّوَكُّلِ وَأَنَّ مَا عَدَاهَا يُنَافِي الِاعْتِمَادَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَهَذَا غَلَطٌ عَظِيمٌ فَقَدْ دَخَلَ سَيِّدُ الْمُتَوَكِّلِينَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ مَكَّةَ مَحْفُوفًا بِالْخَيْلِ وَالرَّجْلِ وَالْكُرَاعِ وَالسِّلَاحِ فِي كَتِيبَتِهِ الْخَضْرَاءِ مُظَاهِرًا بَيْنَ دِرْعَيْنِ وَعَلَى رَأْسِهِ مِغْفَرٌ مِنْ حَدِيدٍ، وَقَالَ أَوَّلَ أَمْرِهِ مَنْ يَعْصِمُنِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي وَكَانَ فِي آخِرِ عُمْرِهِ عِنْدَ أَكْمَلِ أَحْوَالِهِ مَعَ رَبِّهِ يَدَّخِرُ لِعِيَالِهِ قُوتَ سَنَةٍ وَهُوَ سَيِّدُ الْمُتَوَكِّلِينَ. وَتَحْقِيقُ هَذَا الْبَابِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ التَّوَكُّلَ اعْتِمَادُ الْقَلْبِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى فِيمَا يَطْلُبُهُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ يَكْرَهُهُ مِنْ ضَيْرٍ لِأَجْلِ أَنَّهُ الْمُسْتَوْلِي بِقُدْرَتِهِ وَإِرَادَتِهِ عَلَى سَائِرِ الْكَائِنَاتِ مِنْ غَيْرِ مُشَارِكٍ لَهُ فِي ذَلِكَ {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ} [فاطر: ٢] وَمَعَ ذَلِكَ فَلَهُ عَوَائِدُ فِي مُلْكِهِ رَتَّبَهَا بِحِكْمَةٍ، فَمُقْتَضَى شُمُولِ قُدْرَتِهِ انْقِطَاعُ الْقَلْبِ عَنْ غَيْرِهِ وَمُقْتَضَى سُلُوكِ أَدَبِهِ الْتِمَاسُ فَضْلِهِ مِنْ عَوَائِدِهِ.

[2] الفروق للقرافي (٤/ ٢٢٣).

ويمكن أن نفهم أو نقترب من فهم هذا المعنى، وهو كيف يكون الأخذ بالأسباب، تيسيرا أو تسخيرا، دون قهر أو إجبار، وذلك كما في قول **الإمام الطبري** في تفسيره: {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ}، بمعنى: ألقى ذلك إليها فألهمها)، (أيْ: ألهمَها، قالَ السُّدِّيُّ: وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الحيَوانِ إلهامٌ)، وقيل: سخَّرها)[1].

وهذا الوحي والإلهام ليس خاصا بغير المكلفين - وهي كل المخلوقات فيما عدا الإنس والجن - بل أيضا هذا هو حال المكلفين جميعا، كما أخبر جل في علاه إذ يقول سبحانه: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشَّمس : ٧ - ٨]، **والمعنى**: أي عرّفها في الفطرة)[2].

وهذا المعنى لا يختلف كثيرا عن حال الوحي مع النحل، والذي يدرس الخلية البشرية وما فيها من عجائب قدرة الله تعالى سيتأكد أن كل ما نقوله من أمر الفطرة أو البرمجة البشرية إن هو إلا قطرة في محيط لا قرار ولا حد له، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المُؤْمِنُون من الآيه : ١٤].

وفي نفس المعنى: (وقال ابن زيد وابن الفضل: جعل فيها ذلك يعني بتوفيقه إيّاها للتقوى وخذلانه إيّاها للفجور)[3].

---

[1] انظر: تفسير الطبري (٦/ ٤٠٥)، تفسير يحيى بن سلام (١/ ٧٣)، غريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٢٤٥).

[2] غريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٤٥٦).

[3] تفسير الثعلبي (١٠/ ٢١٣).

وقيل: علمها طريق الفجور وطرِيقَ الهدى، والكلام على أن ألهَمَها التقوى،وفقَهَا للتقوى، وألهَمَها فجورَهَا خذلها، والله أعلم)[١].

ويؤكد **الإمام القصاب** المعنى الذي نفهم به {فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها} فيقول: (ولو لم يكن عليهم من الحجة إلا أنفسهم لكفاهم، حيث يسمعون هذه الأشياء الواضحة المسكتة، فلا يقررون قوله، ولا يستطيعون فهمه، لأن أفهامهم عنها مقيدة بما سبق من القضاء عليهم بالشقاء، فلا يستطيعون أن يسعدوا، ومن فسر (ألهمها) على ألزمها فليس بمخالف لهذا، لأن الإلهام إذا كان منه، فالإلزام غل في أعناقهم، لا يستطيعون حله، فكان الأمر في ذلك واحدًا)[٢].

ولهذا لا نبعد كثيرا إذا قلنا إن الإلهام، أو الوحي لا يفارق أحدا من البشر جميعا، إن لم يكن في كل أحوالهم، فهو في غالب أحوالهم، ولفظ التسخير الذي ذكره الإمام ابن قتيبة قد يكون فيه البيان للمعنى المراد بالإلهام، بمعنى أن الإلهام ليس مجرد إشارة وإرشاد، بل هو الإلهام الذي يكون سببا في حتمية الامتثال والإذعان، وهذا هو التسخير، حتى ما ليس مسخرا فيه لن يتخلف أبدا لأن الفطرة أو البرمجة الخلقية قد تضمنت بالعلم الأزلي الكاشف كل ما يفعله الإنسان، بالتخيير أو التسيير والتسخير المرتبطان بالقدرة الإلهية، وسوف نتناول هذه النقطة بمزيد من البحث والبيان، والله من وراء القصد.

---

[١] انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٥/ ٣٣٢).

[٢] النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام، المؤلف: أحمد محمد بن علي بن محمد الكَرَجي القصَّاب (المتوفى: نحو ٣٦٠هـ) (٤/ ٥٢١)

ومن هنا يتضح كيف تمت عملية الاستهام على السفينة، وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكيف ارتبط القدر بالسبب، يقول تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأَنْعَام : ٥٩].

وهذه الإحاطة إحاطة قدرة وعلم، فليس ما يجري في الحياة مكتوب بالعلم الأزلي الذي لا يتخلف وحسب، بل بالقضاء والقدر أيضا، وهو ما نفصله بالأمثلة بعد ذلك، بتوفيق الله عز وجل.

ولعل ما يؤكد هذا المعنى:

ما ورد في الحديث الشريف الذي رواه الإمام مسلم: "عَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ الدِّيلِيِّ، قَالَ: قَالَ لِي عِمْرَانُ بْنُ الْحُصَيْنِ، أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ الْيَوْمَ وَيَكْدَحُونَ فِيهِ، أَشَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى عَلَيْهِمْ مِنْ قَدَرِ مَا سَبَقَ؟ أَوْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُونَ بِهِ مِمَّا أَتَاهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ، وَثَبَتَتِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ؟ فَقُلْتُ: بَلْ شَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ، وَمَضَى عَلَيْهِمْ، قَالَ فَقَالَ: أَفَلَا يَكُونُ ظُلْمًا؟ قَالَ: فَفَزِعْتُ مِنْ ذَلِكَ فَزَعًا شَدِيدًا، وَقُلْتُ: كُلُّ شَيْءٍ خَلْقُ اللَّهِ وَمِلْكُ يَدِهِ، فَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ، فَقَالَ لِي: يَرْحَمُكَ اللَّهُ إِنِّي لَمْ أُرِدْ بِمَا سَأَلْتُكَ إِلَّا لِأَحْزِرَ عَقْلَكَ، إِنَّ رَجُلَيْنِ مِنْ مُزَيْنَةَ أَتَيَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ الْيَوْمَ، وَيَكْدَحُونَ فِيهِ، أَشَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى فِيهِمْ مِنْ قَدَرٍ قَدْ سَبَقَ، أَوْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُونَ بِهِ مِمَّا أَتَاهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ، وَثَبَتَتِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ؟ فَقَالَ: "لَا، بَلْ شَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ

وَمَضَى فِيهِمْ، وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا"[1].

ومع وضوح لفظ الحديث، ودلالته على ما نقول، كما يفهم من قوله ﷺ: (بَلْ شَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى فِيهِمْ)، ولا يظن برسول الله ﷺ أن يقول: (قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى فِيهِمْ)، ويكون ذلك بمعنى علم منهم، فهو ﷺ أوتي جوامع الكلم وكان أفصح العرب ﷺ.

📖 ومع هذا نقول:

لا نجزم بذلك - تأدبا مع ما يليق بنصوص الشرح - بل نقول لعله يُفهم منه ما ذهبنا إليه، ولا ندعي اليقين، إلا فيما كان منصوصا عليه، نصا صريحا واضحا، لا يحتمل التأويل، عصمنا الله جميعا من الزلل والخذلان.

وفي الحديث الشريف:

عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُعْرَفُ أَهْلُ الجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ؟ قَالَ: «نَعَمْ» قَالَ: فَلِمَ يَعْمَلُ العَامِلُونَ؟ قَالَ: "كُلٌّ يَعْمَلُ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَوْ: لِمَا يُسِّرَ لَهُ"[2].

يقول الإمام ابن حجر: (وفي الحديث إشارة إلى أن المآل محجوب عن المكلف، فعليه أن يجتهد في عمل ما أمر به، فإن عمله أمارة إلى

[1] صحيح مسلم (٤/ ٢٠٤١) (ويكدحون فيه) الكدح هو السعي في العمل سواء أكان للآخرة أم للدنيا (لأحرز عقلك) أي لأمتحن عقلك وفهمك ومعرفتك.

[2] صحيح البخاري (٨/ ١٢٢).

ما يؤول إليه أمره غالبا"[1]، وإن كان بعضهم قد يختم له بغير ذلك"[2]، كما ثبت في حديث بن مسعود وغيره، لكن لا اطلاع له على ذلك، فعليه أن يبذل جهده، ويجاهد نفسه في عمل الطاعة، لا يترك وكولا إلى ما يؤل إليه أمره، فيلام على ترك المأمور ويستحق العقوبة)[3].

وقول **الإمام ابن حجر** رحمه الله تعالى (فإن عمله أمارة إلى ما يؤل إليه أمره غالبا)، وكأنه ينص على أن فعل الطاعات قد يكون ـ غالبا ـ دليلا على أن صاحب هذه الطاعات ممن هداهم الله تعالى، ووفقهم ليكون مآلهم الجنة، بمنه وكرمه سبحانه، ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [يُونُس : ٢٦] ، وكل هذا يتعلق بالقضاء والقدر، الذي لا يتبدل ولا يتغير.

وكلام **الإمام ابن حجر** يشتمل في ثناياه على كل ما نتحدث عنه بتناولنا لشرح الحديث، ونريد بيانه بيانا واضحا، يرفع اللبس، ويزيل الغموض، والله ولي التوفيق.

---

[1] ومثال ذلك: الوليد بن المغيرة وأبو جهل وأبو لهب أقروا بصدق الرسول ﷺ وأن القرآن الكريم هو كلام الله تعالى وليس كلام بشر، ومع هذا عاندوا وتمادوا في غيهم حتى ماتوا على الشرك، والعياذ بالله.

[2] ومن ذلك ما قام به أبو طالب من الدفاع عن رسول الله ﷺ وحمايته ومع هذا مات على الشرك على الرغم من كل ما قدمه لرسول الله ﷺ، مما يؤكد أن الأقدار نافذة لا محالة، والله أعلى وأعلم.

[3] فتح الباري لابن حجر (١١/ ٤٩٣).

وليس هذا من فضول العلم بل هو ـ والله أعلم ـ من الأهمية بمكان يجعل العلم به واجبا على كل من يطيق فهمه فهما صحيحا، وما ذلك إلا لما يترتب عليه من تعظيم قدر الخالق تعظيما يليق بجلاله وعظيم سلطانه تبارك وتعالى، قدر طاقتنا.

كما أن هذا العلم يصحح لدينا مفاهيم عقدية، لا يستغني عنها الإيمان الحق، وكذلك هذا الفهم يبين لكل المكلفين، أنهم لا حيلة لهم ولا وسيلة إلا باللجوء إلى الله تعالى، والتذلل بين يديه سبحانه، طمعا ورجاء، كما أمرنا سبحانه ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النَّمل: ٦٢].

وسوف نخص مسألة القدر والعلم الكاشف بمزيد من التفصيل والعديد من الأدلة، بإذن الله تعالى.

القدر والعلم الكاشف

مسألة القدر والعلم الكاشف، تعتبر من أدق المسائل العقدية التي لا يصلح الخوض فيها إلا بالتضرع إلى الله تعالى أن يعصمنا من الزلل، ثم بعد ذلك لا نخوض في هذه المسألة إلا بالحذر التام، وتحري الصواب جهد الطاقة، والله من وراء القصد.

وقبل البدء في المسألة أورد كلام **الإمام الطبري** التالي، عسى أن يفتح لنا أبواب الفهم الصحيح للمسألة، والله من وراء القصد.

يقول الإمام الطبري: (وقوله تعالى: {وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا} يقول: وكان أمر الله قضاء مقضيًا، قال **ابن زيد**، في قوله {وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا}: إن الله كان علمه معه قبل أن يخلق الأشياء كلها، فأتمه في علمه أن يخلق خلقا، ويأمرهم وينهاهم، ويجعل ثوابا لأهل طاعته، وعقابا لأهل معصيته، فلما ائتمر ذلك الأمر قدره، فلما قدره كتب وغاب عليه؛ فسماه الغيب وأم الكتاب، وخلق الخلق على ذلك الكتاب أرزاقهم وآجالهم وأعمالهم، وما يصيبهم من الأشياء من الرخاء والشدة من الكتاب الذي كتبه أنه يصيبهم، وقرأ {أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا} نفد ذلك {جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ} وأمر الله الذي ائتمر قدره حين قدره مقدرا، فلا يكون إلا ما في ذلك، وما في ذلك الكتاب، وفي ذلك التقدير، ائتمر أمرا ثم قدره، ثم خلق عليه فقال: كان أمر الله الذي مضى وفرغ منه، وخلق عليه الخلق {قَدَرًا مَقْدُورًا} شاء أمرا ليمضي به أمره وقدره، وشاء أمرا يرضاه من عباده في طاعته، فلما أن كان الذي شاء من طاعته لعباده رضيه لهم، ولما أن كان

الذي شاء أراد أن ينفذ فيه أمره وتدبيره وقدره، وقرأ {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ} فشاء أن يكون هؤلاء من أهل النار، وشاء أن تكون أعمالهم أعمال أهل النار، فقال {كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ}، وقال {وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ}، هذه أعمال أهل النار {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ} قال {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ ... } إلى قوله {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ} وقرأ {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ... } إلى {كُلَّ شَيْءٍ قُبُلا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ} أن يؤمنوا بذلك، قال: فأخرجوه من اسمه الذي تسمى به، قال: هو الفعال لما يريد، فزعموا أنه ما أراد)"[1].

---

[1] تفسير الطبري (٢٠/ ٢٧٦). (وقوله: {وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا} يقول: وكان أمر الله قضاء مقضيًّا، قال ابن زيد، في قوله {وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا}: إن الله كان علمه معه قبل أن يخلق الأشياء كلها، فأتمه في علمه أن يخلق خلقا، ويأمرهم وينهاهم، ويجعل ثوابا لأهل طاعته، وعقابا لأهل معصيته، فلما ائتمر ذلك الأمر قدره، فلما قدره كتب وغاب عليه؛ فسماه الغيب وأم الكتاب، وخلق الخلق على ذلك الكتاب أرزاقهم وآجالهم وأعمالهم، وما يصيبهم من الأشياء من الرخاء والشدة من الكتاب الذي كتبه أنه يصيبهم، وقرأ {أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا} نفِدَ ذلِكَ {جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ} وأمر الله الذي ائتمر قدره حين قدره مقدرا، فلا يكون إلا ما في ذلك، وما في ذلك الكتاب، وفي ذلك التقدير، ائتمر أمرا ثم قدره، ثم خلق عليه فقال: كان أمر الله الذي مضى وفرغ منه، وخلق عليه الخلق {قَدَرًا مَقْدُورًا} شاء أمرا ليمضي به أمره وقدره، وشاء أمرا يرضاه من عباده في طاعته، فلما أن كان الذي شاء من طاعته لعباده رضيه لهم، ولما أن كان الذي شاء أراد أن ينفذ فيه أمره وتدبيره وقدره، وقرأ

وبالنسبة لحديث السفينة فمازال يفتح لنا آفاقا من العلم، لا نعتقد أنها تعطي الحديث حقه التام من الشرح والبيان، وما ذلك إلا لأن هذا الحديث يتحدث في جوهره عن دنيا الناس، وما يتعلق بها من غيب وغموض، واختلاف بين طبائع البشر.

ومع أن الأولين قد اجتهدوا، واستفرغوا الوسع في تجلية المعاني التي جاءت بها نصوص الشرع، إلا أنهم مع عظيم ما بذلوا، لم يحيطوا بكثير من المعاني، وبخاصة تلك التي لا تتعلق بالأحكام والأوامر والنواهي.

وقد اتسمت ألفاظهم بألوان من الصعوبة، حالت دون استجلاء المراد منها، أو الكثير منه، وبخاصة وقد غلب على جانب ليس قليلا منها الغموض الفلسفي في التعبير عن المراد.

ومن هذا الجانب ما تعلق بالقدر، وما شابه من معانٍ فلسفية صعبة، أدت إلى هجر هذه المعاني، إلا عند المتخصصين، ومع هذا فقد التبست منه معان كثيرة، أدت إلى الاختلاط والاختلاف، والتخبط في معرفة المراد منها.

{وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ} فشاء أن يكون هؤلاء من أهل النار، وشاء أن تكون أعمالهم أعمال أهل النار، فقال {كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ}، وقال {وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ}، هذه أعمال أهل النار {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ} قال {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ ... } إلى قوله {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ} وقرأ {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ. ... } إلى {كُلَّ شَيْءٍ قُبُلا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ} أن يؤمنوا بذلك، قال: فأخرجوه من اسمه الذي تسمى به، قال: هو الفعال لما يريد، فزعموا أنه ما أراد).

ومسألة القدر، والعلم الكاشف، قد يكون لها نصيب وافر في هذا الشأن، مما أدى إلى هذا التيه، الذي يتخبط فيه طلاب العلم، في كل مكان، ولعل أهم سبب لذلك أن السابقين لم يصرحوا بالمعنى المراد المتعلق بهذه المسألة تصريحا يرفع الغموض، ويزيل الخفاء، مع عظيم أهميتها كما أسلفنا القول.

📖 **ولهذا نحاول تقريب هذه المسألة، والتعبير عنها كما يلي:**

إن من الأمور المستقرة عند أهل السنة والجماعة أن علم الله تعالى أزلي قديم، غير حادث، لا يتخلف أبدا، وفي هذا المعنى يقول الإمام السفاريني الحنبلي: (يَجِبُ الجَزْمُ بِأَنَّهُ ـ تَعَالى ـ عَالِمٌ بِعِلْمٍ وَاحِدٍ وُجُودِيٍّ قَدِيمٍ بَاقٍ ذَاتِيٍّ، يَتَكَشَّفُ بِهِ المَعْلُومَاتُ عِنْدَ تَعَلُّقِهِ بِهَا)[1].

وهذه هي النقطة التي نتناولها الآن، وهي قوله: (يَتَكَشَّفُ بِهِ المَعْلُومَاتُ عِنْدَ تَعَلُّقِهِ بِهَا)، وهو ما نطلق عليه في بحثنا هذا العلم الكاشف.

---

[1] لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية لشمس الدين، أبو العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي (المتوفى: ١١٨٨هـ).

العلم الكاشف

بينّا أن الخالق سبحانه يخلق الدوافع إلى الفعل، ورجحنا أن عملية الاستهام على السفينة قد جرت على هذا النحو، ولكن هل يقتضي وجود الدافع لدى الإنسان أن يقع منه الفعل على وجه واحد، أم أنه يمكن أن يقع منه الفعل، أو يحول دون وقوعه حائل، أو يقع الفعل على وجه، لم يكن هو المراد أن يكون، بسبب قصور أو جهل أو عجز من الفاعل؟

وكذلك هل تمت عملية الاستهام بالدافع العادي، أم بالدافع التسخيري، وكل منهما مخلوق للّه تعالى؟

كل هذه الاحتمالات هي أوجه يمكن أن يحدث بعضها دون بعض، على الرغم من وجود الدافع، أو الوحي والإلهام، والذي لم يتغير في كل هذه المحتملات المذكورة، فعلى أي وجه من هذه الاحتمالات تمت عملية الاستهام؟

☜ **وهل القدر هو عبارة عن علم اللّه الأزلي القديم، الذي لا يتخلف ولا يتبدل، والذي كشف ما يقع من الإنسان، فكتبه القلم، فكان هذا هو القدر، أم أن القدر ليس محصورا في ذلك؟.**

📖 **وللجواب عن ذلك نقول:**

خلصنا فيما سبق أن وقوع الاستهام عن طريق خلق الدوافع، يقتضي أن تكون النتيجة موافقة لما قدره اللّه تعالى، وهذا لا يكون إلا بالتسخير، وبذلك تنتفي كل الاحتمالات المذكورة، لأن الاستهام لم يتم بالسبب العادي، أو الشرعي التكليفي، ولكن بالإرادة الكونية القدرية، كما أسلفنا القول.

🕮 أما بخصوص الكتابة والعلم الكاشف:

فنبدأ البيان بهذا السؤال: هل المكتوب في اللوح المحفوظ، أمضاه الله تعالى وقدره، فلن يتخلف أبدا، وسيقوم عباده به، ويترتب عليه أنهم مجبرون على أفعالهم؟

أم أن الخالق سبحانه أمضاه وقدره، بتعلق علمه الكاشف الذي لا يتبدل ولا يتغير به، بمعنى أنه جل في علاه اطلع على أفعال العباد أزلا فكتبها كما هي، بغير قهر ولا إجبار، ويترتب على هذا أن يكون الإنسان مخيرا، في كل أفعالة التي يحاسب عليها؟.

أم أن المكتوب يتضمن هذا وذاك كليهما، فيرتبط المكتوب بالعلم والقدرة معا؟

وقبل الجواب نقر هذه الحقيقة العقدية، ألا وهي:

علم الله أزلي قديم غير حادث، والمكتوب في اللوح المحفوظ لا يتبدل ولا يتغير ـ كما في أرجح أقوال أهل العلم ـ قال سبحانه: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٢٩﴾ [ق: ٢٩].

يقول الشارح: (قال المصنف ـ **الإمام اللالكائي** ـ رحمه الله ـ أثناء شرحه لصفة العليم ـ: قادر عالم، عالم صفة من صفات الله، واسمه عليم، وهي صفة من صفات الذات الثبوتية، الذاتية التي لا تنفك عن الله جل وعلا، فهو عالم بكل شيء، وأحاط بكل شيء علماً، وقسمة علم الله جل وعلا: أن الله علم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف سيكون، وأول ما خلق الله الخلق خلق القلم فقال له: اكتب، فقال: ما أكتب؟ قال:

اكتب كل شيء إلى يوم القيامة، فكل شيء مكتوب في اللوح المحفوظ كائناً ما كان)[1].

وقد ذهب بعض أهل العلم ـ من المحدثين ـ إلى القول بأن الله عز وجل أنفذ قدره وقضاءه بعلمه الكاشف الذي لا يتخلف ولا يتبدل أبدا، فقد علم أن هذا الظالم سوف يقوم بظلم هذا المظلوم فأمضاه، فكان هذا هو قضاءه وقدره، الذي كتبه على المظلوم وابتلاه به.

وهذا القول نرى أنه والعياذ بالله طعن في العقيدة، من وجه، ومن وجه آخر يتعطل به القدر، وكل ذلك باطل، حيث اعتبروا أن العدل الإلهي يقتضي ذلك، وقد شرحنا في المطلب السابق عدم التلازم، الذي يقولون به.

وقد كان لقولهم هذا فتنة وغواية، وعمَّت به البلوى، وأصبح يجري على ألسنة كثير من أهل العلم المتأخرين ــ إلا من رحم الله ــ ومن هنا وجب رفع الغطاء لبيان بطلانه، وبيان وجه الخلل فيه.

وأما جواب التساؤل، فكما يلي: يمكن تلخيص السؤال في نقاط ثلاثة، كما يلي: هل العباد مسيرون مجبرون "مقهورون"، أم أنهم مختارون مخيرون في سائر أعمالهم وتصرفاتهم، أم أن أمرهم بين هذا وذاك؟

---

[1] شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي، محمد حسن عبد الغفار (٨/١١، بترقيم الشاملة)

📖 هل العباد مسيرون مجبرون؟

بخصوص الشق الأول من التساؤل، وهو هل العباد مجبرون مقهورون على أفعالهم؟

فالقول بالجبر، أو القهر والتسخير المطلق، قال به أهل البدع، وقولهم هذا نرى استحالته على النحو الذي ينقل عنهم، وإلا ترتب عليه وقوع الظلم، وقد نفاه الخالق عن نفسه، تبارك وتعالى، ولعل مما يقطع بنفي الجبر والقهر قوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦﴾ [الأَعۡرَاف : ١٧٥ - ١٧٦]، والمعنى: (فِي قَوْلِهِ: {وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا}، يَعْنِي: «لَدَفَعْنَا عَنْهُ»)[1].

والآية تفيد أن الله ترك هذا العبد لاختياره وإرادته، ولولا ذلك لمنعه من الوقوع في غواية الشيطان، ولو كان الأمر بالجبر والقهر لما حدث هذا.

يقول الإمام الطبري: (قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب أن يقال: إن الله عمّ الخبر بقوله: {وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا}، أنه لو شاء رفعه بآياته التي آتاه إياها، والرفع يَعمُّ معاني كثيرة، منها الرفع في المنزلة عنده، ومنها الرفع في شرف الدنيا ومكارمها، ومنها الرفع في الذكر الجميلِ والثناء الرفيع، وجائزٌ أن يكون

[1] تفسير مجاهد (ص: ٣٤٧).

الله عنى كلَّ ذلك: أنه لو شاء لرفعه، فأعطاه كل ذلك، بتوفيقه للعمل بآياته التي كان آتاها إياه)[1].

وقول الإمام الطبري: (بتوفيقه للعمل بآياته التي كان آتاها إياه) يدل على التخلية بين هذا العبد وما أراد واختار.

ويقول الإمام الماتريدي: وقوله عزَّ وجلَّ: {وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ...} يحتمل قوله: {لَرَفَعْنَاهُ بِهَا}: عصمناه حتى لا ينسلخ منها، ولا يكذب بها، أي: لو شئنا لوفقناه لها حتى يعمل بها، أو أن يقال: لو شئنا لعصمناه حتى لا يختار ما اختار، لكنه إذ علم منه أنه يختار ذلك ويميل إليه، شاء ألا يعصمه، ولا يوفقه، لأنه أخبر أنه لو شاء لرفعه بها، وكان له مشيئة الرفع، ثم أخبر أنه لم يرفع، ولو رفعه بها كان أصلح له في الدِّين؛ دل أنه قد يفعل به ما ليس هو بأصلح في الدِّين)[2].

ويؤكد مشيئة العبد واختياره قوله تعالى: {وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ}، **يقول الإمام الطبري :** (..{وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ}، **يقول**: سكن إلى الحياة الدنيا في الأرض، ومال إليها، وآثر لذتها وشهواتها على الآخرة {واتبع هواه}، ورفض طاعة الله وخالف أمرَه)[3].

وهذه الآية الكريمة تبين أن هذا العبد أخلد إلى الأرض واتبع هواه، ولو كان مجبرا مقهورا لما استطاع ذلك، وهذا دليل واضح على نفي الجبر والقهر، وأعتقد أن هذه المسألة مستقرة لدى معظم المكلفين، والله أعلى وأعلم.

---

[1] تفسير الطبري (١٣/ ٢٦٩).

[2] تفسير الماتريدي (٥/ ٩٠).

[3] تفسير الطبري (١٣/ ٢٦١).

ومن الأدلة كذلك: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال: ٢٣].

والمعنى: أن هؤلاء المشركين ليس فيهم خير، ولو كان انعدام الخير فيهم بسبب تسخير الله لهم لانعدم المعنى المراد من الآية، فدل ذلك أن انعدام الخير فيهم إنما بسبب يعود إلى إرادتهم واختيارهم، وليس إلى التسيير والتسخير، **وقول الإمام الطبري**: (**قال ابن زيد في قوله**: (ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) ، قال: لو أسمعهم بعد أن يعلم أن لا خير فيهم، ما انتفعوا بذلك، ولتولوا وهم معرضون)[1]، يدل تماما على نفي الجبر، والقهر، أو التسيير والتسخير التام الكلي.

[1] تفسير الطبري (١٣/ ٤٦٢).

الفرق بين القهر والتسخير

حديثنا عن التسيير والتسخير ـ كما سبق وبينا ـ ليس معناه سلب الإرادة والاختيار بالكلية عن الخلق، بل كل هذا يتم في إطار العدل، وعدم الظلم، الذي يحتم أن يكون للعبد من الأفعال الإرادية الاختيارية ما تقوم به الحجة عليه، ولهذا فلا يجوز الخروج بالمصطلح الذي سبق ذكره عن معناه الذي نقصده، والله أعلى وأعلم.

بينما الجبر أو القهر يقصد به عدم استقلال العبد بأي فعل من الأفعال الاختيارية، بل كل أفعاله تخضع للجبر والقهر، وهو ما يطلق عليه الناس تجاوزا التسيير، أي أن الإنسان مسير، وهذا ما ننفيه ونرفض قول القائلين، به كما أشرنا.

أما بخصوص الشق الثاني من التساؤل، وهو مسألة العلم الكاشف: فنهدف في هذا البيان إلى إبطال القول بأن القضاء والقدر إنما هو ما كشفه الله تعالى بعلمه الأزلي ثم أمضاه، وفقط، ثم نؤكد أن الصواب إنما هو تعلق القضاء والقدر بالعلم والقدرة معا وذلك بالتيسير والتسيير والتسخير، والله أعلم.

والعلم الكاشف له متعلقان :

التعلق الأول : وهو علم ما يتعلق بدنيا الوجود، (أي دنيانا).

التعلق الثاني : وهو علم ما يتعلق بما لم يكن لو كان كيف سيكون.

وتصوير المسألة التي نريد الحديث عنها فيما يتعلق بدنيا الوجود: نمثل لها بفعل العاصي الظالم الذي يؤذي الناس بظلمه

وتجبره، كيف تكتب أفعاله في اللوح المحفوظ الذي لا تبديل فيه ولا تغيير؟

وحتى نفهم الأمر على وجه صحيح لابد أن ننظر إلى المظلوم، وكذلك كون الظلم من الابتلاء، وقد بين سبحانه أن الابتلاء من أصول التشريع، قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء من الآيه : ٣٥].

هل ابتلاء المظلوم بما وقع عليه من فعل الظالم، هو بقدر الله تعالى ابتداء، أم أن علم الله الأزلي كشف عن هذا الظلم فأمضاه، مع أنه من فعل الظالم؟

يقول الإمام الطبري: (وقوله: {وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً} يقول تعالى ذكره: و نختبركم أيها الناس بالشر وهو الشدة نبتليكم بها، وبالخير وهو الرخاء والسعة العافية فنفتنكم به)[1].

ويمكن تأويل الآية ولو تأويلا بعيدا على أن المقصود بالابتلاء في مثل هذه الآيات هو إمضاء ما يقع على الناس من أحوال في الدنيا، بمعنى أن هذا المظلوم مُبتلى، ابتلاه الله تعالى، بظلم الظالم له، والذين يقولون بالعلم الكاشف وحده، يعتبرون أن ما وقع على المظلوم إنما هو بفعل الظالم له وتصرفه، ويعلم الله ذلك أزلا، فأمضاه على المظلوم، فكان هذا هو ابتلاءه.

وهذا القول معناه أن إرادة الله قد أصبحت مرهونة بأفعال العباد، وهذا طعن في العقيدة، وتعطيل للقدر، والعياذ بالله.

---

[1] تفسير الطبري (١٨/ ٤٣٩).

📖 **وذلك من جوانب:**

الجانب الأول: أن الله عز وجل نسب إلى نفسه الابتلاء بقوله عز وجل: {وَنَبْلُوكُمْ}، ولهذا فإن توقف الابتلاء على أفعال العباد، فيما بينهم بعضهم بعضا، فإن فيه إلغاء لنسبة الابتلاء إلى الله، وهذا فيه معنى إلغاء اللفظ، وهذا باطل.

ولا يقال إن قوله تعالى: {وَنَبْلُوكُمْ}، تفيد الإذن بذلك، ولو شاء لمنعه، لأن هذا المعنى يتعارض مع الكتابة بالعلم الكاشف، لأن القول بأنه سبحانه لو شاء لمنعه معناه تدخل القدرة والتسخير والتسيير، وهم ينفون ذلك، وبالتالي لا يعتد بهذا الرد، ويبقى من الضروري حمل اللفظ على ظاهره، أي النسبة إلى الله تعالى.

ومن أوضح الأدلة على أن مراد الله تعالى بالنسبة للعباد ليس متوقفا على معنى الإذن فقط، بل يتعداه إلى التسيير والتسخير، والذي ينفي توقف الكتابة والقدر على العلم الكاشف وحده، بل أيضا توقفه على القدرة الإلهية، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾ [الأحزاب: ٣٧ - ٣٨].

ولو تأملنا قوله تعالى: {وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ}، لوجدنا أن الرسول ﷺ أراد شيئا، ولكن الله سبحانه أراد شيئا غيره، ومن هنا، وعلى أي وجه يحمل المعنى المراد من الآية، فإن جميع المعاني تصل إلى أن أمور الخلق يجريها الله تعالى بمشيئته، وليست

متروكة لإرادة العباد واختيارهم، ومن هنا يبطل كون الابتلاء يُقصدُ به ما قاله أصحاب القول بالعلم الكاشف وحده، (أي أن الله علم بوقوع الابتلاء فأمضاه).

يقول الإمام الطبري: (قوله تعالى: {وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولا} **يقول**: وكان ما قضى اللّه من قضاء مفعولا أي: كائنا كان لا محالة، وإنما يعني بذلك أن قضاء اللّه في زينب أن يتزوجها رسول اللّه ﷺ كان ماضيا مفعولا كائنا)[1].

فقوله تعالى: {زَوَّجْنَاكَهَا}، لا تحتمل المعنى العام الذي يقول أصحاب التخيير المطلق، والمتمثل في أن العلم الكاشف هو نفسه القضاء والقدر، فها هنا أمر زائد عن هذا المعنى العام، حيث نسب الخالق سبحانه وتعالى ولاية الزواج إلى نفسه تبارك وتعالى، والذي اقتضى بالضرورة أن يطلق زيد رضي الله عنه السيدة زينب رضي الله عنها، فهل مراد الله تعالى الأزلي مرهون بمراد العباد، هل تعلق زواج الرسول ﷺ بالسيدة زينب بأمر يفعله البشر باختيارهم التام، والذي يعني أنه يمكن أن يحدث أو لا يحدث، وهل كان ترتب الحكم الشرعي بإبطال التبني أمرا حادثا بسبب عملية الطلاق والتزويج؟ نعوذ باللّه تعالى من كل قول يفهم منه ذلك.

وفي الحديث أيضا: **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ** رضي الله عنه **قَالَ**: **قَالَ رَسُولُ اللَّهِ** ﷺ: "لَيَلْقَيَنَّ أحَدُكُمْ رَبَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَقُولُ لَهُ: أَلَمْ أُسخِّرْ لكَ الخَيْلَ وَالإِبلَ؟ أَلَمْ أَذَرْكَ تَرْأَسُ وتَرْبَعُ؟ أَلَمْ أُزَوِّجك فُلَانَةَ - خَطبَها الخُطَّاب فَمَنَعْتَهُمْ وزَوَّجْتُكَ؟")[2]، والحديث صحيح صريح لا يحتمل أي

[1] تفسير الطبري (٢٠/ ٢٧٥).

[2] صحيح ابن حبان (١٦/ ٣٦٧)، وقال الشيخ الألباني: صحيح.

تأويل، بل هو نفس المعنى الذي ذهبنا إليه، ألا وهو أن القضاء والقدر إنما يجري بالعلم والقدرة معا، وليس العلم الكاشف وحده، حتى فيما سوف يحاسب عليه الناس، كما في مسألة الزواج، ولله الحمد والمنة، وهكذا ينقطع كل تأويل يؤدي إلى مثل هذا القول الذي قال به المتأخرون، والله أعلم.

ومما يؤكد صواب ما ذهبنا إليه، وأن القضاء والقدر لا يقتصر على العلم الكاشف فقط بل يرتبط أيضا بالقدرة الإلهية وذلك بالتسيير والتسخير، ما ورد في الحديث الصحيح : عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: جَاءَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ يَشْكُو، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «اتَّقِ اللَّهَ، وَأَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ»، قَالَ أَنَسٌ: لَوْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَاتِمًا شَيْئًا لَكَتَمَ هَذِهِ، قَالَ: فَكَانَتْ زَيْنَبُ تَفْخَرُ عَلَى أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ تَقُولُ: زَوَّجَكُنَّ أَهَالِيكُنَّ، وَزَوَّجَنِي اللَّهُ تَعَالَى مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ، وَعَنْ ثَابِتٍ: {وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ}، «نَزَلَتْ فِي شَأْنِ زَيْنَبَ وَزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ»[1].

ولو نظرنا إلى سيدنا **زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ** رضي الله عنه لقلنا إن طلاقه السيدة زينب رضي الله عنها، لو كان متوقفا على اختياره التام لكان ممكنا أن يتم الطلاق، أو لا يتم، لأن هذا هو حال البشر، وهكذا لو كانت الأقدار مرهونة بالعلم الكاشف وحسب لكان الزواج يمكن أن لا يتم، لأنه لا يمكن أن يتم زواج الرسول ﷺ بها إلا إذا تم طلاقها، فهل كان قدر الله تعالى مرهونا بأفعال العباد؟

[1] صحيح البخاري (٩/ ١٢٤).

وكذلك هل كان قضاءِ اللّه المتعلق بخير خلقه ﷺ، الذي أرسله إلى الناس كافة ﷺ، مرهونا بتصرفات البشر؟

وهل كان الحكم المتعلق بمسألة التبني، والمقدر منعها، وإبطالها أزلا مرهونا باختيارات البشر، وإرادتهم والتي تقبل الحدوث أو عدمه؟.

هل يمكن لعاقل أن يقول بذلك؟ أم أن كل ذلك يجري بالتيسير والتسخير الذي يقود البشر حتما ليقع منهم ما يوافق مراد اللّه، دون تخلف أبدا.

إن هذه المسألة تحتاج إلى أن يتبنى أهل العلم بيانا شافيا، يمنع الناس من التردي في ضلالات الجهل والعمى.

ولن يتأتى هذا إلا ببيان المعنى المراد على وجه لا يقبل تأويلات أخرى، وهذا ما لم نجده فيما يجري على ألسنة أهل العلم، فيما علمناه أو اطلعنا عليه.

الجانب الثاني: ويؤكد ـ أيضا ـ بطلان قول من قال: إن القدر هو ما كشف عنه العلم وحده، لأن هذا القول ينفي الإرادة الحقيقية للرب فيما يتعلق بالعباد، لأنه يجعل تصرفات العبادِ وأفعالهم متوقفا على اختيارهم التام، وهذا ينفي تقدير الخالق لكل شيء بإرادته ومشيئته سبحانه، وقد قال وقوله الحق تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عِمْرَان من الآيه : ١٥٤]، وقال عز من قائل: ﴿بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (المؤمنون: من الآية ﴿٨٨﴾، سورة يس: من الآية ﴿٨٣﴾)، مما يؤكد بطلان هذا القول، وأنه لا يليق بذاته سبحانه.

والمعنى المستفاد من قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ [الإِسْرَاء : ٧٤]، يؤكد بطلان هذا القول تماما.

فها هو خير الخلق جميعا ﷺ كاد أن يقع منه ما يغاير مراد اللّه تعالى، وما ذلك إلا لأنه بشر، ولولا عصمة الوحي لبدر منه بعض ما يبدر من البشر، من أخطاء، ولكن اللّه عصمه، وهكذا تنفذ إرادة اللّه تعالى بالتيسير لمراده، مما يؤكد أن مراده سبحانه لن يتحقق لو ترك لخير خلقه ﷺ التخيير التام، بل كان سيوجد غير مراد الرب سبحانه، لو كانت الأمور تجري والمقادير تتعلق بالعلم الكاشف وحده، ولكن لم تجرِ الأمور هكذا، مما يثبت بطلان هذا القول بالأدلة القطعية الدلالة، والتي تؤكد أن المقادير التي تقتضي التسيير والتسخير هي الأصل، أي المتعلقة بالقدرة الإلهية، وليس العلم الكاشف وحده، ويكون هذا هو ما كتبه القلم في اللوح المحفوظ، واللّه أعلى وأعلم.

يقول الإمام الطبري: (**يقول تعالى ذكره**: ولولا أن ثبَّتناك يا محمد بعصمتنا إياك عما دعاك إليه هؤلاء المشركون من الفتنة {لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلا} **يقول**: لقد كدت تميل إليهم وتطمئنّ شيئا قليلا، وذلك ما كان ﷺ همّ به من أن يفعل بعض الذي كانوا سألوه فعله)[1].

الجانب الثالث: أنه لو تعلقت المقادير بالعلم الكاشف وحده لتعطلت نصوص الشرع، وعلى سبيل المثال لا الحصر، قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن

[1] تفسير الطبري (١٧/ ٥٠٨).

تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ﴿٦٥﴾ [الأَنْعَام: ٦٣ - ٦٥].

يورد الإمام ابن أبي حاتم في تفسيره: (عَنْ أَبَيٍّ بْنِ كَعْبٍ: قلْ هُوَ القَادِرُ عَلى أنْ يَبْعثَ عليكم عَذَابًا مِنْ فوْقِكُمْ إلى قوْلِهِ: وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأسَ بَعْضٍ قال: فهُنَّ أرْبَعُ خِلالٍ، جَاءَ مِنْهُمُ اثْنَتانِ بَعْدَ وَفاةِ رَسُولِ اللّهِ ﷺ بِخَمْسٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً: ألبِسُوا شِيَعًا، وَأذِيقَ بَعْضُهُمْ بَأسَ بَعْضٍ، وَبَقِيَتِ اثْنَتانِ هُمَا لا بُدَّ وَاقِعَتانِ، الرَّجْمُ، وَالخَسْفُ)[1].

ومهما كانت الأقوال الأخرى التي قيلت في معنى الآيات إلا أنها جميعا تؤكد على أن كل ما يجري في الحياة إنما هو بتقدير الخالق سبحانه، وكذلك ما يجري بين العباد بعضهم بعضا إنما هو بقدر اللّه، باختيارهم التام، بحال من الأحوال، ولا يمنع هذا من خلوص الإرادة والاختيار في بعض المواطن، لتقوم عليهم الحجة، واللّه أعلى وأعلم.

يقول الإمام الماوردي: (..{أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا} يرفع من بينكم الألفة، {وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍ} تكفير أهل الأهواء بعضهم بعضاً، وقول الجمهور: {وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍ} يعني بالحروب والقتل حتى يفني بعضهم بعضاً، لأنه لم يجعل الظفر لبعضهم فيبقى)[2].

ولا يمكن حمل معاني الآيات على وجه من التأويل يجعل نسبة الفعل إلى اللّه تبارك وتعالى هي من قبيل الإذن بوقوع ما

[1] تفسير ابن أبي حاتم (٤/ ١٣٠٩)

[2] تفسير الماوردي (٢/ ١٢٧).

يجري بين العباد باختيارهم التام، لأن مثل هذا التأويل يعتبر تعطيلا للنصوص ـ والعياذ بالله.

ومن الأدلة أيضا :

قوله تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [النَّمْل : ٦٢].

فالله سبحانه وتعالى يجعل للضعيف مخرجا وللمظلوم نصيرا، وذلك بالتذلل بين يديه ـ جل في علاه ـ والتوجه إليه بالدعاء، ولو كان الأمر متروكا لأفعالهم واختيارهم دون تدخل لانتفى معنى الآية، وكل هذا في غاية البطلان.

يقول الإمام الماوردي: (وإنما خص إجابة المضطر لأمرين: أحدهما: لأن رغبته أقوى وسؤاله أخضع، الثاني: لأن إجابته أعم وأعظم لأنها تتضمن كشف بلوى وإسداء نعمى، {وَيَكْشِفُ السُّوءَ} يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون عن المضطر بإجابته، الثاني: عمن تولاه ألا ينزل به، وفي {السُّوءَ} وجهان: أحدهما: الضر، الثاني: الجور)[1].

وكل هذه المعاني لا يمكن نسبتها إلى سواه تبارك وتعالى، فبطل كل تأويل يخالف المعاني المذكورة، والله أعلى وأعلم.

الجانب الرابع: في ظل القول بأن المقادير تتعلق بالعلم الكاشف وحسب، تتحول الحياة إلى غابة يأكل القوي فيها الضعيف، وتنعدم قدرة الضعيف على فعل أي شيء يريده، إلا بإذن القوي، وبهذا ينعدم مقام العبودية تماما، ويتعلق الضعيف بالرجاء للقوي، والاستكانة له، وتصبح حياة البشر عبارة عن

---

[1] تفسير الماوردي (٤/ ٢٢٢).

تهارج وقتال، وهكذا تكون الحياة صورة عبثية لا قيمة لها، وهذا ما تنفيه نصوص الشرع نفيا قاطعا: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المُؤْمِنُون: ١١٥].

وكل هذا لا يماري فيه أحد، ولكن بكل أسف لا يستحضر من يقول بهذا القول هذه الحقائق عند قوله بهذا القول، ومن هنا كانت ضرورة بيان ثمرة هذا القول، حتى يرتدع من لا يدرك معناه، أو لا ينتبه له.

ومما يسترشد به لما نقول:

قوله سبحانه: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزُّخْرُف: ٣٢ - ٣٣].

فالله سبحانه وتعالى هو الذي قدر التفاوت بين البشر في القوة والرزق، وما يستتبع ذلك من توزيع الأدوار بين الناس كل بما يناسبه، لتستقيم حياة البشر، ولولا حكمة الله البالغة في هذا التفاوت، لاستعبد القوي الضعيف، ولكن الله عز وجل أبدل البشر بأن يستعين بعضهم ببعض، دون حاجة إلى قهر الضعيف بالعبودية، أو تقاتل الأقوياء للاستحواذ على أكبر قدر من الرفاهية.

وفي تفسير الإمام الماوردي: «قوله تعالى: {وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ} **فيه خمسة أوجه: أحدها**: بالفضائل، فمنهم فاضل ومنهم

مفضول، قاله مقاتل، **الثاني**: بالحرية والرق، فبعضهم مالك وبعضهم مملوك، **الثالث**: بالغنى والفقر، فبعضهم غني، وبعضهم فقير، **الرابع**: بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، **الخامس**: قاله السدي، التفضيل في الرزق إن الله تعالى قسم رحمته بالنبوة كما قسم الرزق بالمعيشة)[1].

ولو كان كل هذا بالعلم الكاشف لانعدم المعنى المستفاد من الآية التالية: {لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ}، حيث إن هذا لم يقع وأخبر سبحانه عن الحكمة في عدم وقوعه، ولو كان كل هذا باختيار البشر، لما كان لهذه النصوص أي دلالة مقبوله وكل ذلك باطل، فكل ما يؤدي إليه يكون باطلا.

يقول الإمام الطبري: (ثم اختلف أهل التأويل في المعنى الذي لم يؤمن اجتماعهم عليه، لو فعل ما قال جلّ ثناؤه، وما به لم يفعله من أجله، فقال بعضهم: ذلك اجتماعهم على الكفر، وقال آخرون: اجتماعهم على طلب الدنيا وترك طلب الآخرة، وقال: معنى الكلام: ولولا أن يكون الناس أمة واحدة على طلب الدنيا ورفض الآخرة)[2].

وقوله: (لو فعل ما قال جلّ ثناؤه، وما به لم يفعله من أجله)، يدل على أن العزوف عن متاع الدنيا، والرضى بالقليل، وصولا إلى الانصراف إلى العبادة، لا يقدر عليه إلا أهل العزائم الكبرى من أهل الإيمان، وليس هذا هو حال عامة الناس، ولعلمه بخلقه

[1] تفسير الماوردي (٥/ ٢٢٣).

[2] تفسير الطبري (٢١/ ٥٩٧).

سبحانه ورحمته بهم، لم يفتنهم بذلك، فلو أعطى جل جلاله الدنيا لأهل الكفر، بما فيها من متاع وزخارف، وحرم منها أهل الإيمان، اكتفاء بما أعد لهم في جنات النعيم، مما لا عين رأت ولا خطر على قلب بشر، لو أنه سبحانه فعل ذلك لكانت فتنة كبيرة يقع فيها أكثر أهل الإيمان، إلا من رحم الله، ولانصرفوا إلى طلب الدنيا، وتركوا العبادة بالكلية، ولكن الله سلم، وعافاهم من هذه الفتنة، بأن أعطاهم أيضا من متاع الدنيا وزينتها، ولم يقصره على أهل الكفر، وكذلك لم يعطهم كل الدنيا بل أعطاهم بعضا منها، رحمة بالمؤمنين.

وكل هذا ينفي أن تكون حياة الناس متروكة لإرادتهم واختيارهم، أو كما يقولون إن هذه هي الأقدار التي كشف عنها العلم الأزلي، فقدرها الله عليهم، فكل هذا ينافي دلالة الآية، والله أعلى وأعلم.

الجانب الخامس: أن أفعال المخلوقين جائزة أو ممكنة، فقد تحدث أو لا تحدث، بسبب من الأسباب الكثيرة التي تمنع الحدوث، فهي ليست واجبة ولا لازمة، لأن الوجوب يتعلق بالقادر على إنفاذ ما يريد، وهذه من صفات الخالق سبحانه، وليست من صفات المخلوقين.

فهل ينسب الخالق لنفسه ما يفعله العباد بإرادتهم الكاملة واختيارهم التام، وكان يمكن أن يحدث أو لا يحدث، تنزه الله وتعالى عن ذلك علوا كبيرا.

يقول تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العَنكَبُوت: ٢ - ٣]، فقد نسب الحق سبحانه فتنة الناس إلى

نفسه، ومعنى أن يكون ذلك بالعلم الكاشف ينفي إرادة اللّه فيه، ويلغي معنى الآية {أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا}، لأن العلم الكاشف لا يتدخل في أفعال الناس، بل هو يكشف عنها فقط، ومعنى هذا أن الفتنة المقصودة تقع على أي أحد من المظلومين دون قصد من اللّه له بعينه، أو إرادة منه سبحانه لظلمه، وكأن اللّه قد غفل عن هذا المظلوم أو نسيه، تنزه عن ذلك وعلا علوا كبيرا.

وهذا يلغي معنى الآية والعياذ باللّه، بل لا أبتعد كثيرا عن الصواب - واللّه أعلى وأعلم - إذا قلت إن هذا القول لون من ألوان الشرك - والعياذ باللّه - حيث يجعل صنعة الخالق سبحانه ألعوبة في أيدي المخلوقين، يديرونها كيف شاءوا، وكأن الخالق تبارك وتعالى قد غفل عنها أو نسيها، أو أهملها، وتنزه اللّه عن ذلك وعلا علوا كبيرا: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢٢].

📖 **ومن أوضح الأمثلة على بطلان أن يكون القدر هو العلم الكاشف وحسب:** مسألة الإحياء والإماتة، وبخاصة إذا ما استحضرنا أن المقتول قد قتل ظلما، بفعل القاتل الظالم، الذي اعتدي على المظلوم، فقتله عمدا عدوانا، بغير جريرة"[1] اقترفها المقتول، وبغير حد استحقه بأدلة الشرع.

فهل قدّرَ اللّه قتله، بعلمه الكاشف الذي لا يتبدل ولا يتغير، فعلم قتله فأمضاه قدرا؟

---

[1] جريرة أي جناية، مختار الصحاح (ص: ٥٦).

📖 **والجواب عن هذا**: يقول المولى سبحانه: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الحِجر: ٢٣]، وكذا قوله عز وجل ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾﴾ [ق: ٤٣]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النَّحل: ٦١].

فهل يظن عاقل أن قوله تعالى: {فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ} مقصود به أنه سبحانه وتعالى علم بعلمه الكاشف أن الميت سيموت فأمضاه وقدره عليه، ثم نسبه إلى نفسه، إن هذا القول يأنف من مثله وجهاء الخلق، فكيف برب الخلق جميعا، ولا يُظنُّ بمن يقول بأن القدر مرتبط بالعلم الكاشف وحده أنهم يقصدون شيئا من ذلك، ولكن لم يفطنوا إلى هول ما يقولون، ولو تنبهوا لانتهوا عن هذه المقولة، والله أعلى وأعلم

ولعل هذا العرض السابق يكون كافيا لإبطال القول بأن القدر هو ما كشفه علم الله الأزلي فأمضاه ـ دون تدخل القدرة الإلهية ـ أو أي صيغة أخرى تؤدي إلى نفس المعنى المذكور، والله أعلى وأعلم.

أقسام العلم الكاشف

علم الله ـ جل في علاه ـ علم أزلي قديم، يليق بصفاته عز وجل وليس كمثله شيء، تبارك وتعالى، ومن هنا اتصف علمه سبحانه بأنه أحاط بكل شيء، ما كان وما لم يكن لو كان كيف يكون، **ومن هنا يمكن أن نقسم ما ينكشف بعلمه سبحانه إلى قسمين:**

القسم الأول: ما هو واقع بالفعل في دنيا الوجود.

القسم الثاني: ما لم يقع في دنيا الوجود، ولكن كان سيوجد لولا أن حال الله بينه وبين الوجود.

ونشير هنا إلى مسألة في غاية الدقة والأهمية، ألا وهي: مسألة الأعمال والحساب، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المُدَّثِّر: ٣٨]، **والمعنى:** (وكل نفس رهينة بعملها إما خلَّصها وإما أوبقها)[1]، (ويقال: كل نفس بما كسبت رهينة عند المحاسبة إلا أصحاب اليمين قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: هم أطفال المسلمين يعني: ليس عليهم حساب لأنهم لم يعملوا شيئاً)[2].

وسبق وبينا في حديث السفينة أن الفرق ثلاثة، كما قال **الإمام ابن حجر**: (وَبَيَانُ وُجُودِ الفِرَقِ الثلاثِ فِي المَثَلِ المَضْرُوبِ أَنَّ الذِينَ أَرَادُوا خَرْقَ السَّفِينَةِ بِمَنْزِلَةِ الوَاقِعِ فِي حُدُودِ اللَّهِ ثُمَّ مَنْ عَدَاهُمْ إِمَّا

[1] معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٥/ ٢٤٩).

[2] تفسير السمرقندي = بحر العلوم (٣/ ٥١٨).

مُنْكِرٌ وَهُوَ القَائِمُ وَإِمَّا سَاكِتٌ وَهُوَ المدهن)، وبيَّن أن (المُدْهِنَ وَالوَاقِعَ أيْ مُرْتَكِبَهَا فِي الحُكْمِ وَاحِدٌ)[١].

والمقصود بالحكم هنا هو التأثيم وما يستوجبه من عقوبة، وكما يقول **الإمام ابن العربي**: (وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ فِي حُكْمِهِ وَحِكْمَتِهِ الرَّاضِيَ بِمَنْزِلَةِ العَامِلِ؛ فَانْتَظَمَ الذَّنْبُ بِالعُقُوبَةِ، وَلَمْ يَتَعَدَّ مَوْضِعَهُ، وَهَذَا نَفِيسٌ لِمَنْ تَأَمَّلَهُ)[٢].

والمعنى الذي أقصده:

أن الأعمال التي يحاسب الناس عليها ليست قاصرة على ما يقع منهم من أعمال مادية ملموسة، والتي يطلع عليها البشر بحواسهم المختلفة، ولكن تتضمن أيضا ما لا يطلع عليه من أعمال لا تدرك بحواس البشر، ولا يطلع عليها إلا الله تعالى.

ولعل مما يؤكد هذا المعنى حديث الرسول ﷺ: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ، وَإِنَّمَا لِامْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»[٣].

📖 وسوف نتناول هذا المعنى بالأمثلة في موضعه من التقسيم التالي:

القسم الأول:

وهو ما كان واقعا بالفعل على وجه من الوجوه، التي أخبر عنها الخالق سبحانه، وأنه سبحانه لم يغير هذا الواقع بسبب يعود إلى

---

[١] فتح الباري لابن حجر (٥/ ٢٩٥).

[٢] أحكام القرآن لابن العربي (٢/ ٣٩١).

[٣] متفق عليه، صحيح البخاري (٨/ ١٤٠)، صحيح مسلم (٣/ ١٥١٥).

مصالح العباد، أو بسبب آخر، قد لا نعلمه، وهذه الأدلة قاطعة الدلالة على مسألة التسيير والتسخير، والتي تنفي تعلق القدر بالعلم الكاشف وحسب، بل لابد من تدخل القدرة الإلهية لإحكام كل ما يجري في الكون، وضبطه بحسب مشيئة الخالق سبحانه.

ولعل الأدلة السابقة جميعها تؤكد هذا المعنى، ونختمها بالدليل التالي، والذي يُظهر مسألة تدخل القدرة الإلهية من خلال التسخير، بجلاء ووضوح تام:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٤١﴾ [المَائـِدَة : ٤١].

يقول الإمام الطبري: (يقول له تعالى ذكره: لا يحزنك تسرُّعهم إلى جحود نبوّتك، فإني قد حَتمْتُ عليهم أنهم لا يتوبون من ضلالتهم، ولا يرجعون عن كفرهم، للسابق من غضبي عليهم. وغير نافعهم حزنك على ما ترى من تسرُّعهم إلى ما جعلته سببًا لهلاكهم واستحقاقِهم وعيدي، ومعنى "الفتنة" في هذا الموضع: الضلالة عن قصد السبيل، ومن يرد الله، يا محمد، مَرْجعه بضلالته عن سبيل الهدى، فلن تملك له من الله استنقاذًا مما أراد

الله به من الحيرة والضلالة، فلا تشعر نفسك الحزنَ على ما فاتك من اهتدائه للحق)[1].

فها هو إمام أهل التفسير يفسر الآية بقوله: (فإني قد حَتمْتُ عليهم أنهم لا يتوبون من ضلالتهم)، ومع هذا فإن الظلم منتف، لأن هؤلاء الذين قدِرَ عليهم أن يموتوا على الضلال إنما هم الذين اختاروا الغواية والضلال، عندما كان لهم الاختيار التام فيما يفعلون، فقد قامت عليهم الحجة فأبوا الهداية، فاستحقوا ما توعدهم الله به، فسخرهم ليسيروا إلى مصيرهم المحتوم، ويمكن أن يحمل تفسير **الإمام الطبري**: (فإني قد حَتمْتُ عليهم أنهم لا يتوبون من ضلالتهم)، أن توبتهم لا تقبل - إن تابوا - لأنها لم تكن التوبة التي يرضاها الله عز وجل، لعدم صدقهم، أو لعدم استيفاء الشروط، ولو علم الله فيهم خيرا لهداهم إلى التوبة الصحيحة، المقبوله.

وهكذا نتبين أن هذه أقدار لا تتوقف على فعل العباد، التي يكشف عنها العلم الأزلي الكاشف، ولو كانت متعلقة تعلقا تاما باختيار العباد، لمَا كانت ضلالتهم محتمة، بل ممكنة، والله أعلى وأعلم.

ويقول الإمام القرطبي: (وقوْلهُ تعَالى: {وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ} أيْ ضَلَالتهُ فِي الدُّنْيَا وَعُقُوبَتهُ فِي الْآخِرَةِ)[2].

وكأن الإرادة هنا - والله أعلم بمراده - هي إرادة تركهم على الضلال، وعدم توفيقهم للتوبة، والخروج من الغواية والعمى، بل قد يطمس على قلوبهم وأبصارهم ويزين لهم - سبحانه - غوايتهم

[1] تفسير الطبري (١٠/ ٣١٦).

[2] تفسير القرطبي (٦/ ١٨٢)

وضلالتهم، ليزدادوا إثما ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴿٨﴾﴾ [فَاطِر: ٨].

وكل هذا لا يكون بالعلم الكاشف وحسب، بل لابد من تعلق القضاء والقدر بالقدرة الإلهية، والذي يستوجب التسخير والتسيير، واللّه أعلى وأعلم.

القسم الثاني:

وهو ما لم يقع في دنيا الوجود، ولكن كان سيوجد، لولا أن حال اللّه بينه وبين الوجود.

وهذا القسم نشبهه بالأعمال غير المادية، ومنها النية وما تضمره القلوب، ونحسب ـ واللّه أعلى وأعلم ـ أنه لا يقتصر على ما استقر في أذهاننا من النوايا المعهودة، بل أيضا ما ليس من المعهود لدينا ـ واللّه أعلى وأعلم ـ **كما في الأمثلة التالية**:

المثال الأول:

قوله تعالى: ﴿إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنفَال: ٤٢ - ٤٣].

أخبر سبحانه بما كان سيكون، من عدم اللقاء، لو سارت الأمور بتخييرهم تخييرا تاما، ولكنه سبحانه قدر تلاقيهم، وخبره

عما كان سيكون خبر يقين، لا يمكن أن يتخلف أبدا، ولهذا فلابد من التسخير، ليتم اللقاء، كما أراد سبحانه، فقوله تعالى: {وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ} يؤكد أن العلم كشف عما كان سيكون، مع أنه لم يكن.

فالآية تدل على أن ما كان سيقع من العباد يغاير مراد الله تعالى، ولهذا سخرهم ـ سبحانه ـ لمراده، بخلاف ما كان سيقع منهم، وليتم قضاؤه ـ تبارك وتعالى ـ كما قضى وقدر، عز وجل.

يقول الإمام الطبري: (قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره: ولو كان اجتماعكم في الموضع الذي اجتمعتم فيه، أنتم أيها المؤمنون وعدوكم من المشركين، عن ميعاد منكم ومنهم، لاخْتلفْتمْ فِي المِيعَادِ} ، لكثرة عدد عدوكم، وقلة عددكم، ولكن الله جمعكم على غير ميعاد بينكم وبينهم "ليقضي الله أمرًا كان مفعولا"، وذلك القضاء من الله، كان نصره أولياءه من المؤمنين بالله ورسوله، وهلاك أعدائه وأعدائهم ببدر بالقتل والأسر، عن **ابن إسحاق**: {وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ} ، ولو كان ذلك عن ميعاد منكم ومنهم، ثم بلغكم كثرة عددهم وقلة عددكم، ما لقيتموهم {وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا}، أي: ليقضي الله ما أراد بقدرته، من إعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وأهله، عن غير ملأ منكم، ففعل ما أراد من ذلك بلطفه)[1].

قوله تعالى: {وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ} أخبر سبحانه أنه لو ترك الأمر للارادة والاختيار البشري لكانت النتيجة

[1] تفسير الطبري (١٣/ ٥٦٥)

مخالفة لمراده سبحانه، وقد أخبر عنه سبحانه، مع أنه لم يقع في دنيا الوجود، والذي ترتب عليه عامل التسيير والتسخير، ليتم قضاؤه، على النحو الذي قدره سبحانه.

يقول الإمام الطبري: (قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وإن الله، يا محمد، سميع لما يقول أصحابك، عليم بما يضمرونه، إذ يريك الله عدوك وعدوهم {فى منامك قليلا}، **يقول**: يريكهم في نومك قليلا فتخبرهم بذلك، حتى قويت قلوبهم، واجترءوا على حرب عدوهم، ولو أراك ربك عدوك وعدوهم كثيرًا، لفشل أصحابك، فجبنوا وخاموا، ولم يقدروا على حرب القوم، ولتنازعوا في ذلك، ولكن الله سلمهم من ذلك بما أراك في منامك من الرؤيا، إنه عليم بما تُجنُّه الصدور، لا يخفى عليه شيء مما تضمره القلوب)[1].

بيَّنَ الخالق ـ عز وجل ـ ما كان سيقع لا محالة من التخاذل والجبن، وأخبر عنه سبحانه، ولولا هذا الخبر ما علم البشر عنه شيئا.

وهكذا كانت الشجاعة التي أظهرها الصحابة رضي الله عنهم الذين خرجوا يوم بدر مع رسول الله ﷺ لم تكن هي حقيقة ما سيفعلونه، بل إن الله عز وجل هو الذي سخرهم لها، ويسرهم ليتم مراده، كما قضى وقدر سبحانه، ولولا خبره عز وجل ما علم البشر ما كان سيقع منهم لا محالة، مما يغاير الشجاعة والإقدام.

ومن هنا يمكن أن نقول: إن التيسير أو التسخير إنما يقع ـ والله أعلم ـ بما يوافق ما في قلوب العباد، فالمؤمن ييسره الله لما يوافق ما هو عليه من صلاح، وذلك ليحصل ما كان يعجز عنه بقدرته

[1] المرجع السابق (١٣/ ٥٦٩)

الذاتية، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًىۗ﴾ [مَرْيَم من الآيه : ٧٦]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ [اللَّيْل : ٥ - ٧]، وغير ذلك من الأدلة كثير.

وفي نفس المعنى نفهم قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًاۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٤٤﴾ [الأَنفَال : ٤٤] ، فقد أراد الله عز وجل أن تنتصر هذه الفئة المؤمنة، قليلة العدد والعدة والعتاد، على عدوهم كثير العدد والعدة والعتاد، ولو سار الأمر بتقدير البشر واختيارهم المطلق، لما انتصرت هذه الفئة القليلة المستضعفة، وعدم النصر خبر يقين لا يمكن أن يتخلف أبدا، وبناء عليه بين سبحانه الحكمة من حيلولته دون هزيمة المؤمنين، وما ذلك إلا لينفذ قضاؤه وقدره كما أراد سبحانه.

ففي تفسير الطبري: (إذ يُري الله نبيه في منامه المشركين قليلا وإذ يريهم الله المؤمنين إذ لقوهم في أعينهم قليلا وهم كثير عددهم، ويقلل المؤمنين في أعينهم، ليتركوا الاستعداد لهم، فتهون على المؤمنين شوكتهم، وعن عبد الله قال: لقد قلّلوا في أعيننا يوم بدر، حتى قلت لرجل إلى جنبي: تراهم سبعين؟ قال: أراهم مئة قال: فأسرنا رجلا منهم فقلنا: كم هم؟ قال: ألفًا، وقوله: {وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا}، يقول جل ثناؤه: قلّلتكم أيها المؤمنون، في أعين المشركين، وأريتكموهم في أعينكم قليلا حتى يقضي الله بينكم ما قضى من قتال بعضكم بعضًا،وإظهاركم، أيها المؤمنون، على أعدائكم من المشركين

والظفر بهم، لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، (وذلك أمرٌ كان الله فاعله وبالغًا فيه أمره)، وهذه هي موقعة بدر الكبرى التي فرق بها الله عز وجل بين الحق والباطل، فذلك يوم بدر، يوم فرق الله بين الحق والباطل)[1].

وهكذا يتضح بجلاء أن ما لم يكن من المؤمنين قد أخبر عنه سبحانه وبين كيف كان سيكون، وكيف حال بينهم وبين ما يغاير ما قضى به سبحانه، وتم ذلك بالتسيير والتسخير، لما يوافق مراده سبحانه.

المثال الثاني:

قوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [التَّوْبَة: ٤٧].

تخبر الآية عن هؤلاء الذي تخلفوا عن جيش المسلمين يوم مؤتة، وظاهر الأمر يدل على أن عدم خروجهم أضعف جيش المسلمين، ولكن الله عز وجل يؤكد غير ذلك، وخبره سبحانه حق يقين، فأخبر عز وجل عن أفعال هؤلاء المنافقين التي كانوا سيفعلونها في حال خروجهم، وهذا خبر من عالم الغيب الذي لا يعلمه إلا هو سبحانه، ومع هذا لا يمكن أن ينكره هؤلاء المنافقون، لأنه ـ مجازا ـ قد وقع بالفعل في غير دنيا الوجود ـ والله أعلم.

يقول الإمام الطبري: (يقول تعالى ذكره: لو خرج، أيها المؤمنون، فيكم هؤلاء المنافقون، {مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا}، يقول: لم يزيدوكم بخروجهم فيكم إلا فسادًا وضرًا، ولذلك ثبَّطتهم عن الخروج

---

[1] تفسير الطبري (١٣/ ٥٧٣)

معكم)، ثم يقول: (قال ابن زيد في قوله: {لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا}، قال: هؤلاء المنافقون في غزوة تبوك، يسلّي الله عنه نبيه ﷺ والمؤمنين فقال: وما يُحزنكم؟ {لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا}،! يقولون: قد جُمع لكم، وفعل وفعل، يخذّلونكم، {وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ}، الكفر)[1].

ويوضح **الإمام الجصاص** أن إذن الرسول ﷺ لهم بعدم الخروج لم يكن هو السبب الحقيقي لعدم خروجهم، بل هم في كل حال لم يكونوا ليخرجوا، فيقول: (قوْله تعالى: {لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ ما زادوكم إلا خبالا} الْآيَة، فِيهِ بَيَانُ وَجْهِ خُرُوجِهِمْ لوْ خَرَجُوا وَإِخْبَارٌ أَنَّ المَصْلحَة لِلْمُسْلِمِينَ كَانَتْ فِي تَخَلُّفِهِمْ وَهَذَا يَدُلُّ عَلى أَنَّ مُعَاتَبَة اللَّه لِنَبِيِّهِ ﷺ في قوله: {لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ} أَنَّ اللَّه عَلِمَ أَنَّهُ لوْ لمْ يَأْذَنْ لهُمْ لمْ يَخْرُجُوا أَيْضًا فيَظْهَرُ لِلْمُسْلِمِينَ كِذْبُهُمْ ونفاقهم وقد أخبر اللَّه تعالى أن خُرُوجَهُمْ لوْ خَرَجُوا عَلى هَذَا الْوَجْهِ كَانَ يَكُونُ مَعْصِيَة وَفَسَادًا عَلى المُؤْمِنِينَ وَقوْلهُ ما زادوكم إلا خبالا وَالْخَبَالُ الِاضْطِرَابُ فِي الرَّأْيِ فَأَخْبَرَ اللَّه تَعالى أَنَّهُمْ لوْ خَرَجُوا لسَعَوْا بَيْنَ المُؤْمِنِينَ فِي التَّضْرِيبِ وَإِفْسَادِ القُلُوبِ وَالتَّخْذِيلِ عَنْ العَدُوِّ فكَانَ ذَلِكَ يُوجِبُ اضْطِرَابَ آرَائِهِمْ)[2].

[1] تفسير الطبري (١٤/ ٢٧٨)، وما بعدها.

[2] أحكام القرآن للجصاص (٤/ ٣٢٠)، وفي تفسير الماوردي (٢/ ٣٦٨)، يقول الإمام الماوردي: (فإن قيل: فلم يكونوا في خبال فيزدادوا بهؤلاء الخارجين خبالاً، قيل هذا من الاستثناء المنقطع ، وتقديره: ما زادوكم قوة ، ولكن أوقعوا بينكم خبالاً).

المثال الثالث:

قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾ [الأَحْزَاب: ٢٠].

أخبر سبحانه - وخبره حق يقين - عن المنافقين في المدينة، وعن هذا الذي لم يحدث منهم، ماذا كان يكون لو حدث، ومما لا شك فيه، أن هذا الخبر الغيبي له نفس حقيقة الخبر المادي الملموس في دنيا الناس، يقول الإمام الطبري: (يقول تعالى ذكره للمؤمنين: ولو كانوا أيضا فيكم ما نفعوكم، وما قاتلوا المشركين إلا قليلا يقول: إلا تعذيرا، لأنهم لا يقاتلونهم حسبة ولا رجاء ثواب)[1].

ويشرح **الإمام الماتريدي** ما يفيد أن عدم خروج المنافقين كان في مصلحة المؤمنين وليس العكس كما يمكن أن يتراءى للعقول، فيقول: (أي: يحسب هَؤلاء المنافقين أن الأحزاب لم يذهبوا؛ من الفرق والجبن والفشل الذي فيهم يوم الخندق)، إلى أن يقول: (كانت همتهم التخلف والفرار من القتال وطلب أخبار المؤمنين: أنهم ما فعل بهم؟ وقوله: {وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا}، قالَ بَعْضُهُمْ: {مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا} ، أي: إلا فيما يدفعون عن أنفسهم لو قصدوا، فأما الدفع عن المؤمنين ودينهم فلا، وجائز أن يكون المراد بالقليل، أي: لا يقاتلون البتة حقيقة القتال، وهو ما ذكر

[1] تفسير الطبري (٢٠/ ٢٣٤)

عنهم؛ حيث قال: {لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا}، أي: فسادا في أمركم، والله أعلم)[1].

وبخصوص الشق الثالث من السؤال :

يتضح من كل ما سبق من الأمثلة أن أمور العباد تدور بين التخيير والتسيير، دون علم لأحد من البشر بموطن أي منهما، فيما يفعله، والله أعلى وأعلم.

[1] تفسير الماتريدي (٨/ ٣٦٦).

التسخير والحساب

قلنا إن عملية الاستهام قد تمت بتسخير من اللّه، أو بإلهام ووحي منه سبحانه، بمعنى تدخل القدرة الإلهية.

ومن ثم نقول: إنه لو كانت السهام والقرعة قد تذهب بطريقة عفوية غير موجهة، لما كان هناك أي معنى لعملية الاستهام، لأن النتيجة ستكون كيفما اتفق ـ كما يقال ـ وهذا كله باطل، ولن يكون الذين في العلو هم القائمون على حدود اللّه الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، وكذلك لن يكون من بالسفل هم الواقعون بالضرورة في محارم اللّه، ولكن ـ غالبا ـ تختلط القسمة، ولو اختلطت ما تحقق المراد من المثال، واللّه أعلى وأعلم.

ونقصد من ذلك: إن تسخير الخالق لمن على السفينة ليقوموا بالاستهام، دليل على أنه جل في علاه له مراد ومشيئة من إجراء القرعة، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصَّافَّات : ٩٦].

ومن هنا تأكدنا أن نتيجة الاستهام مرادة ومقصودة، ومقدرة سلفا من الخالق تبارك وتعالى، ولهذا فمن الحتمي واللازم أن تكون نتيجة الاستهام على نحو لا يتغير ولا يتبدل، ولا يكون ذلك إلا بتدخل القدرة الإلهية، وليس كما يظن الظان أن النتيجة تخضع للعوامل والأسباب المادية المجردة، التي يكشف عنها العلم الأزلي.

☜ **وقد يقول قائل**: إن مسألة الاستهام قد تمت بكامل إرادة الركاب واختيارهم التام، فلِمَ نُلزم أنها كانت بخلق الدوافع، أي التسخير والتسيير؟

☜**ونجيب عن هذا:** بأن ما يجري في دنيا البشر لا يصلح أن تطلق فيه إرادتهم واختيارهم، وإلا فسدت الأرض، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البَقَرَةِ من الآيه: ٢٥١].

ولما كانت أفعال البشر لا توصف باللزوم، بل هي جائزة وممكنة، بينما نتيجة الاستهام على السفينة، أي الناحية القدرية، ـ كمثال لدنيا البشر ـ حتمية ولازمة، واللزوم ليس وصفا لأفعال البشر، من هنا علمنا أن مثل هذه الأفعال الواجبة أو المحتمة تتعلق بإرادة الخالق وحده سبحانه، ولا تكون لمخلوق أبدا، وهكذا أدركنا أن عملية الاستهام ـ على أي وجه وقعت ـ هي مرادة لله تعالى ـ والله أعلى وأعلم.

☜**وكذلك قد يقال:** إن القرعة يمكن أن تتكرر في الأمر الواحد عدة مرات، وفقا لرغبة المقترعين، ومع هذا يمكن أن تختلف نتيجتها، من مرة إلى أخرى، فكيف تكون نتيجتها حتمية ولازمة؟

والجواب عن ذلك: إنه بالنظر إلى التكرار من جهة البشر، فإن الأمر يبدو وكأنه يتكرر، باختيار المقترعين المستهمين، ولكن من المنظور الشرعي فإن الحقيقة ليست كذلك، بل الحقيقة أن الله ـ وهو أعلم بمراده سبحانه ـ يُسخّر الأشياء، لينفذ قدره، على وفق ما يريد جل في علاه.

ومن هنا: فإن تكرار القرعة والاستهام إنما يستمر بالدوافع التي يسخر بها الخالق سبحانه المستهمين المقترعين، إلى أن توافق نتيجة القرعة والاستهام القدر المحتم، فيتوقفوا، وتنتهي الرغبة والدافع إلى التكرار، ويحل محلها الرضى والتسليم بالنتيجة،

فقد أخبر الخالق سبحانه أن الكون كله لا يجري فيه شيء إلا بقدر: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾ [الفرقان من الآيه : ٢]، ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾ [القمر : ٤٩].

ويستفاد من هذه الآية، وغيرها أن نتيجة عملية الاستهام هي شيء خلقه الله تعالى وقدره، ويترتب على ذلك أنه لابد من تسخير القرعة، لتكون نتيجتها موافقة لمراده سبحانه، وينفذ القدر الذي قدره، وقضى به، جل في علاه، والله أعلى وأعلم.

فالله عز وجل يُلهم مخلوقاته، أو يسخرها لمراده، ومع هذا فإن ما يحدث من عباده، إنما يقع بأفعالهم، وحركاتهم، دون أن يظهر عليهم شيء، يدل على الإلهام أو التسخير، وهذه القدرة لا يمكن أن تتأتى إلا لخالق الكون سبحانه ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٧٤﴾ [النمل : ٧٤]، ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ ۝١٩﴾ [غافر : ١٩]، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ۝١٦﴾ [ق : ١٦].

وليس معنى ذلك سلب إرادة البشر واختيارهم بالكلية، بل الصواب - والذي يفهم من أدلة الشرع - أن الله عز وجل يقيم الحجة على عباده، بأن ترك لهم الاختيار المطلق فيما يفعلون أحيانا، وبعض الاختيار أحيانا أخر، وكذلك يسلب الاختيار في مواطن لا يعلمها إلا هو سبحانه، ولكن أين ومتى، لا يعلم ذلك إلا الله، ومن هنا يتحقق الابتلاء والاختبار، وتقوم الحجة على المكلفين، كما وعد سبحانه: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٦٥﴾ [النساء : ١٦٥].

ولا تقوم الحجة لو انعدم اختيار المكلف بالكلية، أما أن تقوم الحجة مع انعدام الاختيار أحيانا، فغير ممتنع، ولا ظلم فيه،

وبخاصة أن الذي وضع لكل ذنب عقوبة محددة، تقل أو تكثر، هو الخالق سبحانه، وأن الذي يحاسب هو نفسه تبارك وتعالى، فما يدريك أيها المذنب، ولو أذنبت ذنبا واحداً ـ بكامل إرادتك واختيارك ـ كم قد تكون عقوبة هذا الذنب، وقد تكون العقوبة أكثر كثيرا مما تظن، ولا ظلم، لأن الحجة قد قامت عليك ببلاغ الرسول ﷺ، وما أنزل الله من الأمر والنهي ـ والله أعلى وأعلم.

يقول **الإمام الماتريدي** رحمه الله: «في الآية: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} دلالة الرد على المجبرة، لأنهم لا يجعلون للعبيد في أفعالهم صنعًا، يجعلون حقيقة الأفعال لله، وذكر {بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ}، فلو لم يكن لهم صنع، لم يكن لقوله: {بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ} معنى، وكذلك قوله: {وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}، فلو لم يكن لهم حقيقة الفعل، لكان التعذيب ظلمًا، دل أن لهم فعلا، والله أعلى وأعلم»[1].

ويفهم من كلام **الإمام الماتريدي** أن العباد ليسوا مجبرين على أفعالهم، ولكنهم أيضا ليسوا مخيرين بالكامل، بل إن أفعال العباد التي يحاسبون عليها تدور بين الجبر والاختيار، والله أعلى وأعلم.

والذي لا شك فيه، أنه لا يوجد من الخلق عامة من له إرادة مطلقة واختيار تام فيما يفعل، وكذلك فإن المكلفين ليسوا مسخرين بالكلية ولا مختارين بالكلية، كما سبق وبينا، والله أعلى وأعلم.

---

[1] تفسير الماتريدي (٥/ ٢٣٩).

ولابد مع كل هذه المعاني أن يستقر في القلوب قوله تعالى: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ٤٩﴾ [الكهف من الآيه : ٤٩]، فإن العبيد إنما يحاسبون على أعمالهم، ولن يستطيعوا إنكارا لهذه الأعمال، وقد يكون من هذه الأعمال ما يقع منهم بالفعل، لو ترك بينهم وبين فعل ما يريدون بكامل إرادتهم، وتمام اختيارهم، ولكن لم يفعلوه بالحيلولة دونه، وكل ذلك لا يعلمه إلا الله تعالى.

وكذلك فالعباد لا علم لهم ـ بحال من الأحوال ـ بما وقع من أعمالهم اختيارا، وما وقع منها تسخيرا، وما كان من الأعمال بين هذا وذاك، أو ما كان يمكن أن يفعلوه وحيل بينهم وبينه، وفي كل الأحوال {وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}، فلا يوجد ما يفيد أن الله سوف يحاسبهم على فعل كانوا مسخرين فيه بالكلية، ولكن الذي يفهم من الأدلة مجتمعة أن الحساب إنما يكون على ما كان باختيارهم وإرادتهم، ويتفاوت بقدر الاختيار في هذا العمل ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ٤٦﴾ [فصلت : ٤٦]، ولعل الحساب يشمل دنيا الوجود، وما لم يوجد، ولكن علم الله أنه كان سيوجد، لو أطلقت لهم الإرادة والاختيار، والله أعلى وأعلم.

ولتقريب الصورة: نضرب مثالا بالقاتل العمد الذي أخذ سلاحه وعزم عزما يقينيا على قتل إنسان ما، ثم ذهب إليه فوجده قد مات، فلم يكن المانع من قيام القاتل بالقتل من قبله، ولكن حيل بينه وبين القتل، وقد أخذ كل عوامل العزم والاستعداد، أفلا يكون مذنبا؟؟؟

وقد يُعترض على هذا بحديث ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً»[1].

ويجاب عن ذلك: بأن القاتل قد انتقل من الهم إلى الفعل، وإن كان الفعل لم يتم بسبب خارج عنه، فليس معنى ذلك أنه لم يقع في الإثم، أما قدْر الإثم، وهل يكافيء القتل فعلا أم لا، فكل ذلك لا يعلمه يقينا إلا الخالق سبحانه، والله أعلى وأعلم.

ولكن قد يستدل على عظم جرمه كما لو كان قد باشر القتل فعلا بحديث رسول الله ﷺ: «إِذَا تَوَاجَهَ المُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَكِلَاهُمَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ» قِيلَ: فَهَذَا القَاتِلُ، فَمَا بَالُ المَقْتُولِ؟ قَالَ: «إِنَّهُ أَرَادَ قَتْلَ صَاحِبِهِ»[2].

وهكذا استحق المقتول العقوبة أيضا مع أنه لم يقع منه القتل فعلا، ولكنه سعى إلى القتل عامدا، مختارا، والله أعلم.

ويشهد لذلك أيضا ما ورد عن رسول الله ﷺ عندما رَجَعَ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ فَدَنَا مِنَ المَدِينَةِ، فَقَالَ: «إِنَّ بِالمَدِينَةِ أَقْوَامًا، مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ،

[1] متفق عليه، البخاري (٨/ ١٠٣)، مسلم (١/ ١١٨)، واللفظ للإمام البخاري.

[2] متفق عليه: البخاري (٩/ ٥١)، مسلم (٤/ ٢٢١٣)، واللفظ للبخاري.

وَهُمْ بِالمَدِينَةِ؟ قالَ: «وَهُمْ بِالمَدِينَةِ، حَبَسَهُمُ العُذْرُ»[1]، وفي رواية لمسلم: «إِلا شَرِكُوكُمْ فِي الأَجْرِ»[2].

فهؤلاء الذين حبسهم العذر أو المرض، فلم يخرجوا للغزو مع رسول الله ﷺ ومع هذا استحقوا الأجر، ورواية: «إِلا شَرِكُوكُمْ فِي الأَجْرِ» تبين أن الأجر ليس مجرد الهم بالشيء ولم يفعله، بل الشراكة تفيد أنهم نالوا من الأجر كما لو شاركوا بالفعل.

ومما يؤكد هذا المعنى - تيسير العمل الصالح من الله لمن أراد من عباده، ومع هذا ينال هذا العبد الأجر والثواب - وذلك كما ورد في الحديث الشريف: أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا عَسَّلَهُ»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَمَا عَسَّلَهُ؟ قَالَ: «يُفْتَحُ لَهُ عَمَلًا صَالِحًا، ثُمَّ يَقْبِضُهُ عَلَيْهِ»[3]، ومن حسنت خواتيم عمله في الدنيا حسنت مكانته في الآخرة، بفضل الله تعالى ورحمته، ويتضح من الحديث الشريف أن هذا الأجر والثواب العظيم على عمل العبد الذي قبض عليه، لم يكن بالاختيار التام للعبد، بل كان بتوفيق الله تعالى وإرادته، فما كان لبشر قط أن يعلم على أي عمل تكون خاتمته، والله أعلى وأعلم.

ومن هنا : نتأكد من مسألة التسخير والحساب، ولا ظلم، كما أخبر سبحانه وتعالى بقوله: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٢٩﴾ [ق : ٢٩]، والله أعلى وأعلم.

---

[1] متفق عليه: البخاري (٦/ ٨)، مسلم (٣/ ١٥١٨)، واللفظ للبخاري.

[2] صحيح مسلم (٣/ ١٥١٨).

[3] المعجم الكبير للطبراني (٨/ ١١٠)، وقال الشيخ الألباني: صحيح.

ومن أجمل ما نقل عن السلف من قصص في هذا الشأن ما رواه العالم العابد المحدث الفقيه علي بن حرب الموصلي حيث يقول: (حدثهم ثنا علي بن حرب قال خرجنا من الموصل في سفينة نريد "سر من رأى"[1] فإذا سمكة قد وثبت من الماء إلى السفينة فقال أحداث كانوا معنا اعدلوا بنا إلى الشط نطلب حطبا نشويها قال فخرجنا ندور فجئنا إلى خربة فدخلناها فوجدنا رجلا مذبوحا ورجلا مكتوفا قائما فسألنا الرجل عن القصة فقال هذا المكاري عدل بي من القافلة في الليل فشد في وثاقي كما ترون وعزم على قتلي فناشدته الله وقلت يا هذا خذ جميع ما معي ولا تقتلني فأبى إلا قتلي فجاء ينزع سكينا معه فعسرت عليه فاجتذبها فمرت على أوداجه فذبحته قال فأطلقنا يديه من وثاقه وأعطيناه البغل ورجعنا إلى السفينة فوثبت السمكة إلى الماء فذهبت)[2].

والشاهد من هذه القصة: كيف سخر الله هؤلاء الركاب، وساقهم ـ عن طريق السمكة ـ حتى يتوقفوا في هذا المكان، ويعثروا على هذا الرجل المشدود الوثاق، ليحرروه من قيوده، ولولاهم لمات في هذه الخربة، جوعا وعطشا، أو فريسة للحيوانات، ولكنها أقدار الله تعالى التي لا تتخلف أبدا، فسبحان الله رب العالمين.

---

[1] اسم مدينة.

[2] تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٦/ ٣٨٥).

الابتلاء والحساب

ولعل في استحضار معنى البلاء والابتلاء ما يساعد في تقريب هذه المسألة، وكيف يقع التسخير والحساب، ولا ظلم، ومن ذلك، قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البَقَرَة : ١٥٥].

ولو كانت أمور الخلق تجري بما يراه البشر كمصلحة ويعقلونه، لكان ما تدل عليه الآية في غاية الغرابة، إذ كيف تسيغ العقول أن يكون المحبوب هو موضع ابتلاء المحب، وبما ينتقص من كل ما هو من قبيل الراحة في الحياة، والرضى والسعادة، بل قد تعود منفعة هذا النقص إلى العدو نفسه.

أليس كل هذا مما يمكن أن يوصف بالظلم؟ ومع هذا فقد أخبر الخالق سبحانه أنه ليس بظلام للعبيد، أما الكيفية فهذا ما طاقة للبشر - ولو اجتمعوا - على إدراكه، وهكذا يمكن أن يستوعب أمر التسخير والحساب، والله أعلى وأعلم.

يقول الإمام الطبري: (وهذا إخبار من الله تعالى ذكره أتباع رسوله ﷺ، أنه مبتليهم وممتحنهم بشدائد من الأمور، ليعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه، كما ابتلاهم فامتحنهم بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، وكما امتحن أصفياءه قبلهم. ووعدهم ذلك في آية أخرى فقال لهم: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البَقَرَة : ٢١٤]، وبنحو الذي قلنا في ذلك كان ابن عباس رضي الله عنهما

يقول: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ}، ونحو هذا، قال: أخبر الله المؤمنين أن الدنيا دارُ بلاء، وأنه مبتليهم فيها، وأمرَهم بالصبر وبَشّرهم فقال: {وبشر الصابرين}، ثم أخبرهم أنه فعل هكذا بأنبيائه وصَفوته، لتطيب أنفسهم فقال: {مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا}، ومعنى قوله: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ}، ولنختبرنكم، وقوله: {بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ}، يعني من الخوف من العدو، وبالجوع - وهو القحط - يقول: لنختبرنكم بشيء من خوف ينالكم من عدوكم، وبِسَنَةٍ تُصيبكم ينالكم فيها مجاعة وشدة، وتتعذر المطالب عليكم، فتنقص لذلك أموالكم، وحروبٌ تكون بينكم وبين أعدائكم من الكفار، فينقص لها عددكم، وموتُ ذراريكم وأولادكم، وجُدوب تحدُث، فتنقص لها ثماركم، كل ذلك امتحان مني لكم، واختبار مني لكم، فيتبين صادقوكم في إيمانهم من كاذبيكم فيه، ويُعرف أهل البصائر في دينهم منكم، من أهل النفاق فيه والشك والارتياب.

كل ذلك خطابٌ منه لأتباع رسول الله ﷺ وأصحابه، وعن عطاء في قوله: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ}، قال، هم أصحاب محمد ﷺ، ففعل تعالى ذكره كل ذلك بهم، وامتحنهم بضروب المحَن)[1].

وهكذا: فمن الناس من يعمل بالطاعات ولكن إذا ابتلي بمرض أو فقد مال أو ولد أو غير ذلك من مصائب الدنيا انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ

[1] تفسير الطبري (٣/ ٢١٩).

أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (الحج: ١١)، **وما أعجب قوله تعالى:** ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ (الأحزاب: ١١).

ولو نظرنا إلى الأمر بعقول البشر فقد نرى في هذا الابتلاء من الظلم الشيء الكثير، ولكن الله عز وجل أخبر أنه ليس بظلام للعبيد، ولهذا فلابد من الإيمان والتسليم، حتى مع عجز العقول عن إدراك الكيفية.

وفي الحديث الشريف يتجسد تماما المعنى الذي نقصده، حيث إن الألم الشديد، والذي قد يكون بسبب مرض، أو عرض آخر، لا طاقة للمبتلى على دفعه، هذا الألم قد يؤدي إلى اليأس والقنوط، أو الردة والعياذ بالله، مع أن هذا المبتلى كان يمكن أن تستمر حياته إلى نهايتها، وهو على الطاعة والإيمان، لو لم يتعرض لهذا البلاء الشديد، فهل ظلمه الله بتعرضه لهذا البلاء، الذي لا طاقة له على احتماله؟ معاذ الله.

فعَنْ سَهْلٍ رضي الله عنه، **قَالَ:** التقى النَّبِيُّ ﷺ والمشْرِكُونَ فِي بَعْضِ مَغَازِيهِ، فاقتتلُوا، فمالَ كُلُّ قومٍ إِلى عَسْكَرِهِمْ، وفِي المسْلِمِينَ رَجُلٌ لا يدَعُ مِنَ المشْرِكِينَ شاذَّةً ولا فاذَّةً إِلا اتَّبَعَهَا فضَرَبَهَا بِسَيْفِهِ، فقِيلَ: يا رَسُولَ اللَّهِ، ما أَجْزَأَ أَحَدٌ ما أَجْزَأَ فلانٌ، فقَالَ: «إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»، فقَالوا: أيُّنَا مِنْ أَهْلِ الجنَّةِ، إِنْ كَانَ هَذا مِنْ أَهْلِ النَّارِ؟ فقَالَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ: لأَتَّبِعَنَّهُ، فإِذَا أَسْرَعَ وأَبْطَأَ كُنْتُ معَهُ، حتَّى جُرِحَ، فاسْتَعْجَلَ الموْتَ، فوَضَعَ نِصَابَ سَيْفِهِ بالأَرْضِ، وذُبَابَهُ بيْنَ ثَدْيَيْهِ، ثمَّ تَحَامَلَ عليْهِ فقتَلَ نفْسَهُ، فجَاءَ الرَّجُلُ إِلى النَّبِيِّ ﷺ فقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، فقَالَ: «ومَا ذَاكَ». فأَخْبَرَهُ، فقَالَ: «إِنَّ الرَّجُلَ ليَعْمَلُ بعَمَلِ أَهْلِ الجنَّةِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وإِنَّهُ لمِنْ أَهْلِ

النَّارِ، وَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ»[1].

ويمكن أن نستوعب كيف يكون هذا الرجل من أهل النار، لو استحضرنا قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة: من الآية ٢٨٦)، وليس هذا قاصرا على التكاليف الشرعية فقط، بل يتعلق بالابتلاء أيضا، الذي لا حيلة للإنسان فيه، ولعل ما يؤكد هذا هو حديث الرسول ﷺ هذا، والله أعلى وأعلم.

يقول الإمام ابن بطة: (كل ذلك سبق بهِ علم الله ومضى بهِ قدره وجرى بهِ قلمه فِي الأزل قبل وجود آدم وذريته وقبل استقرار الأجنة فِي بطون أمهاتها بخمسين ألف سنة فلا بد أن يكون مآل كل امرئ إلى ما قدر لهُ من السعادة أو الشقاء والجنة أو النار فالسعيد إلى الجنة مهما عمل من عمل أهل النار لأنه تعالى سيوفقه بعمل يدخل بهِ الجنة قبل موته ولو بلحظه فيكون بذلك من أهل الجنة والشقي إلى النار مهما عمل من عمل أهل الجنة فكم من رجل يعمل فيما يبدو للناس بعمل أهل السعادة حتى لا يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع فيعمل فِي آخر حياته بعمل يوجب لهُ النار فيكون من أصحاب النار وقد يكون العبد مكتوبا عند الله سعيدا من أهل الجنة وهو يعمل فيما يبدو للناس بعمل أهل النار حتى إذا كان فِي آخر حياته وفقه الله بعمل يدخل بهِ الجنة فيكون بذلك من أهل الجنة فبذلك نعلم أن الله خلق الإنسان لواحدة من المنزلتين إما للجنة وإما للنار ومع هذا كله فقد بين الرسول الكريم ﷺ أن الإيمان بالقدر لا يمنع العمل بطاعة الله ورسوله فلا يجوز لأحد أن يتقاعس عن

[1] صحيح البخاري (٥/ ١٣٣).

العَمَل بتكاليف الشَّرِيعَة التِي جَاءَت بهَا الرُّسُل الكِرَام علَيْهِم الصَّلَاة والسَّلَام)[١].

أليس الابتلاء يعتبر وجها من أوجه التسخير، حيث يحول بين الإنسان وما كان يفعله، سواء بالطاعة أم المعصية؟

أليس الابتلاء بالخوف ـ مثلا ـ قد يسبب نمطا من الحياة لم يكن الإنسان ليقبل عليه أو يرتضيه لنفسه قط؟

كذلك أليس الابتلاء من أهم الأسباب التي تدفع الإنسان إلى أفعال لم يكن ليفعلها لولا الابتلاء، كذهاب المريض إلى الطبيب، وتناول العلاج، أو ملازمة الفراش، والتعرض لما ينشأ عن كل تلك الأحوال التي لم يردها أو يختارها، اختيارا حقيقيا؟

إن مثل هذا الابتلاء يقع على الإنسان دون تعلق بعامل بشري ـ غالبا ـ بل هو القضاء والقدر، فهو ابتلاء خاص يكون بين الإنسان وربه، ولا يتوقف على إرادة البشر.

ولهذا فمن السهل التسليم أن هذا من قبيل القضاء والقدر، الذي لا حيلة فيه، ولا اطلاع عليه، ولا يملك معه الإنسان سوى الدعاء، والإلحاح في الدعاء، والتذلل بين يدي الله تعالى، جهد الاستطاعة، وكل ذلك مع الأخذ بالأسباب التي شرعها الله تعالى.

وهذا الابتلاء لا يتوقف على صلاح الإنسان أو عدم صلاحه، بل هي حكمة الله تعالى التي يجري بها المقادير، عز شأنه وعظم سلطانه.

---
[١] الإبانة الكبرى لابن بطة (٣/ ١٧٠).

ومع هذا لا يملك المبتلى أن يسأل لماذا وقع به هذا البلاء، ولا يستطيع أن يطعن في عدله سبحانه، أو يتهم ما وقع به بأنه ظلم، تنزه الله وعلا علوا كبيرا عن كل ظلم.

وهكذا ندرك أن ميزان العدل لا يمكن أن يصل إليه الناس بعقولهم، ولهذا فلا مناص لهم من التسليم بأن الله هو العدل الذي لا يظلم أحدا، مع عجزهم عن إدراك الكيفية، ومن هنا يتحقق مقام العبودية، والغاية التي من أجلها خلق الإنسان.

ولو فقه الناس في دنياهم هذا المعنى وتيقنوه على وجهه الصحيح، لما جزعوا لشيء قط، **يقول الإمام ابن القيم**: ((ولما كانت المصيبة تتضمن فوات محبوب أو خوف فواته أو حصول مكروه أو خوف حصوله نبه بالأسى على الفائت على مفارقة المحبوب بعد حصوله وعلى فوته حيث لم يحصل ونبه بعدم الفرح به إذا وجد على توطين النفس لمفارقته قبل وقوعها وعلى الصبر على مرارتها بعد الوقوع وهذه هي أنواع المصائب فإذا تيقن العبد أنها مكتوبة مقدرة وأن ما أصابه منها لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه هانت عليه وخف حملها وأنزلها منزلة الحر والبرد))[1].

وغير ذلك من أوجه الابتلاء وما يترتب عليها كثير وكثير، فهل استطاع معترض أن يعترض، بسبب أن كل ما ينشأ، ويعرض للمبتلى من أفعال، سوف يحاسب عليها، ومنها ما يمكن أن يستحق التأثيم والعقوبة الأخروية، وكان يمكن أن لا يقع فيه لولا الابتلاء.

[1] شفاء العليل (ص: ١٩٤).

إن هؤلاء الذين استنكروا التسيير والتسخير في الأفعال التي يحاسب عليها الإنسان، بدعوى أن العدل يقتضي التخيير التام، حتى يمتنع الظلم، نظروا إلى الأمر من جانب واحد فقط، ألا وهو جانب الإنسان الفرد على حده، وكأنه يعيش بمفرده في عالم لا تزاحم أو تدافع فيه، وكل هذا لا وجود له، ولهذا أخطأوا.

فعن حبر الأمة سيدنا **عبد الله بن عباس** رضي الله عنهما قوله: (إِنَّ اللَّهَ يَبْتَلِي وَيُعَذِّبُ عَلَى مَا ابْتَلَى، وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ، لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ، وَيَمُنُّ وَيُثِيبُ عَلَى مَنِّهِ إِيَّاهُمْ، وَهُوَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ، وَهُوَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)[1].

ومن هذه العبارة نفهم ما يلي: أن الله يبتلي سواء بالمرض أو وقوع الظلم على الإنسان، أو ضيق الرزق أو غير ذلك، ثم إنه سبحانه وتعالى يحاسب ويعذب هذا المبتلى، إن لم يرض بما قدره الله عليه.

وكذلك قوله: (وَيَمُنُّ وَيُثِيبُ عَلَى مَنِّهِ إِيَّاهُمْ)، بمعنى أن شكرهم النعمة التي من الله بها عليهم وليست بمطلق كسبهم واختيارهم، هذا الشكر يثابون عليه، وهذا من واسع فضله وكرمه سبحانه.

وإن فهم هذه المسألة فهما صحيحا، يعين تماما على استيعاب الأمر على وجه ينفي أي توهم للظلم، بل يدرك من يفهم جيدا جوانب الرحمة الواسعة في الحساب، والله أعلى وأعلم.

إن مسألة التسيير والتخيير قد تعرض لها عامة أهل العلم من جانب واحد فقط، وهو جانب فعل الإنسان دون تعلقه بأي شيء

[1] شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٤/ ٧٦٩).

آخر، مع أن كثيرا مما يتعرض له المبتلى يكون بسبب أحد من البشر تسبب في هذا البلاء، ولهذا لو قابلنا أفعال الظالم والمظلوم فإننا سنصل لا محالة إلى مسألة التسخير، وبدون ذلك يكون تصريف أمر الخلق متروكا للبشر فيما بينهم، وكل هذا باطل.

ولو انضبط الفهم لدينا لاستطعنا أن نفهم قول الإمام الطحاوي: (وَكُلُّ شَيْءٍ يَجْرِي بِتَقْدِيرِهِ وَمَشِيئَتِهِ، وَمَشِيئَتُهُ تَنْفُذُ، لَا مَشِيئَةَ لِلْعِبَادِ، إِلَّا مَا شَاءَ لَهُمْ، فَمَا شَاءَ لَهُمْ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ)، ويقول: (يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَيَعْصِمُ وَيُعَافِي، فَضْلًا، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيَخْذُلُ وَيَبْتَلِي، عَدْلًا)[1].

والمعنى الذي نفهمه أنّ أفعال العباد تخضع أيضا لمشيئة اللّه تعالى، والتي تتمثل في التسيير والتخيير والتسخير، واللّه أعلى وأعلم.

وهكذا نجزم أن القضاء والقدر فيما يتعلق بأفعال الإنسان التي يحاسب عليها أمام اللّه عز وجل لا تتوقف على العلم الكاشف وحسب، بل أيضا يتعلق بالقدرة الإلهية وذلك بالتيسير والتسخير، الذي يسلب إرادة البشر في بعض هذه الأفعال، بالمقدار الذي يترتب عليه وقوع المقدَّر كما أراد سبحانه.

وأما القول بأن هذا لا يكون إلا بالعلم الكاشف وحسب، فواللّه إنه لمن أعظم الباطل، وأفدحه، ولا يقصد هذا القول ويعنيه إلا أهل الكفر والضلال، والعياذ باللّه تعالى.

وسوف نتناول في الأمثلة التالية بإذن اللّه تعالى ما يثبت ـ من وجهة نظرنا ـ أن نصوص الشرع قد نصت على أن بعض أفعال

---

[1] متن الطحاوية بتعليق الألباني (ص: ٣٦).

العباد، التي يحاسبون عليها، قد تقع بالقضاء والقدر ـ والذي يكون بالقدرة الإلهية، وليست بالعلم الكاشف، دون لبس أو غموض، والله أعلى وأعلم.

أدلة التسخير والحساب

وذكر التسخير هنا يراد به أن هذه الأفعال التي تخضع للتسخير لم تقع بالاختيار التام، بل بتدخل القدرة الإلهية بالتسخير ليقع الفعل على وفق ما قدره الله عز وجل أزلا، وهيأه بقدرته سبحانه، وذلك كما يبينه قوله تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ [القَلَم : ٤٤ - ٤٥].

يقول الإمام الطبري: (يقول جلّ ثناؤه: سنكيدهم من حيث لا يعلمون، وذلك بأن يمتعهم بمتاع الدنيا حتى يظنوا أنهم متعوا به بخير لهم عند الله، فيتمادوا في طغيانهم، ثم يأخذهم بغتة وهم لا يشعرون، وقوله: {وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ} يقول تعالى ذكره: وأنسئ في آجالهم مُلاوَة"[1] من الزمان، وذلك برهة من الدهر على كفرهم وتمرّدهم على الله لتتكامل حجج الله عليهم {إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ} يقول: إن كيدي بأهل الكفر قويّ شديد)[2].

والذي نقصده بالتسخير هو هذا المعنى المذكور في الآية، والذي يقود هذا المكذب بأدلة الشرع إلى نهايته المحتمة، بتدخل القدرة الإلهية في أفعاله عن طريق الإملاء والتزيين، والله أعلى وأعلم.

وفي هذا المعنى يقول **الإمام الماتريدي** في تفسيره وقوله: (قالَ القُتبيُّ: الاستدراج هو الاستدناء من المهلكة درجة فدرجة حتى

[1] الملاوة: اشْتِقَاقُهُ مِنَ المَلْوة وَهِيَ الْمُدَّةُ مِنَ الزَّمَانِ لسان العرب (١٥/ ٢٩١).

[2] تفسير الطبري (٢٣/ ٥٦١).

يهلك، وقيل: {سَنَسْتَدْرِجُهُمْ} أي ننعم عليهم وننسيهم شكرها بالإملاء، وينزل بهم العذاب والهلاك أينما كانوا)[1]، وهذا هو المقصود بالتسخير، والله أعلى وأعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٧﴾ [البَقَرَة: ٦ - ٧].

ونظرا لأن هذا الدليل يمثل نصا صريحا في مسألة التسخير والحساب، وبخاصة أن كل ما أهدف إليه قد ذكره **الإمام الطبري** ذكرا واضحا صريحا، ولهذا فقد أوردته كاملا لتعم به الفائدة، والله ولي التوفيق.

يقول الإمام الطبري: (**عن ابن عباس**: قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا}، أي بما أنزِل إليك من ربّك، وإن قالوا إنا قد آمنا بما قد جاءنا من قبلك، وكان ابن عباس يرى أنَّ هذه الآية نزلت في اليهود الذين كانوا بنواحي المدينة على عهد رسول الله ﷺ، توبيخًا لهم في جُحودهم نبوّة محمد ﷺ وتكذيبهم به، مع علمهم به ومعرفتِهم بأنه رسولُ الله إليهم وإلى الناس كافة)[2].

ثم ينقل قولا آخر عن **ابن عباس** رضي الله عنهما **فيقول**: (**عن ابن عباس**، قال: كان رسول الله ﷺ يحرِصُ أن يؤمن جميعُ الناس ويُتابعوه على الهدى، فأخبره الله جل ثناؤه أنه لا يؤمنُ إلا من سبق له من الله السعادةُ في الذّكْر الأول، ولا يضل إلا من سبق له من الله الشقاءُ

[1] تفسير الماتريدي (١٠/ ١٥٥).

[2] تفسير الطبري (١/ ٢٥١).

في الذكر الأول". فأخبر ﷺ أنَّ الذُّنوبَ، إذا تتابعَتْ على القُلوبِ أغْلَفَتْهَا، وإذا أغْلَفَتْهَا أتاهَا حِينَئِذٍ الخَتمُ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ عزَّ وجَلَّ والطَّبْعُ، فلا يَكُونُ لِلْإِيمَانِ إِليْهَا مَسْلكٌ، ولا لِلْكُفْرِ مِنْهَا مُخَلِّصٌ، فذَلِكَ هُوَ الطَّبْعُ والخَتمُ الذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وتَعَالى في قوله: {خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ}، نظيرُ الطبع والختم على ما تدركه الأبصار من الأوْعِيَةِ والظُّرُوفِ"، التي لا يوصَل إلى ما فيها إلا بفضِّ ذلك عنها ثم حلّها، فكذلك لا يصل الإيمان إلى قلوب من وَصَفَ اللّه أنه ختم على قلوبهم، إلا بعد فضِّه خَاتمَه وحلّه رباطه عنها)[1].

ومفاد هذا القول أن اللّه عز وجل سخرهم لنهايتهم المحتومة عن طريق الختم، ومع هذا لم يعفهم هذا من الحساب، فإن قيل إن الحساب سيتم على ما قدموه بإرادتهم واختيارهم فقط، نجيب عن هذا ـ أنه على فرض صحته ـ فقد كان يمكن لبعضهم أن يتوب لولا الختم وبالتوبة يغفر له ما قد سلف، ولكن اللّه حال بينهم وبين ذلك، وهذا هو عين التسخير، واللّه أعلى وأعلم.

ثم يبين **الإمام الطبري** بطلان قول المتأولين لمعنى الختم فيقول: (ويقال لقائلي القول الثاني، الزاعمين أنّ معنى قوله جل ثناؤه {خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ}، هو وَصْفُهم بالاستكبار والإعراض عن الذي دُعوا إليه من الإقرار بالحق تكبُّرًا: أخبرونا عن استكبار الذين وَصَفهم اللّه جل ثناؤه بهذه الصفة، وإعراضِهم عن الإقرار بما دُعوا إليه من الإيمان وسائر المعاني اللّواحق به ـ أفِعْلٌ منهم، أم فعلٌ من اللّه تعالى ذكرُه بهم؟، فإن زعموا أنّ ذلك فعلٌ منهم ـ وذلك قولهم ـ قيل لهم: فإنّ اللّه تبارك وتعالى قد أخبر

[1] المرجع السابق.

أنه هو الذي ختم على قلوبهم وسمْعهم، وكيف يجوز أن يكون إعراضُ الكافرِ عن الإيمان، وتكبُّره عن الإقرار به ـ وهو فعله عندكم ـ ختمًا من اللّه على قلبه وسمعه، وختمهُ على قلبه وسَمْعه، فعلُ اللّه عز وجل دُون الكافر؟، فإن زعموا أن ذلك جائز أن يكون كذلك ـ لأن تكبُّرَه وإعراضه كانا عن ختم اللّه على قلبه وسمعه، فلما كان الختمُ سببًا لذلك، جاز أن يسمى مُسَبِّبه به ـ تركوا قولهم، وأوجبوا أنّ الختمَ من اللّه على قلوب الكفار وأسماعهم، معنًى غيرُ كفرِ الكافِرِ، وغيرُ تكبره وإعراضه عن قبول الإيمان والإقرار به، وذلك دخولُ فيما أنكروه)[١].

وهكذا يبين **الإمام الطبري** بجلاء ووضوح تام عدم صواب التأويل بأن معنى الختم من اللّه هو مجاز أو كناية عن الاستكبار من عند أنفسهم، ويثبت أن قولهم عن إعراض الكافر وتكبره، إن كان بسبب من اللّه كما هو ظاهر الآية، فهو معنى الختم المراد، وهو الذي نصفه بتدخل القدرة الإلهية بالتسخير، واللّه أعلى وأعلم.

ثم يؤكد هذا المعنى في موضع آخر فيقول: (وهذه الآية من أوْضحِ الدليل على فساد قول المنكرين تكليفَ ما لا يُطاق إلا بمعونة اللّه، لأن اللّه جل ثناؤه أخبرَ أنه ختم على قلوب صِنْف من كُفَّار عباده وأسماعهم، ثم لم يُسقط التكليف عنهم، ولم يَضَعْ عن أحدٍ منهم فرائضَه، ولم يعذِرْهُ في شيء مما كان منه من خلاف طاعته، بسبب ما فعل به من الختم والطبع على قلبه وسمعه، بَلْ أخبر أن لجميعِهم منه عذابًا عظيما على تركِهم طاعته فيما

[١] نفس المرجع.

أمرهم به ونهاهم عنه من حدوده وفرائضه، مع حتمه القضاء عليهم مع ذلك، بأنهم لا يؤمنون)[1].

وهذه مسألة في غاية الدقة وتبين ما نهدف إليه بيانا شافيا، فهم مكلفون وغير معذورين فيما يتعلق بالتكاليف الشرعية، والتي سوف يحاسبون عليها أمام الله تعالى، مع أن الله ختم على الحواس التي يمكن بها أن ينتفعوا بأدلة الشرع التي تنشأ عنها التكاليف الشرعية، فأصبح تكليفهم بها من قبيل تكليف المعتوه أو المجنون، فهو تكليف ما لا يطاق، ولهذا أسقط الشرع التكليف عن المجنون، لعدم قدرته على الفهم، ولكنه لم يسقطه عن هؤلاء الكفرة، حيث قامت عليهم الحجة كاملة، في مواطن أخرى، والله أعلى وأعلم.

📖 ومن أدلة التسخير والحساب أيضا :

قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝١١﴾ [يس : ٦ - ١١].

يقول الإمام الطبري : (وقوله {لقَدْ حَقَّ القَوْلُ علَى أكْثرِهِمْ فهُمْ لا يُؤْمِنُونَ} يقول تعالى ذكره: لقد وجب العقاب على أكثرهم،

---

[1] تفسير الطبري (١/ ٢٦٢).

لأن الله قد حتم عليهم في أم الكتاب أنهم لا يؤمنون بالله، ولا يصدقون رسوله)[1].

ويقول الإمام الماوردي: (قوله عز وجل: {لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ} فيه وجهان: **أحدهما**: معناه لقد وجب العذاب على أكثرهم، **قاله السدي**. **الثاني**: لقد سبق علم الله في أكثرهم، **قاله الضحاك**. وفي هذا القول الذي حق عليهم وجهان: **أحدهما**: أنه الوعيد الذي أوجبه الله تعالى عليهم من العذاب. **الثاني**: أنه الإخبار عنهم بأنهم لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم. {فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ} يعني الأكثرية الذين حق القول عليهم، وهم الذين عاندوا رسول الله ﷺ من كفار قريش، وأكثرهم لم يؤمنوا فكان المخبر كالخبر)[2].

وقوله تعالى: {لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ...} يرجح تماما ما ذهب إليه **الإمام الطبري** بأن الله حتم عليهم عدم الإيمان، وهذا يدل على التسخير ليصيروا إلى هذه الخاتمة - أعاذنا الله من سوء العاقبة - وتدل الآيات التالية على مسألة التسخير والحساب دلالة قطعية، ويفهم مسألة الحساب من الوعيد والعذاب كما ذكر **الإمام الماوردي**.

وقوله تعالى: {إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالا فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ} يؤكد مسألة التسخير بوضوح تام، والذي يؤكده المعنى

---

[1] تفسير الطبري (٢٠/ ٤٩٢).

[2] تفسير الماوردي (٥/ ٦).

اللغوي لكلمة "مُقْمَحُونَ"، كما في لسان العرب **لابن منظور**: (المقْمَح الغَاضُ بَصرَهُ بَعْدَ رَفع رأسه، وقَالَ الزَّجَّاج: المقْمَح الرَّافِعُ رأسه الغاضُّ بَصَرَه، الإقماح: رَفعُ الرأس وَغَضُّ البَصرِ. يُقَالُ: أقمَحه الغُلّ إذا تَركَهُ مَرْفوعًا مِنْ ضِيقهِ)[1].

والمعنى: أن الذي يرفع رأسه إلى أعلى رغما عنه بسبب أغلال في رقبته وتحت ذقنه، تجبره على رفع رأسه إلى أعلى، ونظره إلى أسفل لا يمكنه أبدا من رؤيته الأشياء على حقيقتها، وهكذا حال "المقمح" من أدلة الشرع، والتي آمن بها أهل الحق لِمَا رأوه من حقائقها، بينما "المقمحون"، وهم أهل الكفر عميت عليهم فلم ينتفعوا بها، فلم يؤمنوا نظرا لأنهم قد حيل بينهم وبين رؤيتها على حقيقتها، لأنه قد سبق عليهم القول بعدم الإيمان، فسُخّروا لتقودهم أعمالهم إلى نهايتهم المحتومة، والعياذ بالله.

يقول الإمام الطبري: (عن قتادة: أي فهم مغلولون عن كل خير، وقوله {وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا} يقول تعالى ذكره: وجعلنا من بين أيدي هؤلاء المشركين سدًا، وهو الحاجز بين الشيئين، وعنى بقوله {وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا} أنه زين لهم سوء أعمالهم فهم يَعْمَهُونَ، ولا يبصرون رشدًا، ولا يتنبهون حقًا، **قال ابن زيد**، **في قول الله** {وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ} قال: جعل هذا سدًا بينهم وبين الإسلام والإيمان، فهم لا يخلصون إليه، وقرأ {وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ} وقرأ {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ}.. الآية كلها، وقال:

---

[1] لسان العرب (٢/ ٥٦٦).

من منعه الله لا يستطيع، وقوله {فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ} يقول: فأغشينا أبصار هؤلاء أي: جعلنا عليها غشاوة؛ فهم لا يبصرون هدى ولا ينتفعون به.

وقوله تعالى: {وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ۝ إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ}، يقول تعالى ذكره: وسواء يا محمد على هؤلاء الذين حق عليهم القول، أي الأمرين كان منك إليهم؛ الإنذار، أو ترك الإنذار، فإنهم لا يؤمنون؛ لأن الله قد حكم عليهم بذلك. وقوله {إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ} يقول تعالى ذكره: إنما ينفع إنذارك يا محمد من آمن بالقرآن، واتبع ما فيه من أحكام الله {وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ} يقول: وخاف الله حين يغيب عن أبصار الناظرين، لا المنافق الذي يستخف بدين الله إذا خلا ويظهر الإيمان في الملأ ولا المشرك الذي قد طبع الله على قلبه)[1].

ومسألة المنافق هذه تبين بجلاء، ووضوح تام كيف يكون التسخير والحساب ولا ظلم، فالله يسخره ليصل إلى نهاية سوء محتومة، كان يمكن أن لا يصل إليها، ولكن ساقه الله إليها، ثم عاقبه بها في الآخرة، ومع هذا ليس في عقابه سبحانه ظلم لهم، مع أنه سبحانه ساقهم إلى هذه الأعمال المنكرة، ومع هذا لا ظلم.

فالله هو المطلع على ما تخفيه صدور هؤلاء المنافقين، وقد ينجحون في إخفاء ما في صدورهم، لو لم يظهرها الله، ولهذا يسوقهم الله إلى مصيرهم المحتوم، وقد علم سبحانه بعلمه الأزلي الذي يكشف عن نفاقهم وسواد قلوبهم، فيسوقهم عز وجل إلى خاتمتهم، بالحيلولة دون انتفاعهم بأي هدي.

[1] تفسير الطبري (٢٠/ ٤٩٤).

ويمكن أن نفهم ـ والله أعلى وأعلم ـ أنهم لو انتفعوا بشيء من إنذار الرسول ﷺ فلن يصلح قلوبهم، حتى وإن ابتعدوا عن النفاق ظاهريا، لأنهم قد يتركون النفاق بسبب النذارة، لكنهم سرعان ما يعودون إليه، إن تعرضوا للابتلاء والاختبار.

والله عز وجل يعلم ما سيكون منهم لو تعرضوا للفتنة والاختبار، حتى ولو لم يتم اختبارهم وفتنتهم حقيقة، ولهذا يسوقهم الله إلى نهايتهم المحتومة التي استحقوها، بعد أن قامت عليهم الحجة، دون تسخير أو تسيير، فساقهم الله إلى مآلهم الذي يستحقون، والله أعلى وأعلم.

📖 ومن الأدلة الصريحة ـ كذلك ـ على التسخير ومعه الحساب:

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾ [الأنعام: ٢٥].

يقول الإمام الطبري: (يقول تعالى ذكره: ومن هؤلاء العادلين بربِّهم الأوثانَ والأصنامَ من قومك، يا محمد {مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ}، يقول: من يستمع القرآن منك، ويستمع ما تدعوه إليه من توحيد ربك، وأمره ونهيه، ولا يفقه ما تقول ولا يُوعِيه قلبَه، ولا يتدبره، ولا يصغي له سمعه، ليتفقهه فيفهم حجج الله عليه في تنزيله الذي أنزله عليك، إنما يسمع صوتك وقراءتك وكلامك، ولا يعقل عنك ما تقول، لأن الله قد جعل على قلبه {أكنّة})[1]، وهكذا كان صدهم عن آيات الله بالتسخير القدري، ومع هذا فإن موتهم على الكفر يستوجب العقاب في الآخرة، والله أعلى وأعلم.

[1] تفسير الطبري (١١/ ٣٠٥).

ويفصل **الإمام الماتريدي** هذا المعنى بقوله: (ثم قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً}، لا يخلو إضافة ذلك إلى نفسه من أن يكون خلق منهم فعل الكفر، أو خلق الظلمة التي في قلوبهم، يعني ظلمة الكفر، لأن ظلمة الكفر تستر وتغطي كل شيء، ونور الإيمان ينير منه كل شيء، فإضافة الفعل إليه لا تخلو من أحد هذين الوجهين، إما لخلق فعل الكفر منهم، ففيه دلالة خلق أفعالهم، وإما لخلق ظلمة الكفر في قلوبهم. وفيه ردّ قول المعتزلة لإنكارهم خلق فعل العباد، **ثم قال الحسن في قوله :**

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾ [الإسراء : ٤٥]، أي: طبع على قلوبهم حتى لا يؤمنوا ومذهبه في هذا أنه يقول: إن للكفر حدًا إذا بلغ الكافر ذلك الحد طبع على قلبه فلا يؤمن أبدًا، واستوجب بذلك العقوبة والإهلاك بالذي كان منهم، إلا أن الله بفضله أبقاهم؛ لما علم أنه يولد منهم من يؤمن، أو يبقيهم لمنافع غيره، وإلا قد استوجب الهلاك، فيقول الحسن: أضاف ذلك إلى نفسه لما استوجبوا هم بفعلهم)[1].

وقوله : (إلا أن الله بفضله أبقاهم؛ لما علم أنه يولد منهم من يؤمن، أو يبقيهم لمنافع غيره)، كلام يكاد يبين مسألة التسخير والحساب كأروع ما يكون البيان، لأن الكافر الذي قامت عليه الحجة لو مات دخل النار واستحق العقوبة، ولكن الله سبحانه وتعالى اختص نفسه بالإحياء والإماتة، ولهذا فمثل

[1] تفسير الماتريدي (٤/ ٤٦).

هذا الكافر مد الله في عمره، ليس لمصلحة الكافر نفسه، ولهذا سخره لينفذ قدر الله تعالى كما أراد سبحانه.

وهنا لو توقفنا وقفة يسيرة ونظرنا إلى هذا الكافر لو مات بعد قيام الحجة عليه، أليس هو من أهل النار والعقوبة، بلى إنه كذلك، فما المانع أن يكون تسخيره في الدنيا على غير مصلحة تعود عليه من وسائل التعذيب، أو العقوبة غير المدركة، وهل أعطى الخالق أحدا حق اختيار ساعة موته، بالطبع لا، فأي وجه لاستنكار أن يسخر الله هذا الكافر على غير مراده، ولحكمة يعلمها الله، هل في ذلك من ظلم، قطعا ويقينا لا يوجد ظلم.

وكذلك قوله: (إن للكفر حدًّا) يمثل ضابطاً في غاية الدقة والإتقان، لأنه يبين أن العبرة بقيام الحجة على العباد إنما تتحقق بما يعلم الله عز وجل أنها تقوم به، وبما يناسب كل أحد، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ [البَقَرَة من الآيه: ٢٨٦]، أما ما تظنه العقول من وجوب قيام الحجة على العباد في كل أمر وفعل، فليس له أصل في الشرع، بل هو من تزيين الشيطان، والدليل على ذلك أن الذين عاينوا معجزات الرسول ﷺ الدالة على صدق الرسالة قلة قليلة من الذين آمنوا، ولكن قامت الحجة على كل أحد بما يناسبه في بعض الأمور وليست كلها.

ومما يسترشد به لهذا المعنى أيضا حديث الرسول ﷺ: «إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلى البِرِّ، وَإِنَّ البِرَّ يَهْدِي إِلى الجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتى يَكُونَ صِدِّيقًا. وَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلى الفُجُورِ،

وَإِنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا»[1].

والشاهد من الحديث: أن قوله ﷺ: «.. حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا»، يفهم منه أنه بعد قيام الحجة على هذا الكذاب، ثم استحلاله الكذب، فإنه يكون قد وصل الحد الذي لا تغني عنه حسنة، ولا تنفعه حجة، فقد كتب عند الله كذابا، لتكون نهايته كذلك، لا محالة، والله أعلى وأعلم.

يقول الإمام النووي: (وَمَعْنَى يُكْتَبُ هُنَا يُحْكَمُ لَهُ بِذَلِكَ وَيَسْتَحِقُّ الوَصْفَ بِمَنْزِلَةِ الصِّدِّيقِينَ وَثَوَابِهِمْ أَوْ صِفَةِ الكَذَّابِينَ وَعِقَابِهِمْ، وَالمُرَادُ إِظْهَارُ ذَلِكَ لِلْمَخْلُوقِينَ إِمَّا بِأَنْ يَكْتُبَهُ فِي ذَلِكَ لِيَشْتَهِرَ بِحَظِّهِ مِنَ الصِّفَتَيْنِ فِي المَلَأِ الأَعْلَى وَإِمَّا بِأَنْ يُلْقِيَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِ النَّاسِ وَأَلْسِنَتِهِمْ كما يُوضَعُ لهُ القَبُولُ وَالبَغْضَاءُ، وَإِلا فَقَدَرُ اللَّهِ تَعالى، وكتابه السابق قد سبق بِكُلِّ ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ)[2].

وقوله : (يُحْكَمُ لهُ بِذَلِكَ وَيَسْتَحِقُّ الوَصْفَ)، يدل على أن الله عز وجل قد أقام الحجة عليه، بما يناسبه، ولكنه لم ينتفع بها، فاستحق ما كتب له قدرا، والله أعلى وأعلم.

📖 **ولتقريب مسألة قيام الحجة على العباد في بعض الأمور التي يتعرفون عليها بعقولهم نستحضر المثالين التاليين:**

☜ **المثال الأول** : الإيمان بأن الله عز وجل هو الرزاق ذو القوة المتين، لا يتسنى لكل أحد أن يدركه في كل أحوال السعي والرزق،

---

[1] متفق عليه: البخاري (٨/ ٢٥)، مسلم (٤/ ٢٠١٣)، واللفظ للإمام البخاري.

[2] شرح النووي على مسلم (١٦/ ١٦٠).

ولكن ما من أحد ـ تقريبا ـ إلا ولمس هذه الحقيقة، في واقعة ما أو أكثر، ويكفيه ما أدركه في هذه الواقعة أن يؤمن بهذه الحقيقة في حياته كلها، حتى ولو لم يدرك وجه عطاء اللّه ورزقه إلا في القليل من حركة سعيه لطلب الرزق، فليس المطلوب أن يكون في كل حركة دليل على أن الرزق من عند اللّه تعالى، لأنه لو كان الأمر كذلك، لانتفى معنى الإيمان، واللّه أعلى وأعلم.

☜ **المثال الثاني:** كون اللّه تعالى هو الشافي، حقيقة يراها الناس كثيرا، في أحوال حياتهم، وبخاصة في حالة اليأس ـ حين المرض ـ من الطب والعلاج، فيأتيهم الشفاء، من حيث لا يحتسبون، ومع هذا فليس معناه أن يشفيهم اللّه في كل مرض، حتى يستمر إيمانهم بأنه هو الشافي سبحانه، فإن للّه مقادير لابد أن تنفذ، مهما غابت حكمتها عن العباد، ولا يمكن أن تكون الحكمة الإلهية محكومة بعقول العباد، بل لابد من الإذعان والتسليم، بعد أن قامت الحجة عليهم، إما في أنفسهم أو فيمن حولهم، ومن هنا كانت حقيقة الإيمان، واللّه أعلى وأعلم.

ولهذا إذا قامت الحجة، فالتسيير والتسخير ليس معناه الظلم، ولا القهر، بل هو الضبط لنظام الكون، حتى لا يكون مرهونا بمشيئة المخلوقين، واللّه أعلى وأعلم.

📖 **ومن الأدلة الصريحة كذلك على التسخير والحساب:**

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ۝٨٣﴾ [مَرْيَم: ٨٣].

وهذه الآية صريحة على مسألة التسخير، والحساب مستفاد من أدلة الشرع المتضافرة على عذابهم في نار جهنم ـ

والعياذ بالله ـ ويفهم من هذه الآية أنه متى قامت الحجة على العباد ـ عندما تُرِك لهم الاختيار التام، فاختاروا طريق الكفر والضلال، فيسوقهم الله تعالى إلى نهايتهم المحتومة، تسييرا وتسخيرا، لينفذ مراده عز وجل، وتحيق بهم سوء عاقبتهم، التي أعدها لهم سبحانه، ولا ظلم، ولولا التسخير الذي وقع بهم، لكان من الممكن أن يهتدوا إلى طريق الإيمان، بعد أن اختاروا الكفر قبل ذلك، ولكن الله عز وجل حال بينهم وبين الهداية، فقد قامت عليهم الحجة بأنه سبحانه الإله الواحد المعبود بحق، ولا معبود بحق سواه سبحانه، فأبوا فاستعملهم عز وجل تسخيرا فيما يتوقف عليه القدر، سواء أكان قدرهم هم أنفسهم، المتمثل في سوء العاقبة، أم كان قدر من يتوقف على أفعالهم، كمن قدر الله ـ مثلا ـ قتله أو ظلمه أو ابتلاءه بسببهم أو بأفعالهم، والله أعلى وأعلم.

يقول الإمام الطبري: (يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: ألم تر يا محمد أنا أرسلنا الشياطين على أهل الكفر بالله {تَؤُزُّهُمْ} يقول: تحرّكهم بالإغواء والإضلال، فتزعجهم إلى معاصي الله، وتغريهم بها حتى يواقعوها {أزّا} إزعاجا وإغواء)[1].

ويقول الإمام القرطبي: (قَوْلُهُ تَعَالَى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ} أَيْ سَلَّطْنَاهُمْ عَلَيْهِمْ بِالْإِغْوَاءِ، أَيْ خَلَّيْنَا الشَّيَاطِينَ وَإِيَّاهُمْ وَلَمْ نَعْصِمْهُمْ مِنَ الْقَبُولِ مِنْهُمْ. الزَّجَّاجُ: قَيَّضْنَا. {تَؤُزُّهُمْ أَزًّا} **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ**: تُزْعِجُهُمْ إِزْعَاجًا مِنَ الطَّاعَةِ إِلَى الْمَعْصِيَةِ. وَعَنْهُ تُغْرِيهِمْ

[1] تفسير الطبري (١٨/ ٢٥١).

إِغْرَاءً بِالشَّرِّ: امْضِ امْضِ فِي هَذَا الْأَمْرِ حَتَّى تُوقِعَهُمْ فِي النَّارِ. **حَكَى الْأَوَّلَ الثَّعْلَبِيُّ وَالثَّانِيَ الْمَاوَرْدِيُّ وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ**)[1].

وفي إطار هذا المعنى ـ التسخير والحساب الصريح الجلي الواضح ـ قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الزُّخْرُف: ٣٦ - ٣٩]. **والمعنى كما عند الإمام ابن قتيبة** رحمه الله: (قوله تعالى: {وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ} أي يُظلم بصره، هذا قول أبي عبيدة، وقال الفراء: أي يُعرِضُ عنه)[2].

وكل من المعنيين يفيد أن الحجة قد قامت على هؤلاء فأعرضوا عن ذكره سبحانه، فاستحقوا عاقبة السوء، أما أمور الدنيا فيجريها الله تبارك وتعالى بما يوافق قدره عز وجل تسييرا وتسخيرا على كل العباد، ويؤكد هذا ما ورد من التسخير المتمثل لملازمة الشياطين لأهل الضلال تغويهم وترديهم عاقبة السوء، وكل هذا يتعلق بهم أنفسهم وأيضا بمن يتعلق بهم قدر ما، لا يعلمه إلا الخالق سبحانه، والله أعلم.

يقول الإمام الطبري: (**قال ابن زيد، في قوله** {أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا} فقرأ {وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ} قال: تؤزّهم أزّا، قال: تُشْلِيهِمْ إِشْلاءً"[3] على معاصي الله

[1] تفسير القرطبي (١١/ ١٥٠).

[2] غريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٣٩٧).

[3] في تفسير ابن كثير: "تمليهم إملاء".

تبارك وتعالى، وتغريهم عليها، كما يغري الإنسان الآخر على الشيء).

ويقول: (يقول تعالى ذكره: ومن يعرض عن ذكر الله فلم يخف سطوته، ولم يخش عقابه {نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ} يقول: نجعل له شيطانا يغويه فهو له قرين: يقول: فهو للشيطان قرين، أي يصير كذلك، وأصل العشو: النظر بغير ثبت لعلة في العين، يقال منه: عشا فلان يعشو عشوا وعشوّا: إذا ضعف بصره، وأظلمت عينه، كأن عليه غشاوة)، ثم يقول: (وقوله تعالى: {إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ} يقول: لن يخفف عنكم اليوم من عذاب الله اشتراككم فيه، لأن لكل واحد منكم نصيبه منه)[1].

📖 **وهذه الآيات ينظر لدلالتها من جانبين :**

☜ **الجانب الأول :** جانب المسخَّرين أنفسهم

وأنه لو كانت أقدار الناس، التي يحاسبون عليها، مرهونة بإرادتهم واختيارهم وفقط، لكان يمكن أن يهتدي الكافر إلى الإيمان، ويعود الضال إلى الطاعة، لو لم تُسلط عليهم الشياطين، تسليطا خاصا بهم، زائدا عن القاسم المشترك بين الناس جميعا، والذي يبينه حديث رسول الله ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ»[2]، فجريان الشيطان هذا من الابتلاء، الذي أخبر عنه الشرع بالنسبة للناس جميعا، بينما في هذه الأدلة كان

---

[1] تفسير الطبري (١٨/ ٢٥٢).

[2] متفق عليه، صحيح البخاري (٩/ ٧٠)، صحيح مسلم (٤/ ١٧١٢)

التسليط الخاص، الذي لا تتعلق بالناس جميعا، بل بأهل الكفر والضلال ـ خاصة ـ والله أعلى وأعلم.

☜ **الجانب الثاني:** من يتعلق بهم أفعال المسخرين

ونقصد بذلك من يقع عليهم ظلم هؤلاء من تسلطت عليهم الشياطين، وسخروا ليلاقوا نهايتهم المحتومة، وهؤلاء لا يعيشون بمفردهم بمعزل عن باقي الخلق، بل تتعلق أفعالهم بالغير، تعلقا يرتبط بالقدر المحتوم، ومن هنا نتبين أهمية التسيير والتسخير، وتعلقهما بالقدر، وسوف نتناول تعلق القدر بأفعال العباد، في المطلب التالي، والله ولي التوفيق والاستعانة.

📖 **الأدلة غير المباشرة على التسخير والحساب:**

من هذه الأدلة ما يفهم منه التسخير، بطريق الاستنباط، وليس بالدلالة المباشرة، كما في قوله تبارك تعالى: ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ ٣٢﴾ [المَائـِدَة: ٣٢].

إن الله يجري على أيدي العباد ما ينزل به القدر، لينتظم ناموس الحياة على وفق مراد الله تعالى، ولولا ذلك ما قامت للناس في الحياة قائمة، بل لقتل بعضهم بعضا، وأفسدوا النسل والحرث.

وهذه الآية تشير إلى هذا المعنى ضمنا، والآية غاية في الوضوح أنه لا ظلم مع التسيير والتسخير، حيث قد جاءت الرسل بالبينات.

📖 **ولبيان ذلك نقول:**

أنه لا يوجد في الخلق أبدا ومطلقا من مات أو قتل قبل أجله الذي كتبه الله وقدره أزلا، بغير توقف على مشيئة أحد من الخلق،

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النّحل: ٦١].

📖 **فأي مقتول على وجه الأرض يجتمع فيه أصلان:**

☜ **الأصل الأول:** أنه إنما لاقى بالقتل قدره المحتوم.

☜ **الأصل الثاني:** أن من قتِلَ مظلوما فإنما وصف الظلم الذي وقع عليه إنما هو بالنظر إلى أفعال العباد، بعضهم مع بعض، وليس بالنسبة لمطلق القتل، فليس في القدر ظلم.

فالمريض عندما يتلوى من ألم المرض، أو يموت، لا يوصف بأنه مظلوم، لأن من أصابه بالمرض ليس أحداً من العباد، بل هو الابتلاء والاختبار من رب العزة سبحانه، ولهذا فلا مظلومية أصابت المريض، بسبب ألم المرض أو إفضائه إلى الموت.

📖 **ونخلص من ذلك أنه من قتل نفسا بغير نفس، فإنه في حقيقة الأمر قد اجتمع أيضا ـ بالضرورة ـ أمران:**

☜ **الأمر الأول:** أن المقتول قد أصابه قدر الله المحتوم، الذي لا يتقدم ولا يتأخر.

☜ **الأمر الثاني:** أن القاتل العدوان ما كان ليقتل هذا المقتول أبدا، إلا باستحلال القتل العدوان، ولهذا يسخره الله للقتل بوجه من وجوه التسخير، كأن يسوق هذا المقتول دون سواه إلى القاتل ليقتله، أو يسخر القاتل نفسه ليقتل هذا المقتول، حتى يلاقي قدره المحتوم.

وفي كلتا الحالتين، سواء التي سيق فيها المقتول أو سخر فيها القاتل، لا ظلم.

لأن القاتل قد قامت عليه الحجة ببلاغ الرسل، وكما في هذه الآية الكريمة، أن العبرة ليست بعدد المقتولين ظلما، ولكن العبرة هي باستحلال القتل العمد العدوان.

فإذا سيق المقتول إلى القاتل الظالم مرة فقتله، فقد قامت على هذا القاتل الحجة، ولو أماته اللّه فورا بعد قتله العمد العدوان، فإنه يستحق الخلود في عذاب جهنم، وبذلك قامت الحجة عليه بنص كتاب اللّه تعالى.

هذا وإن اللّه عز وجل يعلم علما يقينيا لا يتخلف أبدا، هل يتوب هذا القاتل أم لا.

ومن هنا فإن هذا القاتل الذي علم اللّه تعالى أنه لن يتوب، هل من ظلم إذا سخره اللّه بعد ذلك للقتل، أي عدد من المرات، لينفذ قضاء اللّه وقدره كما أراد سبحانه، أم أن العاقبة واحد كما أخبر سبحانه، وبالتالي فلا ظلم.

ولهذا فإن قوله تعالى: {فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا} يمكن أن يفهم منه القتل الذي يسخر فيه لينفذ مراد اللّه تعالى، وهذا هو المعنى الذي يمكن أن يفهم من الآية بطريق غير مباشر، واللّه أعلى وأعلم.

يقول الإمام الطبري: ﴿وقال آخرون: معنى ذلك: إن قاتل النفس المحرم قتلُها، يصلى النار كما يصلاها لو قتل الناس جميعًا، عن مجاهد في قوله: {فكأنما قتل الناس جميعًا}، قال: الذي يقتل النفس المؤمنة متعمدًا، جعل اللّه جزاءه جهنم، وغضب اللّه عليه ولعنه وأعد له عذابًا عظيمًا. يقول: لو قتل الناس جميعًا لم يزد على مثل ذلك من العذاب﴾[1].

[1] تفسير الطبري (١٠/ ٢٣٤).

ألا يفهم من قول **الإمام مجاهد** رضي الله عنه أنه سواء أقتل نفسا واحدة، بكامل إرادته واختياره، ثم قتل مئات الأنفس بالتسخير، وعذبه الله بما يستحق من قتل النفس الواحدة، بالخلود في النار، والخلود هو منتهى العذاب، لأنه أبدي لا نهاية له، فهل في ذلك ما ينافي العدل؟ بالقطع لا.

ونظرا لأن هذا الدليل، على الرغم من أهميته الكبيرة، فإن دلالته ليست صريحة وواضحة، كما في الأدلة السابقة، لهذا فسوف نتوسع في بيان أوجه الاستدلال به من وجوه عديدة، ومن ذلك:

قول الإمام الماتريدي: (يحتمل قوله تعالى: {مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا} أي: من استحل قتل نفس حَرَّمَ الله قتلها بغير حق، فكأنما استحل قتل الناس جميعًا، لأنه يكفر باستحلاله قتل نفس محرم قتلها، فكان كاستحلال قتل الناس جميعًا، لأن من كفر بآية من كتاب الله يصير كافرًا بالكل، فعلى ذلك الأول، إذا استحل قتل نفس محرمة يصير كأنه استحل قتل الأنفس كلها)[1].

ثم يقول: (ويحتمل: أن يكون هذا في أول قتيل قتل، لم يكن قبل ذلك أحد، فلما قتل هذا قتيلا جعل الناس يقتلون بعد ذلك بعضهم بعضًا، وكان ذلك منه سنة استن الناس به؛ فهو كما

[1] وفي تفسير الماوردي (٢/ ٣٢) {فَكَأَنَّمَ قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً} فيه ستة تأويلات: ومنها: (والثالث: معناه أن قاتل النفس المحرمة يجب عليه من القود والقصاص مثل ما يجب عليه لو قتل الناس جميعاً ، وهذا قول ابن زيد وأبيه).

روي في الخبر أن: " ... وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»[1]، فيشترك هذا القاتل في وزر كل قتيل قتل إلى يوم القيامة بغير حق، وتحتمل الآية وجهًا آخر، وهو ما قيل: إنه يجب عليه من القتل مثل ما أنه لو قتل الناس جميعًا)[2].

وفي هذا الحديث الصحيح: "... وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ ...»[3]، نرى أن من ابتدأ سوءا لم تكن عقوبته قاصرة على فعل نفسه، بل أيضا له نصيب من عقوبة من قلده من بعده، وقد أقام الخالق سبحانه الحجة على عباده ببلاغ الرسول ﷺ، فهل يستطيع أحد أن يدعي بعد ذلك، أن العقوبة قد تعدت ما قام به الجاني الأول، فتكون ظلما؟

إن مسألة العدل والحساب لا يمكن للخلق أن يحيطوا بها علما بالعقول، لأن ذلك فوق طاقتها، حتى ولو اجتمعت، فلم يكن مناص من الإذعان والتسليم، والاطمئنان إلى العدل الإلهي المطلق، والذي ليس فيه ظلم، بوجه من الوجوه.

ولعل مما يؤكد عدم قدرة العقول على إدراك مسألة العدل والحساب قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ

---

[1] صحيح مسلم (٢/ ٧٠٥).

[2] تفسير الماتريدي (٣/ ٥٠١).

[3] صحيح مسلم (٤/ ٢٠٥٩): قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ».

ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفُرْقَان : ٦٨ - ٧٠].

فقوله تعالى: {يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا}، فما المراد بقوله تعالى: {يُضَاعَفْ}، هل قدر العقوبة يُضاعف، أم أن هذه المضاعفة داخلة في قدر العقوبة، يقول **الإمام الماتريدي**: فما معنى الضعف هاهنا؟، **قيل: يحتمل هذا وجهين:**

☜ **أحدهما:** أنه يضاعف العذاب للذين تقدم ذكرهم إذا كفروا بالله بعدما بلغوا المبلغ الذي وصفهم والرتبة التي ذكر، وهو قوله: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ} الآية: أن واحدا منهم إذا كفر يضاعف له العذاب، يتضاعف عذابه على قدر منزلته ومرتبته عند الله، وعلى قدر نعم الله عليه إذا كان منه عصيان وكفران لذلك، وهو كما قال لرسول الله ﷺ ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإِسْرَاء : ٧٤ - ٧٥]، أي: ضعف عذاب الحياة، وضعف عذاب الممات، وما ذكر ـ أيضًا ـ لأزواجه حيث قال: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ [الأَحْزَاب من الآيه : ٣٠]، كل من كان أعظم قدرًا وأكثر نعمًا عليه، فعقوبته إذا عصى ربه أكثر وأشد من الذي لم يبلغ ذلك ولا تلك الرتبة، فيكون ضعف غيره وجزاء مثله.

☜ **والثاني**: أن يكون ذلك للأئمة ـ أعني: الكفرة والرؤساء، دون الأتباع، لأنهم عملوا هم بأنفسهم ودعوا غيرهم إلى ذلك، كقوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العَنكَبُوت من الآيه : ١٣]، أو أن يكون ذلك لهم للعناد الذي كان منهم والمكابرة، ثم استثنى من تاب منهم، فقال: {إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا. . .} الآية)[١].

وكل هذا مما لا يمكن للعقول أن تدركه، ولكن فقط أن الله ليس بظلام للعبيد.

☜ **وهكذا**: كما لا يستطيع أحد أن يحاج الله يوم القيامة بقدر العقوبة أو وصفها، فكذلك موضوع التسخير، والتسيير.

فقد بيَّنَ الخالق سبحانه للناس، وأقام عليهم الحجة، أن عقوبة قتل نفس واحدة عمدا ظلما وعدوانا، كمن قتل الناس جميعا، فهل يملك أحد أن يقول إن عقوبة قتل نفس واحدة على هذا الوجه، فيها ظلم، لأنه عوقب بسبب قتل من لم يتعمد قتله، أو يختار قتله بكامل إرادته؟

إن أحدا لا يملك أن يعرف ويقدر عقوبة قتل النفس الواحدة هذه، وبالتالي لا يملك أن يحكم على العقوبة أكثيرة هي أم قليلة، وبالتالي فلا مناص من التسليم للخالق عز وجل، وأنه كما أخبر عن نفسه لا يظلم أحدا، أما أن يحاول العبيد أن يحيطوا بعلمه سبحانه ويتعرفوا على كامل حكمته وعدله فهذا ما لا طاقة للخلق جميعا به، ولهذا فالتفكير فيه ما هو إلا عبث، وخروج عن مقام العبودية الحق، ونعوذ بالله من ذلك.

---

[١] تفسير الماتريدي (٨/ ٤٤).

ولعل في كلام **الإمام ابن القيم** ما يجيب عن هذا التساؤل، **حيث يقول**: "فصل: النوع السادس ذكر ما هو من صرائح التعليل وهو من أجل كقوله: {مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرائيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً} فإن قلت كيف يكون قتل أحد بني آدم للآخر علة لحكمه على أمة أخرى بذلك الحكم، وإذا كان علة فكيف كان قاتل نفس واحدة بمنزلة قاتل الناس كلهم؟، قلت: الرب سبحانه يجعل أقضيته وأقداره عللا وأسبابا لشرعه وأمره، فجعل حكمه الكوني القدري علة لحكمه الديني الأمري"[1]، وذلك أن القتل عنده لما كان من أعلى أنواع الظلم والفساد فخم أمره وعظم شأنه وجعل إثمه أعظم من إثم غيره ونزل قاتل النفس الواحدة منزلة قاتل الأنفس كلها ولا يلزم من التشبيه أن يكون المشبه بمنزلة المشبه به من كل الوجوه، فإذا كان قاتل الأنفس كلها يصلى النار وقاتل النفس الواحدة يصلاها صح تشبيهه به، كما يأثم من شرب قطرة واحدة من الخمر، ومن شرب عدة قناطير وإن اختلف مقدار الإثم، وكذلك من زنى مرة واحدة وآخر زنى مرارا

---

[1] بمعنى: أن قضاء الله تعالى يجريه الله تعالى على أيدي العباد، بالأوامر والنواهي وسائر التكاليف الشرعية، فالسارق قدر الله أزلا أن تقطع يده، ولهذا أمر سبحانه بقطع يد السارق، فهذا هو الأمر الكوني والأمر الشرعي، ويفهم من هذا أن المقطوعة يده لابد أن يسرق، وليس معنى ذلك أنه الله قهره على السرقة، ولكن لعله سرق بكامل إرادته واختياره فقطعت يده، وقد لا يعلم به أحد فلا تقطع، ولكن يسخره الله في مرة من مرات السرقة فيطلع عليه الشهود فتقطع يده، والله أعلى وأعلم.

كثيرة كلاهما آثم، وإن اختلف قدر الإثم، وهذا معنى قول **مجاهد**: "من قتل نفسا واحدة يصلى النار بقتلها كما يصلاها من قتل الناس جميعا" وعلى هذا فالتشبيه في أصل العذاب لا في وصفه)[1].

📖 **ويترتب على مسألة التسخير وتعلقها بالحساب ما يلي:**

أن القاتل المتعمد الباغي قد استوجب عقوبة أبدية ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النِّسَاء: ٩٣].

وعلى القول أن الخلود في النار ـ والعياذ بالله ـ لا يقتضي المساواة في وصف عذاب المخلدين فيها، بل إن للنار دركات، تتفاوت في الشدة من دركة إلى أخرى، فمعنى هذا أن قاتل النفس الواحدة لا يكون كقتل الناس جميعا من كل وجه، بل كما قال **الإمام ابن القيم** المساواة في أصل العقاب.

وعلى هذا كيف يكون التسخير والحساب في نفس الوقت "مقترنين"، يمكن أن نقول: إن من قتل نفسا واحدة عمدا وظلما، ثم قتل تبعا وتسخيرا ألف نفس ـ مثلا ـ فإن الله عز وجل أعدل من أن يعذبه إلا على ما كان منه باختيار تام، أو بجزء من الاختيار، وأما ما كان فيه مسخرا بالكامل، فلعله لا يقابله أي عذاب لذاته، بل لعل كل عقابه لا يتعدى العقوبة التي قدرها الله عز وجل، عن قتل هذه النفس، وكل ذلك لا يعلمه إلا الله، الذي لا يظلم أحدا.

---

[1] شفاء العليل (ص: ١٩٥) باختصار لا يخل بالمعنى.

يقول الإمام الشيخ حافظ الحكمي: "وَلا يَكُونُ" فِي الكَوْنِ "غَيْرُ مَا يُرِيدُ" وَالمُرَادُ بالإِرَادَةِ هُنَا الإِرَادَةُ القَدَرِيَّةُ الكَوْنِيَّةُ التِي لا بُدَّ لِكُلِّ شَيْءٍ مِنْهَا وَلا مَحِيصَ وَلا مَحِيدَ لِأَحَدٍ عَنْهَا وَهِيَ مَشِيئَةُ اللَّهِ الشَّامِلَةُ وَقُدْرَتُهُ النَّافِذَةُ، فمَا شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ فَهُوَ سُبْحَانَهُ الفَعَّالُ لِمَا يُرِيدُ، وَلا نُفُوذَ لِإِرَادَةِ أَحَدٍ إِلا أَنْ يُرِيدَ، وَمَا مِنْ حَرَكَةٍ وَلا سُكُونٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِلا بِإِرَادَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَلَوْ شَاءَ عَدَمَ وُقُوعِهَا لَمْ تَقَعْ، وَوُرُودُ ذَلِكَ فِي نُصُوصِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مَعْلُومٌ كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ (البُرُوج: ١٦)، ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ (الكَهْف: ٨٢)، ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ (الإِسْرَاء: ١٦)، وَهَذَا الأَمْرُ القَدَرِيُّ الكَوْنِيُّ غَيْرُ الأَمْرِ الشَّرْعِيِّ، فَإِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالفِسْقِ شَرْعًا وَلا يُحِبُّ الفَاسِقِينَ وَإِنَّمَا هُوَ أَمْرُ تَكْوِينٍ، أَلا تَرَى أَنَّ الفِسْقَ عِلَّةُ {حَقَّ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ} وَ{حَقَّ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ} عِلَّةٌ لِتَدْمِيرِهِمْ وَهَكَذَا الأَمْرُ سَبَبٌ لِفِسْقِهِمْ وَمُقْتَضٍ لَهُ وَذَلِكَ هُوَ أَمْرُ التَّكْوِينِ)[1].

📖 **ومن الأدلة التي تفيد التسخير، ولكن لها أكثر من وجه آخر، وفي تفاسير السلف ما يثبت أن فيها معنى التسخير، كما في قوله تعالى:** ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ (الإِسْرَاء: ١٦).

---

[1] معارج القبول بشرح سلم الوصول حافظ بن أحمد بن علي الحكمي (المتوفى: ١٣٧٧هـ) (١/ ٢١٣).

وباقي المعاني المروية في تأويلها لا تدل على التسخير مباشرة، لكن لا تخلو من معناه، ومع ذلك حق العذاب والعقاب، وما كان ذلك ليكون لولا أن وقع منهم، وبكامل إرادتهم واختيارهم، ما يستوجب العذاب والعقاب.

ومن ذلك: (عَنِ الحَسَنِ: {أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا} قَالَ: «أَكْثَرْنَا»، عَنْ **مُجَاهِدٍ**، فِي قَوْلِهِ: {أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا} قَالَ: «بَعَثْنَا»)[1]

(عَنْ **شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ** رضي الله عنه قَالَ: سمعت **ابْنَ عَبَّاسٍ** رضي الله عنهما يَقُولُ: فِي قَوْلِهِ: وَإِذَا أَرَدْنَا إِنَّ نُهْلِكَ قَرْيَةً قَالَ: أَمَرْنَا مُتَرَفِيهَا بحق فخالفوه فحق عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ التدمير، وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما فِي قَوْلِهِ: {وَإِذَا أَرَدْنَا إِنَّ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا} قَالَ: سلَّطنا شِرَارَهَا فعَصَوْا فِيهَا فإِذَا فعلُوا ذَلِكَ أَهْلَكْنَاهُمْ بِالعَذَابِ وَهُوَ قَوْلُهُ: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا)[2].

☜ **وهذه العبارة**: (سلَّطنا شِرَارَهَا فعَصَوْا فِيهَا فإِذَا فعلُوا ذَلِكَ أَهْلَكْنَاهُمْ بِالعَذَابِ)، تفيد التسخير، كما يدل عليه لفظ سلطنا، ومع هذا قد استحقوا العقاب، بالعذاب في الدنيا والآخرة، حيث ماتوا على المعصية، والله أعلم.

🕮 الذي أهدف إليه من خلال هذا الفصل:

أسعى جاهدا أن أمنع هذا الحاجز الذي يجعل كثيرا من أهل العلم يذهب إلى إثبات الاختيار التام للمكلفين، فيما يحاسبهم الله عليه من أعمال، إثباتا للعدل وعدم الظلم، ولهذا بينا، بتصور

[1] تفسير مجاهد (ص: ٤٣٠).

[2] تفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢٣٢١).

العقل - والله أعلى وأعلم - أنه لا تلازم بين قولهم هذا وأن الله عز وجل أخبر عن نفسه سبحانه أنه لا يظلم أحدا.

فالله جل في علاه هو العدل سبحانه، وهو الرحمن الرحيم، فطب نفسا أيها العبد ولا تنشغل إلا بما أمرك به الله، تكن حياتك جنة في الأرض.

ونخلص من هذا البيان إلى أن دلالة لفظ الاستهام في الحديث الشريف، إنما هو الإشارة إلى أمور الدنيا، وأن التسخير والتسيير، أو الإلهام والتيسير لا ينفيان الحساب، فالاستهام الذي أدى إلى أن يكون نصيب بعض الركاب في أسفل السفينة، ليس معناه أبدا أن من أراد خرق السفينة ليس متعديا، لأنه وجد أسفل السفينة، دون اختيار حقيقي منه، بل إن المطلع - سبحانه - على ما لم يكن لو كان كيف يكون، وهو المطلع على كل نفس، وخفايا الصدور، ويعلم خبيئة كل نفس، فسخر سبحانه القرعة ليكون من في الأسفل هو الواقع في حدود الله، لتقوم عليه الحجة ببعض فعله، كما في محاولة خرق السفينة، فلا ظلم، كما أخبر سبحانه، والله أعلى وأعلم.

أفعال الإنسان وتعلقها بالقدر

وضحنا فيما سبق مسألة تدخل القدرة الإلهية في مقادير المخلوقات، وتعلقها بالوحي والإلهام، وما يكون منه تسييرا وتسخيرا، ليقع الفعل بإرادة الناس ومشيئتهم، من جهة الظاهر، بينما هو في حقيقته القدر الذي لا حيلة للبشر في التصرف فيه.

وبينا كذلك كيف تتعلق إرادة الناس ومشيئتهم بالدوافع والقصد إلى الفعل، والذي قد يقع أو يتخلف أو يحول دونه حائل، كما سبق وذكرنا، ولكن سيترتب على هذه الدوافع فعل ما، وهذا هو ما سوف نفصلهخ في هذا الفصل، بإذن الله تعالى.

وقد أكدنا على أنه :

لا إرادة تامة مطلقة لمخلوق قط فيما يفعل، إلا بما تقوم به عليه الحجة فقط"[1].

ومعنى هذا :

أن الأفعال تظهر على أيدي البشر، أي هي كسبهم وفعلهم، سواء ما كان منها بالتخيير، أو ما كان منها بتدخل القدرة الإلهية بالتسيير والتسخير، دون أن يعلم الفاعل حقيقة ذلك، إلا منْ

[1] بينا أن أفعال الإنسان التي تخضع للتخيير التام، هذه قد تكون نسبة قليلة محدودة من جملة أفعاله، والله أعلم.

ألهمه اللّه شيئا، ففهم الفعل على نحو صحيح، والذي يحدث في الواقع للناس أحيانا"[1].

فكثيرا ما نسمع عن أشخاص قاموا بأفعال لم تكن تخطر لهم على بال، ولكنهم شعروا بمحرك من داخلهم يدفعهم في اتجاه ما، دون تبرير من عقولهم، ولم يفطنوا إلى حقيقة هذا الدافع، إلا بعد أن اطلعوا على النتيجة.

وقد تناولنا حديث السفينة من خلال الأدلة السابقة لنؤكد أن دنيا الناس تجري بمقادير، قدَّرَها سبحانه وتعالى، وليس بالعلم الكاشف وحده، والذي لا يتخلف أبدا، لأن هذا القول يؤدي إلى لازم لا ينفك عنه، ولا تقوم الحياة به، ولازم هذا القول أن البشر لهم مطلق الإرادة والاختيار التام في كل ما يحاسبون عليه، وهو قول غاية في البطلان كما بينا، ولا تستقيم دنيا الناس وأحوالهم به أبدا.

ونقول: إن اللّه عز وجل قد علم أزلا أفعال العباد، وعلم سبحانه أن بعض أفعالهم التي تقع منهم دون تسخير أو تسيير تتعارض مع قدره وقضائه، ولهذا حال سبحانه بقدرته بينهم وبين أفعالهم هذه، وسخرهم حتى ينفذ قدره وقضاؤه كما أراد جل وعلا، وهكذا تخضع أفعال العباد للقدرة الإلهية المتمثلة في التسخير والتسيير، والعلم الكاشف كليهما معا، حتما ولابد، واللّه أعلى وأعلم.

[1] فكثيرا ما يسيطر دافع ما، ليحرك صاحبه إلى عمل محدد، ما كان يمكن أن يفعله لولا هذا الدافع، ثم يتبين الحكمة منه بعد ذلك، ويقر في نفسه أن هذا الدافع إنما كان بقدرة الخالق سبحانه، لا محالة، والله أعلى وأعلم.

ولعل مما يؤكد هذا المعنى ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢٢]، حيث أثبتت الآية أن حال الكون لا يمكن أن يستقيم أبدا إذا تعددت الإرادات والاختيارات المتكافئة الواقعة على الشيء الواحد.

وإذا كان الفساد مؤكدا لو تعددت الآلهة، والمفترض أنهم ـ على سبيل التمثيل ـ يكونوا أكمل من باقي الخلق، ومع هذا لم يصلح حال الكون، لو وجد التعدد، فكيف بعامة البشر، الذين يختلفون اختلافا كبيرا، من جهة القدرة، والقوة والإرادة، ولكن يتكالبون ـ غالبا ـ على أكثر مطالب الدنيا، ومن هنا لو أطلقت لهم الإرادة والاختيار لتنازعوا وتقاتلوا، بغير رفق أو هوادة، ولن يجير الضعيفَ ولا البائسَ الفقيرَ أحدٌ، وهكذا تصبح حياة الناس مستحيلة تماما، وسيكون المآل لا محالة إلى الفناء، ما لم يحكمهم قدرٌ يستلزم التسيير والتسخير، والذي به يتم التحكم في إرادة الناس وأفعالهم، والله أعلى وأعلم.

وسوف نتناول في هذا المطلب، جانباً آخرَ، يدور في نفس المعنى الذي أثبتناه فيما سبق، ولكن نظرا لدقة المعاني، وصعوبة المصطلحات، نتناول المعنى المقصود من كل الجوانب، التي نتمكن منها، بغية الاطمئنان التام إلى أن ما وصلنا إليه ليس من قبيل البدع، أو الكلام فيما لا يجوز الخوض فيه، بل هو كما تأكدنا، من ضروريات تصحيح العقيدة، وفهمها فهما يُثبِّتُ معاني الإيمان كلها في القلب، تثبيتا ناشئا عن وعي وإدراك، وليس الثبات الناشئ عن البعد عن تدبر المعاني، والاكتفاء بترديدها، دون إدراك المراد منها إدراكا صحيحا، والذي كان من نتيجته ذلك الوقوع في متاهات التخبط والضلال،

غير المقصود مطلقا، ولكن بسبب الاكتفاء بالنظر إلى الصورة الخارجية، دون سبر أغوارها"[1]، والغوص إلى دقائق معانيها، حتى أن ما نقوله في هذا البحث، قد ينظر إليه أغلب المهتمين بأمور الشريعة على أنه من المسلمات، التي لا جدال فيها، من جهة الأصول، ثم عند تنزيل المعنى المراد على الواقع تجد التردد أو الاعتراض، فيما كان يُسلّم به في أصله العام.

ولما كان تناولنا لما نقول إنما هو مستفاد من أدلة الكتاب والسنة التي لا يكاد حصرها، فدل ذلك على أن كثيرا من العاملين في مجال الدعوة يعتمدون منهج الحفظ والتسليم للسلف، فيما ظهر لهم من أقوالهم، دون الاجتهاد والتطبيق العملي، للتأكد من صواب هذا الفهم الظاهري، فوقعوا في هذا الخطأ الجسيم، ولم يتنبهوا له فيصححوه، وهذه طامة كبرى، لابد من كشفها، وبيان حقيقة بعدها عن الحق والصواب، والله ولي التوفيق والاستعانة.

وقد قادنا البحث ـ كما أوضحنا ـ إلى استلزام القدر مسألة التسيير والتسخير، أي القدرة الإلهية، ولا يمكن أبدا أن تنضبط الأقدار بالعلم الكاشف وحده، وهذه النتيجة توصلنا إليها بالعديد والعديد من أدلة القرآن والسنة، وليس فيها ما يستقل به العقل أو الهوى، ولله الحمد والمنة.

وفي طريقنا إلى هذا البيان الأخير ـ في هذا الفصل ـ والذي نتناوله من جانب تعلق الأفعال بالقدر، نعود مرة أخرى إلى حديث السفينة، والذي ضُرِبَ مثلا لحياة الناس ودنياهم.

[1] سبر غوره تبين حَقِيقَته وسره، المعجم الوسيط (٢/ ٦٦٦).

☜ **فنقول:** قام ركاب السفينة بالاستهام، وبناء على ذلك انقسموا بين العلو والسفل، وهكذا وُجِدَ فعلان، لركاب السفينة، الأول هو الاستهام، والثاني هو الانقسام.

ومن منظور البشر فقد وقع هذان الفعلان باختيارهم، حيث لم يوجد مطلقا سبب مادي ملموس يمنعهم من ذلك، بل استهموا وانقسموا بين العلو والسفل، دون أي حائل مادي يحول بينهم وبين ما أرادوا.

وسوف أجتهد ـ بإذن الله تعالى ـ قدر الاستطاعة في توصيف ما فعله ركاب السفينة، من الجانب القدري استدلالا بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان: ٢]، ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩].

فقوله عز من قائل: {كُلَّ شَىْءٍ}، يشتمل على هذين الفعلين، لا محالة، فعلى أي وجه يُحمل خلق أفعال العباد ـ والتي منها الاستهام والانقسام؟ وهل يتعارض خلق الله أفعال العباد، أن تكون هذه الأفعال من كسبهم؟.

📖 **والإجابة عن ذلك نتلمسها كما يلي:**

لفظ الخلق يعتبر من المشتركات اللفظية التي لها أكثر من معنى، كما يتضح مما يلي:

معنى الخلق: (فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى «الخالِقُ» وَهُوَ الذِي أَوْجد الأَشْيَاءَ جميعَها بَعْدَ أنْ لمْ تكنْ مَوْجُودة، وأَصلُ الخَلْقِ التقْدير،

فهُوَ باعتِبار تقدِيرِ مَا مِنهُ وُجُودُها، وَباعتِبارِ الإِيجَادِ عَلى وَفق التقدِيرِ خَالِقٌ»[1].

وفي نفس المعنى يقول الإمام ابن الوزير: «الوَجْه الأول إن الخلق لفظة مُشتركة وَأشهر مَعانِيهَا التقدِير وَلا نزاع فِي ذَلِك والأفعال مخلوقة بِهَذَا المَعنى بِلَا نزاع، أصل الخلق التقدِير ثمَّ فسر خلق الله الاشياء بعد أن لم تكن وانه تَعَالى يُسمى الخَالِق بِاعْتِبَار تقدِير وجود الأشيَاء مِنه أو بِاعتِبَار الإِيجاد على وفق التقدِير»[2].

فالخلق بمعنى الإيجاد واضح الدلالة، وأما بمعنى التقدير فيحمل على أكثر من وجه، ومنه الإيجاد ـ أيضا ـ ومنه كذلك التهيئة، والتسخير، ومن ذلك ما أورده **الإمام ابن كثير:** «قَوْلُهُ: {هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ} الخَلْقُ: التَّقْدِيرُ، وَالْبَرَاءُ: هُوَ الفَرْيُ، وَهُوَ التَّنْفِيذُ وَإِبْرَازُ مَا قَدَّرَهُ وَقَرَّرَهُ إِلَى الوُجُودِ، وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ قَدَّرَ شَيْئًا وَرَتَّبَهُ يَقْدِرُ عَلَى تَنْفِيذِهِ وَإِيجَادِهِ سِوَى اللَّهِ»[3].

ومعلوم أن التنفيذ والإبراز إلى الوجود يتم بتهيئة الأسباب، التي قدرها سبحانه، ليقع مراده على وفق ما قدر المولى سبحانه وتعالى وقضى.

ولعل هذا ما يعنيه **الإمام ابن الوزير** بقوله: «وَقد أوضحت فِي العواصم بَقِيَّة المباحث وَبطلَان دَعْوَى الاجماع على خلق الأعمَال إِلا بِمَعْنى التقدِير وَسبق القَضَاء وجفوف الاقلام»[4].

---

[1] النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٧٠).

[2] إيثار الحق على الخلق (ص: ٣١١).

[3] تفسير ابن كثير (٨/ ٨٠).

[4] إيثار الحق على الخلق (ص: ٣٢٣).

ولعل ما يقصده **الإمام ابن الوزير** هو نفي القهر والإجبار عن أفعال العباد، وهو ما نؤكد عليه مرارا وتكرارا، وأن القهر والإجبار ليس منهما التسيير والتسخير، مطلقا.

تماما كما في مسألة خلق الإنسان، والتي تقتضي، كما في سنن الله الكونية، أن يتم الخلق عن طريق اتصال الرجل بالمرأة، وتهيئة الأسباب لذلك، ليس معناها وجود قوة خارجية تتحكم في أجهزة الإنسان وجسمه.

☜ **ومعنى ذلك:**

أن هذا المخلوق لابد أن يخرج عن طريق الأبوين، وفي نفس الوقت بالقدر الذي قدره الله تعالى، والذي لا يتبدل ولا يتغير، ولهذا فمن الحتمي واللازم أن يلتقي الأبوان ليخرج منهما الولد الذي قدر الله خلقه، ولا يملك الأبوان أن يفعلا ذلك بالاختيار التام، لأنه قد يتخلف مرادهما، أو مراد أحدهما، بأكثر من سبب لا يملكون له دفعا، ولهذا كان لابد من التسخير الذي يهيئ كلا من الأبوين ليلتقيا، ويكونا صالحين لإنجاب الولد، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًاۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشُّورَى: ٤٩ - ٥٠].

☜ **ومن هنا:** يفهم معنى خلق أفعال العباد، والله أعلى وأعلم.

فأفعال العباد ـ كالأبوين على سبيل المثال ـ وقع منهم التعارف واللقاء بكامل حريتهم، ودون أي قهر أو إجبار، مع أن ما فعلوه لم يكن ليتم لولا أن يسره الله لهم، وسخرهم له، والتسخير ليس معناه الجبر ـ بأي وجه من الأوجه ـ لأن العباد يقومون بأعمالهم دون أي مانع مادي يمنعهم، كما سبق وقلنا، وهم ليسوا

هيكلا يظهر به الفعل، كما في الدمية التي يحركها محرك خارج عن ذاتها، بل هم الذين يقومون بأفعالهم كاملة، استجابة لإرادتهم ومشيئتهم، هذه المشيئة التي تتوقف على مشيئة الله تعالى، ولا يملكون أن يحدثوها من تلقاء أنفسهم، وتفصيل هذا المعنى في قوله تعالى كما أخبر عن نبيه شعيب ﷺ: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأَعْرَاف: ٨٨ - ٨٩].

فكل أفعال العباد التي تنشأ عنهم بالمشيئة لا يمكن أن تقع ولا توجد ولا تحدث إلا إذا شاء الله رب العالمين، ومن هنا قال أهل العلم إن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى وهي كسبهم.

ولعل هذا القول يؤكده حديث الرسول ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَطيَبِ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ وَوَلَدُهُ مِنْ كَسْبِهِ»[1].

مع أن سعي الرجل لتحصيل رزقه مقدر سلفا، ولا يملك مخلوق له دفعا، ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [الشورى: ٩]، ومع ذلك فالسعي والحركة من العبد، ولكنها محكومة بالقضاء والقدر، وكذلك الولد، هو مخلوق لله، ومع هذا هو كسب العبد وفعله، والله أعلى وأعلم.

فإرادة البشر ليس معناها بالضرورة وقوع الفعل على الوجه الذي يريدون، ولعل هذا يتضح من قول الإمام **ابن تيمية**: (فِي قوْله

[1] سنن أبي داود (٣/ ٢٨٩).

تعالى {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} أخبَرَ أنَّ مَشِيئَتَهُمْ مَوْقوفةٌ على مَشِيئَتِهِ ومَعَ هَذَا فلا يُوجِبُ ذَلِكَ وُجُودَ الفِعْلِ مِنْهُمْ، إذْ أكْثَرُ ما فِيهِ أنَّهُ جَعَلَهُمْ شَائِينَ وَلا يَقَعُ الفِعْلُ مِنْهُمْ حَتَّى يَشَاؤُهُ مِنْهُمْ كَمَا فِي قَوْله تَعالى {فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ} {وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ} وَمَعَ هَذَا فلا بُدَّ مِنْ إرادَةِ الفِعْلِ مِنْهُمْ حَتَّى يُرِيدَ مِنْ نَفْسِهِ إعانَتَهُمْ وَتَوْفِيقَهُمْ، فهُنا أرْبَعُ إرادَاتٍ: إرادَةُ البَيَانِ وَإِرادَةُ المَشِيئَةِ وَإِرادَةُ الفِعْلِ وَإِرادَةُ الإعَانَةِ"[1]، وَاللّهُ أعْلَمُ)[2].

قوله : وَمَعَ هَذَا فلا يُوجِبُ ذَلِكَ وُجُودَ الفِعْلِ مِنْهُمْ، والمعنى كما أوضحناه في ركاب السفينة، أنه قد توجد منهم المشيئة والإرادة ثم يعجزون عن الفعل، أو يخطئون، أو يحول بينهم وبين الفعل حائل، فلا يفعلوه، أو غير ذلك، واللّه أعلى وأعلم.

وما أجمل هذا التوضيح والتأكيد في كلام **الإمام القرطبي**: (الذي عليهِ أهلُ السُّنَّةِ أنَّ اللّهَ سُبْحَانَهُ قدَّرَ الأشْيَاءَ، أيْ علِمَ مَقَادِيرَهَا وَأحْوالَهَا وَأزْمَانَهَا قبْلَ إيجادِهَا، ثمَّ أوْجَدَ مِنْهَا مَا سَبَقَ فِي عِلْمِهِ أنَّهُ يُوجِدُهُ على نَحْوِ مَا سَبَقَ فِي عِلْمِهِ، فلا يَحْدُثُ حَدَثٌ فِي العَالَمِ العُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ إلا وَهُوَ صَادِرٌ عَنْ عِلْمِهِ تَعالى وَقدْرَتِهِ وَإِرادَتِهِ دُونَ خَلْقِهِ، وَأنَّ الخَلْقَ لَيْسَ لَهُمْ فِيهَا إلا نَوْع اكْتِسَابٍ وَمُحَاوَلَةٍ وَنِسْبَةٍ وَإِضَافَةٍ، وَأنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ إنَّمَا حَصَلَ لَهُمْ بِتَيْسِيرِ

---

[1] وكأن الإمام ابن تيمية، رحمه الله، يقصد بالإرادات الأربعة ما يلي: إرادة البيان وهي المتعلقة بالتكليف الشرعية والحلال والحرام، وإرادة المشيئة التي يخلقها الله في نفوس العباد، وإرادة الفعل والمتعلقة بالشروع أو الهم بالفعل، وإرادة الإعانة والمتعلقة بالتوفيق والتسهيل والتيسير، والله أعلى وأعلم.

[2] مجموع الفتاوى (١٦/ ٨١).

اللَّهِ تَعَالى وَبِقُدْرَتِهِ وَتَوْفِيقِهِ وَإِلهَامِهِ، سُبْحَانَهُ لا إِلهَ إِلا هُوَ، وَلا خَالِقَ غَيْرُهُ، كَمَا نَصَّ عَلَيْهِ القُرْآنُ وَالسُّنَّة)[1].

ويفرق **الإمام ابن الوزير** بين الخلق والكسب، ويبين أن التعبير عن فعل العبد بالكسب فيه لطيفة لها وجاهتها **حيث يقول**: (فإن أهل السنة وغيرهم أجمعوا على أن الفعل من حيث يسمى كسباً لا يُنسَبُ إلى اللّه، لأن مفهوم هذا اللفظ لا يصح في حقه تعالى، وإنما ذكر أهل السنة أنه يُنسَبُ إلى اللّه وحده من الجهة التي يُسَمَّى منها خلقاً وإبداعاً وإيجاداً من العدم.

وهذا سبب تخصيص أهل السنة للعبد بالكسب، وما كان عندهم كسباً للعبد، فهو فعلٌ له أيضاً، وإنما خصُّوه باسم الكَسْبِ، لأنه لا يصحُ نسبته إلى اللّه بهذا الاسم، كما لا تصح نسبته إلى العبد باسم الخلق الذي هو إيجادُ الذات المعدومة، وأما الفعل، فإنه يصح أن يُنسَبَ إلى اللّه تعالى وإلى العبد، فتركوا التعبير به لاشتراكه، لا لأن كسب العبد ليس بفعلٍ له، فافهم هذه اللطيفة)[2]، والتعبير بالكسب معناه أن العبد هو الذي قام بهذا الفعل بكامل جوارحه، ودون قهر أو إكراه.

وفي الحديث عَنْ **أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ**، **قَالَ**: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا خَلَقْتُ الْخَيْرَ وَقَدَّرْتُهُ فَطُوبَى لِمَنْ خَلَقْتُهُ لِلْخَيْرِ وَخَلَقْتُ الْخَيْرَ لَهُ وَأَجْرَيْتُ الْخَيْرَ عَلَى يَدَيْهِ أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا خَلَقْتُ الشَّرَّ وَقَدَّرْتُهُ فَوَيْلٌ لِمَنْ خَلَقْتُ الشَّرَّ لَهُ وَخَلَقْتُهُ لِلشَّرِّ وَأَجْرَيْتُ الشَّرَّ عَلَى يَدَيْهِ " وَأَمَّا مَا رُوِيَ فِي حَدِيثِ دُعَاءِ الِاسْتِفْتَاحِ: الْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ «فَإِنَّمَا مَعْنَاهُ

---

[1] تفسير القرطبي (١٧/ ١٤٨).

[2] العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم (٧/ ١٨٣).

الإِرْشَادُ إِلى اسْتِعْمَالِ الأَدَبِ فِي الثَّنَاءِ عَلى اللَّهِ عزَّ وَجَلَّ وَالمَدْحِ لهُ بأَنْ يُضَافَ إِليْهِ مَحَاسِنُ الأُمُورِ دُونَ مَسَاوِيهَا، وَلمْ يَقْصِدْ بِهِ إِدْخَالَ شَيْءٍ فِي قدْرَتِهِ وَنفْيِ ضِدِّهِ عَنْهُ، فقَدْ قالَ فِي هَذَا الحَدِيثِ» وَالمَهْدِيُّ مَنْ هَدَيْتَ «وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ» وَالمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَ اللَّهُ " وَفِي ذَلِكَ دَلالَة عَلى أنَّهُ يَهْدِي قَوْمًا دُونَ قَوْمٍ وَيَعْصِمَ قَوْمًا دُونَ قَوْمٍ آخَرِينَ وَمَنْ لمْ يَهْدِهِ وَلمْ يَعْصِمْهُ فقَدْ خَذَلهُ وَمَنْ خَذَلهُ لمْ يُرِدْ بِهِ خَيْرًا، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [المائدة من الآيه : ٤١]، وَكَانَ النَّضْرُ بْنُ شُمَيْلٍ يَقُولُ: مَعْنَاهُ الشَّرُّ لا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِليْكَ)[1].

وما أجمل ما شرح به **الإمام ابن القيم** حديث الاستخارة **حيث يقول**: (وهو سبحانه كما هو العليم الحكيم في اختياره من يختاره من خلقه وإضلاله من يضله منهم فهو العليم الحكيم بما في أمره وشرعه من العواقب الحميدة والغايات العظيمة قال تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ} بين سبحانه أن ما أمرهم به يعلم ما فيه من المصلحة والمنفعة لهم التي اقتضت أن يختاره ويأمرهم به، وهم قد يكرهونه، إما لعدم العلم، وإما

[1] الاعتقاد للبيهقي (ص: ١٤٥)، وفي الإبانة الكبرى لابن بطة (٣/ ١٦٣) عَن حُذَيْفَة بن الْيَمَان قَالَ قَالَ رَسُول الله ﷺ إِن الله يصنع كل صانع وصنعته وَفِي حَدِيث آخر عَن أبي أُمَامَة الْبَاهِلِيّ قَالَ قَالَ رَسُول الله ﷺ إِن الله عز وَجل يَقُول أَنا الله لَا إِلَه إِلَّا أَنا خلقت الْخَيْر وَقدرته فطوبى لمن خلقته للخير وخلقت الْخَيْر لَهُم وأجريت الْخَيْر على يَدَيْهِ أَنا الله لَا إِلَه إِلَّا أَنا خلقت الشَّرّ وَقدرته فويل لمن خلقت الشَّرّ لَهُ وخلقته للشر وأجريت الشَّرّ على يَدَيْهِ

لنفور الطبع، فهذا علمه بما في عواقب أمره، مما لا يعلمونه، وذلك علمه بما في اختياره من خلقه بما لا يعلمونه، فهذه الآية تضمنت الحض على التزام أمر الله وإن شق على النفوس، وعلى الرضا بقضائه وإن كرهته النفوس، وفي حديث الاستخارة: "اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه وإن كنت تعلمه شرا لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به"، ولما كان العبد يحتاج في فعل ما ينفعه في معاشه ومعاده إلى علم ما فيه من المصلحة وقدرة عليه وتيسره له وليس له من نفسه شيء من ذلك بل علمه ممن علم الإنسان ما لم يعلم وقدرته منه فإن لم يقدره عليه وإلا فهو عاجز وتيسيره منه فإن لم ييسره عليه وإلا فهو متعسر عليه بعد إقداره أرشده النبي ﷺ إلى محض العبودية، وهو جلب الخيرة من العالم بعواقب الأمور وتفاصيلها وخيرها وشرها، وطلب القدرة منه، فإنه إن لم يقدره وإلا فهو عاجز، وطلب فضله منه، فإن لم ييسره له ويهيئه له، وإلا فهو متعذر عليه، ثم إذا اختاره له بعلمه، وأعانه عليه بقدرته، ويسره له من فضله، فهو يحتاج إلى أن يبقيه عليه، ويديمه بالبركة التي يضعها فيه، والبركة تتضمن ثبوته ونموه، وهذا قدر زائد على إقداره عليه، وتيسيره له، ثم إذا فعل ذلك كله فهو محتاج إلى أن يرضيه به، فإنه قد يهيئ له ما يكرهه، فيظل ساخطا، ويكون قد خار الله له فيه، قال عبد الله بن عمران: "الرجل ليستخير الله فيختار له فيسخط على ربه فلا يلبث ان ينظر في

العاقبة فإذا هو قد خار له" وفي المسند من حديث سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ: "من سعادة ابن آدم استخارته الله تعالى ومن سعادة ابن آدم رضاه بما قضاه الله ومن شقوة ابن آدم تركة استخارة الله عز وجل ومن شقوة ابن آدم سخطه بما قضى الله فالمقدور يكتنفه أمران الاستخارة قبله والرضا بعده فمن توفيق الله لعبده وإسعاده إياه أن يختار قبل وقوعه ويرضى بعد وقوعه ومن خذلانه له أن لا يستخيره قبل وقوعه ولا يرضى به بعد وقوعه وقال **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه: "لا أبالي أصبحت على ما أحب أو على ما أكره لأني لا أدري الخير فيما أحب أو فيما أكره" وقال الحسن: "لا تكرهوا النقمات الواقعة والبلايا الحادثة فلرب أمر تكرهه فيه نجاتك ولرب أمر تؤثره فيه عطبك")[1].

وقد استوفى **الإمام ابن القيم** مسائل القضاء والقدر بالشرح والبيان، ومن أوضح ما قاله في هذا الباب، **قوله**:

(فيما جاء في السنة من تفرد الرب تعالى بخلق أعمال العباد كما هو منفرد بخلق ذواتهم وصفاتهم، قال **البخاري** في كتاب خلق أفعال العباد عن **حذيفة** رضي الله عنه قال قال النبي ﷺ: "إن الله يصنع كل صانع وصنعته" قال **البخاري**: "وتلا بعضهم عند ذلك: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} وعن **حذيفة** نحوه موقوفا عليه وأما استشهاد بعضهم بقوله تعالى: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} بحمل ما على المصدر أي خلقكم وأعمالكم فالظاهر خلاف هذا وأنها موصولة أي خلقكم وخلق الأصنام التي تعملونها فهو يدل على خلق أعمالهم من جهة اللزوم فإن الصنم اسم للآلة التي حل فيها العمل

[1] شفاء العليل (ص: ٣٣).

المخصوص فإذا كان مخلوقا للّه كان خلقه متناولا لمادته وصورته قال **البخاري**: عن **ابن عمر** رضي الله عنه: "كل شيء بقدر حتى وضعك يدك على خدك" قال **البخاري**: سمعت **عبيد الله بن سعيد** يقول سمعت **يحيى بن سعيد** يقول: "ما زلت أسمع أصحابنا يقولون أفعال العباد مخلوقة" لم يسأل القدرة المصححة التي هي سلامة الأعضاء وصحة البنية وإنما سأل القدرة التي توجب الفعل فعلم أنها مقدورة للّه ومخلوقة له وأكد ذلك بقوله: "فإنك تقدر ولا أقدر" أي تقدر أن تجعلني قادرا فاعلا ولا أقدر أن أجعل نفسي كذلك وكذلك قوله: "تعلم ولا أعلم" أي حقيقة العلم بعواقب الأمور ومآلها والنافع منها والضار عندك وليس عندي وقوله يسره لي أو اصرفه عني فإنه طلب من اللّه تيسيره إن كان له فيه مصلحة وصرفه عنه إن كان فيه مفسدة وهذا التيسير والصرف متضمن إلقاء داعية الفعل في القلب أو إلقاء داعية الترك فيه ومتى حصلت داعية الفعل حصل الفعل وداعية الترك امتنع الفعل وعند القدرية ترجيح فاعلية العبد على الترك منه ليس للرب فيه صنع ولا تأثير فطلب هذ التيسير منه لا معنى له عندهم فإن تيسير الأسباب التي لا قدرة للعبد عليها موجود ولم يسأله العبد وقوله: "ثم رضني به" يدل على أن حصول الرضا وهو فعل اختياري من أفعال القلوب أمر مقدور للرب تعالى وهو الذي يجعل نفسه راضيا وقوله: "فاصرفه عني واصرفني عنه" صريح في أنه سبحانه هو الذي يصرف عبده عن فعله الاختياري إذا شاء صرفه عنه كما قال تعالى في حق يوسف الصديق: {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ} وصرف السوء والفحشاء هو صرف دواعي القلب وميله إليهما فينصرفان عنه بصرف دواعيهما وقوله "وأقدر لي

الخير حيث كان" يعم الخير المقدور للعبد من طاعته وغير المقدور له فعلم أن فعل العبد للطاعة والخير أمر مقدور لله إن لم يقدره الله لعبده لم يقع من العبد ففي هذا الحديث الشفاء في مسألة القدر وأمر النبي ﷺ الداعي به أن يقدم بين يدي هذا الدعاء ركعتين عبودية منه بين يدي نجواه وأن يكونا من غير الفريضة ليتجرد فعلهما لهذا الغرض المطلوب ولما كان الفعل الاختياري متوقفا على العلم والقدرة والإرادة لا يحصل إلا بها توسل الداعي إلى الله بعلمه وقدرته وإرادته التي يؤتيه بها من فضله وأكد هذا المعنى بتجرده وبراءته من ذلك فقال "إنك تعلم ولا أعلم وتقدر ولا أقدر" وأمر الداعي أن يعلق التيسير بالخير والصرف بالشر وهو علم الله سبحانه تحقيقا للتفويض إليه واعترافا بجهل العبد بعواقب الأمور كما اعترف بعجزه ففي هذا الدعاء إعطاء العبودية حقها وإعطاء الربوبية حقها وبالله المستعان)[1].

---

[1] شفاء العليل (ص: ١٠٩)، وما بعدها.

خطأ أهل العلم المتأخرين في مسألة التسيير والتسخير

يغلب على ظني أن الخطأ الذي يظهر من أقوال أهل العلم المتأخرين في مسألة التسيير والتسخير إنما يرجع من جهة عدم تدقيق المصطلحات، كما في مصطلح التخيير والتسيير والجبر، والتي يكثر استعمالها في هذه المسألة.

ووجه ذلك :

أنهم اعتبروا أن التسيير والتسخير يراد بهما الجبر والقهر، وهذا دون أدنى شك باطل بطلانا لا يحتاج إلى دليل، ومع هذا فقد بينا الفرق بيانا شافيا ولله الحمد والمنة.

ولسنا نقول بهذا نقلا صريحا من أقوالهم، بل بسبب ما ذكروه من تمثيل لهذه المسألة، فغلب على الظن أنهم يقصدون ذلك، والله أعلى وأعلم.

ومن ذلك قولهم: إن أفعال الإنسان تقع على ثلاثة أقسام :

واقع عليه : كما لو وقع عليه ظلم من غيره، فهذا لا خيار له فيه.

وواقع فيه : كالمرض مثلا وما في حكمه، فهذا أيضا لا خيار له فيه.

وواقع منه : وهو كل ما يفعله بإرادته واختياره، وهذا هو الجزء الذي سيحاسب على فعله بالثواب أو العقاب، وهذا القسم هو مخير فيه تخييرا تاما"[1].

---

[1] الشيخ ياسر الدوسري، عبر قناة اليوتيوب، وهذا هو النص كاملا: هل الإنسان مسير أم مخير؟

هذا سؤال محير لكثير من الناس لكنه للعلماء غير محير، لماذا محير ؟ لأنه فعلاً في أشياء في الحياة أنت مسير فيها، وفي أشياء في الحياة أنت مخير فيها، يعني أنت خلقت في الحياة أبوك وأمك هل أنت اخترتهم؟

طيب في أشياء ثانية أنت مخير فيها، إذا مشيت بالسيارة أنت الذي تحدد هل تلف يمين أم لا؟ إذا جاءت الصلاة أنت الذي تحدد هتصلي أم لا؟، ففي أشياء أنت مسير ومخير.

فالعلماء أجابوا عن هذا بجواب جميل ورائع، يقول أن أعمال الإنسان تقع بين ثلاثة أفعال:

الإنسان حياته بين ثلاثة أفعال: أفعال تقع عليه، وأفعال تقع فيه، وأفعال تقع منه.

طلعت الشارع فوجدت الجو يمطرُ، أو وجدت الجو حاراً، أو وأنت تمشي، فجأة ــ لا قدر الله ــ صار حادث، هذه أفعال تقع عليك، هذه مسير.

وأفعال تقع فيك تقع جوه داخل جسدك، مرض أو الحركة التي تسير داخل جسدك، حركة القلب، الدورة الدموية، الأمعاء، المعدة، الأكل يدخل من هنا ويخرج من هنا، ولا تعرف كيف صار، كل ما يدخل داخل جسدك أنت مسير فيه، والحمد لله أن الأفعال التي تقع فينا لسنا مخيرين فيها الحمد لله، إنها نعمة، تخيل مسئول عن قلبك، تخيل مسئول عن الدورة الدموية، مسئول عن عملية الهضم، تخيل لو مسئول عن لو جاء مرض ضد المناعة، وتحارب كرات الدم البيضاء وكرات الدم الحمراء، وقصة وسالفة.

لكن الأفعال التي تقع منك: هذه هي الدائرة الوحيدة التي أنت مخير فيها بس، أنت تقرر تصلي فتصلي، تنام فتنام، تلف يمين تلف يسار، تصاحب فلان ولا

وحملوا نصوص الشرع التي تتناول هذه المسألة بالبيان على النحو التالي :

(ولهذا ينبغي أن يفهم الإنسان القول الحق، وهو قول أهل السنة والجماعة، وهو أن الله خلق أفعال العباد، وفي نفس الوقت الذي خلق فيه أفعال العباد لم يجبرهم على فعل معين، وإنما خلق لهم إرادات، فهذه الإرادات يختارون بها الأعمال، ولهذا نجد أن الناس بعضهم صالح باختيار منه، وبعضهم ملحد باختيار منه، ونجد في نفس الوقت أشخاصاً كانوا صالحين وصاروا ملحدين، ونجد أشخاصاً كانوا منحرفين ثم صاروا صالحين، وهذا يدل على أن التنقل عن اختيار، فأنت عندما تصلي لا تجد أحداً يأخذك جبراً وقصراً وأنت لا تريد أن تصلي، كما أن الذي يشرب الخمر لا يجد أحداً يأخذه بيده غصباً وجبراً ثم يدخله من أجل أن يشرب الخمر، بل كل أفعالنا عن اختيار)[1].

ومفاد هذا القول كما في الظاهر هو إثبات الإرادة الكاملة، والاختيار المطلق للإنسان في كل أفعاله التي تقع منه، وهذا هو ما تعلمناه صغارا وسمعناه ـ تقريبا ـ من كل أهل العلم، والدعاة الذين تناولوا هذا الموضوع، والذي تنبهنا ـ في هذا العمر المتأخر ـ إلى خطئه وخطورته من جهة العقيدة، ولله الحمد والمنة.

وكما نلاحظ فإن قول الشارح: (كما أن الذي يشرب الخمر لا يجد أحداً يأخذه بيده غصباً وجبراً ثم يدخله من أجل أن يشرب الخمر، بل كل أفعالنا عن اختيار) يدل على أنه جعل المسألة محصورة

تصاحب فلان، تصوم أو لا تصوم، هذه أفعال أنت الذي تقرر، هذه الدائرة فقط التي أنت مخير فيها فقط.

[1] شرح رسالة العبودية لابن تيمية، للشيخ: عبد الرحيم بن صمايل العلياني السلمي، دروس صوتية.

بين القهر والإجبار وبين الاختيار، وهذا طبعا باطل تماما، لأن المصطلح الصحيح ليس هذا ولا ذاك بل الصحيح هو التسيير والتسخير.

ونعتقد أن الذي ساعد على انتشار هذا القول أن شراح العقيدة لم يهتموا برفع اللبس، والفصل الواضح بين المعاني والمصطلحات، فأصبحت كالمجمل الذي لا يمكن فهمه، على وجه صحيح، وتبين المراد منه إلا بالبحث والاجتهاد، وهو ما قد يعسر على الكثيرين من أولي الاهتمام، فكيف بغيرهم؟.

تصويب الخطأ وبيان المصطلحات:

في تقسيم أفعال الإنسان إلى ثلاثة أقسام، عليه وفيه ومنه، لم ينتبه أصحاب هذا القول إلى أن ما يقع من الإنسان، ليس منفصلا عن الواقع عليه، لأن ما يقع منه على **وجهين**: **الأول**: ما يتعلق بما يخصه هو نفسه، **والوجه الثاني** هو ما يقع منه على الغير، أو الواقع عليه من الغير، وهذا الوجه غفل عنه تقريبا كل من وقع في خطأ المصطلحات.

لأن ما يقع على الإنسان من الغير، وما يقع منه على غيره، لا يصلح مطلقا أن يكون متروكا للاختيار التام، وإلا لفسدت الحياة، كما سبق وبينا، ولأن القول بذلك يجعل ابتلاء الناس مرهونا بتصرفاتهم تجاه بعضهم البعض، وهذا في قمة البطلان، والبعد عن حقيقة العقيدة، كما يبينه قوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [التَّوۡبَة: ٥١]، وقد بينا فساد القول بأن ذلك يقصد به العلم الكاشف وحده، ولا حاجة إلى تكرار ما سبق.

ومعنى ذلك أن الله عز وجل لا يترك الناس يظلم بعضهم بعضا، ويكتب هذا قدرا وقضاء، بل الله سبحانه وتعالى يقدر الأقدار ويسخر لها العباد، دون قهر أو إجبار، ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ١٣٧﴾ [البَقَرَة: ١٣٧].

والآية لا تحتمل أن يكون ذلك بالعلم الكاشف وحده، بل لابد من تدخل القدرة الإلهية، وذلك بالتسيير والتسخير، كما يذكر **الإمام الطبري** بقوله: (قال **أبو جعفر**: يعني تعالى ذكره بقوله: {فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ}، فسيكفيكَ الله يا محمد، هؤلاءِ الذين قالوا لكَ ولأصحابك: "كونوا هودًا أو نَصارَى تهتدوا"، من اليهود والنصارى، إنْ هم تولوْا عن أن يؤمنوا بمثل إيمان أصحابك بالله، وبما أنزل إليك، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق وسائر الأنبياء غيرهم، وفرقوا بين الله ورُسُله ـ إما بقتل السيف، وإما بجلاء عن جوارك، وغير ذلك من العقوبات؛ فإن الله هو "السميع" لما يقولون لك بألسنتهم، ويبدون لك بأفواههم، من الجهل والدعاء إلى الكفر والملل الضّالة ـ "العليمُ" بما يُبطنون لك ولأصحابك المؤمنين في أنفسهم من الحَسد والبغضاء، ففعل الله بهم ذلك عَاجلا وأنجزَ وَعْده، فكفى نبيّه ﷺ بتسليطه إيّاه عليهم، حتى قتل بعضهم، وأجلى بعضًا، وأذلّ بعضًا وأخزاه بالجزية والصَّغار)[1].

وهكذا كانت إرادة الله تعالى في حماية رسوله ﷺ ومن معه من صحابته رضي الله عنهم، وذلك لم يتم في صورة قهر أو إجبار، ولكن مع

---

[1] تفسير الطبري (٣/ ١١٦).

هذا لم يترك لهم الأمر على نحو ما يختارون، بل تم الأمر بالتسيير والتسخير، أو كما ذكر **الإمام الطبري**: (بتسليطه إيّاه عليهم).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ (إبراهيم: ٤٢).

يقول الإمام الطبري: (عن ميمون بن مهران في قوله {وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ} قال: هي وعيد للظالم وتعزية للمظلوم)[1].

أما قوله تعالى: {إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ}، (يقول تعالى ذكره: إنما يؤخر ربك يا محمد هؤلاء الظالمين الذين يكذّبونك ويجحَدون نبوّتك، ليوم تشخص فيه الأبصار. يقول: إنما يؤخّر عقابهم وإنزال العذاب بهم، إلى يوم تشخص فيه أبصار الخلق، وذلك يوم القيامة)[2].

وقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ (الأحزاب: ٩ : ١١)، وهذه الآيات تبين أن الخالق سبحانه لا يترك عباده يتصرفون في ملكه، على وفق ما يشتهون، بل إنه سبحانه يحكمهم بمراده وقضائه وقدره عز وجل.

---

[1] المرجع السابق (١٧/ ٢٨).

[2] المرجع السابق (١٧/ ٢٩).

فاللّه هو الخالق لأفعال العباد، وإن كانت واقعة بكسبهم، فليس معناه إطلاق إرادتهم واختيارهم، وكذلك ليس معناه قهرهم وإجبارهم، واللّه أعلى وأعلم.

وسوف نتناول من الأدلة الشيء الكثير الذي يدل على ذلك بإذن اللّه تعالى.

أما عن الاستعمال الشرعي لهذه المصطلحات فيبينه ما يلي :

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (فصلت:١١)، والآية تنفي القهر والجبر، ومع هذا فقد أخبر سبحانه أنها مسخرة، حيث يقول: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الجاثية: الآيتان ١٢ ، ١٣)، وهكذا يتضح بجلاء الفرق بين الجبر أو القهر وبين التسخير.

وكذلك فيما يخص العباد يتأكد نفس المعنى كما في قوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (النحل:١٠٦)، رفع الخالق سبحانه الإثم والعقوبة عن المكره، إذا اطمأن قلبه بالإيمان، وهذا يؤكد أن الجبر والقهر يتنافيان مع الحساب.

بينما أخبر سبحانه أنه عز وجل سخر العباد، ولم ينف عنهم الحساب، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ

قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ
بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ (الزخرف:٣٢).

القدر لا ينافي التخيير التام أحيانا

لا جدال أن التسيير والتسخير يستلزمان توجيه عقل الإنسان وفكره إلى أمر بعينه، ليقع منه الفعل بعد ذلك باختياره دون قهر أو إجبار.

وهذا المعنى لا ينفي أن العبد سيكون مدركا يوم القيامة لكل أحواله في الدنيا فيعرف ما تم تسييره وتسخيره فيه، ومع هذا لا يمكنه أن يعتذر به، حيث قامت عليهم الحجة البالغة في بعض الأعمال التي قاموا بها دون تسيير أو تخيير، واختار كل منهم طريقه، باختياره التام، فاستحق المآل الذي صار إليه، وما ربك بظلام للعبيد"[1].

ولعل هذا - أيضا - يقتضي منا أن نثبت بالأدلة جانب التخيير في أفعال العباد، لتكتمل صورة المسألة وتستوعبها القلوب والأذهان.

وقد أكدنا على أن موضوع التخيير، أو التيسير والتسخير لا يمكن للإنسان أن يدركه، أو يتعرف عليه، إلا في حالات محدودة، كما في حالات الإلهام، والرؤى المنامية، وغيرها مما يدخل في معناها، أما كل ما سوى ذلك فإن أفعال العباد مرهونة بمشيئة الله تعالى، مرهونة بقضاء الله وقدره، ولا يعرف أحد من الناس، متى كان مخيرا، أو مسيرا، ولا مناص له من الامتثال

---

[1] قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ}، [الزمر: ٤٧] {وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [الزمر: ٤٨] {وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [الجاثية: ٣٣]

بالعبودية كما أمر سبحانه وتعالى وكلف عباده، إذا كان يريد أن يسلك طريق النجاة، وكل هذا دون أن يفارق اللجوء إلى الله تعالى والتذلل بين يديه تبارك وتعالى بالدعاء كما أمر جل في علاه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (غافر:٦٠)، وأن يكون حاله في كل ذلك بين الخوف والرجاء، ولا طريق آخر ليطمئن قلبه، وتسكن نفسه، ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (الجاثية: من الآية ١٩).

وأقصد من ذلك أن أبين أنه ما لم يوجد نص يدل على التخيير أو التسيير، فلا وسيلة للقطع بشيء من ذلك قط.

وفي هذه الأدلة نجتهد بإذن الله تعالى في بيان أحد الجوانب التي تتعلق بالقضاء والقدر ألا وهو جانب التخيير، ونحاول قدر الاستطاعة الوصول إلى ذلك من خلال هذه الآيات الكريمة، وما التوفيق إلا من عند الله تعالى، وإذا ما صدقت النوايا فحال المجتهد بين الأجرين أو الاثنين بفضل الله تعالى وذلك كما في الحديث: أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ، فَلَهُ أَجْرٌ»[1]، ولله الحمد والمنة والثناء الجميل.

📖 ومن هذه الأدلة :

الدليل الأول: قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ

[1] صحيح مسلم (٣/ ١٣٤٢).

وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ [البَقَرَة: ٢٥٣].

قوله تعالى: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ}، يبين أن اقتتالهم إنما وقع باختيارهم، لأن الله عز وجل بين أنه لو شاء جل شأنه أن لا يقتتلوا لفعل، فدل على أنه سبحانه تركهم ليقع منهم ما هو مقدر عليهم والذي يقع باختيارهم، دون تسيير أو تسخير، والله أعلى وأعلم.

يقول الإمام الطبري: (قال **أبو جعفر**: يعني تعالى ذكره بذلك: ولكن اختلف هؤلاء الذين من بعد الرسل، لما لم يشأ الله منهم تعالى ذكره أن لا يقتتلوا، فاقتتلوا من بعد ما جاءتهم البينات من عند ربهم بتحريم الاقتتال والاختلاف، وبعد ثبوت الحجة عليهم بوحدانية الله ورسالة رسله ووحي كتابه، فكفر بالله وبآياته بعضهم، وآمن بذلك بعضهم. فأخبر تعالى ذكره: أنهم أتوا ما أتوا من الكفر والمعاصي، بعد علمهم بقيام الحجة عليهم بأنهم على خطأ، تعمدا منهم للكفر بالله وآياته.

ثم قال تعالى ذكره لعباده: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا}، يقول: ولو أراد الله أن يحجزهم - بعصمته وتوفيقه إياهم عن معصيته فلا يقتتلوا، ما اقتتلوا ولا اختلفوا {وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ}، بأن يوفق هذا لطاعته والإيمان به فيؤمن به ويطيعه، ويخذل هذا فيكفر به ويعصيه)[1].

---

[1] تفسير الطبري (٥/ ٣٨١).

الدليل الثاني: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ۝٩٠ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ۝٩١﴾ [النِّسَاء : ٩٠ - ٩١]، **قوله تعالى**: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ} ، ومعنى هذا أن الله لم يسلطهم، وتركهم لاختيارهم، كما في دلالة قوله تعالى: {فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ}.

يقول الإمام الجصاص: «والتسليط المذكور في الآية له وجهان أحدهما تقوية قلوبهم ليقاتلوكم والثاني إباحة القتال لهم في الدفع عن أنفسهم»[1] ، وواضح قوله تقوية قلوبهم وهو ما يدخل في دائرة التسيير والتسخير.

ويقول الإمام القرطبي: «قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقاتَلُوكُمْ} تَسْلِيطُ اللَّهِ تَعَالَى الْمُشْرِكِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ هُوَ بِأَنْ يُقْدِرَهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَيُقَوِّيهِمْ إِمَّا عُقُوبَةً وَنِقْمَةً عِنْدَ إِذَاعَةِ الْمُنْكَرِ وَظُهُورِ الْمَعَاصِي، وَإِمَّا ابْتِلَاءً وَاخْتِبَارًا كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ}،

[1] أحكام القرآن للجصاص (٣/ ١٩٠).

وَإِمَّا تَمْحِيصًا لِلذُّنُوبِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا}، وَلِلَّهِ أَنْ يَفْعَلَ مَا يَشَاءُ وَيُسَلِّطُ مَنْ يَشَاءُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ إِذَا شَاءَ)[1].

وظاهر الآيات يدل على أن ما جرى في هذه الواقعة إنما كان ابتلاء للمؤمنين، ولهذا تعلق فيها القدر بالعلم الأزلي الكاشف، وليس التسيير والتسخير ـ والله أعلى وأعلم.

الدليل الثالث: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ [التَّوْبَة : ١٠٧ - ١١٠].

وفي هذا الدليل تنص الآيات على أن هذا الفريق من المنافقين أرادوا أن يفتنوا الناس عن دينهم بهذا الأسلوب الشيطاني، وذلك بأن تكون الفتنة في صورة الطاعة والعبادة، ليتوفر لهم أكبر عدد يمكن أن يوقعوا به، ومع هذا لم يمنعهم الله من ذلك بالتسخير الذي لا يملكون لهم دفعا، بل تركهم وما يريدون.

ومن هنا نفهم أن ما وقع منهم بسوء طويتهم إنما وقع باختيارهم، وذلك لتنبيه الفئة المؤمنة إلى عدم الاغترار بالصورة

---

[1] تفسير القرطبي (٥/ ٣١٠).

والشكل، إذا خلا المضمون مما يوافق هذه الصورة الخارجية، وأن يكون التكليف الشرعي بالأمر الملزم بعدم الصلاة في هذا المسجد أو القيام فيه، حاضرا في الأذهان دوما نظرا لخطورة مثل هذه الطرق الشيطانية، فكان الدليل المادي العملي كأنه تذكير دائم لجماعة المسلمين، حتى لا يقعوا في مثل هذه المهالك، والله أعلم.

ولعل مما يدل على التخيير قوله تعالى: {وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}، ولعل هذه الشهادة تقطع بذلك، ولتقوم عليهم الحجة يوم القيامة، ومن جانب آخر تطمئن قلوب أهل الإيمان أن الله لا تخفى عنه خافيه، وكما يقول **الإمام الماتريدي**: (قوله تعالى: {وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}، فيه ما ذكرنا من الدلالة على إثبات رسالة مُحَمَّد ﷺ)[1]، ومن المؤكد أن إثبات الرسالة يتوصل إليه الناس بعقولهم، لابد أن يكون من ضمن السبل إلى ذلك ما يكون بالتخيير، ومن ذلك هذا الدليل، والله أعلى وأعلم.

ونتبين ذلك مما يلي :

يقول الإمام الطبري: (**قال أبو جعفر**: فتأويل الكلام: والذين ابتنوا مسجدًا ضرارًا لمسجد رسول الله ﷺ، وكفرًا بالله لمحادّتهم بذلك رسولَ الله ﷺ، ويفرّقوا به المؤمنين، ليصلي فيه بعضهم دون مسجد رسول الله ﷺ، وبعضهم في مسجد رسول الله ﷺ، فيختلفوا بسبب ذلك ويفترقوا {وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ}، يقول: وإعدادًا له، لأبي عامر الكافر الذي خالف الله ورسوله، وكفر بهما، وقاتل رسول الله {مِنْ قَبْلُ}، يعني من قبل بنائهم ذلك المسجد، وذلك

[1] تفسير الماتريدي (٥/ ٤٧٩).

أن أبا عامر هو الذي كان حزب الأحزاب، يعني: حزب الأحزاب لقتال رسول الله ﷺ، فلما خذله الله، لحق بالروم يطلب النصر من ملكهم على نبي الله، وكتب إلى أهل مسجد الضرار يأمرهم ببناء المسجد الذي كانوا بنوه، فيما ذكر عنه، ليصلي فيه، فيما يزعم، إذا رجع إليهم. ففعلوا ذلك»[1].

وظاهر السياق وكذلك التأكيد على أن ما قاموا به هو فعلهم {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا} وكذلك {وَلَيَحْلِفُنَّ} لعله يشير بقوة إلى مسألة (التخيير)، ولعل ما يدل على ذلك، تلك النتيجة التي آل إليها المسجد، من الإحراق والتدمير، والله أعلى وأعلم.

يقول الإمام الطبري: «يقول جل ثناؤه: {وَلَيَحْلِفُنَّ} بانوه: {إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى}، ببنائنا إلا الرفق بالمسلمين، والمنفعة والتوسعة على أهل الضعف والعلة ومن عجز عن المصير إلى مسجد رسول الله ﷺ للصلاة فيه، وتلك هي الفعلة الحسنة، {وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}، في حلفهم ذلك، وقيلهم: ما بنيناه إلا ونحن نريد الحسنى!، ولكنهم بنوه يريدون ببنائه السُّوأى"[2]، ضرارًا لمسجد رسول الله ﷺ، وكفرًا بالله، وتفريقًا بين المؤمنين، وإرصادًا لأبي عامر الفاسق»[3].

ويقول الإمام الماتريدي: «قوله تعالى: {وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ} كانوا يقصدون بذلك أن يفرقوا بين ضعفة من المؤمنين وبين رسول الله، فيلبسوا عليهم الدين، لأنهم كانوا أهل لسان وجدل، وذلك

---

[1] تفسير الطبري (١٤/ ٤٦٩).

[2] السوأى: نقيض الحسنى، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم (٥/ ٣٢٧٠).

[3] تفسير الطبري (١٤/ ٤٧٠).

كله كفر على ما ذكر، وفيه دلالة إثبات رسالة نبينا مُحَمَّد ﷺ لأنه معلوم أنهم أسروا وأضمروا فيما بينهم)[1].

ثم يأتي الأمر الشرعي التكليفي، بعدم الصلاة في هذا المسجد، بل وأيضا تحريقه، للتأكيد على وجوب أن لا تكون المساجد وسيلة لصد الناس عن الدين، وبث الفتنة بينهم.

يقول الإمام الطبري: (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: {لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا}، يا محمد، في المسجد الذي بناه هؤلاء المنافقون، ضرارًا وتفريقًا بين المؤمنين، وإرصادًا لمن حارب الله ورسوله. ثم أقسم جل ثناؤه فقال:
{لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ}، أنت {فِيهِ})[2].

ثم يبين تبارك وتعالى مآل هذه الفئة، التي أرادت النيل من الفئة المؤمنة، والتفريق بينها، فقال جل شأنه: {أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}، **يقول الإمام الطبري:** (وإنما هذا مَثلٌ. يقول تعالى ذكره: أيّ هذين الفريقين خير؟ وأيّ هذين البناءين أثبت؟ أمَن ابتدأ أساس بنائه على طاعة الله، وعلمٍ منه بأن بناءه لله طاعة، والله به راضٍ، أم من ابتدأه بنفاق وضلال، وعلى غير بصيرة منه بصواب فعله من خطئه، فهو لا يدري متى يتبين له خطأ فعله وعظيم ذنبه، فيهدمه، كما يأتي البناءُ على جرف ركيّةٍ لا حابس لماء السيول عنها ولغيره من المياه، لا تَلْبثه السيول أن تهدمه وتنثره، يقول الله جل

[1] تفسير الماتريدي (٥/ ٤٧٦).
[2] تفسير الطبري (١٤/ ٤٧٤).

ثناؤه: {فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ}، يعني فانتثر الجرف الهاري ببنائه في نار جهنم)[1].

ويقول الإمام الماوردي: (**ويحتمل المقصود بضرب هذا المثل وجهين**: **أحدهما**: أنه لم يبق بناؤهم الذي أسس على غير طاعة الله حتى سقط كما يسقط ما بني على حرف الوادي. الثاني: أنه لم يخف ما أسرُّوه من بنائه حتى ظهر كما يظهر فساد ما بنى على حرف الوادي بالسقوط، {فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ} **فيه وجهان**: **أحدهما**: أنهم ببنيانهم له سقطوا في نار جهنم، **الثاني**: أن بقعة المسجد مع بنائها وبُناتها سقطت في نار جهنم)[2].

ويمكن أن نقول إن سوء العاقبة، التي بينتها الآية الكريمة، دليل على أنهم أحدثوا أمرا، بإرادتهم واختيارهم، لم يسبقوا إليه من قبل، ولعل هذا أيضا يؤكد أنهم كانوا مخيرين تماما، وبذلك قامت عليهم الحجة، واستحقوا سوء العاقبة والعياذ بالله تعالى.

الدليل الرابع: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ ۖ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾﴾ [مُحَمَّد: ٤].

---

[1] المرجع السابق (١٤/ ٤٩٢).

[2] تفسير الماوردي (٢/ ٤٠٤).

وانتصار الله منهم يمكن أن يكون بسبب من قبلهم، بالتسخير القدري، كأن يلقي في قلوبهم الجبن والوهن والخوف، أو بغير ذلك، أو يكون الانتصار بسبب من قبل أهل الإيمان، وذلك بالتيسير القدري وثبيت القلوب وتقوية العزائم، وغير ذلك من عوامل النصر. ولكن الله تعالى له حكمة أن يتم الاقتتال بالعوامل البشرية العادية، والتي تشير إلى معنى الاختيار، وعدم التدخل القدري، والله أعلى وأعلم.

يقول الإمام الفراء: (وقوله: {ذلِكَ وَلَوْ يَشاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ} بملائكة غيركم، وَيُقَال: بغير قتال، ولكن ليبلو بعضكم ببعض، المؤمن بالكافر، والكافر بالمؤمن)[1].

ويفصل **الإمام الطبري** وجه الحكمة من إطلاق أيدي الفريقين للقتال، فيقول: (وقوله {ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ} يقول تعالى ذكره: هذا الذي أمرتكم به أيها المؤمنون من قتل المشركين إذا لقيتموهم في حرب، وشدّهم وثاقا بعد قهرهم، وأسرهم، والمنّ والفداء {حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا} هو الحق الذي ألزمكم ربكم ولو يشاء ربكم، ويريد لانتصر من هؤلاء المشركين الذين بين هذا الحكم فيهم بعقوبة منه لهم عاجلة، وكفاكم ذلك كله، ولكنه تعالى ذكره كره الانتصار منهم، وعقوبتهم عاجلا إلا بأيديكم أيها المؤمنون {لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ} يقول: ليختبركم بهم، فيعلم المجاهدين منكم والصابرين، ويبلوهم بكم،

[1] معاني القرآن للفراء (٣/ ٥٨).

فيعاقب بأيديكم من شاء منهم، ويتعظ من شاء منهم بمن أهلك بأيديكم من شاء منهم حتى ينيب إلى الحق)[1].

وهكذا يتضح أن القضاء والقدر لا يتوقف على التسيير والتسخير وحسب، ولكن أيضا بإطلاق الإرادة والاختيار التام للبشر، ليقع مراد الله تعالى كما يشاء سبحانه، والله أعلى وأعلم.

الدليل الخامس: قوله تعالى: ﴿لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفتح من الآيه : ٢٥].

يبين الخالق تبارك وتعالى حكم ما لم يقع لو كان قد وقع، وما كان سيترتب على وقوعه.

والمعنى كما يقول **الإمام الطبري:** (قال **ابن زيد**، في قوله {لَوْ تَزَيَّلُوا} لو تفرّقوا، فتفرّق المؤمن من الكافر، لعذّبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما)[2].

وموطن الشاهد، ما أخبر عنه المولى تبارك وتعالى أن اختلاط المؤمنين بالكافرين هو الذي منع الرسول ﷺ من قتل الكافرين، نظرا لأن بينهم من المؤمنين من يكتم إيمانه.

والذي أهدف إليه: أنه لو كانت المقادير لا تجري إلا بالتسخير والتسيير لأمكن أن يسخر الله عز وجل العباد، حتى يمتاز المؤمن عن الكافر، ولكن لحكمة يعلمها الله تعالى لم يتم

---

[1] تفسير الطبري (٢٢/ ١٥٨).

[2] تفسير الطبري (٢٢/ ٢٥١).

ذلك، وترك الخالق سبحانه الأمر على ما كان بين المؤمنين والكافرين من اختلاط، والله أعلى وأعلم.

يقول الإمام الطبري: (وقوله {لَوْ تَزَيَّلُوا} يقول: لو تميز الذين في مشركي مكة من الرجال المؤمنين والنساء المؤمنات الذين لم تعلموهم منهم، ففارقوهم وخرجوا من بين أظهرهم {لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} يقول: لقتلنا من بقي فيها بالسيف، أو لأهلكناهم ببعض ما يؤلمهم من عذابنا العاجل)[1].

وهكذا كان القدر موافقا لمراد الله تعالى بتركهم على ما هم عليه دون تسيير أو تسخير.

ولعل الحكمة من ذلك نتلمسها من جوانب :

📖 **الجانب الأول**: لعل السبب أن الله تعالى لم يفرق بين المسلمين والمشركين في مكة، لأن هؤلاء المشركين سوف يُسلم منهم كثيرون بعد الفتح، وقد بين أهل التفسير أن هذا كان من منن الله تعالى على أهل مكة، ورحمته بهم، حتى لا يموت هؤلاء على الكفر، فيدخلون النار.

يقول الإمام القرطبي : (وَقِيلَ: المَعْنَى لمْ يَأذَنِ اللَّهُ لكُمْ فِي قِتَالِ المُشْرِكِينَ لِيُسْلِمَ بَعْدَ الصُّلْحِ مَنْ قَضَى أَنْ يُسْلِمَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، وَكَذَلِكَ كَانَ أَسْلَمَ الكَثِيرُ مِنْهُمْ وَحَسُنَ إِسْلَامُهُ، وَدَخَلُوا فِي رَحْمَتِهِ، أيْ جَنَّتِهُ)[2].

---

[1] المرجع السابق.

[2] تفسير القرطبي (١٦/ ٢٨٦).

📖 **الجانب الثاني:** أن يكون ذلك حكما عاما في كل مواقع المسلمين مع أهل الكفر، بعد ذلك، إعلاءً لشأن النفس المسلمة، في أي مكان وزمان، بينما لو تمايزوا يوم مكة بالتسيير والتسخير، ما تأصل هذا الحكم وترسخ في وجدان المؤمنين، إن اقتصر على التكليف الشرعي بالأوامر والنواهي، كترسخه عندما يكون مرتبطا بواقع قد حدث بالفعل، وعايشه المسلمون أنفسهم، كما في فتح مكة.

يقول الإمام القرطبي: (هَذِهِ الآيَةُ دَلِيلٌ عَلَى مُرَاعَاةِ الكَافِرِ فِي حُرْمَةِ المُؤْمِنِ، إذ لا يمكن أذية الكافِرِ إلا بأذِيَّةِ المُؤْمِنِ، قالَ أبُو زَيْدٍ قلْتُ لِابْنِ القَاسِمِ: أرأيْتَ لوْ أنَّ قوْمًا مِنَ المُشْرِكِينَ فِي حِصْنٍ مِنْ حُصُونِهِمْ، حَصَرَهُمْ أهْلُ الإسْلَامِ وَفِيهِمْ قوْمٌ مِنَ المُسْلِمِينَ أسَارَى في أيديهم، أيُحْرَقُ هَذا الحِصْنُ أمْ لا؟ قالَ: سَمِعْتُ مالكا وسئل عَنْ قوْمٍ مِنَ المُشْرِكِينَ فِي مَرَاكِبِهِمْ أنرْمِي فِي مَرَاكِبِهِمْ بِالنَّارِ وَمَعَهُمُ الأسَارَى فِي مَرَاكِبِهِمْ؟ قالَ: فقَالَ مَالِكٌ لا أرى ذَلِكَ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى لِأهْلِ مَكَّةَ: {لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً}، وَكَذَلِكَ لوْ تَتَرَّسَ كَافِرٌ بِمُسْلِمٍ لمْ يَجُزْ رَمْيُهُ. وَإِنْ فعَلَ ذَلِكَ فاعِلٌ فأتْلفَ أحَدًا مِنَ المُسْلِمِينَ فعَلَيْهِ الدِّيَةُ وَالكَفَّارَةُ. فإنْ لمْ يَعْلمُوا فلا دِيَةَ وَلا كَفَّارَةَ، وَذَلِكَ أنَّهُمْ إذا عَلِمُوا فليْسَ لهُمْ أنْ يَرْمُوا، فإذا فعَلوهُ صَارُوا قتلةَ خطأٍ وَالدِّيَةُ عَلَى عَوَاقِلِهِمْ. فإنْ لمْ يَعْلمُوا فلهُمْ أنْ يَرْمُوا. وَإِذا أبِيحُوا الفِعْلَ لمْ يَجُزْ أنْ يَبْقَى عَلَيْهِمْ فِيهَا تَبَاعَةٌ)[1].

---

[1] المرجع السابق.

📖 **الجانب الثالث**: أنه لو كانت مجريات حياة البشر تجري بالتسيير والتسخير بإطلاق، لتعطلت سنن اللّه في الكون، فلن ترتقي العقول وتبتكر، ولن تتفنن الأيدي وتمهر فيما تقوم به من أعمال، ولغاب عنهم عظيم خلق اللّه تعالى الذي ينبئ عن وحدانيته سبحانه وتفرده بكل صفات العظمة التي تليق بوجهه جل في علاه، وأما مكابدة الأهوال والصعاب فهي التي تشحذ العقول وتقوي الأبدان، وسيقتضي ذلك بالضرورة النظر في كل ما تتعلق به حياة الناس في الأرض والسماء، ليتعرف على الإعجاز الخلقي في هذه القوانين المنضبطة التي تسير حركة الأفلاك والكون كله، كما قال سبحانه: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فُصِّلَت: ٥٣].

وصدق من قال من الشعراء، أو من أهل البلاغة والفصاحة:

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الوَاحِدُ.

الجانب الرابع: لو كانت كل أقدار البشر مرهونة بالتسيير والتسخير لما قامت الحجة على العباد، والتي تقتضي أن لهم إرادة مطلقة واختيار تام في بعض المواطن حتى تقوم الحجة عليهم، وتنقطع أعذارهم، يقول تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النِّسَاء: ١٦٥]، وهكذا يقيم اللّه الحجة على عباده بإرسال الرسل، وبآياته المحكمات، سبحانه، ولا تكون الحجة قائمة إذا انعدمت كل أسباب الاختيار ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ [الكَهْف: ٢٩].

ويقول تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾ [الزُّمَر: ٤١].

وهكذا نرى أن الآيات تكثر فيها الألفاظ الصريحة التي تدل على التسيير والتسخير، وارتباطهما بالقضاء والقدر، وكذلك الآيات التي تدل على التخيير، والتي تفيد أن التدخل الإلهي بالتسيير والتسخير لا يقطع إرادة البشر واختياراتهم، بل لابد من السعي والحركة والأخذ بالأسباب، كما أمر الخالق سبحانه، والله أعلى وأعلم.

ونكتفي بهذا القدر من الأدلة في هذا المبحث، على أن نتناول في الأدلة العامة في نهاية البحث كل الصور القدرية التي تحدثنا عنها، والله ولي التوفيق والهداية والرشاد.

الدعاء والقضاء

نظرا لتعلق هذه المسألة تعلقا مباشرا بالقضاء وأفعال العباد، نفصل القول فيها، قدر الاستطاعة، والله ولي التوفيق والإعانة.

ونقصد بهذه المسألة أن نبحث عن جواب سؤال، لا يمكن إغفاله، ألا وهو: هل تتغير الأقدار وتتبدل؟.

وقد أدى إلى هذا التساؤل ما ورد من أدلة تؤكد أن قضاء الله تعالى لا يتغير، وكذلك ما ورد من أدلة يُوهِم ظاهرها أن القضاء يتغير.

وقبل الخوض في البحث عن الإجابة، لابد أن نستحضر أهم الأصول الثابتة، التي تتعلق بهذه المسألة، والتي أكدنا عليها في ثنايا البحث، ولا تصح العقيدة إلا بها.

📖 **ومن هذه الأصول:**

☜ **الأصل الأول:** علم الله واسع محيط بكل شيء، ما كان وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون.

يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ (طه: ٩٨)، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾﴾ (النمل: ٧٤)، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ (ق: ١٦)، ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾ (الحشر: ٢٢)، ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾ (الطلاق: ١٢).

يقول الإمام الطبري: (يقول جلّ ثناؤه: ولتعلموا أيها الناس أن اللّه بكل شيء من خلقه محيط علمًا، لا يعزُب عنه مثقالُ ذرّة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر: يقول جلّ ثناؤه فخافوا أيها الناس المخالفون أمر ربكم عقوبته، فإنه لا يمنعه من عقوبتكم مانع، وهو على ذلك قادر، ومحيط أيضًا بأعمالكم، فلا يخفى عليه منها خاف، وهو محصيها عليكم، ليجازيكم بها، يوم تجزى كلّ نفس ما كسبت)[1].

وعلم الله تعالى ليس لا يتوقف عند الموجود بل أيضا، الخفي والمعلن، يقول تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ (العنكبوت: من الآية ١٠)، وقال جل في علاه: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ (غافر: ١٩).

ومن العلم أيضا ما لم يكن لو كان كيف كان يكون، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ (ق: ١٦)، وليس كل ما توسوس به النفس موجود.

يقول الإمام الماتريدي: (وقوله - عزّ وجلّ -: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ...} **هو يخرج على وجهين: أحدهما**: يقول: على علم منا بما تحدث به نفسه وتوسوس من أنواع الحديث والوسوسة، لا عن جهل وخفاء فعلنا ذلك، فإن هو كفّها وحبسها عما تدعو به إليه نفسه وتهواه ويصرفها إلى ما يدعوه عقله وذهنه نجا وفاز، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ (يوسف: من الآية ٥٣)، وقال: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ

---

[1] تفسير الطبري (٢٣/ ٤٧٢).

الْمَأْوَى﴿٤١﴾} (النازعات: ٤٠، ٤١)، وإن تركها حتى تمادى في هواها هلك؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴿٣٩﴾﴾ (النازعات: ٣٧: ٣٩)، وقال في آية أخرى: {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ}، ونحوه كثير من القرآن.

☜ **والثاني**: يذكر {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ} أي: نحن مطلعون على ذلك، ليس علم ذلك إلى الحفظة وهم يتولون كتابته؛ أي: لم يجعل ذلك إلى أحد، إنما ذلك إلى الله هو العالم بذلك، وهو المطلع عليه دون الملائكة، وإنما إلى الملائكة ما يلفظه ويفعل بالجوارح، **لقوله**: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴿١٨﴾﴾ (ق: ١٨)، وقال في آية أخرى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴿١١﴾﴾ (الانفطار: ١٠، ١١)، أخبر أن الحفظة إنما يعلمون ما يفعلون ظاهرًا، أما ما يسرون في قلوبهم فالله هو المطلع على ذلك العالم، ليكونوا أبدًا على اليقظة والحذر، والله أعلى وأعلم)[1].

وقوله: (أما ما يسرون في قلوبهم فالله هو المطلع على ذلك العالم) وهو عالم في ما يقبل الوجود، وما لا يقبله.

[1] تفسير الماتريدي (٩/ ٣٥٠).

المراد بعلم الله تعالى

يقول الإمام عبد العزيز الكناني: (فأي شيء هو علم اللّه، ومعنى علم اللّه فقلت له: هذا مما تفرد اللّه بعلمه ومعرفته وحجب عن الخلق جميعا علمه فلم يخبر به ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا ولا علمه أحد قبلي، ولا يعلمه أحد بعدي لأن علم اللّه أكبر وأوسع وأعظم من أن يعلمه أحد من خلقه.

ألم تسمع إلى قوله تعالى: ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاّ بِمَا شَاءَ﴾ (البقرة: من الآية ﴿٢٥٥﴾)، وقوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾﴾ (الجن: ﴿٢٦﴾: ﴿٢٨﴾)، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ (لقمان: ﴿٢٧﴾)، **يقول**: ولو أن ما في الأرض من جميع الشجر والخشب والقصب أقلام يكتب بها والبحر مداد يمده من بعده سبعة أبحر بالمداد والخلائق كلهم يكتبون بهذه الأقلام من هذا الشجر ما نفدت كلمات اللّه، فمن يبلغ عقله أو فهمه أو فكره كُنْهَ"[1] عظمة الله عز وجل وسعة علمه وكثرة كلامه، قال عز وجل: ﴿قُلْ لَوْ

[1] كُنْهُ كلِّ شيءٍ قَدْرُه ونِهايتُه وغايَتُه، لسان العرب (١٣/ ٥٣٦).

كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴿١٠٩﴾ (الكهف: ١٠٩))، فمن يحد"[1] هذا أو يصفه أو يدعي علمه؟

وقد عجزت الملائكة المقربون عن علم ذلك واعترفوا بالعجز ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ (البقرة: ٣٢)، وقال عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾ (لقمان: ٣٤))[2].

وقوله: (وقد عجزت الملائكة المقربون عن علم ذلك واعترفوا بالعجز) عبر عنه بعد ذلك بأن علم الله لا يعلمه أحد من الخلق قط، لأن علم الله لا يوجد في كتابه، ولا في سنة نبيه، ولا أخبرنا الله به ولا رسوله ﷺ، فليس لمخلوق أن أن يتكلم في ماهية علم الله، ولا يقول على الله ما لا يعلم.

☜ **الأصل الثاني:** أن علم الله تعالى أزلي قديم غير حادث.

فالله عز وجل عليم ولو لم يكن كذلك في الأزل لكان معناه أنه أصبح عليما بعد إذ لم يكن، وكل هذا من صفات النقص التي يتصف بها المخلوقون، وتعالى الله عن ذلك علوا

---

[1] حدَّ الشيء: عرَّفه.

[2] الحيدة والاعتذار في الرد على من قال بخلق القرآن لأبي الحسن عبد العزيز بن يحيى بن مسلم بن ميمون الكناني المكي (المتوفى: ٢٤٠هـ)، وقد كان من هؤلاء العلماء المتصدين لهذه الأفكار المنحرفة – عبد العزيز الكناني ــ الذي قاوم هذه الفكرة بشجاعته وصدعه بالحق مناصرة للسنة وجهراً بالحق في مناظرته لبشر المريسي بين يدي المأمون (ص: ٤٨).

كبيرا، يقول تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ (البقرة: ٢٥٥).

في تفسير الإمام الطبري: (وأما قوله: {الحى} فإنه يعني: الذي له الحياة الدائمة، والبقاء الذي لا أول له بحد، ولا آخر له بأمد، إذ كان كل ما سواه فإنه وإن كان حيا فلحياته أول محدود، وآخر ممدود، ينقطع بانقطاع أمدها، وينقضي بانقضاء غايتها)[1]، **ثم يقول**: (القيّم بحفظ كل شيء ورزقه وتدبيره وتصريفه فيما شاء وأحبّ)[2].

فاللّه عز وجل له كل صفات الجلال والكمال، فليس يغيب عن علمه شيء سبحانه، فالعلم صفة أبدية لا أول لها بحد، ولا آخر لها بأمد، فهو اللّه سبحانه، وهو العليم تبارك وتعالى. **يقول الإمام الطحاوي**: (مَا زَالَ بِصِفَاتِهِ قَدِيمًا قَبْلَ خَلْقِهِ لَمْ يَزْدَدْ بِكَوْنِهِمْ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ قَبْلَهُمْ مِنْ صِفَتِهِ وَكَمَا كَانَ بِصِفَاتِهِ أَزَلِيًّا كَذَلِكَ لا يزال عليها أبديا)[3].

واللّه عز وجل لا يتوقف علمه على ما سوف يكون من العباد، بل أحاط سبحانه بكل شيء علما، قبل أن يخلق الخلق، وقبل أن يقع من المخلوقين شيء، **يقول الإمام الطحاوي في متن الطحاوية:**

---

[1] تفسير الطبري (٥/ ٣٨٦).

[2] المرجع السابق (٦/ ١٥٧).

[3] متن الطحاوية بتعليق الألباني (ص: ٣٤).

(وَلمْ يَخْفَ عَليْهِ شَيْءٌ قبْلَ أنْ يَخلُقَهُمْ وَعَلِمَ مَا هُمْ عَامِلُونَ قبْلَ أنْ يَخلُقَهُمْ)[1].

☜ **الأصل الثالث:** أن علم الله تعالى لا يتخلف أبدا.

وهذ صفة من صفات الكمال، التي تليق بجلال الله تعالى وتعاليه عن كل نقص سبحانه، لأن التخلف لا ينشأ إلا عن جهل أو عجز أو خطأ أو نسيان، وكل هذه صفات نقص، وتنزه الله وتعالى عن ذلك علوا كبيرا، (فَإِنَّ رَبَّنَا جَلَّ وَعَلَا مَوْصُوفٌ بِصِفَاتِ الوَحْدَانِيَّةِ مَنْعُوتٌ بِنُعُوتِ الفَرْدَانِيَّةِ لَيْسَ فِي مَعْنَاهُ أحَدٌ من البرية، وفي تعليق الشيخ الألباني قوله: (فإن الله سبحانه موصوف بصفات الكمال منعوت بنعوت العظمة والجلال)[2].

ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ۝٢٩﴾ (ق: ٢٩)، **ففي تفسير الإمام ابن قتيبة**: (قال الله تعالى: {لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ}، يعني: المجرمين وقرناءهم من الشياطين {وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ}، {ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ}، أي: لا يغيّر عن جهته، ولا يحرّف، ولا يزاد فيه ولا ينقص، لأنّي أعلم كيف ضلّوا وكيف أضللتموهم)[3].

---

[1] المرجع السابق (ص: ٣٥).

[2] متن الطحاوية بتعليق الألباني (ص: ٤٤).

[3] تأويل مشكل القرآن (ص: ٢٣٩).

وتخلف العلم لا ينشأ إلا عن جهل وعجز وقصور في الفهم والإدراك، وتقصير في الأخذ بالأسباب، وغير ذلك من صفات النقص، وتنزه الله وعلا عن ذلك علوا كبيرا.

ويشير **الإمام الطبري** إلى أن دلالة الآية تفيد عدم تغير القضاء، ولا تخلفه أبدا، كما في قوله: (عن مجاهد، قوله {مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ} قد قضيت ما أنا قاض)[1].

ولو تخلف القضاء لكان معناه أنه تغير، لأنه لا يمكن أن يتخلف بغير بدل أبدا، حتى ـ على سبيل الجدل لا غير ـ لو كان التخلف بسبب محو القضاء، أو تعطيله، فإنه يكون قد تخلف إلى بدل أيضا، وهذا البدل هو العدم، وكل هذا تنفيه الآية الكريمة، وكل احتمالات دلالة الآية تؤكد عدم التخلف أبدا.

وكما يقول الإمام الماتريدي: (وقوله عَزَّ وَجَلَّ: {مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ ..} **هذا يحتمل وجوهًا: أحدها:** ما يبدل ما استحق كل واحد منكم من العذاب والثواب ما سبق مني من الوعد والوعيد في الدنيا بأن أجعل جزاء الكافر الجنة، وجزاء المؤمن النار، إذ قد سبق في وعدي ووعيدي بأن أجعل الجنة مثوى المؤمنين، والنار مثوى الكافرين؛ فلا يبدل ذلك الوعد والوعيد، **والثاني:** {مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ} يحتمل أنه أراد به قوله: {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ}، **والثالث:** أي: لا يبدل اليوم ما يستوجب به الجنة والخلود فيها ...)[2].

---

[1] تفسير الطبري (٢٢/ ٣٥٩).

[2] المرجع السابق (٩/ ٣٦٠).

وكل هذه المعاني وإن كانت لها منزلة الخصوص إلا أنها لا يمكن أن تكون إلا إذا كانت دالة على عموم عدم التخلف في كل مناحي العلم قاطبة.

وفي شرح الإمام التستري: ({مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ} أي ما يتغير عندي ما سبق في علمي، فيكون بخلاف ما سبق العلم فيه)[1].

ولعل هذا هو الصواب، في دلالة الآية، لأنها تفيد العموم، من جهة اللفظ والمعنى جميعا، والله أعلى وأعلم.

ويؤكد الإمام الطحاوي أن الأقدار قد فرغ الله منها كاملة تامة، قبل خلق الخلق جميعا، فيقول: (وَقدْ علِمَ اللّهُ تعالى فِيما لمْ يزلْ عددَ منْ يدخلُ الجنّة وعددَ منْ يدخلُ النّارَ جُملة واحِدة فلا يُزادُ فِي ذلِكَ العدد ولا ينقص منه)[2].

ولو تغير العدد ـ وحاش لله أن يكون ـ لما قامت الحجة على أهل النار، ولكان لهم أن يطلبوا الخروج منها مثل من خرج، وكل هذا باطل لا يليق بذات الله تبارك وتعالى.

ويقول الإمام الطحاوي أيضا: (وَكذلِكَ أفعالهُمْ فِيما علِمَ منهُمْ أنْ يفعلوهُ وَكُلٌّ مُيسّرٌ لِما خلِقَ له، والأعمالُ بِالخواتِيم، والسّعِيدُ منْ سعِدَ بِقضاءِ اللهِ والشّقِيُّ منْ شقي بقضاءِ اللّه)[3].

ولو تخلف العلم بأفعال العباد لما انضبط ميزان العدل أبدا، ولاضطربت الأقدار، وكل هذا محال، وتنزه الله عن كل نقص وعلا علوا كبيرا.

---

[1] تفسير التستري (ص: ١٥٢).

[2] متن الطحاوية بتعليق الألباني (ص: ٤٨).

[3] المرجع السابق.

والقطع بعدم تخلف العلم أبدا يفهم بدلالة قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ (الزخرف:٤)، فالحكمة والعلو متلازمتان تماما مع عدم التخلف، **وفي هذا المعنى يقول الإمام القرطبي**: (يَعْنِي الْقُرْآنَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ عِنْدَنَا رَفِيعٌ مُحْكَمٌ لَا يُوجَدُ فِيهِ اخْتِلَافٌ وَلَا تَنَاقُضٌ، **وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ**: الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَإِنَّهُ} أَيْ: أَعْمَالُ الْخَلْقِ مِنْ إِيمَانٍ وَكُفْرٍ وَطَاعَةٍ وَمَعْصِيَةٍ، {لَعَلِيٌّ} أَيْ رَفِيعٌ عَنْ أَنْ يُنَالَ فَيُبَدَّلُ {حَكِيمٌ} أَيْ مَحْفُوظٌ مِنْ نَقْصٍ أَوْ تَغْيِيرٍ)[1].

ولا يمكن بحال من الأحوال أن يطرأ من أفعال العباد ما يؤدي إلى تغيير هذا القدر، أو تخلفه، وإلا لكان دليلا على حدوث علمه ـ تنزه الله عن ذلك وعلا علوا كبيرا ـ ولكان دليلا على النقص، وهو سبحانه منزه عن كل نقص، جل في علاه.

☜ **وهذا المعنى سبق وكتبه الإمام الطحاوي في متن الطحاوية حيث قال**: (وَنُؤْمِنُ بِاللَّوْحِ وَالْقَلَمِ وَبِجَمِيعِ مَا فِيهِ قَدْ رقم فَلَوِ اجْتَمَعَ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ عَلَى شَيْءٍ كَتَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ أَنَّهُ كَائِنٌ لِيَجْعَلُوهُ غَيْرَ كَائِنٍ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا كُلُّهُمْ عَلَى شَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ لِيَجْعَلُوهُ كَائِنًا لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، جَفَّ الْقَلَمُ بما هو كائن إلى يوم القيامة وَمَا أَخْطَأَ الْعَبْدَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ وَمَا أصابه لم يكن ليخطئه)[2].

ولو تغير القضاء أو تبدل لكان معناه توقفه على أفعال العباد، ومشيئتهم، وكل هذا باطل، **وذلك كما يقول الإمام الطحاوي**: (وَعَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ سَبَقَ عِلْمُهُ فِي كُلِّ كَائِنٍ مِنْ

[1] تفسير القرطبي (١٦/ ٦٢).

[2] متن الطحاوية بتعليق الألباني (ص: ٥٣).

خلقهِ فقدَّرَ ذلِكَ تقدِيرًا مُحكَمًا مُبرَمًا ليسَ فيهِ ناقِضٌ ولا مُعقِّبٌ ولا مُزيلٌ ولا مُغيِّرٌ ولا ناقِصٌ ولا زائِدٌ مِنْ خلقهِ في سماواته وأرضه وذلِكَ مِنْ عقدِ الإيمانِ وأصُولِ المعرِفةِ والاعترافِ بتوحِيدِ اللهِ تعالى ورُبوبيَّتِهِ كما قالَ تعالى في كِتابهِ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ (الفُرْقَانِ: من الآية ﴿٢﴾)، وقالَ تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مقدورا﴾ (الأحزاب: من الآية ﴿٣٨﴾)، فويل لمن صار لله تعالى في القدر خصيما وأحضر للنظر فيه قلبًا سقِيمًا لقدِ التمسَ بوهمِهِ في فحصِ الغيبِ سِرًّا كتيمًا وعادَ بما قالَ فيهِ أفاكا أثيما)[1].

[1] متن الطحاوية (ص: ٥٣).

الجواب عن شبهة التغيير والتبديل

في مقابل الأدلة التي تفيد عدم التبدل والتغير، وأن قضاء الله تعالى لا يتخلف أبدا، هناك من الأدلة ما يفهم منه غير ذلك، ومن هذه الأدلة: قوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (الرعد:٣٩)، **فهل هذا دليل على تخلف القضاء الذي أبرمه الله تعالى؟**

📖 **والجواب عن هذه الشبهة فيما يلي :**

ينقل الإمام الطبري ما ورد من أقوال في معنى الآية وذلك كما يلي: (القول في تأويل قوله تعالى: {يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} **قال أبو جعفر:** اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: يمحو الله ما يشاء من أمور عبادِه، فيغيّره، إلا الشقاء والسعادة، فإنهما لا يُغيَّران، **وقال آخرون**: معنى ذلك: أنّ الله يمحو ما يشاء ويثبت من كتابٍ سوى أمّ الكتاب الذي لا يُغيَّرُ منه شيء، **وقال آخرون**: بل معنى ذلك أنه يمحو كل ما يشاء، ويثبت كل ما أراد، **وقال آخرون**: بل معنى ذلك: أنّ الله ينسخ ما يشاء من أحكام كِتابه، ويثبت ما يشاء منها فلا ينسَخُه، **وقال آخرون**: معنى ذلك أنه يمحو من قد حان أجله، ويثبت من لم يجئ أجله إلى أجله، **وقال آخرون**: معنى ذلك: ويغفر ما يشاء من ذنوب عباده، ويترك ما يشاء فلا يغفر)[1].

☜ **ثم يبين القول الذي يرجحه فيما يلي :** (**قال أبو جعفر**: وأولى الأقوال التي ذكرت في ذلك بتأويل الآية وأشبهُها بالصّواب، القولُ الذي

---

[1] تفسير الطبري (١٦/ ٤٧٧).

ذكرناه عن الحسن ومجاهد، وذلك أن الله تعالى ذكره توعَّد المشركين الذين سألوا رسولَ الله ﷺ الآياتِ بالعقوبة، وتهدَّدهم بها، **وقال لهم**: {وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلا بِإِذْنِ الله لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ}، يعلمهم بذلك أن لقضائه فيهم أجلا مُثبَتا في كتاب، هم مؤخَّرون إلى وقت مجيء ذلك الأجل، ثم قال لهم: فإذا جاء ذلك الأجل، يجيء الله بما شاء ممن قد دنا أجله وانقطع رزقه، أو حان هلاكه أو اتضاعه من رفعة أو هلاك مالٍ، فيقضي ذلك في خلقه، فذلك مَحْوُه، ويثبت ما شاء ممن بقي أجله ورزقه وأكله، فيتركه على ما هو عليه فلا يمحوه.

☜ **وبهذا المعنى جاء الأثر عن رسول الله ﷺ، وذلك عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال**: قال رسول الله ﷺ: "إن الله يَفتح الذّكر في ثلاث ساعات يَبْقَيْن من الليل، في الساعة الأولى منهن ينظر في الكتاب الذي لا ينظُرُ فيه أحد غيره، فيمحو ما يشاء ويثبتُ. ثم ذكر ما في الساعتين الأخريين.

☜ **وفي رواية: عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال**: قال رسول الله ﷺ: "إن الله ينزل في ثلاث ساعات يَبْقَين من الليل، يفتح الذكر في الساعة الأولى الذي لم يره أحد غيره، يمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء"[1].

والذي نؤكد عليه أن كل ما ورد من أقوال وما رجحه **الإمام الطبري** رحمة الله عليه لا يدل على تخلف العلم ـ بأي وجه من الوجوه، حيث إن كل ذلك مثبت في أم الكتاب، ولكن كل ما يجري إنما هو في الكتب التي أذن الله فيها بالمحو والإثبات، وكل ذلك في علمه الأزلي الذي لا يتبدل ولا يتغير، وسيأتي

[1] المرجع السابق (١٦/ ٤٨٨).

مزيد بيان في هذا المعنى، في موضعه من هذه المسألة بإذن الله تعالى.

📖 **الأصل الرابع: أن كل ما يجري على الخلق مكتوب.**

وقد تضافرت أدلة الشرع على أن كل ما يجري في الكون مكتوب، **ومن هذه الأدلة قوله تعالى:** ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ (الأنعام:٥٩)، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ (يونس:٦١)، وكذا قوله عز من قائل: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (النمل: ٧٥).

فقد نصَّ سبحانه في هذه الآيات الكريمة على أن كل ما يجري في الكون مكتوب وأنه {فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}، وليس المكتوب هو علم الله، فعلم الله لا أول له ولا نهاية، ولكن المكتوب هو كل ما يتعلق بالخلائق، وللكتابة حكمة، سنذكرها بإذن الله تعالى.

ولعل مما يشير إلى أنه عند الحساب يطلع كل إنسان على كل أحواله وأعماله في الدنيا بصورة واضحة جلية، لا لبس فيها ولا غموض، قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ

فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ۝٣١ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ۝٣٢ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٣٣﴾ [الجاثية: ٢٨ - ٣٣].

يقول الإمام مجاهد رحمه الله: (عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: {إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} قالَ: «نَسْتَنْسِخُ الحَفَظَةَ مِنْ أمِّ الكِتَابِ مَا يَعْمَلُ بَنُو آدَمَ، فَإِنَّمَا يَعْمَلُ الإِنْسَانُ عَلَى مَا اسْتَنْسَخ لَهُ المَلَكُ مِنْ أمِّ الكِتَابِ»)[1].

والمعنى أن الملك يستنسخ ما قضى الله به وقدره على كل إنسان، سواء أكان مما كان باختياره، أم كان مما هو مسير ومسخر فيه، والله أعلى وأعلم.

☜ **يقول الإمام الطبري:** (**عن ابن عباس، قال:** "إن الله خلق النون وهي الدواة، وخلق القلم، فقال: اكتب، قال: ما أكتب، قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة من عمل معمول، برّ أو فجور، أو رزق مقسوم، حلال أو حرام، ثم ألزم كلّ شيء من ذلك شأنه دخوله في الدنيا، ومقامه فيها كم، وخروجه منه كيف، ثم جعل على العباد حفظة، وعلى الكتاب خزانا، فالحفظة ينسخون كلّ يوم من الخزان عمل ذلك اليوم، فإذا فني الرزق وانقطع الأثر، وانقضى الأجل، أتت الحفظة الخزنة يطلبون عمل ذلك اليوم، فتقول لهم الخزنة: ما نجد لصاحبكم عندنا شيئا، فترجع الحفظة، فيجدونهم قد ماتوا، قال: فقال **ابن عباس:** ألستم قوما

[1] تفسير مجاهد (ص: ٦٠٠).

عربا تسمعون الحفظة يقولون {إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} وهل يكون الاستنساخ إلا من أصل"[1]، وغير ذلك من الأدلة كثير.

والذي يعنينا أن كل ما يجري على الإنسان مكتوب، وأما ما يخص باقي الخلائق، فلم يتعرض البحث له.

[1] تفسير الطبري (٢٢/ ٨٤).

الكتابة في اللوح المحفوظ

يستفاد من هذه الأدلة أن الكتابة لها حكمة، وإذا أدركنا هذه الحكمة فسيكون هذا خير معين، على فهم أدلة الشرع مجتمعة، دون أن نضرب بعضها ببعض، أو نعطل منها ما لم نستطع إدراكه، أو غير ذلك من أسباب الخطأ، التي تقع كثيرا من أهل العلم.

☜ **وللتعرف على حكمة الكتابة يقول الإمام الطبري**: (فإن قال قائل: وما وجهُ إثباته في اللوح المحفوظ والكتاب المبين، ما لا يخفى عليه، وهو بجميعه عالم لا يُخَاف نسيانه؟ قيل له: للّه تعالى ذكره فعل ما شاء، وجائز أن يكون كان ذلك منه امتحانًا منه لحفَظته، واختبارًا للمتوكلين بكتابة أعمالهم، فإنهم فيما ذُكر مأمورون بكتابة أعمال العباد، ثم بعرضها على ما أثبته اللّه من ذلك في اللوح المحفوظ، حتى أثبت فيه ما أثبت كل يوم، وقيل إن ذلك معنى قوله: {إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} وجائز أن يكون ذلك لغير ذلك، مما هو أعلم به، إمّا بحجة يحتج بها على بعض ملائكته، وإما على بني آدم وغير ذلك)[1].

فالأمر المؤكد الذي لا شك فيه أن اللّه عز وجل له الحكمة البالغة، ولهذا فلابد للكتابة من حكمة، وعلى المجتهد أن يتلمسها في كتابه جل شأنه، ويفتح اللّه على من يشاء من عباده، بالعلم والمعرفة.

[1] المرجع السابق (١١/ ٤٠٣).

☜ **وقد اجتهد الإمام الفخر الرازي في هذه المسألة حيث قال:** (قَوْلُهُ: إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ فِيهِ قَوْلَانِ: الْأَوَّلُ: أَنَّ ذَلِكَ الْكِتَابَ الْمُبِينَ هُوَ عِلْمُ اللَّه تَعَالَى لَا غَيْرَ، وَهَذَا هُوَ الصَّوَابُ، وَالثَّانِي: قَالَ الزَّجَّاجُ: يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ اللَّه جَلَّ ثَنَاؤُهُ أَثْبَتَ كَيْفِيَّةَ الْمَعْلُومَاتِ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٢٢﴾ [الحديد: ٢٢])[1].

وقوله : (الْكِتَابَ الْمُبِينَ هُوَ عِلْمُ اللَّه تَعَالَى لَا غَيْرَ، وَهَذَا هُوَ الصَّوَابُ)، **فينظر إليه بنظرين:**

🕮 **النظر الأول:** أن الكتاب المبين هو كل علم الله، وأعتقد أنه لا يسلم له هذا القول، لأن علم الله تعالى لا حد له ولا نهاية له، بينما مسمى الكتاب ينبيء عن محدوديته، مهما اتسع، ولعل الدليل على أن الكتاب المبين له حدود وأبعاد التعبير بحرف في الظرفية والتي تفيد أن الكتاب المبين ظرف مكان لما فيه من العلم، ولا يكون المكان إلا للمحدود، ولهذا فهو ليس علم الله، والله أعلى وأعلم.

☜ **وأما ما ورد في الأثر أن (ابن عباس** رضي الله عنهما **سأل كعبًا عن :** أم الكتاب؟ فقال: عَلِمَ اللّهُ ما هو خالقٌ وما خلْقُه عاملون، فقال لعلمه: كن كتابًا، فكان كتابًا)[2]، فلو صح الأثر فيكون المقصود بعلم الله في هذا الأثر هو كل ما يتعلق بالمذكور أي الخلق وما هم

[1] تفسير الرازي (١٣/ ١٢).
[2] تفسير الثعلبي (١٥/ ٣٢٤).

عاملون، وهذا أمر متفق عليه، ولهذا فلا اعتراض على ما ورد في الأثر، ولكن لا يحمل على ما قاله الإمام الرازي رحمه اللّه تعالى.

📖 **النظر الثاني:** وإن كان لا يسلم أيضا، ووجه عدم التسليم لما قاله **الإمام الرازي** من هذا النظر أيضا، أنه حتى لو كان يقصد أن كل ما في كتاب اللّه المبين معلوم للّه ـ وهذا متفق عليه ـ لكن وصفه بأنه علم اللّه لا غير، فكأنما ينفي أن يكون في الكتاب المبين ما ليس من علم اللّه، وهذا النفي لا يصح مطلقا، لأن النفي يضع احتمال أن يكون شيء يقع بغير إرادة اللّه أو علمه، وكل هذا باطل، ولهذا نرى أن هذا التعبير غير سديد، وغير مقبول من **الإمام الرازي**، يرحمه اللّه.

الغرض من الكتابة في اللوح المحفوظ

وأما فائدة الكتابة فقد أجاد الإمام الرازي حيث يقول: (وَفَائِدَةُ هَذَا الْكِتَابِ أُمُورٌ: أَحَدُهَا: أَنَّهُ تَعَالَى إِنَّمَا كَتَبَ هَذِهِ الْأَحْوَالَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ لِتَقِفَ الْمَلَائِكَةُ عَلَى نَفَاذِ عِلْمِ اللَّه تَعَالَى فِي الْمَعْلُومَاتِ وأنه لا يغيب عنه مما في السموات وَالْأَرْضِ شَيْءٌ، فَيَكُونُ فِي ذَلِكَ عِبْرَةٌ تَامَّةٌ كَامِلَةٌ لِلْمَلَائِكَةِ الْمُوَكَّلِينَ بِاللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ لِأَنَّهُمْ يُقَابِلُونَ بِهِ مَا يَحْدُثُ فِي صَحِيفَةِ هَذَا الْعَالَمِ فَيَجِدُونَهُ مُوَافِقًا لَهُ، وَثَانِيهَا: يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ إِنَّهُ تَعَالَى ذَكَرَ مَا ذَكَرَ مِنَ الْوَرَقَةِ وَالْحَبَّةِ تَنْبِيهًا لِلْمُكَلَّفِينَ عَلَى أَمْرِ الْحِسَابِ وَإِعْلَامًا بِأَنَّهُ لَا يَفُوتُهُ مِنْ كُلِّ مَا يَصْنَعُونَ فِي الدُّنْيَا شَيْءٌ: لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ لَا يُهْمِلُ الْأَحْوَالَ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا ثَوَابٌ وَلَا عِقَابٌ وَلَا تَكْلِيفٌ فَبِأَنْ لَا يُهْمِلَ الْأَحْوَالَ الْمُشْتَمِلَةَ عَلَى الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ أَوْلَى، وَثَالِثُهَا: أَنَّهُ تَعَالَى عَلِمَ أَحْوَالَ جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ فَيَمْتَنِعُ تَغْيِيرُهَا عَنْ مُقْتَضَى ذَلِكَ الْعِلْمِ، وَإِلَّا لَزِمَ الْجَهْلُ، فَإِذَا كَتَبَ أَحْوَالَ جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ فِي ذَلِكَ الْكِتَابِ عَلَى التَّفْصِيلِ التَّامِّ امْتَنَعَ أَيْضًا تَغْيِيرُهَا وَإِلَّا لَزِمَ الْكَذِبُ فَتَصِيرُ كِتْبَةُ جُمْلَةِ الْأَحْوَالِ فِي ذَلِكَ الْكِتَابِ مُوجِبًا تَامًّا وَسَبَبًا كَامِلًا فِي أَنَّهُ يَمْتَنِعُ تَقَدُّمُ مَا تَأَخَّرَ وَتَأَخُّرُ مَا تَقَدَّمَ، كَمَا قَالَ صَلَوَاتُ اللَّه عَلَيْهِ: «جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» واللَّه أعلم)[1].

ومما يتفق مع ذلك ما ورد عن الإمام مكي القيرواني إذ يقول: (وكل ذلك عن علم الله غيرُ خارج، وإنما أثبتت في اللوح امتحانا لحفظة الخلق، فقد روي أنهم مأمورون بكتابة أعمال العباد، ثم

[1] تفسير الرازي (١٣/ ١٢).

يَعرِضها على ما أثبته تعالى في اللوح المحفوظ، قال عبد الله بن الحارث: ما في الأرض (من) شجرة ولا مغرِز إبرة إلا عليها (ملك) موكّل يأتي الله بعلمها: يُبْسها إذا يَبِسَت، ورطوبتها إذا رَطبَت.

وقيل: المعنى في كَتبها: أنه لتعظيم الأمر، فمعناه: اعلموا أن هذا الذي ليس فيه ثواب ولا عقاب مكتوب، فكيف ما فيه ثواب وعقاب؟)[١].

ونحن نوقن أن الكتابة في اللوح المحفوظ لابد لها من حكمة بالغة، فلله المثل الأعلى، والحجة الدامغة، والحكمة البالغة، وهو جل في علاه الحكيم الذي يفعلُ كلَّ ما يفعلُ بمقتضى الحكمة البالغة وهذا أيضاً من جُملة صفاتِه، عظم قدره، وعز سلطانه، جل في علاه، وعلا علوا كبيرا.

ويؤكد **الإمام القرطبي** على أن الأقدار قد كتبها الله تعالى على البشر قبل خلقهم، وكذلك كون هذه الأقدار لا تتوقف على العلم الكاشف وحسب، بل هو أيضا القضاء اللازم الذي يستوجب تدخل القدرة الإلهية كما في التسيير والتسخير، وذلك كما يفهم من قوله: (سُئِلَ الحَسَنُ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ}، هَلْ كَانَ فِي أمِّ الكِتابِ؟ وَهَلْ كَانَ أبُو لهَبٍ يَسْتَطِيعُ ألا يَصْلَى النَّارَ؟ فقَالَ: وَاللَّهِ مَا كَانَ يَسْتَطِيعُ ألا يَصْلاهَا، وَإِنَّهَا لفِي كِتَابِ اللَّهِ مِنْ قَبْلِ أنْ يُخْلَقَ أبُو لهَبٍ وَأبَوَاهُ، وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُ مُوسَى لِآدَمَ: (أنْتَ الذِي خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأسْكَنَكَ جَنَّتَهُ، وَأسْجَدَ لكَ مَلائِكَتَهُ، خَيَّبْتَ النَّاسَ، وَأخْرَجْتَهُمْ مِنَ الجَنَّةِ، قَالَ آدَمُ: وَأنْتَ مُوسَى الذِي اصْطَفَاكَ بِكَلَامِهِ،

---

[١] الهداية الى بلوغ النهاية لأبي محمد مكي بن أبي طالب حَمّوش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني ثم الأندلسي القرطبي المالكي (المتوفى: ٤٣٧هـ) (٣/ ٢٠٤٤).

وَأعطاكَ التوْراة، تلومُني على أمْرٍ كتبَهُ اللّهُ عليَّ قبْلَ أنْ يَخلُقَ اللّه السموات والأرض، قالَ النّبيُّ ﷺ: «فحَجَّ آدمُ مُوسَى»، وفِي حَدِيثِ هَمَّامٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة أنَّ آدمَ قالَ لِمُوسَى: (بكَمْ وَجَدْتَ اللّهَ كَتَبَ التوْرَاةِ قبْلَ أنْ يَخلُقَنِي)؟ قال: (بألفَيْ عامٍ) قالَ: فهَلْ وَجَدْتَ فِيهَا: وَعَصى آدمُ ربَّهُ فغوى قال: (نعَمْ) قالَ: (أفتلومُنِي على أمْرٍ وَكَتبَ اللّهُ عَليَّ أنْ أفعَلهُ مِنْ قبْلِ أنْ أخْلقَ بألفَيْ عَامٍ). فحَجَّ آدمُ مُوسَى، وَفِي حَدِيثِ طاوُسٍ وَابْنِ هُرْمُزَ وَالأعْرَجِ عَنْ أبِي هريرة: بأربعين عاما)[1].

ويمكن أن نفهم أن حكمة الكتابة ـ أيضا ـ تعظيم الخالق ـ جل وعلا ـ عند مخلوقاته، بما فيهم الملائكة، تعظيما يليق بجلاله تبارك وتعالى، فإنه سبحانه وتعالى يحب أن يحمد حق حمده، وإذا ما شهدت الملائكة هذا التطابق بين أقدار المخلوقات وما قضاه سبحانه في كتابه، كان ذلك إظهارا لجانب من جوانب عظمة الخالق سبحانه، التي لا تحصى، والتي تتجلى في عظيم أمره الذي لا تقدر عليه المخلوقات ولو اجتمعت، وصدق تعالى إذ يقول: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٧٤﴾ [الحج : ٧٤].

📖 **ويضيف الإمام الرازي فائدة جليلة عندما يتحدث عن صفات اللوح المحفوظ فيقول:** (**صفات اللوح المحفوظ: الصفة الأولى:** أنه أم الكتاب والسبب فيه أن أصل كل شيء أمه، والقرآن مثبت عند الله في اللوح المحفوظ، ثم نقل إلى سماء الدنيا، ثم أنزل حالا بحسب المصلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «إن أول ما خلق الله القلم، فأمره أن

[1] تفسير القرطبي (٢٠/ ٢٣٧).

يكتب ما يريد أن يخلق» فالكتاب عنده فإن قيل وما الحكمة في خلق هذا اللوح المحفوظ، مع أنه تعالى علام الغيوب ويستحيل عليه السهو والنسيان؟ قلنا إنه تعالى لما أثبت في ذلك أحكام حوادث المخلوقات، ثم إن الملائكة يشاهدون أن جميع الحوادث إنما تحدث على موافقة ذلك المكتوب، استدلوا بذلك على كمال حكمة الله وعلمه.

📖 **الصفة الثانية**: من صفات اللوح المحفوظ قوله تعالى: {لَدَيْنَا} هكذا ذكره **ابن عباس**، وإنما خصه الله تعالى بهذا التشريف لكونه كتابا جامعا لأحوال جميع المحدثات، فكأنه الكتاب المشتمل على جميع ما يقع في ملك الله وملكوته، فلا جرم حصل له هذا التشريف، قال الواحدي، ويحتمل أن يكون هذا صفة القرآن والتقدير إنه لدينا في أم الكتاب.

📖 **الصفة الثالثة**: كونه عليا والمعنى كونه عاليا عن وجوه الفساد والبطلان، وقيل المراد كونه عاليا على جميع الكتب بسبب كونه معجزا باقيا على وجه الدهر.

📖 **الصفة الرابعة**: كونه حكيما أي محكما في أبواب البلاغة والفصاحة، وقيل حكيم أي ذو حكمة بالغة، وقيل إن هذه الصفات كلها صفات القرآن على ما ذكرناه)[1]، وهذه الصفات على تفسير أم الكتاب باللوح المحفوظ، وفي تفسير آخر أنها الآيات المحكمات، لقوله تبارك وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عِمْرَان من الآيه : ٧].

[1] تفسير الرازي (٢٧/ ٦١٧).

هل الدعاء يرد القضاء؟

وبعد أن فرغنا من بيان هذه الأصول، ننتقل بتوفيق الله وعونه إلى ما يُشكل على هذه الأصول، لنرفع ـ بفضل الله تعالى ـ الإشكال، أو التعارض بين النصوص، **وذلك كما يتضح مما يلي:**

النصوص التي تشير إلى رد القضاء ومنها ما يلي:

عَنْ **سَلْمَانَ** قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **لا يَرُدُّ الْقَضَاءَ إِلا الدُّعَاءُ، وَلا يَزِيدُ فِي الْعُمْرِ إِلا الْبِرُّ»**[1].

وعن **أنس بن مالك** رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «مَنْ أحَبَّ أنْ يُبْسَطَ لهُ فِي رِزْقِهِ، ويُنْسَأَ لهُ فِي أثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»[2]، وروى الحديث أيضا سيدنا أبو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

وعَنْ **مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ**، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَنْ يَنْفَعَ حَذَرٌ مِنْ قَدَرٍ، وَلَكِنَّ الدُّعَاءَ يَنْفَعُ مِمَّا نَزَلَ وَمِمَّا لَمْ يَنْزِلْ، فَعَلَيْكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِالدُّعَاءِ»[3].

وعَنِ **ابْنِ عَبَّاسٍ** رضي الله عنهما، قَالَ: «لا يَنْفَعُ الْحَذَرُ مِنَ الْقَدَرِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمْحُو بِالدُّعَاءِ مَا يَشَاءُ مِنَ الْقَدَرِ»[4]..

---

[1] سنن الترمذي (٤/ ١٦)، وقال الشيخ الألباني: حديث حسن.

[2] متفق عليه: البخاري (٨/ ٥)، مسلم (٤/ ١٩٨٢).

[3] القضاء والقدر للبيهقي (ص: ٢١٢)، وفي رواية عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَنْفَعُ حَذَرٌ مِنْ قَدَرٍ، وَالدُّعَاءُ يَنْفَعُ مِمَّا نَزَلَ وَمِمَّا لَمْ يَنْزِلْ، وَإِنَّ الدُّعَاءَ لَيَلْقَى الْبَلَاءَ فَيَعْتَلِجَانِ إِلَيَّ يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

[4] المستدرك على الصحيحين للحاكم (٢/ ٣٨٠)، وقال: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ.

يقول الإمام القرطبي: (وقدْ تقدَّمَ في الصَّحيحَيْنِ عَنْ **أبي هُرَيْرَةَ** رضي الله عنه قالَ: سَمِعْتُ النَّبيَّ ﷺ يَقُولُ: "مَنْ سَرَّهُ أنْ يبسط له رزقه وينسأ له في أثرِهِ فلْيَصِلْ رَحِمَهُ"، وَمِثْلُهُ عَنْ أنسِ بْنِ مَالِكٍ أنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قالَ: "مَنْ أحَبَّ" فذَكَرَهُ بلفْظِهِ سَوَاءً"، وَفِيهِ تأويلانِ: أحَدُهُمَا- مَعْنَوِيٌّ، وَهُوَ مَا يَبْقَى بَعْدَهُ مِنَ الثناءِ الجَمِيلِ وَالذِّكْرِ الحَسَنِ، وَالأجْرِ المُتَكَرِّرِ، فكَأنَّهُ لمْ يَمُتْ، وَالآخرُ- يُؤَخَّرُ أجلُهُ المَكْتُوبُ فِي اللوْحِ المَحْفُوظِ، وَالذي فِي عِلْمِ اللهِ ثابِتٌ لا تَبَدُّلَ لهُ، كَمَا قالَ: {يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ}، وَقِيلَ **لابْنِ عَبَّاسٍ** لمَّا رَوَى الحَدِيثَ الصَّحِيحَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أنَّهُ قالَ: "مَنْ أحَبَّ أنْ يَمُدَّ اللَّهُ فِي عُمْرِهِ وَأجَلِهِ وَيَبْسُطَ لهُ فِي رِزْقِهِ فلْيَتقِ اللَّهَ وَلْيَصِلْ رَحِمَهُ" كَيْفَ يُزَادُ فِي العُمْرِ وَالأجَلِ؟! فقالَ: قالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًاۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ [الأنعام من الآيه : ٢]، **فالأجَلُ** الأوَّلُ أجَلُ العَبْدِ مِنْ حِينِ وِلادَتِهِ إلى حين موته، والأجل الثاني- يَعْنِي المُسَمَّى عِنْدَهُ- مِنْ حِينِ وَفاتِهِ إلى يَوْمِ يَلْقاهُ فِي البَرْزَخِ لا يَعْلَمُهُ إلا اللَّهُ، فإذا اتَّقَى العَبْدُ رَبَّهُ وَوَصَلَ رَحِمَهُ زادَهُ اللَّهُ فِي أجَلِ عُمْرِهِ الأوَّلِ مِنْ أجَلِ البَرْزَخِ، ما شاءَ، وَإذا عَصَى وَقطعَ رَحِمَهُ نقصَهُ اللَّهُ مِنْ أجَلِ عُمْرِهِ فِي الدُّنْيا ما شاءَ، فيَزِيدُهُ فِي أجَلِ البَرْزَخِ فإذا تحَتَّمَ الأجَلُ فِي عِلْمِهِ السَّابِقِ امْتنَعَ الزِّيادَةُ وَالنُّقصَانُ، لِقَوْلِهِ تعَالَى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف من الآيه : ٣٤] فتوَافقَ الخَبَرُ وَالآيَةُ، وَهَذِهِ زِيَادَةٌ فِي نفْسِ العُمْرِ وَذاتِ الأجَلِ عَلى ظاهِرِ اللفْظِ، فِي اخْتِيَارِ حَبْرِ الأمَّةِ، وَاللَّهُ أعْلَمُ)[1].

وسوف نفصل القول في كيف يرد الدعاء القضاء على النحو التالي :

[1] تفسير القرطبي (٩/ ٣٣١).

المقصود برد القضاء

يمكن أن يحمل معنى رد القضاء على عدة معانٍ، يمكن حصرها فيما يلي:

☜ **المعنى الأول:** أن المقصود برد القضاء هو ما كان سوف يكون، لولا ما عَلِمَه الله أزلا من موجبات رده.

☜ **المعنى الثاني:** أن الرد ينصرف إلى القضاء الخاص بكتاب الملائكة، وليس القضاء المبرم الذي قدره الله أزلا في اللوح المحفوظ، ومعنى هذا أن القضاء قضاءان، كل منهما في كتاب.

☜ **المعنى الثالث:** أن المقصود برد القضاء هو تبديله في اللوح المحفوظ.

🕮 **وبإذن الله تعالى نتناول هذه المعاني بالمناقشة، فيما يلي:**

☜ **المعنى الأول:** أن المقصود برد القضاء هو ما كان سوف يكون، لولا ما علمه الله أزلا من موجبات رده.

☜ **وبيان ذلك:** أن الله سبحانه وتعالى يعلم أزلا ما سوف يكون من العباد، ولحكمة يعلمها تبارك وتعالى، يقضي بما فعله العباد بإرادتهم واختيارهم، لتتحقق حكمته، ولولا هذه الحكمة المرادة لقضى عز وجل قضاء آخر، مراعاة لمصالح وأحوال العباد، وهذا المعنى يؤكد ما قلناه في ثنايا البحث، أن القضاء ليس بالتسخير والتسيير فحسب، ولكن أيضا بالعلم الكاشف، الذي يرجع إلى اختيار العباد، والذي يقضي به الله تبارك وتعالى في مواطن محددة، لحكمة يريدها، سبحانه، والله أعلى وأعلم.

ولعل مما يشير إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٦٨﴾ [الأنفال: ٦٨].

يقول الإمام الطبري: (**قال أبو جعفر**: يقول تعالى ذكره لأهل بدر الذين غنموا وأخذوا من الأسرى الفداء: {لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ}، يقول: لولا قضاء من الله سبق لكم أهل بدر في اللوح المحفوظ، بأن الله مُحِلٌّ لكم الغنيمة، وأن الله قضى فيما قضى أنه لا يُضِلّ قومًا بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون، وأنه لا يعذب أحدًا شهد المشهد الذي شهدتموه ببدر مع رسول الله ﷺ ناصرًا دينَ الله لنالكم من الله، بأخذكم الغنيمة والفداء، عذاب عظيم)[1].

والمعنى المتبادر أن الله تبارك وتعالى - وهو أعلم بمراده سبحانه - يبين لنا أن القضاء المبرم بألا يعذب سبحانه أهل بدر، منع قضاء كان يمكن أن يكون وهو وقوع العذاب بهم.

ولعل هذه الآية تفسر ما ورد في حديث الرسول ﷺ: «لا يَرُدُّ القَضَاءَ إلا الدُّعَاءُ، ولا يَزِيدُ فِي العُمُرِ إلا البِرُّ»[2].

ويفهم من هذا الحديث أن علم الله المسبق بدعاء من دعاه، قد قبله الله منه، فقضى له بما يوافق الدعاء، ورفع عنه بلاءً، كان يمكن أن يكون هو القضاء المبرم الذي لا يتبدل ولا يتغير، والله أعلى وأعلم.

يذكر الإمام الطحاوي هذه الشبهة فيقول: (فقَالَ قَائِلٌ: فكَيْفَ تَقبَلُونَ هذَا وَتُضِيفُونَهُ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ وأنتمْ تَرْوُونَ عَنهُ. . .؟ يُرْوَى عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ إذا أرادَ أنْ يَخْلُقَ نَسَمَةً

---

[1] تفسير الطبري (١٤/ ٦٤).

[2] سنن الترمذي ت بشار (٤/ ١٦).

أمرَ الملكَ بأربعِ كلماتٍ: رزقِها، وأجلِها، وعملِها، وشقيٌّ أوْ سعيدٌ» فِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَفِي حَدِيثِ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ مِثْلُ ذَلِكَ وَزِيَادَةٌ عَلَيْهِ، وَهِيَ: "فَلَا يُزَادُ عَلَى ذَلِكَ وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُ" وَهَذَا اخْتِلَافٌ شَدِيدٌ)[1].

ثم يجيب عنها بقوله: (فَكَانَ جَوَابُنَا لَهُ فِي ذَلِكَ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَعَوْنِهِ: أَنَّ هَذَا مِمَّا لَا اخْتِلَافَ فِيهِ، إِذْ كَانَ قَدْ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْلُقَ النَّسَمَةَ جَعَلَ أَجَلَهَا إِنْ بَرَّتْ كَذَا، وَإِنْ لَمْ تَبَرَّ كَذَا، لِمَا هُوَ دُونَ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ مِنْهَا الدُّعَاءُ رَدَّ عَنْهَا كَذَا، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْهَا الدُّعَاءُ نَزَلَ بِهَا كَذَا، وَإِنْ عَمِلَتْ كَذَا حُرِمَتْ كَذَا، وَإِنْ لَمْ تَعْمَلْهُ رُزِقَتْ كَذَا، وَيَكُونُ ذَلِكَ مِمَّا يَثْبُتُ فِي الصَّحِيفَةِ الَّتِي لَا يُزَادُ عَلَى مَا فِيهَا وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُ، وَفِي ذَلِكَ بِحَمْدِ اللَّهِ الْتِئَامُ هَذِهِ الْآثَارِ وَاتِّفَاقُهَا، وَانْتِفَاءُ التَّضَادِّ عَنْهَا، وَاللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ نَسْأَلُهُ التَّوْفِيقَ)[2].

وهذا الذي قاله **الإمام الطحاوي** في غاية الدقة وحسن البيان، والذي فيه أن رد القضاء يقصد به المعنى: (وَإِنْ كَانَ مِنْهَا الدُّعَاءُ رَدَّ عَنْهَا كَذَا، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْهَا الدُّعَاءُ نَزَلَ بِهَا كَذَا)، فمن جهة المكتوب لا تبديل ولا تغيير، ولكن من فضل الله تعالى أن بين ما كان يمكن أن يكون عليه القضاء، لولا ما قام به العبد من الدعاء، والله أعلى وأعلم.

☜ **المعنى الثاني**: أن الرد ينصرف إلى القضاء الذي تختص به الملائكة، القضاء المعلق، وليس القضاء المبرم الذي قدره الله أزلا،

---

[1] شرح مشكل الآثار (٨/ ٨١).

[2] المرجع السابق.

في اللوح المحفوظ، ومعنى هذا أن القضاء قضاءان، كل منهما في كتاب، القضاء المبرم، ولا تبديل فيه ولا تغيير، والقضاء المعلق، وهو الذي يتم التبديل والتغيير فيه.

وفي هذا المعنى يقول الإمام الزركشي: (وذهب قوم إلى أن للّه كتابين سوى أم الكتاب يمحو منهما ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب لا يغير منه شيء وهذا يروى عن **ابن عباس ومجاهد وغيرهما**، ونزلوا على قوله تعالى: {يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ}، وأم كل شيء أصله فكان الكتاب الذي لا يغير منه شيء هو الأم والكتابان الأخيران يقبلان التغيير)[1].

وعلى القول فاللوح المحفوظ، هو أم الكتاب الذي لا تبديل ولا تغيير فيه، بينما الكتابان يخصان الملائكة ويقبلان التبديل والتغيير، واللّه أعلى وأعلم.

يقول الإمام الماتريدي: (وقوله: {فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ}: هذا يحتمل **وجهين**: **أحدهما**: يوفقهم اللّه إذا تابوا وندموا على ما فعلوا من السيئات في الدنيا، حتى يعملوا مكان كل سيئة عملوها حسنة، فذلك معنى تبديل اللّه سيئاتهم حسنات، أي: يوفقهم على ذلك، **والثاني**: يبدل اللّه سيئاتهم حسنات في الآخرة، لما كان منهم الندامة والحسرة على كل سيئة كانت منهم في الدنيا، وعلى ذلك روي عن **أبي هريرة** قال: "ليأتين أقوام يوم القيامة ودوا أنهم استكثروا من السيئات، فقيل له: يا أبا

[1] تشنيف المسامع بجمع الجوامع (٤/ ٧٢٢).

هريرة، ومن هم؟ قال: هم الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات"، وكأنه روي مثله عن **عبد الله بن مسعود**)[1].

ولا يمكن الجمع بين الأدلة كلها إلا بكون هذا التبديل في كتاب الملائكة، وهل منه اللوح المحفوظ أم لا؟

فعلى القول إن أم الكتاب عند الله تعالى، أي علم الله، فيكون اللوح المحفوظ من ضمن الكتب التي تبدل فيها، وعلى القول أن اللوح المحفوظ هو أم الكتاب، فلا تبديل فيه، ويكون التبديل في كتاب الملائكة، وهذا هو القول الذي نرجحه، والله أعلم.

ولعل ما يؤكد أن هذا التبديل في كتاب الملائكة، ما أورده **الإمام ابن تيمية** من خلاف في هذه المسألة وأن التبديل يكون في صحف الملائكة، **حيث يقول**: (وَالْجَوابُ الْمُحَقَّقُ: أَنَّ اللَّهَ يَكْتُبُ لِلْعَبْدِ أَجَلًا فِي صُحُفِ الْمَلَائِكَةِ فَإِذَا وَصَلَ رَحِمَهُ زَادَ فِي ذَلِكَ الْمَكْتُوبِ، وَإِنْ عَمِلَ مَا يُوجِبُ النَّقْصَ نَقَصَ مِنْ ذَلِكَ الْمَكْتُوبِ، وَنَظِيرُ هَذَا مَا **فِي التِّرْمِذِيِّ وَغَيْرِهِ** عَنْ النَّبِيِّ ﷺ: {أَنَّ آدَمَ لَمَّا طَلَبَ مِنْ اللَّهِ أَنْ يُرِيَهُ صُورَةَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ فَأَرَاهُ إيَّاهُمْ فَرَأَى فِيهِمْ رَجُلًا لَهُ بَصِيصٌ فَقَالَ مَنْ هَذَا يَا رَبِّ؟ فَقَالَ ابْنُك دَاوُد، قَالَ: فَكَمْ عُمُرُهُ؟ قَالَ أَرْبَعُونَ سَنَةً، قَالَ: وَكَمْ عُمْرِي؟ قَالَ: أَلْفُ سَنَةٍ، قَالَ فَقَدْ وَهَبْت لَهُ مِنْ عُمْرِي سِتِّينَ سَنَةً، فَكُتِبَ عَلَيْهِ كِتَابٌ وَشَهِدَتْ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قَالَ قَدْ بَقِيَ مِنْ عُمْرِي سِتُّونَ سَنَةً، قَالُوا: وَهَبْتهَا لِابْنِك دَاوُد، فَأَنْكَرَ ذَلِكَ فَأَخْرَجُوا الْكِتَابَ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فَنَسِيَ آدَمَ فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ وَجَحَدَ آدَمَ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ} وَرُوِيَ أَنَّهُ كَمَّلَ لِآدَمَ عُمُرَهُ وَلِدَاوُد عُمُرَهُ،

[1] تفسير الماتريدي (٨/ ٤٥).

فهَذا داوُد كَانَ عُمُرُهُ المَكْتُوبُ أرْبَعِينَ سَنَةً ثُمَّ جَعَلَهُ سِتّينَ وَهذا مَعْنَى مَا رُوِيَ عَنْ عُمَرَ أنّهُ قالَ: اللّهُمَّ إنْ كُنْتَ كَتَبْتَنِي شَقِيًّا فامْحُنِي واكْتُبْنِي سَعِيدًا فإنّك تَمْحُو مَا تَشَاءُ وتُثْبِتُ. واللّهُ سُبْحَانَهُ عَالِمٌ بِمَا كَانَ وَمَا يَكُونُ وَمَا لَمْ يَكُنْ لوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ، فهُوَ يَعْلَمُ مَا كَتَبَهُ لَهُ وَمَا يَزِيدُهُ إيّاهُ بَعْدَ ذلِكَ وَالمَلَائِكَةُ لَا عِلْمَ لَهُمْ إلا مَا عَلّمَهُمْ اللّهُ وَاللّهُ يَعْلَمُ الأشْيَاءَ قَبْلَ كَوْنِهَا وَبَعْدَ كَوْنِهَا، فلِهَذا قَالَ العُلَمَاءُ: إنَّ المَحْوَ وَالإثْبَاتَ فِي صُحُفِ المَلَائِكَةِ وَأمَّا عِلْمُ اللّهِ سُبْحَانَهُ فلَا يَخْتَلِفُ وَلَا يَبْدُو لَهُ مَا لَمْ يَكُنْ عَالِمًا بِهِ فلَا مَحْوَ فِيهِ وَلَا إثْبَاتَ، وَأمَّا اللّوْحُ المَحْفُوظُ فهَلْ فِيهِ مَحْوٌ وَإثْبَاتٌ عَلَى قوْليْنِ، وَاللّهُ سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أعْلَمُ؟»[1].

☜ **ومن هنا**: تحمل كل النصوص التي تفيد التبديل أو رد القضاء، على أن المقصود به كتاب الملائكة، أو القضاء المعلق، كما في بعض أوصافه.

أما اللوح المحفوظ فالأرجح أنه هو أم الكتاب، وأنه لا يطلع عليه من الملائكة إلا من وكل به منهم لاغير، والله أعلى وأعلم.

ورجحنا أن اللوح المحفوظ هو أم الكتاب، وأما علم الله تعالى فهو صفة من صفاته سبحانه، لا يطلع عليه أحد من المخلوقين، ولهذا فالأرجح أن اللوح المحفوظ هو أم الكتاب، لما ذكرناه سابقا من حكمة الكتابة، والتي منها اطلاع الملائكة على عظيم قدرة الله وتعاليه عن كل نقص، والله أعلى وأعلم.

---

[1] مجموع الفتاوى (١٤/ ٤٩٠)

☜ **المعنى الثالث:** أن المقصود برد القضاء هو تبديله في اللوح المحفوظ، وأصحاب هذا القول بأن الذي لا يتغير ولا يتبدل هو علم الله تعالى.

وممن ذهب إلى ذلك شارح صحيح مسلم: (وقوله: يا محمد إني إذا قضيت قضاء لا يرد) يستفاد منه: أنه لا يستجاب من الدعاء إلا ما وافقه القضاء، وحينئذ يشكل بما قد روي عنه ﷺ أنه قال: لا يرد القضاء إلا الدعاء، ويرتفع الإشكال بأن يقال: إن القضاء الذي لا يرده دعاء ولا غيره، هو الذي سبق علم الله بأنه لا بد من وقوعه، والقضاء الذي يرده الدعاء أو صلة الرحم، هو الذي أظهره الله بالكتابة في اللوح المحفوظ)[1]، ومعنى هذا أن الذي لا يتبدل ولا يتغير هو علم الله لا غير.

وكذلك: (قوله: من سره أن يبسط له في رزقه، وينسأ له في أثره فليصل رحمه) بسط الرزق: سعته وتكثيره والبركة فيه. والنسء: التأخير، والأثر: الأجل، سمي بذلك، لأنه تابع الحياة. ومعنى التأخير هنا في الأجل ـ وإن كانت الآجال مقدرة في علم الله لا يزاد فيها ولا ينقص ـ: أنه يبقى بعده ثناء جميل، وذكر حميد، وأجر متكرر، فكأنه لم يمت، وقيل معناه: يؤخر أجله المكتوب في اللوح المحفوظ، والذي في علم الله ثابت لا تبديل له، كما قال تعالى: {يَمحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الكِتَابِ} أي:

---

[1] المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، لأبي العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي (٥٧٨ - ٦٥٦ هـ) (٧/ ٢١٩).

أصل المكتوب في اللوح المحفوظ، هو علم الله تعالى الذي لا يقبل المحو ولا التغيير، حكي معناه عن عمر رضي الله عنه في الآية)[1].

وقوله: (أي: أصل المكتوب في اللوح المحفوظ، هو علم الله تعالى الذي لا يقبل المحو ولا التغيير)، كأنه جعل كل ما هو مكتوب تتناوله الملائكة، بما في ذلك اللوح المحفوظ، فكل ما هو مكتوب يقبل التبديل والتغيير، وأما ما لا يقبل التبديل ولا التغيير فهو علم الله تعالى لا غير، والله أعلى وأعلم.

وهكذا نلاحظ أن الذين ذهبوا إلى أن التغيير والتبديل يكون في اللوح المحفوظ أيضا ذهبوا إلى القول ـ كما يفهم من الأقوال ـ إلى وجود كتاب آخر غير اللوح المحفوظ هو أم الكتاب، ولا يطلع عليه مخلوق قط.

وهذا القول لا نرجحه لأن ما قلناه عن الحكمة في الكتابة في اللوح المحفوظ تصبح غير موجودة.

ويترتب على ذلك أن يصبح اللوح المحفوظ هو أحد كتب الملائكة، أما أم الكتاب فلا يطلع عليه الملائكة، وبالتالي لا تظهر فائدة هذا الكتاب، والذي يكون هو أم الكتاب، والله أعلى وأعلم.

يقول الإمام الطبري: (**قال أبو جعفر**: اختلف أهل التأويل في تأويل **قوله**: {وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ}، فقال بعضهم: معناه: وعنده الحلال والحرام، حدثنا مالك بن دينار قال: سألت الحسن: قلت: {أمُّ الكتاب}، قال: الحلال والحرام قال: قلت له: فما (الحمد لله رب العالمين) قال: هذه أمُ القرآن، وقال آخرون: معناه: وعنده جملة الكتاب وأصله، **عن ابن عباس**: {وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} يقول: وجملة ذلك عنده

---

[1] المرجع السابق.

في أمّ الكتاب: الناسخ والمنسوخ، وما يبدّل، وما يثبت، كلُّ ذلك في كتاب، وقال آخرون في ذلك، ما: عن ابن عباس، أنه سأل **كعبًا** عن {أُمُّ الْكِتَابِ} قال: علم الله ما هو خَالقٌ وما خَلْقُه عاملون، فقال لعلمه: كُنْ كتابًا، فكان كتابًا، وقال آخرون: هو الذكر، **قال ابن عباس**: {وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} قال: الذكر، قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قولُ من قال: "وعنده أصل الكتاب وجملته، وذلك أنه تعالى ذكره أخبر أنه يمحُو ما يشاء ويثبت ما يشاء، ثم عقّب ذلك بقوله: {وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ}، فكان بيّنًا أن معناه: وعنده أصل المثبّت منه والممحوّ، وجملته في كتاب لديه)[1].

وقول **ابن عباس** رضي الله عنهما: {وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} قال: الذكر، إشارة قوية إلى أن الذكر هو اسم لكتاب، هو أم الكتاب، تماما كما أن اللوح المحفوظ اسم لكتاب، ولكن الأم بهذا المعنى هو كتاب الذكر، والله أعلى وأعلم.

ومن الأدلة التي قد تشير إلى ذلك أيضا ما ورد في الحديث عَنْ **عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ** رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ، وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ»[2].

وكذلك قول الإمام القرطبي: (**وَرَوَى أَبُو الدَّرْدَاءِ عَنِ النَّبِيِّ** ﷺ **قَالَ**: "إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَفْتَحُ الذِّكْرَ فِي ثَلَاثِ سَاعَاتٍ يَبْقَيْنَ مِنَ اللَّيْلِ فَيَنْظُرُ فِي الْكِتَابِ الَّذِي لَا يَنْظُرُ فِيهِ أَحَدٌ غَيْرُهُ فَيُثْبِتُ مَا يَشَاءُ وَيَمْحُو

[1] تفسير الطبري (١٦/ ٤٩٠).

[2] صحيح البخاري (٤/ ١٠٥).

مَا يَشَاءُ"، وَالعَقِيدَةُ أَنَّهُ لَا تَبْدِيلَ لِقَضَاءِ اللَّهِ، وَهَذَا المَحْوُ وَالإِثْبَاتُ مِمَّا سَبَقَ بِهِ القَضَاءُ، وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ مِنَ القَضَاءِ مَا يَكُونُ وَاقِعًا مَحْتومًا، وَهُوَ الثَّابِتُ، وَمِنْهُ مَا يَكُونُ مَصْرُوفًا بِأَسْبَابٍ، وَهُوَ المَمْحُوُّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَقَالَ الغَزْنَوِيُّ: وَعِنْدِي أَنَّ مَا فِي اللَّوْحِ خَرَجَ عَنِ الغَيْبِ لِإِحَاطَةِ بَعْضِ المَلَائِكَةِ، فَيَحْتَمِلُ التَّبْدِيلَ، لِأَنَّ إِحَاطَةَ الخَلْقِ بِجَمِيعِ عِلْمِ اللَّهِ مُحَالٌ، وَمَا فِي عِلْمِهِ مِنْ تَقْدِيرِ الْأَشْيَاءِ لَا يُبَدَّلُ، {وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} أصل ما كتب من الآجال)[1].

وهكذا يكون الذكر هو أم الكتاب الذي لا يطلع عليه الملائكة ولا يتصرفون فيه، ولا يعلم ما هو مكتوب فيه إلا الله تعالى، بينما اللوح المحفوظ وغيره من الكتب يتم التبديل والتغيير فيها، بإذن الله تعالى، والله أعلى وأعلم.

وعلى الرغم من أنه لا يوجد محظور من هذا التقسيم، إلا أنني أرجح أن اللوح المحفوظ هو أم الكتاب الذي لا تبديل فيه ولا تغيير، بينما كتاب الملائكة هو الذي يتم التبديل والتغيير فيه، وذلك لما بيناه ونقلناه من الحكمة في ذلك، والله أعلى وأعلم.

[1] تفسير القرطبي (٩/ ٣٣٢).

الفائدة من هذه المسألة (رد القضاء بالدعاء)

يمكن أن نلخص فائدة هذه المسألة في أن العبد عليه بالعمل كما أمر اللّه تعالى والتوكل عليه والدعاء بكل ما يحب في إطار ما شرعه اللّه تعالى، دون أن يتوقف عند مسائل القضاء والقدر، وما يرد وما لا يرد، بل ليكن كل شاغله هو إرضاء اللّه تعالى، والتذلل بين يديه بالدعاء، واللّه قريب مجيب الدعاء.

أما من أراد أن يرتقي في مقام العبودية للّه تعالى فمما لا شك فيه أنه ينفعه فهم نصوص الشرع فهما صحيحا، يرفع عنه أي إشكال في التضارب بين نصوص الشرع، ولن يعلو شرع اللّه بين الناس، إلا بالفهم الواعي والعميق لنصوص الشرع ودقائقه، والذي يكون خير معين على فهم مقاصد الشرع، والحكمة من التشريع، فهما ينعكسان على حياة الناس وسلوكهم، مما يعمق معنى الإيمان في قلوبهم، وتصبح عبادتهم كأحسن ما يستطيعون، كما في الحديث الصحيح، من حديث جبريل عندما سأل رسول اللّه ﷺ: قالَ: مَا الإِحْسَانُ؟ قالَ: «أنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأنَّكَ تَرَاهُ، فإنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فإنَّهُ يَرَاكَ»[1]، واللّه من وراء القصد.

[1] متفق عليه: صحيح البخاري (١/ ١٩)، صحيح مسلم (١/ ٣٧).

أمثلة تطبيقية على
تعلق أفعال العباد بالقدر وليس بمشيئتهم وإرادتهم فقط

هذه مسألة تعرضنا لها بالذكر أكثر من مرة، وقلنا إن العباد لابد أن يكون لهم جانب من الأفعال تكون لهم فيها الإرادة الحرة والاختيار التام، وذلك بما يوافق مشيئتهم وإرادتهم، وهو ما يطلق عليه على الألسنة "التخيير"، وذلك حتى تقوم الحجة عليهم، أمام الله تبارك وتعالى، وينقطع عذرهم.

ومع هذا: هل يختلف القدر بذلك؟ أم أن ما يقع من أفعال العباد، سواء أكان بالتسيير والتسخير، أم كان بالتخيير التام، سيكون هو القدر المحتم الذي لا دافع له، والله أعلى وأعلم.

وسوف نثبت بالأدلة المتعددة أن كل أفعال العباد، التي تقع منهم، باختيارهم أم بغيره هو قدرهم المحتوم، وأن المقصود بالتسيير والتسخير هو الفعل أصالة، بينما المشيئة والإرادة تأتي تبعا، والله أعلى وأعلم.

والمعنى الذي أقصده إن الإلهام والتسيير والتخيير، لابد أن يكون مقصودا به ما يقع من أفعال، حتى إنه وكما ذكرنا في حديث السفينة، كان يمكن أن يتكرر الاستهام عدة مرات ثم يتوقفون ويقبلون النتيجة، ويكون ذلك تماما عند موافقة قدرهم، والله أعلى وأعلم.

وقد تكون مشيئتهم وإرادتهم فعل شيء ولكن يحول بينهم وبين ذلك حائل كما سبق توضيحه، ليستقر الفعل الذي يقع في النهاية عند ما قدر لهم، والله أعلى وأعلم.

وهذا الذي نقوله يمكن أن تكون الآيات والنصوص التي تدل عليه من الكثرة بحيث لا يسهل حصرها، ولهذا سنكتفي بالقليل منها، وسوف نجتهد ـ قدر الاستطاعة ـ بإذن الله تعالى أن نرتب الأدلة بحسب قوة دلالتها المباشرة على هذه المسألة، والله المستعان.

📖 **الدليل الأول:** وهذا الدليل بيان لعظيم منه وكرمه سبحانه على الفئة المؤمنة القليلة المستضعفة، ومع هذا يحقق الله ما كانت تعجز عنه الفئة المؤمنة، لو سارت المقادير بالعلم الأزلي الكاشف وحده، **وذلك كما يتضح مما يلي:** قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ ۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾﴾ [الحشر: ٢ - ٣].

تنص هاتان الآيتان الكريمتان على مسألة التيسير"[1] والتسخير"[2] نصا مباشرا، لا يقبل التعطيل، ولا التأويل، حيث توضح كيف يتعلق القدر بأفعال العباد، لينفذ قضاؤه وقدره سبحانه، على نحو ما قدر وقضى أزلا، تبارك وتعالى.

---

[1] التسير للفئة المؤمنة.

[2] التسخير للفئة الكافرة.

📖 **وتوضيح ذلك من وجوه :**

☜ **الوجه الأول: يقول الإمام الطبري: {وقوله:** {مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا} ، يقول تعالى ذكره للمؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ: ما ظننتم أن يخرج هؤلاء الذين أخرجهم الله من ديارهم من أهل الكتاب من مساكنهم ومنازلهم، {وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ}، وإنما ظن القوم فيما ذكر أن عبد الله بن أبي، وجماعة من المنافقين بعثوا إليهم لما حصرهم رسول الله ﷺ يأمرونهم بالثبات في حصونهم، ويعدونهم النصر)[1].

قول الإمام الطبري: هؤلاء الذين أخرجهم الله من ديارهم، ينسب خروج أهل الكتاب من مساكنهم ومنازلهم، إلى فعل الخالق سبحانه، مع أن تقدير الفريقين للأمر كان بعيدا عما قضى الله وقدر، كما في قوله تعالى: {مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ}.

ومفاد ذلك أن البشر قد أخذوا بالأسباب التي توصلهم إلى مرادهم، فاطمأن أهل الكتاب إلى قوتهم وحصونهم، وأما فريق أهل الإيمان فقد أدركوا أن الأسباب التي بين أيديهم لا تحقق مرادهم، وبهذه الحقائق كان المتوقع أن يبقى أهل الكتاب في مساكنهم، وأما أهل الإيمان فلم يتبق لهم إلا المكوث كما هم في محاصرتهم، أو العودة إلى ديارهم، ولكن جاء القدر المحتم على خلاف ذلك، وترتب على هذا القدر، أن تغيرت أفعال الفريقين تغيرا كبيرا عما كانت عليه، وهذا التغير إنما كان

[1] تفسير الطبري (٢٣/ ٢٦٣).

نتيجة محتمة لوقوع القضاء الذي قدره الله تعالى، أفلا يكون هذا تيسيرا لأهل الإيمان وتسخيرا لمن سواهم؟

ويقول الإمام الماتريدي: (وقوله ـ عزَّ وجَلَّ : {مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا} أي: ما ظننتم أيها المؤمنون أن تنتصروا منهم، فضلا عن أن يخرجوا من ديارهم، ولكن ذلك من لطف الله ومنته عليكم، وقوله ـ عزَّ وجَلَّ ـ: {وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ}، لا يحتمل أن يتوهم أحد هذا، والمعنى في ذلك عندنا وجهان ـ والله أعلم ـ: أحدهما: أنهم ظنوا أن الله ـ تعالى ـ حيث آتاهم القوة والحصون لا يبلغ بهم حكمه المبلغ الذي يخرجون من ديارهم؛ لأنهم كانوا أهل كتاب وكانوا يزعمون أنهم أولى بالله من غيرهم كقوله: {نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ}، ويكون قوله: {مِنَ اللَّهِ}، أي: بالله وبأمره، كقوله ـ تعالى ـ: {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ} أي: بأمر الله؛ فعلى ذلك، الأول، والثاني: أي: ظنوا أن حصونهم وقوتهم تمنعهم من أولياء الله أن يظهروا عليهم، أو من دين الله أن يظهر فيهم، والله أعلم)[1].

وقوله: (لا يبلغ بهم حكمه المبلغ الذي يخرجون من ديارهم) يؤكد لنا عدم صواب القول بأن القضاء والقدر إنما هو فقط بالعلم الأزلي الكاشف، الذي أحاط به سبحانه علما قبل أن يخلق الخلق، لأن كل مقدرات البشر كانت تسير في اتجاه متيقن معلوم، ثم حدث ما يغايره تماما، بغير إرادة بشرية، وقد أخبر الخالق سبحانه عن ذلك، بالخبر الذي لا يقبل التأويل، فقد كان تقديرهم عدم الخروج من مساكنهم، وكان تقدير الفئة

---

[1] تفسير الماتريدي (٩/ ٥٨٠).

المؤمنة أنهم عاجزون عن إخراجهم، وهكذا جاء القضاء النافذ بما يغاير كل ما خطط له الفريقان، أفلا يكون هذا هو التسيير والتسخير؟

☜ **الوجه الثاني**: قوله تعالى: {فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ}.

أضاف الخالق سبحانه وتعالى الفعل إلى نفسه، {فَأَتَاهُمُ اللَّهُ}، مع أن الذي حدث أمام الأنظار والعيون أن كل ذلك تم على أيدي اليهود وبأعمالهم، بسبب ما ترتب على الفعل الذي قامت به الفئة المؤمنة، فهل كان فعلهم هذا عن إرادة منهم واختيار، وكشف علم اللّه الأزلي عنه؟ أم أنهم سُخروا لذلك وسُييروا إليه؟، الجواب القطعي هو التسيير والتسخير، أو التيسير والتسخير.

يقول الإمام الطبري: (اللّه الذي أخرج يهود بني النضير من ديارهم، وذلك خروجهم عن منازلهم ودورهم، حين صالحوا رسول اللّه ﷺ على أن يؤمنهم على دمائهم ونسائهم وذراريهم، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل من أموالهم، ويخلو له دورهم، وسائر أموالهم، فأجابهم رسول ﷺ إلى ذلك، فخرجوا من ديارهم، فمنهم من خرج إلى الشام، ومنهم من خرج إلى خيبر)[١].

والذي نوقن به أن الخالق تبارك وتعالى لما نسب الفعل إلى نفسه فلابد أن تضيف تلك النسبة معنى زائدا عن مجرد العلم الأزلي الكاشف، بمعنى أن ما وقع وتم لم يكن أبدا بالاختيار التام للفريقين، وكذلك لم تتنزل الملائكة لتقوم بما قام به

---

[١] تفسير الطبري (٢٣/ ٢٥٩).

الفريقين بكامل جوارحهم وأفعالهم، ولهذا لابد أن يكون المقصود هو التسخير والتسيير ـ والله أعلى وأعلم.

يقول الإمام الماتريدي: (يعني: أنه قذف في قلوبهم الرعب من حيث لم يحتسب المؤمن ولا الكافر، لأن المسلمين لم يظنوا أن يقهروهم ويغلبوهم، مع قلة عددهم وكثرة عدد أولئكَ، وكذا لم يحتسب الكفرة أنهم مع قوتهم وقوة حصونهم يُقهرون ويُغلبون، حتى منَّ الله ـ تعالى ـ على المؤمنين بأن قذف الرعب في قلوب الكفرة، ذلك لطف عظيم من الله ـ تعالى ـ إلى المؤمنين، والله أعلم)[1].

ولابد أن يستقر في النفوس أن قذف الرعب في القلوب هو من وسائل التسيير والتسخير، لأن هذا يكون إيذانا بالنتيجة المحتمة التي قضى بها الله جل في علاه، ألا وهي الخروج من حصونهم، تحت وطأة الرعب والخوف، والله أعلى وأعلم.

ويستطرد **الإمام الماتريدي** مبينا تأويل معاني الألفاظ التي تنسب الأفعال إلى الذات العلية جل في علاه، فيقول: (ثم الأصل فيما خرج هذا المخرج من نحو قوله تعالى: {فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ}، ومن نحو قوله تعالى: {وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا}، ومن نحو قوله عز وجل: {إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ}، وما يشاكله أن نحمله على أحد معان ثلاث:

☜ **أحدها**: أن نقول: المراد إتيان آثار فعل الله ـ تعالى ـ ويجوز أن يضاف إليه سبيل إضافة حقيقة العمل، كما يقال: الصلاة أمر الله، ونحن نعلم أنها ليست بعين أمر الله، لكنها أثر أمر الله ـ

[1] تفسير الماتريدي (٩/ ٥٨٠).

تعالى - وكذلك يقال: المطر رحمة الله - تعالى - يعني: أثر رحمته، فكذلك إذا نزل بهم آثار حكم الله - تعالى - وتدبيره وفعله: وهو العذاب جاز أن يضاف إليه إضافة حقيقة الفعل، والله أعلم)[1].

ويغلب على الظن أن هذا المعنى يوافق ما نقوله موافقة تامة، وكأنه نص في المسألة، فقوله: المراد إتيان آثار فعل الله، هو التسخير والتسيير، ولا يمكن أن يقال بأي وجه من وجوه التأويل أنه قد وقع بالعلم الأزلي الكاشف وفقط، بل هو القضاء والقدر، والله أعلى وأعلم، ونكتفي به عن باقي المعاني التي أوردها، رحمة الله عليه.

☜ **الوجه الثالث:** قوله تعالى: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَاأُولِي الْأَبْصَارِ﴾، **يقول الإمام الطبري**: (يعني جلّ ثناؤه بقوله: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ﴾ بني النضير من اليهود، وأنهم يخربون مساكنهم، وذلك أنهم كانوا ينظرون إلى الخشبة فيما ذُكر في منازلهم مما يستحسنونه، أو العمود أو الباب، فينزعون ذلك منها بأيديهم وأيدي المؤمنين، عن الزُهريّ، قال: لما صالحوا النبي ﷺ كانوا لا يعجبهم خشبة إلا أخذوها، فكان ذلك خرابها، **وقال قتادة**: كان المسلمون يخربون ما يليهم من ظاهرها، وتخربها اليهود من داخلها.

عن ابن إسحاق، عن يزيد بن رومان، قال: احتملوا من أموالهم، يعني بني النضير، ما استقلت به الإبل، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف بابه، فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به، قال: فذلك

---

[1] تفسير الماتريدي (٩/ ٥٨١).

قوله: {يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ} وذلك هدمهم بيوتهم عن نجف أبوابهم إذا احتملوها)[1].

وقول قتادة ﷺ وتخربها اليهود من داخلها يحتمل أنهم كانوا يخربون ما لا يمكن حمله حتى لا ينتفع به المسلمون، وما كان ذلك ليكون إلا أن سخرهم اللّه لذلك، واللّه أعلى وأعلم.

وهكذا يفسر القرآن الكريم المعنى المراد من قوله تبارك وتعالى: {فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ}، فإتيان اللّه لهم ظهر في صورة الفعل والحركة والعمل الذي قامت به كل من الفئتين، الفئة المؤمنة، والفئة الكافرة، وهذا هو عين التيسير والتسخير.

ويلفت الإمام الماتريدي الانتباه إلى معنى في غاية الدقة نصت عليه الآية الكريمة حيث يقول: (وقوله - عزَّ وجَلَّ - {يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ}، هذا يدل على أن الملك للمسلمين في أموال أهل الحرب ليس يقع بمجرد الغلبة ما لم يكن ثمَّ أسْرٌ، لأنه أخبر أن المؤمنين كانوا يخربون بيوتهم - أي بيوت بني النضير - أضاف الملك إلى الكفرة، مع أن الغلبة للمسلمين؛ فإنكم إذا اعتبرتم علمتم أن اللّه - تعالى - منَّ عليكم، حيث أخرج الكفار من ديارهم؛ فإنه لم يكن ذلك بقوتكم)[2].

وقوله: (فإنه لم يكن ذلك بقوتكم) يدل على أن ما يكشف عنه العلم من أفعال البشر والذي يقع منهم بإختيارهم التام لابد أن يكون منضبطا بقوانين البشر، وليس بما ليس في

---

[1] تفسير الطبري (٢٣/ ٢٦٤).

[2] تفسير الماتريدي (٩/ ٥٨١).

طاقتهم ومقدورهم، ومن هنا كان معنى الآيات وسياقها دالا على أنه (لم يكن ذلك بقوتكم)، بل بفعل الله تعالى، وهو القضاء والقدر الذي لا يتوقف على إرادة البشر واختيارهم، فكان ذلك بالتسيير والتسخير، والله أعلى وأعلم.

☜ **الوجه الرابع**: قوله تعالى: {وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ}، والآية بيان واضح لا لبس فيه ولا خفاء أن أمور الخلق تجري بالمقادير، وليس كما يقول المتأخرون بالتخيير، وذلك كما تنص الآية الكريمة.

يقول الإمام الطبري: (يقول تعالى ذكره: ولولا أن الله قضى وكتب على هؤلاء اليهود من بني النضير في أم الكتاب الجلاء، وهو الانتقال من موضع إلى موضع، وبلدة إلى أخرى)[1].

وقول الإمام الطبري: قضى وكتب لا يحتمل أي تأويل يبعد عما نقوله، والذي قلنا من خلاله إنه: (لا يوجد لمخلوق قط إرادة مطلقة واختيار تام فيما يفعل، ويحاسب عليه من أعمال).

فها هم يهود بني النضير قد أقاموا الحصون التي تكفل لهم البقاء، والتنعم بالعيش ما قدّر لهم من الحياة، ومقتضى ذلك أن العلم الكاشف الذي لا يتدخل في اختيار البشر سوف يظهر ما هم فاعلوه بكامل إرادتهم واختيارهم، كما هو في الواقع، لأنهم سوف يحاسبون على كل ذلك أمام الخالق سبحانه، ولو كان الأمر كما هو في منظور الناس لحسبوا أن كل ما قاموا به إنما كان بإرادتهم واختيارهم، بدعوى أن الحساب أمام الله تعالى يقتضي التخيير.

---

[1] تفسير الطبري (٢٣/ ٢٦٦).

ولكن ها هو النص القرآني الحكيم يبين أن هذا الذي يقولونه لا علاقة له بالصواب، بل هو خطأ محض، وخطيئة كبرى لمن أدرك المعنى الذي يترتب على هذا القول، ونعوذ بالله من ذلك، فقد خرج بنو النضير على غير إرادة سابقة منهم، وتوجهوا إلى جهات مختلفة لعلهم ما ظنوا أن ينتقلوا للعيش فيها قط، أفليس هذا هو المراد بالتسخير، ومع هذا توعدهم الله تعالى بسوء العاقبة أيضا يوم القيامة {وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ}.

إن الحق والصواب هو ما يفهم كما أخبر عنه الخالق جل في علاه، في محكم آياته، فقد كتب الله عليهم الجلاء، أي قضى وقدر، قضاء لا يتبدل ولا يتغير ولا يتوقف على تصرفات البشر، بل سوف يُسخَّرُ هؤلاء الذي كتب عليهم الجلاء، ويساقون دون أن يتحكم فيهم أي مؤثر مادي أو بشري، ليفعلوا ما يحقق قضاء الله فيهم.

وفي منظور البشر فكل هذا يتم بكامل إرادتهم واختيارهم، فالأعين لم تر أحدا أو شيئا يمسك بالألسنة والأيدي والأرجل ليفعلوا شيئا، بل هم أمام العيون لا يوجد شيئ قط مادي محسوس يتحكم في تصرفاتهم، ومن هنا استمد القائلون من أهل العلم المتأخرين كلامهم في مسألة التخيير، وغفلوا عن قدرة الخالق عز وجل وإرادته المطلقة التي تحكم أفعال كل المخلوقات وتصرفاتهم، دون أن تلمسها الحواس، أو تراها الأعين ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ [فاطِر من الآيه : ٤٤].

وهكذا نتأكد من قوله عزَّ وجلَّ: {وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا}، أن أفعال البشر تتعلق بالقضاء والقدر بالتسخير والتسيير، وليس بمطلق التخيير أبدا.

يقول الإمام الماتريدي: (يعني: لولا أن كتب الله عليهم الجلاء في اللوح المحفوظ، لعذبهم في الدنيا بالقتل)[1].

فقد أخبر الخالق سبحانه وتعالى عن شيء لم يقع، ألا وهو تعذيبهم في الدنيا بالقتل، وهذا يقطع ويجزم أن مجريات أمور الخلق، وحركاتهم وسكناتهم إنما تجري وفق المقادير، التي لا تتوقف على اختيارهم، بحال من الأحوال.

وبيان ذلك: أنه قد تم جلاؤهم بالفعل، وبالتالي فكل ما يتعلق بأفعال البشر، في هذه الجزئية قد انتهى، ولكن الله سبحانه وتعالى يخبر البشر عن أمر خارج عن قدرات العقول، في نفس هذه المسألة، وكأن المراد ـ والله أعلم بمراده ـ أن يَعلمَ الخلقُ أن الأمور تجري بمقادير، وليست التي يقول عنها القائلون إنما تم ذلك بالعلم الأزلي الكاشف، بل إنه بالقضاء المبرم الذي يُخضع البشر إخضاعا ليقع قضاؤه سبحانه على وفق ما أراد عز وجل.

وإخبار الخالق سبحانه عما كان سيقع، لولا أنه عز وجل لم يرده أن يقع ـ التعذيب بالقتل ـ وأخبر سبحانه أنه كان بديلا عما وقع بالفعل، علمنا أن ما وقع من أفعال، وما لم يقع منها، ينضبطان بضابط واحد، وهو القضاء والقدر، وليس اختيار الناس وإرادتهم.

---

[1] تفسير الماتريدي (٩/ ٥٨٢).

مع الأخذ بعين الاعتبار أنه سواء ما وقع بالفعل - وهو الإخراج - أو ما كان يمكن أن يقع - وهو العذاب في الدنيا، بالقتل أو الأسر - فإنما يجري بأيدي البشر، فهل يمكن أن يتوقف القضاء اللازم المحتم الوقوع على الشيء الجائز الوقوع، وهو أفعال البشر الاختيارية التامة؟ بالطبع لا.

لأنه لو تعلق بإرادة البشر الحرة واختيارهم التام، فسوف يكون عرضة للتغير، أو التخلف، أو يتخلف منه البعض ويقع البعض، بأي سبب من الأسباب التي تحيط بالبشر ليل نهار في كل زمان ومكان، ومن هنا علمنا أنه لابد للقضاء والقدر من التسيير والتسخير، كما سبق وأوضحنا تفصيل ذلك.

📖 من جانب آخر:

أن الله عز وجل نسب إلى نفسه تبارك وتعالى ما وقع أو سيقع من أفعالهم، {وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا}.

وإذا قلنا إن هذه النسبة تتعلق بكل شيء يجري في الكون، {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا}، وبالتالي فليست هذه النسبة متعلقه بهذه الآية لذاتها، وعليه فلا مانع من الاختيار التام للبشر، فيجاب عنه بما يلي:

إن هذا القول معناه أن هذه النسبة في هذه الآية لم تضف معنى زائدا للآية، وبالتالي يصح المعنى لو قلنا إنه تم إجلاؤهم، أو تم جلاؤهم، ومثل هذا القول يلغي المعنى الذي وصفته الآية: {مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ}، وكل هذا باطل لا يجوز بحال من الأحوال.

ومن هنا نتأكد أن هذه النسبة مقصودة في هذه الآية ومثيلاتها وأنها تضيف المعنى الذي يفهم منها، ويمثل زيادة عن المعنى العام في كل شيء في الكون، وهذا يثبت تعلق أفعال العباد بالقضاء والقدر تسييرا وتسخيرا، واللّه أعلى وأعلم.

📖 **ومن ثم نقول: هل سيحاسبون بعد ذلك على هذا القضاء الذي لا حيلة لهم فيه؟**

☜ **والجواب:** نعم، ولا ظلم في ذلك لأن الخالق سبحانه أخبر أنه ليس بظلام للعبيد، ولله الأمر من قبل ومن بعد، فكأن الله عز وجل أخبر عن القضاء الذي وقع، والقضاء الذي لم يقدر وقوعه سبحانه، لحكمة قدرية أيضا، تؤكد التيسير والتسخير، وذلك كما يقول **الإمام القرطبي**: (أيْ لوْلا أنَّهُ قضَى أنَّهُ سَيُجْلِيهِمْ عَنْ دَارِهِمْ وَأَنَّهُمْ يَبْقَوْنَ مُدَّةً فيُؤْمِنُ بَعْضُهُمْ وَيُولَدُ لهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ، {لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيا} أيْ بِالقتلِ وَالسَّبْيِ كَمَا فعَلَ بِبَنِي قرَيْظَةَ)[1]، فلو أن القضاء كان هو القتل بدلا من الجلاء، لما ولد هؤلاء الذين قضى اللّه لهم بالإيمان.

وقد فصلنا القول في مسألة التسخير والحساب، وأن هذا ما لا يمكن الخوض فيه على وجه اليقين، بل غاية ما نقدر عليه هو تقريب المسألة، كما سبق وبينا، وأن الله يقيم الحجة على العباد، أما ما يخص الحساب، فميزان العدل بيده سبحانه وحده، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [يُونُس: ٤٤].

والذي لا شك فيه أن فهم هذه المسألة القدرية تخرج عن طاقة العقول، ولهذا لم يتمكن مخلوق من بسط القول فيها بسطا يزيل الغمامة عن العقول والعيون، ولهذا كل ما نصبو إليه هو

---

[1] تفسير القرطبي (١٨/ ٥).

الالتزام بما تنبئ نصوص الشرع عنه، وأما ما وراء ذلك، فلا مناص من الإذعان والتسليم: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ٢٣﴾ [الأنبياء: ٢٣].

☜ **الدليل الثاني:** وفي هذا الدليل تحقيق لما يقال على الألسنة، الخيرة فيما اختاره الله، وليس ما يختاره العباد لأنفسهم، وقد تمثل هذا في صلح الحديبية والذي كان على غير مراد الفئة المؤمنة، ولو تركت لهم حرية الاختيار لما تحقق مبتغاهم، وهكذا كان التيسير والتسخير، ليتم مراده سبحانه، وينفذ قضاؤه، وتتحقق الفئة المؤمنة من هذه الحقيقة، وأن الخير الحقيقي هو في صدق التوكل على الله تعالى واليقين أنه سبحانه وحده العليم بنتائج الأشياء قبل وقوعها.

📖 **وهذه المعاني نتبينها في الدليل التالي:**

قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ١٨ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةٗ يَأۡخُذُونَهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ١٩ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةٗ تَأۡخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ وَلِتَكُونَ ءَايَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَيَهۡدِيَكُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ٢٠ وَأُخۡرَىٰ لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ٢١ وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ٢٢ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٢٣ وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ٢٤ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ

عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفتح: ١٨ - ٢٦].

📖 ودلالة هذه الآيات من أوجه عدة:

☜ **الوجه الأول:** {فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا}، ونزول السكينة أمر لا يملكه البشر، وبالتالي فنسبته إلى فعل البشر نسبة غير صحيحة مطلقا، ومن هنا نقول إن الثبات والطمأنينة التي ترتبت على نزول السكينة يبين بجلاء لا يقبل الالتباس معنى التيسير، التيسير الذي يجعل من يسر الله لهم أنهم يوفقون إلى مقصدهم، ويصلون إلى مبتغاهم، وقد تكون الأسباب المادية المحيطة بهم لا تكفل لهم ذلك مطلقا، ولو ترك الأمر لاختيار البشر لانصرفوا، وما تحقق لهم شيء، ولكن هي المقادير التي قضى بها الخالق سبحانه لا تتغير ولا تتبدل.

وكانت النتيجة التي تحققت هي الفتح الذي يودون ويأملون، وقد نسبه الخالق إلى نفسه، ليتأكد الخلق جميعا أن هذا الفتح لم يكن مرهونا بالأسباب الدنيوية الموكولة إلى تصرفات البشر الاختيارية، بل هو التيسير، في جانب الفئة المؤمنة، والتسخير، في جانب الفئة المشركة، والله أعلى وأعلم.

يقول الإمام الطبري: وقوله {فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ} يقول تعالى ذكره: فعلم ربك يا محمد ما في قلوب المؤمنين من أصحابك إذ يبايعونك تحت الشجرة، من صدق النية، والوفاء بما يبايعونك عليه، والصبر معك {فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ} يقول فأنزل الطمأنينة، والثبات على ما هم عليه من دينهم وحُسن بصيرتهم بالحقّ الذي هداهم

الله له، وقوله: {وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا} يقول: وعوّضهم في العاجل مما رجوا الظفر به من غنائم أهل مكة بقتالهم أهلها فتحا قريبا، وذلك فيما قيل: فتح خيبر)[1].

ولعل من أطيب ثمرات البحث ـ والله أعلى وأعلم ـ أن تلتفت الأنظار إلى دقائق الألفاظ الشرعية، من القرآن والسنة، لتصل إلى مكنون الحكمة فيها، قدر الاستطاعة، كما في هذه الألفاظ التي ينسب فيه الخالق سبحانه الفعل إلى نفسه، عز وجل.

ويجلّي الإمام الماتريدي هذا المعنى إذ يقول: (وقوله عزّ وجلّ: {فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا} أي: أنزل عليهم ما يسكن به قلوبهم؛ لما علم تحقيق الوفاء لما بايعوا رسول الله ﷺ وصدق ما أعطوا من أنفسهم، وأثابهم مكان ما كانوا يرجون ويطمعون من دخول مكة، وما كرهت أنفسهم من الرجوع ـ فتحًا قريبًا، وهو فتح مكة، أو فتح خيبر، والله أعلم)[2].

فقوله: وما كرهت أنفسهم من الرجوع، يبين أن رجوعهم عن الفتح وقت أن توجهوا إليه كان بالأمر الشرعي الذي أمر به رسول الله ﷺ، والذي لم يكن متوافقا مع إرادتهم ومشيئتهم واختيارهم، وهكذا تجري الأمور بالمقادير، وليس ما يُقال خطأً بالتخيير، مع أنهم أثيبوا على الرجوع، مع أن التوفيق والتيسير من الله تعالى، وليس من عند أنفسهم، والله أعلى وأعلم.

---

[1] تفسير الطبري (٢٢/ ٢٢٧).

[2] تفسير الماتريدي (٩/ ٣٠٦).

☜ **الوجه الثاني**: قوله تعالى: {وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ}، ولا نجد معنى لكف الأيدي إلا أن هذه الأيدي التي كُفَّت كانت موجهة إلى الفئة المؤمنة، ولولا أن كفها الله تعالى، أي سخرها أو سيرها، لوقع منها بالتخيير خلاف ما وقع منها بالفعل، والذي لم يكن ليتحقق به القضاء الذي قدره الله تعالى، فكان هذا الفعل الإلهي {وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ}، ليقع قضاؤه كما أراد سبحانه، وهذا نص فيما يدور حوله البحث، والله أعلى وأعلم.

يقول الإمام الطبري: (وقوله: {وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ} يقول تعالى ذكره لأهل بيعة الرضوان: وكف الله أيدي المشركين عنكم، ثم اختلف أهل التأويل في الذين كفَّت أيديهم عنهم من هم؟ فقال بعضهم: هم اليهود كف الله أيديهم عن عيال الذين ساروا من المدينة مع رسول الله ﷺ إلى مكة، وهذا هو قول قتادة رضي الله عنه، وقال آخرون: بل عني بذلك أيدي قريش إذ حبسهم الله عنهم، فلم يقدروا له على مكروه)[1].

ويرجح الإمام الطبري القول الأول حيث يقول: (والذي قاله قتادة في ذلك عندي أشبه بتأويل الآية، وذلك أن كف الله أيدي المشركين من أهل مكة عن أهل الحُديبية قد ذكره الله بعد هذه الآية في قوله {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ} فعلم بذلك أن الكف الذي ذكره الله تعالى في قوله {وَكَفَّ

[1] تفسير الطبري (٢٢/ ٢٣١).

أَيْدِىَ النَّاسِ عَنْكُمْ} غير الكف الذي ذكر الله بعد هذه الآية في قوله {وَهُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ})[1] .

وفي كلتا الحالتين، كان هذا الكف تسخيرا من الله تبارك وتعالى، وليس اختيارا ممن كُفت أيديهم.

☜ **الوجه الثالث**: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾﴾ [الفتح : ٢٢].

وهذا الدليل يحتاج إلى وقفة تأمل: لأنه يمكن أن يقال إن هذا من أخبار العلم الكاشف.

ولكن كما سبق فإن الإخبار عما لم يقع بالفعل يؤكد أن هذا لا يكون إلا بالتسخير الذي يوجه فعل البشر، ليتم مراد الله تعالى، وينفذ قضاؤه كما قدر سبحانه أزلا، والتعقيب بالآية: {سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا}، يؤكد أن العاقبة هي لأمة الإيمان، في أمة محمد ﷺ كما كانت لغيرها من أمم المؤمنين، فيمن سبق، ولا يمكن لهذه العاقبة المطردة أن تتحقق إذا كانت متوقفة على إرادة البشر واختيارهم، لأنها إن تحققت مرة فمن المستحيل أن تتحقق كل مرة، وهكذا ينتفي المعنى الذي يقول بأن البشر مخيرون تخييرا تاما فيما يحاسبون عليه من أعمال، والألفاظ في كل هذه الآيات الكريمة لا يستقيم فهمها إلا على هذا الوجه الذي بيناه، والذي يدل على التسيير والتسخير، والله أعلى وأعلم.

---

[1] المرجع السابق.

يقول الإمام الطبري: «يقول تعالى ذكره للمؤمنين به من أهل بيعة الرضوان: {وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا} بالله أيها المؤمنون بمكة {لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ} **يقول**: لانهزموا عنكم، فولوكم أعجازهم، وكذلك يفعل المنهزم من قرنه في الحرب {ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا} **يقول**: ثم لا يجد هؤلاء الكفار المنهزمون عنكم، المولوكم الأدبار، وليا يواليهم على حربكم، ولا نصيرا ينصرهم عليكم، لأن الله تعالى ذكره معكم، ولن يغلب حزب الله ناصره.

وقوله {سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ} يقول تعالى ذكره: لو قاتلكم هؤلاء الكفار من قريش، لخذلهم الله حتى يهزمهم عنكم خذلانه أمثالهم من أهل الكفر به، الذين قاتلوا أولياءه من الأمم الذين مضوا قبلهم.

وقوله {وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا} يقول جلّ ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: ولن تجد يا محمد لسنة الله التي سنها في خلقه تغييرا، بل ذلك دائم للإحسان جزاءه من الإحسان، وللإساءة والكفر العقاب والنكال»[1].

وقد أظهرت الآيات الكريمة أن العباد أرادوا شيئا ولكن الله عز وجل حال بينهم وبينه، وأبدلهم خيرا منه، لتتحقق سنة الله التي لا تتخلف، وهذا لا يمكن أبدا أن يكون لو ترك الأمر للعباد واختيارهم، ولتعطل القضاء ولم ينفذ القدر، وكل هذا في غاية البطلان، ولهذا قلنا لا يوجد (تخيير) مطلق للعباد قط، إلا فيما تقوم به الحجة عليهم فقط، والله أعلم.

---

[1] المرجع السابق (٢٢/ ٢٣٥).

ومع ظهور المعنى الذي نتحدث عنه "أنه ليس لمخلوق قط إرادة مطلقة واختيار تام"، فإن الأمر العجيب أن يتوقف بعض أهل العلم عند مسألة العدل الإلهي وعدم الظلم، ليقيسوه بعقولهم، مما أدى إلى وقوعهم في هذه الزلة، والتي تتضح رويدا رويدا، أنها ليست بالزلة الهينة، بل هي عظيمة هائلة، لما يترتب على القول بها من تعطيل لمعاني كثير من آيات الشرع، والله أعلى وأعلم.

☜ **الوجه الرابع:** ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفتح: ٢٤ - ٢٥].

ونلاحظ أن الخطاب في هذه الآيات الكريمة، ينسب إلى الخالق سبحانه وتعالى كل ما جرى بين المؤمنين وأهل الشرك، من أفعال ونتائج وثمرة، كما يتضح فيما يلي: (فعَلِمَ، فأنزَلَ، وَأثابَهُمْ، وَعدَكُمُ، فعَجَّلَ، وَكَفَّ،..)، فهل يمكن أن تعبر هذه الألفاظ ومثلها عن العلم الكاشف، دون التسيير والتسخير، إن هذا لا يليق بوجهاء الناس، أن تخلو ألفاظهم من معانيها، فكيف برب الخلق جميعا، اللهم عفوك يارب.

☜ **ويوضح الإمام الماتريدي السياق التي تتحدث عنه الآيات، وعظيم نعمائه عز وجل على الفئة المستضعفة، فيقول:** (وقوله ـ عزَّ وجَلَّ ـ: {وَهُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ...}، مع كثرة أولئكَ، وقوتهم، وتأهبهم للقتال، وضعف هَؤلاءِ وقلة عددهم، لأن أولئكَ كانوا خرجوا

للقتال والحرب، مستعدين لذلك، متأهبين، وهَؤلاء كانوا خرجوا لقضاء المناسك وزيارة البيت، فكف أيدي أولئِكَ مع عدتهم وقوتهم وكثرتهم عن هَؤلاء مع ضعفهم وقلة عددهم، حتى أظفرهم بأولئِكَ، حتى هزموهم وأدخلوهم بطن مكة، على ما ذكر، ثم أظفرهم بهم، كف أيدي هَؤلاء عنهم ويتم لهم الظفر بهم)[1].

ولو سارت الأحداث والأفعال بالتخيير وكان القضاء والقدر هو ما كشف عنه العلم الأزلي من هذه الأفعال، لما تحقق شيء من هذا، ولكان مصير الفئة المؤمنة الانكسار والخذلان، والعياذ بالله، ولكن ليست هكذا هي الأقدار، والله أعلى وأعلم.

ثم يعقب الإمام الماتريدي بما يؤكد حقيقة التسيير والتسخير فيقول: (ليعلم هَؤلاء أن التدبير في الأمر إلى الله ـ تعالى ـ دونهم، وله السلطان على الخلق جميعًا، لا سلطان لأحد في سلطانه، ولا قوة إلا بالله)[2].

ومع أن عقول البشر سوف تذهب إلى أن ثمرة ظفر المؤمنين بأهل الشرك سوف تكون متوافقة مع ما وقع بهم وعانوا منه على أيدي هؤلاء المشركين من حرب وسلب وإخراج من البيوت وتفريق بين الأهل والولد وغير ذلك من صنوف العذاب، إلا أن قدر الله وقضاءه الذي أظهرته الآية الكريمة، كان له منحى آخر، ألا وهو كف أيدي المؤمنين عن المشركين بعد التغلب عليهم، ويبين الخالق سبحانه الحكمة من ذلك فيما يلي من آيات.

---

[1] تفسير الماتريدي (٩/ ٣٠٨).

[2] المرجع السابق.

📖 **ولكن أليس هذا الخطاب كله يدل دلالة قطعية على عدم الاختيار المطلق للبشر؟.**

وفي هذا المعنى يقول الإمام الماتريدي: (وأما ما ذكر من الامتنان هو ما ذكر من كف أيدي أولئكَ عن هؤلاء عند شدة خوفهم منهم وفزعهم بما ذكرنا من قوة أولئكَ وكثرتهم، وضعف هؤلاء وقلة عددهم، حتى أظفرهم، يذكر منته عليهم، ليستأدي شكره، ويكف أيدي هؤلاء عنهم، فإنْ قِيلَ: ما كف أيدي أولئكَ عن هؤلاء، المنة ظاهرة، ولكن أية منة تكون في كف أيدي المؤمنين عن أولئكَ الكفرة؟ فيقال: جائز أن تكون المنة في كف أيدي المؤمنين عن أولئكَ الكفرة، ليستأدي منهم شكره بذلك، وهو الإسلام لله ـ تعالى ـ على جميع خلقه منة، ليستأدي منهم شكرًا على الكافرين والمسلمين جميعًا)[1].

وكما قلنا وأكدنا لو أن المقادير تجري بما كشف عنه العلم الأزلي الكاشف وحسب، ودون تسيير وتسخير لأعملت الفئة المؤمنة القتل في المشركين، ولتعطل القضاء والقدر بأن يسلم منهم من أسلم، ولم يخرج من أصلابهم من قدر الله له أن يكون من أهل الإيمان، وكل هذا باطل، وهكذا يتضح وضوحا لا لبس فيه ولا خفاء أن مسألة التخيير التام، وأن المقادير هي ما كشف عنها العلم الأزلي، في غاية البطلان وكأن ـ والعياذ بالله ـ الخالق قد رهن مشيئته بأفعال العباد، وهذا هو ثمرة المثال الذي ضربه أهل العلم المتأخرون ـ المدرس والتلاميذ ـ والذي أؤكد أنهم لم ينتبهوا لما يترتب عليه من طعن في العقيدة

[1] نفس المرجع.

وتعطيل للقدر، كما يتضح من هذه الآيات الكريمة وغيرها من الأمثلة التي سبق ذكرها.

ونستكمل مع الإمام الماتريدي قوله: (ويحتمل أن تكون المنة في كف أيدي المؤمنين عن أولئكَ على المؤمنين - أيضًا - هو ما ذكر على إثره: {وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ} أنه لو لم يكف أيدي المؤمنين عنهم حتى يتم لهم الظفر بهم فدخلوا مكة وهنالك مؤمنون لأصابهم ما ذكر من المعرة وغيره، فكان في كف أيدي المؤمنين عن أولئكَ منة عظيمة عليهم، لما بينا من قبل من فيها من المؤمنين من غير علم، والله أعلم)[1].

إن القضاء والقدر يرتبطان بالغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالى، كما في هذه الآية الكريمة، فقد كان من المؤمنين من لم يتمكن من الخروج من مكة، ويكتم إيمانه خوفا من بطش أهل الشرك، ولو سارت الأمور بالتخيير واقتتل الفريقان، لقتلت الفئة المؤمنة إخوانهم المؤمنين الذين يكتمون إيمانهم وهم باقون مع أهل الشرك.

وكذا لا تكتمل المعاني والمفاهيم الصحيحة الخاصة بالقضاء والقدر، والتي تحتم العلم بالغيب، وكذلك التسيير والتسخير، واليقين أن كل هذا يعلمه الذين ضربوا مثال المدرس والتلاميذ، ولكنهم تعجلوا، فوقعوا في هذا الخطأ الفادح الجسيم، والله أعلى وأعلم.

---

[1] نفس المرجع السابق.

☜ **الدليل الثالث:** وفي هذا الدليل ما يجعل العبد المؤمن ينزع عن نفسه كل معاني الخوف والقلق، مادام قادرا على الدعاء والتضرع إليه سبحانه، وبخاصة إذا ما فقه أن كل ما يجري بين البشر هو تقدير الخالق جل في علاه، حتى ما يقع من بطش وسلب وتخويف من الطغاة الظلمة، فإنما هو بقدر الله تعالى، ولو شاء سبحانه رفعه لارتفع وزال، وهكذا تطمئن القلوب أن ملاذها وملجأها لا يعجزه شيء عز وجل، فقط التذلل بين يديه، والدعاء كما أمر جل جلاله.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ٦﴾ [القصص: ٤ - ٦].

هذه الآيات الكريمة لست أرى لها أي تأويل يصرفها عن تسيير البشر وتسخيرهم، ليقع من أفعالهم ما يجري به قضاء الله وقدره، كما يريد سبحانه، فهذه الفئة المستضعفة لم تكن لتتمكن في الأرض، وتنتصر على عدوها الجبار، الذي استعبدها، إلا بتسخيره سبحانه، وتسيير العباد لمراده.

📖 **ولننظر إلى هذه الآيات من عدة أوجه:**

☜ **الوجه الأول:** الابتلاء الذي يقع على هذه الفئة المستضعفة، وما حاق بها من مصائب {يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ} هل كان هذا خبرا من الله تعالى، الذي علمه سبحانه وتعالى أزلا بعلمه الكاشف، أم أنه قدر وقضاء قدَّره تبارك وتعالى ولابد أن يقع، ولا يتم هذا إلا بتسخير الناس وتسييرهم،

أما من يقول إن هذا بالعلم الكاشف فإنما يعطل من نصوص الشرع ما لا حصر له :

📖 **من هذه النصوص :**

قوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (البقرة: من الآية ١٠٢)، **يقول الإمام الطبري**: (**قال أبو جعفر**: يعني بقوله جل ثناؤه، وما المتعلمون من الملكين هاروت وماروت ما يفرقون به بين المرء وزوجه، بضارين - بالذي تعلموه منهما، من المعنى الذي يفرقون به بين المرء وزوجه - من أحد من الناس إلا من قد قضى الله عليه أن ذلك يضره، فأما من دفع الله عنه ضره، وحفظه من مكروه السحر والنفث والرُّقى، فإن ذلك غير ضاره، ولا نائله أذاه)[1].

📖 **والإذن في كلام العرب أوجه :**

منها: الأمر على غير وجه الإلزام، وغير جائز أن يكون منه قوله: {وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ}، لأن الله جل ثناؤه قد حرم التفريق بين المرء وحليلته بغير سحر - فكيف به على وجه السحر؟.

ومنها: التخلية بين المأذون له، والمخلى بينه وبينه.

ومنها: العلم بالشيء، يقال منه: "قد أذنت بهذا الأمر" إذا علمت به، عن سفيان في قوله: {وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ}، قال: بقضاء الله)[2].

---

[1] تفسير الطبري (٢/ ٤٤٩).

[2] المرجع السابق.

وفي هذا المعنى قول الإمام ابن المنذر: (عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قوله عَزَّ وَجَلَّ: {فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ} : اسْتَيْقِنُوا بِحَرْبٍ)[1].

وكذلك الإمام ابن أبي حاتم: (والحرب يؤذن بالقتل، فكأنه يقول: إن لم تتقوا الربا هزمتم وقتلتم)[2]، وهذا يدل على وقوع ما لا طاقة لهم على دفعه، أي قضاء الله وقدره.

ونخرج من كل ذلك أن ما وقع على الفئة المستضعفة من فرعون وجنوده إنما هو بقضاء الله الذي يقتضي تسخير فرعون وجنوده ليقوموا بما يوقع هذا البلاء على الفئة المستضعفة، والله أعلى وأعلم.

📖 **ويؤكد هذا التسخير مجموعة أدلة منها :**

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ (آل عمران: من الآية ١٤٥)، **يقول الإمام الطبري**: (يعني تعالى ذكره بذلك: وما يموت محمد ولا غيره من خلق الله إلا بعد بلوغ أجله الذي جعله الله غاية لحياته وبقائه، فإذا بلغ ذلك من الأجل الذي كتبه الله له، وأذن له بالموت، فحينئذ يموت، فأما قبل ذلك، فلن يموت بكيد كائد ولا بحيلة محتال)[3].

قوله: فلن يموت بكيد كائد ولا بحيلة محتال، يقصد به أنه حتى وإن كان الموت قد وقع بيد ظالم، أو غيره فإن الحقيقة أن هذا إنما هو القضاء والقدر المحتوم، الذي يسوقه الله على أيدي العباد.

---

[1] تفسير ابن المنذر (١/ ٦٠).

[2] تفسير ابن أبي حاتم (١١/ ٢٣٨).

[3] تفسير الطبري (٧/ ٢٦٠).

وكذلك قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٢٢﴾ [الحديد: ٢٢].

يقول الإمام الطبري: (يقول تعالى ذكره: ما أصابكم أيها الناس من مصيبة في الأرض بجدوبها وقحوطها، وذهاب زرعها وفسادها، {وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ} بالأوصاب والأوجاع والأسقام، {إِلا فِي كِتَابٍ} يعني: إلا في أم الكتاب، {مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا} يقول: من قبل أن نبرأ الأنفس، يعني: من قبل أن نخلقها، يقال: قد برأ الله هذا الشيء، بمعنى: خلقه فهو بارئه، عن **ابن عباس**، قال: هو شيء قد فرغ منه من قبل أن نبرأ النفس)[1].

ومن غير المقبول أن نقول إنما كان هذا بالعلم الكاشف الذي أثبت ما علمه، لأنه لو كان الأمر كذلك لما كان في ذكر الأرض والأنفس في الآية، أية إضافة لأن هذا سيكون من المعلوم بالضرورة، ولكن ليس الأمر كذلك، بل لابد أن يكون في الآية معنى زائداً، ألا وهو أن ذلك إنما هو المقادير التي تقتضي التسخير والتسيير، وليس العلم الكاشف وحسب.

يقول الإمام القرطبي: (وَلَقَدْ تَرَكَ لِهَذِهِ الآيَةِ جَمَاعَةٌ مِنَ الفُضَلَاءِ الدَّوَاءَ فِي أَمْرَاضِهِمْ فَلَمْ يَسْتَعْمِلُوهُ ثِقَةً بِرَبِّهِمْ وَتَوَكُّلًا عَلَيْهِ، وَقَالُوا قَدْ عَلِمَ اللَّهُ أَيَّامَ الْمَرَضِ وَأَيَّامَ الصِّحَّةِ، فَلَوْ حَرَصَ الْخَلْقُ عَلَى تَقْلِيلِ ذَلِكَ أَوْ زِيَادَتِهِ مَا قَدَرُوا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها}، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ تَتَّصِلُ بِمَا قَبْلُ، وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ هَوَّنَ عَلَيْهِمْ مَا يُصِيبُهُمْ فِي الْجِهَادِ مِنْ قَتْلٍ وَجَرْحٍ، وَبَيَّنَ أَنَّ مَا يُخَلِّفُهُمْ عَنِ الْجِهَادِ

[1] تفسير الطبري (٢٣/ ١٩٥).

مِنَ المُحَافظةِ على الأموالِ وما يقعُ فيها مِنْ خسْرانٍ، فالكُلُّ مكْتوبٌ مُقدّرٌ لا مَدفعَ له، وإنّما على المرءِ امتثالُ الأمرِ، ثمَّ أدَّبهمْ فقالَ هذا: {لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ} أيْ حتى لا تحزنُوا على ما فاتكُمْ مِنَ الرّزقِ، وذلِكَ أنهُمْ إذا علِمُوا أنَّ الرّزقَ قدْ فرغَ منْهُ لمْ يأسوْا على ما فاتهُمْ منْهُ، وعَنِ **ابْنِ مَسْعُودٍ** أنَّ نبيَّ اللّهِ ﷺ قالَ: (لا يَجِدُ أحدُكُمْ طعْمَ الإيمانِ حتى يعلمَ أنَّ ما أصابهُ لمْ يكُنْ ليُخطِئهُ وما أخطأهُ لمْ يكُنْ ليُصيبهُ)، ثمَّ قرأ {لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ} أيْ كيْ لا تحزنُوا على ما فاتكُمْ مِنَ الدُّنيا فإنّهُ لمْ يُقدّرْ لكُمْ ولوْ قدّرَ لكُمْ لمْ يفُتكُمْ {وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ} أيْ مِنَ الدُّنيا، قالهُ **ابْنُ عَبَّاسٍ**، وقالَ **سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ**: مِنَ العافيةِ والخِصْبِ، وروى **عِكْرِمَةُ** عنِ **ابْنِ عَبَّاسٍ**: ليْسَ مِنْ أحدٍ إلا وهُوَ يحزنُ ويفرحُ، ولكِنَّ المُؤمِنَ يجْعلُ مُصيبتهُ صبْرًا، وغنيمتهُ شُكْرًا، والحُزنُ والفرحُ المنهيُّ عنهُما هُمَا اللّذانِ يُتعدّى فيهِمَا إلى مالا يجوز)[1].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١٠﴾ [المُجَادلَة : ١٠]، (**وقوله:** {وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ} يقول تعالى ذكره: وليس التناجي بضارّ المؤمنين شيئا إلا بإذن الله، يعني بقضاء الله وقدره)[2].

وقوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (التغابن:من الآية١١)، **يقول الإمام الماتريدي**: (قالَ بعْضُهُمْ: {بِإِذْنِ اللَّهِ} يعني: بأمر الله، وهو قول الحسن، وقالَ بعْضُهُمْ: يعني: بعلم الله، وقالَ بعْضُهُمْ: يعني:

---

[1] تفسير القرطبي (١٧/ ٢٥٨).

[2] تفسير الطبري (٢٣/ ٢٤٣).

بمشيئة الله، ولكل من ذلك وجه: الأول: فأما من قال: بأمر الله، فمعناه وحجته: أن هذه المصائب كلها عقوبات، ألا ترى إلى قوله: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ}، ومعلوم أن جزاء ما كسبت يده عقوبة له، والتعذيب والعقوبة إنما يكون بأمر الله، فلذلك قال: معنى قوله: {بِإِذْنِ اللَّهِ} أي: بأمر الله، لكن عندنا هذا يرجع إلى ما يصيبهم من أيدي الخلق، كقوله تعالى: {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ}، وقوله: {هَلْ تَرَبَّصُونَ. . .} إلى قوله: {أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا}، ونحو ذلك، وهذه المصائب لا تحتمل تأويلاً للأمر من الله تعالى، ومن قال: بعلم الله، فوجه ذلك: أن هذه المصائب فيها إهلاك العبيد، وفي الشاهد أنه لا يحب أحدًا أن يعلم بما فيه هلاك عبيده وخدمه، فأخبر - عزَّ وجلَّ - أن هذه المصائب وإن كان فيها هلاك عبيده فإنما يكون ذلك بعلمه، وأن هلاكهم لا يضره، ولا ينقص من ملكه، لأن الله - سبحانه وتعالى - أنشأ ما أنشأ من الخلائق لحاجة لهم، ولمنفعة ترجع إليهم ومضرة تلحقهم، فحلول ما يحل بهم من المصائب لا يضره ولا ينفعه لذلك كان علمها ما ذكر، ومن قال: بمشيئة الله وإرادته فوجه ذلك: أن الله تعالى وعد وأوعد، ولا محالة يريد من عبيده ما يكون بوعيده عادلا وأن يضع وعده موضعه، وإذا كان كذلك ثبت أنه يريد من كل أحد ما يعلم أنه يكون منه، لأنه إذا خلق النار، وأوعد عليها، فلو أراد من كل منهم الطاعة، لكان إذا أحرق بالنار أحرق من أراد منه الطاعة فدخل في حد الجور، ولو كان يريد من كل منهم المعصية، لكان إذا أنجز وعده، وأدخله الجنة كان يضع ثوابه غير موضعه ويخرج عن حد الحكمة، وإذا كان كذلك، ثبت أنه أراد من كل ما

علم أنه يختاره، ويكون منه ليخرج فعله على الحكمة، والله الموفق)[1].

وقد ذكر الله تعالى الإذن في مواضع مختلفة، ولكل من ذلك وجه، غير الوجه الآخر، فالواجب أن يصرف معناه في كل موضع إلى ما يليق به، ويُعرف في سياقه، والله أعلم.

وغير ذلك من الأدلة كثير، وقد أوردنا من الأحاديث الشريفة ما يدل على هذا.

والذي نقوله: إن الذي يفسر إذن الله بأنه عَلِمَ أزلا ـ أي العلم الكاشف ـ ما سيقوم به العبد فلم يغيره سبحانه، أي لم يغير فعل العبد، وأمضاه على ما هو عليه، فكان هذا إذنه، إنما يلغي كثيرا من ألفاظ الشرع وينشيء منهجا للفهم لا علاقة له باللغة، والله أعلى وأعلم.

وبيان ذلك: أنه إذا كان المعنى كذلك فهل أضاف لفظ الإذن أي معنى زائد عن المعنى العام الذي يمثل أصلا من أصول العقيدة، ألا وهو ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البَقَرَةِ : ٢٩]، **فهو سبحانه بكل شيء عليم.**

ونبرهن على أن المقصود بالإذن ليس التأكيد على علمه سبحانه، بل هو معنى يضاف إلى ذلك، ويناسب سياق الآيات، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ

[1] تفسير الماتريدي (١٠/ ٣٩).

﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [آل عمران : ١٥٢]، **يقول شيخ المفسرين**: (وأما قوله: {بإذنه}، فإنه يعني: بحكمي وقضائي لكم بذلك، وتسليطي إياكم عليهم)[1]، فهل يعني قوله (وتسليطي إياكم عليهم) غير ما نقول؟ قطعا لا.

📖 **الوجه الثاني"[2] : علو الفئة المستضعفه.**

كما يشير إليه قوله تعالى: {وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ}، **يقول الإمام القرطبي**: (أيْ نَتفضَّلَ عَلَيْهِمْ وَنُنْعِمَ)[3].

والذي يفهم من سياق الآيات أن هذه الفئة المستضعفة قدَّر الله لها أن تعلو علوا كبيرا، وقد يفهم هذا من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ الْكِتَٰبَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ الطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى الْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الجاثية : ١٦].

ومن يقول إن هذا كان بالعلم الأزلي الكاشف وحده، فإن قوله يهدم أصول الفهم، ومعاني اللغة، لأن لفظ {وَنُرِيدُ} يقتضي بالضرورة معنى زائدا عن العلم، وبخاصة أن كل مقتضيات العقول تؤكد أن هذا المآل بالنسبة لهذه الفئة المستعبدة يستحيل أن ينقلب إلى العكس تماما، لو كانت الأمور تجري باختيار البشر المطلق.

---

[1] تفسير الطبري (٧/ ٢٨٨).

[2] **الوجه الأول**: الابتلاء الذي يقع على هذه الفئة المستضعفة، وما حاق بها من مصائب.

[3] تفسير القرطبي (١٣/ ٢٤٩).

ولعل مما يجزم جزما يقينيا، لا يقبل الشك ولا التأويل ـ أن كل هذه مقدرات وقضاء نافذ لا محالة دون توقف على إرادة الخلق أجمعين ـ ما حكاه الله تعالى عن هذه المنة الكبرى التي استنقذ بها بني إسرائيل من الذل والهوان كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٦١ - ٦٧]، والذي نقصده أن إغراق فرعون وجنوده وما ترتب عليه من استعلاء الفئة المستضعفة تم بأمرٍ قدري، لا يقدر عليه الخلق أجمعون، ألا وهو انفلاق البحر.

ولست أدري كيف يفسر القائلون بالاختيار التام في أفعال البشر التي يحاسبون عليها، هذه المعجزة، وما ترتب عليها، وماذا يقولون فيما ترتب على هذه المعجزة الربانية، من تغير أفعال المستضعفين، وارتفاع الابتلاء عنهم، والذي لابد وحتما أن تتغير أفعالهم عما كانت عليه من قبل، فهل تم هذا التغير في الأفعال بناء على اختيارهم المطلق؟، أم أن الأصل في هذا التغير هو التيسير والتسخير؟.

📖 **الوجه الثالث**: قوله تعالى: {وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ} يدل على ما نقول، ألا وهو: إن هذه الفئة المستضعفة سوف ييسر لها الله تعالى كل الأسباب والوسائل الموصلة إلى هذا القدر المحتوم وهو التمكين.

فالتمكين لا يمكن أن يتحقق وأخلاق العبيد وتصرفاتهم لم تتغير، ولهذا فتغير الأحوال والأفهام والأعمال، أمر لا محيص عنه، ولا يمكن أن يأتي من تلقاء نفسه، بل لابد من تسيير وتسخير.

والقول إن التحرر من الذل والعبودية بالنسبة لأي فئة مستضعفة سوف يغير من صفاتها بالضرورة، قول صحيح ولكنه أبدا لا يوصل إلى مثل هذه النتيجة التي تحدى اللّه بها هؤلاء المستكبرين الطغاة: {وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ}.

وأكتفي بذلك بالنسبة لهذا الدليل، لننتقل إلى أدلة أخرى بتوفيق الله تعالى.

☜ **الدليل الرابع**: هذا الدليل بيان جلي واضح لمدى استحالة أن تكون أفعال البشر وما تجري به المقادير متعلقة فقط بالعلم الكاشف، وليس بالتسخير والتسيير الذي لا غنى عنهما لانضباط حياة البشر.

ونتبين ذلك مما لاقاه رسول الله ﷺ في سبيل تبليغ رسالة ربه، فلو كانت المقادير هي ما كشف عنه العلم لترتب على ذلك أن تموت الدعوة قبل أن تصل إلى الخلق، وهذا أمر في غاية البطلان ولو أن الذين قالوا بمسألة التخيير - كما مثلوا له بالمدرس والطلاب - تنبهوا إلى موجب قولهم وما يترتب عليه من طوام تهدم العقيدة وتعطل المقادير، لما قال به أحد قط، والله أعلى وأعلم.

فقد تعرض رسول الله ﷺ للموت على أيدي أعدائه أكثر من مرة، ولكن الله عز وجل حفظه ونجاه من كل المهالك، ولم تكن النجاة بمنع تعرضه ﷺ لذلك ولكن أنجاه الله وهو يتعرض لكل هذه الأهوال، لحكمة يريدها الله جل في علاه، والتي يمكن أن ندرك منها أن الخالق سبحانه يؤهل عباده لتحمل مشاق الدعوة، والسعي لاكتساب الأسباب التي تمكنهم من تبوأ المكانة التي تليق بأهل الإيمان، والتي لا يمكن أن تتحقق إلا بالكد والعناء، ولله في خلقه سنن لا تتخلف، والتي منها ابتلاء أهل الإيمان بأمور الحياة.

وهكذا لا يفهم أبدا أن ما أصاب رسول الله ﷺ من مصائب إنما كان بالاختيار البشري التام، بل هي أقدار الله تعالى والتي منها ما يصيب رسول الله ﷺ على أيدي أعدائه، والتي لو شاء الله منعها لمنعت، ولكن لله الحكمة البالغة، جل شأنه.

☜ **ويتضح ذلك من الدليل التالي**: قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التَّوبَة : ٤٠].

يقول الإمام الطبري: (يقول تعالى ذكره: فأنزل الله طمأنينته وسكونه على رسوله، وقد قيل: على أبي بكر)[١].

وسواء قلنا إن السكينة نزلت على الرسول ﷺ أو على الصدّيق أبي بكر رضي الله عنه فإنها فعل، حتى ولو كانت فعلا عدميا - أي لا يلزمه حركة بالجوارح - فقد كانت السكينة أمرا خارجاً عن فعلهما، وظهر أثرها في الطمأنينة التي ظللت الرسول ﷺ والصديق رضي الله عنه، مما يدل على مسألة التيسير، والذي ليس فعلا للبشر بأنفسهم، بل هو من عند الله تعالى، بمعنى أن الأمور تجري بمقادير محتمة لازمة، وليست بتصرفات البشر الاختيارية، الممكنة التي يمكن أن تقع أو لا تقع.

ولو قيل إن هذا تم لخصوصية الرسول ﷺ فإنه أيضا يكون ذا دلالة قطعية على ما نقول، لأن مكانة النبوة تقتضي سريان الأمور على وجه محتم لازم، وليس بالأمر الجائز الذي يكون أو لا يكون.

كذلك لو قيل إن هذا باعتبار العلم الكاشف، فإن هذا معناه عدم دلالة نصوص الشرع على ما تدل عليه ألفاظها، والعياذ بالله من هذا الباطل، فقوله تعالى: {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ} يوجب بالضرورة أن يكون نصر الله أمرا زائدا عن تصرفات البشر

---

[١] تفسير الطبري (١٤/ ٢٦١).

وقدراتهم، وإرادتهم، وقد انعكس هذا بالفعل على تصرفات المشركين الذين كانوا يطاردون الرسول ﷺ حيث عاينوا الغار وعادوا خائبين.

يقول الإمام الطبري: «وهذا إعلامٌ من الله أصحابَ رسوله ﷺ أنّه المتوكّل بنصر رسوله على أعداء دينه وإظهاره عليهم دونهم، أعانوه أو لم يعينوه، وتذكيرٌ منه لهم فعلَ ذلك به، وهو من العدد في قلة، والعدوُّ في كثرة، فكيف به وهو من العدد في كثرة، والعدو في قلة؟»[1].

والذي نشير إليه هنا أن نصر الله رسوله ﷺ وصاحبه رضي الله عنه في الغار قد تم بغير قتال، حيث أعماهم الله، فأصبحت أعينهم ترى كل شيء، ومع هذا لا ترى الرسول ﷺ وصاحبه رضي الله عنه، فحواس البشر مخلوقة لله تعالى لها خصائص أودعها الله فيها، فهو سبحانه يسلبها وقت أن يشاء، ويدعها وقت أن يشاء سبحانه، فخصائصها لازمة في دنيا البشر، إلا أن يشاء الله غير ذلك، وهكذا عميت أبصارهم وهي ليست عمياء، فعادوا ورجعوا.

وهذا لا يكون أبدا بالعلم الكاشف بل بالتسخير والتيسير، وكذلك فقد كان لهذا التيسير أثره في السكينة، وللتسخير أثره في نكوص المشركين على أعقابهم خائبين، **يقول الإمام الطبري:** «عن أنس، أن أبا بكر رضي الله عنه حدَّثهم قال: بينا أنا مع رسول الله ﷺ في الغار وأقدامُ المشركين فوق رؤوسنا، فقلت: يا رسول الله، لو أن أحدهم رفع قدَمَه أبصرنا! فقال: يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟»[2].

---

[1] تفسير الطبري (١٤/ ٢٥٧).

[2] المرجع السابق (١٤/ ٢٥٩).

وقوله ﷺ: {ما ظنك باثنين الله ثالثهما}، يكفي تماما في إثبات كل ما نقول فقد كان ما يقوم به أهل مكة من ضمن الأفعال التي توعدهم الله عليها بسوء العذاب، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٥﴾ [المُجَادلَة : ٥].

☜ **الدليل الخامس**: هذا الدليل يقطع بأن أمور الخلق يجريها الله عز وجل كما يشاء، ولا خيار للعباد فيما يفعلون، إلا ماشاء الله لهم ذلك، وقد يكون هو النصيب الأقل من تصرفاتهم الذي يكون لهم فيها (التخيير)، بينما النصيب الأكبر هو التسيير والتسخير.

وسوف تعجز العقول عن استيعاب المقادير، إلا بالقدر التي تكشف عنه نصوص الشرع، وقد يكون محدودا للغاية، لأن الحكمة التي تجري بها المقادير قد تكون فوق طاقة العقول كثيرا، ولو اجتمعت.

ومن ذلك: أن الله يرسل رسله ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ ليبلغوا رسالته جل شأنه، ومع هذا لا يجعل مهمتهم سهلة ميسورة، كما تظن عقول البشر، بل إن الله عز وجل يسخر لهم العراقيل، والتي تمثل صعوبات بالغة وعنت شديد، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠﴾ [يُوسُف : ١١٠]، ولو كانت المقادير تتم بما يكشف عنه العلم وحسب، لسارت الأمور بخلاف هذا، ولكنها مشيئة الله تعالى وقضاؤه المبرم الذي لا يرد، والله أعلى وأعلم.

ونتبين هذا المعنى في الدليل التالي:

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًاۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنعام: ١١٢].

يقول الإمام الطبري: (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ، مسلِّيه بذلك عما لقي من كفرة قومه في ذات الله، وحاثًا له على الصبر على ما نال فيه: {وكذلك جعلنا لكل نبى عدوًّا}، يقول: وكما ابتليناك، يا محمد، بأن جعلنا لك من مشركي قومك أعداء شياطينَ يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول، ليصدُّوهم بمجادلتهم إياك بذلك عن اتباعك والإيمان بك وبما جئتهم به من عند ربّك، كذلك ابتلينا من قبلك من الأنبياء والرسّل، بأن جعلنا لهم أعداءً من قومهم يؤذُونهم بالجدال والخصومات. **يقول**: فهذا الذي امتحنتك به، لم تخصص به من بينهم وحدك، بل قد عممتهم بذلك معك لأبتليهم وأختبرهم، مع قدرتي على منع من آذاهم من إيذائهم، فلم أفعل ذلك إلا لأعرف أولي العزم منهم من غيرهم، يقول: فاصبر أنتَ كما صبر أولو العزم من الرسل)[1].

وهكذا يظهر إضلال الشياطين وإغوائهم للمكلفين بصدهم عن الهداية، وإيقاعهم في المعصية، وكل هذه أمور تظهر في تصرفات أهل الضلال وأفعالهم، والذين كان منهم أبو لهب وأبو جهل، وإيذاؤهم بالقول والفعل لرسول الله ﷺ، وكل هذا لو قيل إنه بالعلم الكاشف، لكان معنى ذلك محو لفظ {جَعَلْنَا} من الآية، وهذا والعياذ بالله لا يقول به من كان في قلبة ذرة من

[1] تفسير الطبري (١٢/ ٥٠).

إيمان، ولا يقصد معناه، فدل هذا على أن كل ما يجري بأفعال البشر، قدر محتوم لا يتخلف أبدا، ولا يمكن ذلك إلا بالتسيير والتسخير.

📖 **ومن الأدلة أيضا**، قوله تعالى: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾ [المَسَد : ٣] خبر من الخالق سبحانه، ولو كان الأمر مرهونا بتصرفات البشر الاختيارية المطلقة لأمكن أن يتحدى أبو لهب وينطق بكلمة الإيمان ولو نفاقا، ولكنه لم يفعل، ولو كان الأمر ليس قضاء وقدرا لا يتبدل ولا يتخلف لأمكن أن ينطق أبو لهب بكلمة الإيمان، ولولا التسخير والتسيير، لكان يمكن أن تتغير الخاتمة، ولكن معاذ الله تعالى.

يقول الإمام الجصاص: (وَقَوْله تَعَالَى: {سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ}، إحْدَى الدَّلَالَاتِ عَلَى صِحَّةِ نُبُوَّةِ النَّبِيِّ ﷺ لِأَنَّهُ أَخْبَرَ بِأَنَّهُ وَامْرَأَتَهُ سَيَمُوتَانِ عَلَى الْكُفْرِ وَلَا يُسْلِمَانِ، فَوُجِدَ مُخْبَرُهُ عَلَى مَا أَخْبَرَ بِهِ، وَقَدْ كَانَ هُوَ وَامْرَأَتُهُ سَمِعَا بِهَذِهِ السُّورَةِ وَلِذَلِكَ قَالَتْ امْرَأَتُهُ: إنَّ مُحَمَّدًا هَجَانَا، فَلَوْ أَنَّهُمَا قَالَا: قَدْ أَسْلَمْنَا وَأَظْهَرَا ذَلِكَ وَإِنْ لَمْ يَعْتَقِدَاهُ لَكَانَا قَدْ رَدَّا هَذَا الْقَوْلَ وَلَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يَجِدُونَ مُتَعَلَّقًا)[1].

ولا يمكن أن يكون هذا إلا بالقدر المحتوم، الذي يقتضي التسخير من الله سبحانه.

ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ

---

[1] أحكام القرآن للجصاص (٣/ ٦٤٧).

أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٧﴾ [البَقَرَةِ: ٦ - ٧]، **يقول الإمام ابن قتيبة:** (قوله تعالى: {خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ} بمنزلة طبَع الله عليها، والخاتمُ بمنزلة الطابَع، وإنما أراد: أنه أقفل عليها وأغلقها، فليست تعي خيرا ولا تسمعه. وأصل هذا: أن كل شيء ختمته، فقد سددته وربطته)[1].

ومن ذلك أيضا: قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٢٣﴾ [الجَاثِيَة: ٢٣].

يقول الإمام الماتريدي: (وقوله - عزَّ وجلَّ -: {وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ} هذا يخرج على وجهين: أحدها: أي: أضله الله على علم من ذلك الإنسان بطريق الهدى والحق، لا أنه أضله على خفاء من ذلك الإنسان بالطريق الحق وسبيله؛ أي: قد بين له السبيل وطريق الحق، لكنه باختياره الضلال أضله؛ لما علم منه أنه يختار الضلال والكفر؛ ليكون ما علم أنه يكون ويختار، والله أعلم، والثاني: أضله الله تعالى على علم، أي: أنشأ منه فعل الضلال على علم منه بذلك، والله أعلم، وقوله - عزَّ وجلَّ -: {وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً} هذا يخرج على وجهين): والذي يعنينا منهما: (أي: غطى قلبه بما هواه، وجعل فيه ظلمة، فتلك الظلمة وذلك الغطاء أوجب غطاء السمع والبصر، وحال بينه

---

[1] غريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٤٠).

وبين سماع الحجج والبراهين، وصارت ظلمة البصر وغطاؤه مانعًا لهم عن اكتساب التدبّر والتفكر)[1].

وفي نفس المعنى قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام: ١٢٥].

يقول الإمام الطبري: (ويقول تعالى ذكره: فمن يرد الله أن يهديه للإيمان به وبرسوله وما جاء به من عند ربه، فيوفقه له {يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ}، يقول: فسح صدره لذلك وهوَّنه عليه، وسهَّله له، بلطفه ومعونته، حتى يستنير الإسلام في قلبه، فيضيء له، ويتسع له صدره بالقبول، كالذي جاء الأثر به عن رسول الله ﷺ، الذي: قالوا: كيف يشرح الصدر؟ قال: إذا نزل النور في القلب انشرح له الصدر وانفسح، قالوا: فهل لذلك آية يعرف بها؟ قال: نعم، الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل الفوت)[2].

فشرح الصدر هو أمر زائد عن اختيار البشر التام، لأن لشرح الصدر ثمرة تظهر في المشيئة والتي يترتب عليها وقوع الفعل، على نحو مقصود من العبد لابد أن يوافق القدر المحتوم، دون تخلف أو تبديل أو تغيير، ولولا شرح الصدر لما تحققت هذه الثمرة، وهذا هو التيسير من الله تعالى، والله أعلى وأعلم.

أما من كان مآله الخذلان والعياذ بالله، فمصيره كما في تفسير **الإمام الطبري**: (يقول تعالى ذكره: ومن أراد الله إضلاله

[1] تفسير الماتريدي (٩/ ٢٢٧).

[2] تفسير الطبري (١٢/ ٩٨).

عن سبيل الهدى، يَشغله بكفره وصدّه عن سبيله، ويجعل صدره بخذلانه وغلبة الكفر عليه، حرجًا.
و"الحرج"، أشد الضيق، وهو الذي لا ينفذه، من شدة ضيقه، وهو ههنا الصدر الذي لا تصل إليه الموعظة، ولا يدخله نور الإيمان، لرين"[1] الشرك عليه)[2].

ويترتب على ضيق الصدر أنماط من المشيئة ينشأ عنها من الأفعال ما يغضب الله عز وجل، وهكذا تقوم الحجة على العباد، والله أعلى وأعلم.

وليس في هذا أي ظلم ـ بوجه من الوجوه ـ فقد جعل الخالق سبحانه ميزانا لذلك كما في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [اللَّيل: ٥ - ١٠].

📖 **ومن الأدلة العديدة كذلك:**

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٢ وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٣ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ۝٥٤﴾ [سَبَإ: ٥٢ - ٥٤].

يقول الإمام الطبري: (قوله {وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ} خبرًا عن أنه لا سبيل لهم إلى ما تمنوه أولى من أن يكون خبرًا عن غيره، وقوله

---

[1] والرَّيْنُ: كالصَّدَإِ يَغْشى الْقَلْبَ. ورَانَ الذَّنبُ عَلَى قَلْبِهِ: غَلَبَ عَلَيْهِ وَغطَّاهُ. لسان العرب (١٣/ ١٩٢).

[2] تفسير الطبري (١٢/ ١٠٢).

{كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ} يقول: فعلنا بهؤلاء المشركين، فحلنا بينهم وبين ما يشتهون من الإيمان بالله عند نزول سخط الله بهم، ومعاينتهم بأسه، كما فعلنا بأشياعهم على كفرهم بالله من قبلهم من كفار الأمم؛ فلم نقبل منهم إيمانهم في ذلك الوقت، كما لم نقبل في مثل ذلك الوقت من ضربائهم)[1].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١٥٤﴾ [آل عمران: ١٥٤].

يقول الإمام الطبري: (يعني بذلك جل ثناؤه: قل، يا محمد، للذين وصفت لك صفتهم من المنافقين: لو كنتم في بيوتكم لم تشهدوا مع المؤمنين مشهدهم، ولم تحضروا معهم حرب أعدائهم من المشركين، فيظهرَ للمؤمنين ما كنتم تخفونه من نفاقكم، وتكتمونه من شككم في دينكم {لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ}، يقول: لظهر للموضع الذي كتب عليه مصرعه فيه، من قد كتب عليه القتل منهم، ولخرج من بيته إليه حتى يصرع في الموضع الذي كُتب عليه أن يصرع فيه)[2].

---

[1] تفسير الطبري (٢٠/ ٤٣١).

[2] المرجع السابق (٧/ ٣٢٤).

قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ [الأنفال: ١٧].

يقول الإمام الطبري: (يقولُ تعالى ذكرُهُ للمُؤمنينَ بهِ وبرسولِهِ ممَّنْ شهدَ بدرًا معَ رسولِ اللهِ ﷺ فقاتلَ أعداءَ دينِهِ معهُ منْ كفَّارِ قريشٍ: فلمْ تقتلوا المشركينَ أيُّها المؤمنونَ أنتمْ، ولكنَّ اللهَ قتلهُمْ. وأضافَ جلَّ ثناؤُهُ قتلهُمْ إلى نفسِهِ، ونفاهُ عنِ المؤمنينَ بهِ الذينَ قاتلُوا المشركينَ؛ إذْ كانَ جلَّ ثناؤُهُ هوَ مسبِّبٌ قتلهُمْ، وعنْ أمرِهِ كانَ قتالُ المؤمنينَ إيَّاهمْ. ففي ذلكَ أدلُّ الدَّليلِ على فسادِ قولِ المنكرينَ أنْ يكونَ للهِ في أفعالِ خلقِهِ صنعٌ بهِ وصلُوا إليها، وكذلكَ قولهُ لنبيِّهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: {وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى}، فأضافَ الرَّميَ إلى نبيِّ اللهِ، ثمَّ نفاهُ عنهُ، وأخبرَ عنْ نفسِهِ أنَّهُ هوَ الرَّامي؛ إذْ كانَ جلَّ ثناؤُهُ هوَ الموصلُ المرميَّ بهِ إلى الذينَ رُموا بهِ منَ المشركينَ، والمسبِّبُ الرَّميةَ لرسولِهِ. فيُقالُ للمسلمينَ ما ذكرنا: قدْ علمتمْ إضافةَ اللهِ رميَ نبيِّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ المشركينَ إلى نفسِهِ بعدَ وصفِهِ نبيَّهُ بهِ وإضافتِهِ إليهِ، ذلكَ فعلٌ واحدٌ كانَ منَ اللهِ بتسبيبِهِ وتسديدِهِ، ومنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الحذفُ والإرسالُ، فما تنكرونَ أنْ يكونَ كذلكَ سائرُ أفعالِ الخلقِ المكتسبةِ: منَ اللهِ الإنشاءُ والإنجازُ بالتَّسبيبِ، ومنَ الخلقِ الاكتسابُ بالقوى؟)[1].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الأعراف: ١٨٢].

[1] تفسير الطبري (١٣/ ٤٤١).

يقول الإمام الطبري: (يقول تعالى ذكره: والذين كذبوا بأدلتنا وأعلامنا، فجحدوها ولم يتذكروا بها، سنمهله بغِرَّته ونزين له سوء عمله، حتى يحسب أنه فيما هو عليه من تكذيبه بآيات الله إلى نفسه محسن، وحتى يبلغ الغاية التي كُتِبَت له من المهَل، ثم يأخذه بأعماله السيئة، فيجازيه بها من العقوبة ما قد أعدَّ له. وذلك استدراج الله إياه، وأصل "الاستدراج" اغترارُ المستدرَج بلطف من استدرجه، حيث يرى المستدرَج أن المستدرِج إليه محسنٌ، حتى يورِّطه مكروهًا)[1].

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال: ٦٣].

يقول الإمام الطبري: (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: لو أنفقت، يا محمد، ما في الأرض جميعا من ذهب وورِق وعرَض، ما جمعت أنت بين قلوبهم بحيلك، ولكن الله جمعها على الهدى فأتلفت واجتمعت، تقوية من الله لك وتأييدًا منه ومعونة على عدوك. يقول جل ثناؤه: والذي فعل ذلك وسبَّبه لك حتى صاروا لك أعوانًا وأنصارًا ويدًا واحدة على من بغاك سوءًا هو الذي إن رام عدوٌّ منك مرامًا يكفيك كيده وينصرك عليه، فثق به وامض لأمره، وتوكل عليه)[2].

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [هود: ٣٤].

---

[1] المرجع السابق (١٣/ ٢٨٦).

[2] تفسير الطبري (١٤/ ٤٥).

يقول الإمام القرطبي: «قَوْلِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: {إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ} فَأَضَافَ إِغْوَاءَهُمْ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، إِذْ هُوَ الْهَادِي وَالْمُضِلُّ، سُبْحَانَهُ عَمَّا يَقُولُ الْجَاحِدُونَ وَالظَّالِمُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا. وَقِيلَ: {أَنْ يُغْوِيَكُمْ} يُهْلِكَكُمْ، لِأَنَّ الْإِضْلَالَ يُفْضِي إِلَى الْهَلَاكِ. الطَّبَرِيُّ: {يُغْوِيَكُمْ} يهلككم بعذابه، وَأَغْوَيْتُهُ أَهْلَكْتُهُ، {هُوَ رَبُّكُمْ} فَإِلَيْهِ الْإِغْوَاءُ، وَإِلَيْهِ الْهِدَايَةُ»[1].

ونظرا لأن الأدلة لا حصر لها في كتاب الله تعالى، أكتفي بهذا القدر، ولله الحمد والمنة والثناء الجميل.

[1] تفسير القرطبي (٩/ ٢٨).

القسم الثالث

الظواهر الكونية
وتصاريف القدر

الظواهر الكونية وتصاريف القدر

شاءت إرادة الله تعالى أن يقع زلزال كبير، في بلدين من بلاد المسلمين ـ تركيا وسوريا ـ ولم يكن العمل في هذا البحث قد انتهى بعد، وكثرت التساؤلات: هل هذا الزلزال هو من قبيل العقوبة أم الابتلاء؟

ولهذا أفردت فصلا كاملا للحديث عن هذه المصيبة نظرا لتعلقها بموضوع البحث، تعلقا تاما، حيث نبهتني هذه المصيبة إلى أن البشر ـ أو أغلبهم ـ يدركون تماما المعنى الذي نتحدث فيه ـ وهو تعلق الأقدار بالعلم والقدرة معا، وليس بالعلم وحده ـ في مثل هذه الكوارث والمصائب الكبرى، التي تنعكس على عموم الناس في المكان الذي تقع فيه، فهم يُرجعون ذلك إلى الأقدار، دون لبس أو تردد.

ونبهني ذلك ـ أيضا ـ إلى أن أحد أهم أسباب التخبط في هذا الأمر، أن الذين تناولوه نظروا إلى تصرفات الأفراد، حال الدعة والسهولة، وتعاملوا مع كل فرد كوحدة مستقلة، فالتبس عليهم أمر التسيير والتسخير، وإن كانوا لا ينكرونه.

بينما في حال التصرف الجمعي، الذي يُجبَرُ فيه مجموع الأفراد على التحرك، فقد تعاملوا مع المجموع كوحدة واحدة، ولم يهتموا ببيان أن حركة الجماعات ما هي إلا مجموع حركات

أفرادها، ولو تنبهوا لهذه الحقيقة، لما انزلقوا إلى ما وقعوا فيه من خطأ"[١].

ولولا أن الذين تحدثوا في مسألة تصرفات الإنسان، وتعلقها بالعدل الإلهي، قد وضحوا ما يقصدون بضرب مثال المدرس والتلاميذ ـ الذي سبق ذكره ـ وكذلك تصريح أحد أعلام العلم الشرعي، بنفي تدخل القدرة الإلهية في تصرفات البشر، بل هو العلم وحده، ليتحقق تخيير الإنسان فيما يحاسب عليه، أقول لولا ذلك لما تنبهت لهذا الخطأ الفادح الجسيم الذي صور المسألة من خلاله.

وكذلك خطأ الذين قسَّموا أفعال الإنسان: بين واقع فيه، وواقع عليه، وواقع منه، والتزموا أن يكون الواقع منه هو محل تخيير تام، هؤلاء أيضا وقعوا في نفس الخطأ، لأنهم جعلوا أجهزة الجسم، وكأنها أقسام مستقلة بعضها عن بعض، لا يتأثر هذا القسم بذاك، وهذا هو عين الخطأ، الذي يقع فيه من ينظر إلى الفرد والجماعة، ككيانات مستقلة، لا يتأثر أحدها بالآخر، وهذا من أبطل الباطل، والله أعلى وأعلم.

ومن أجل ذلك: رأينا إفراد مسألة الزلزال بمزيد من البحث والبيان، طمعا في توضيح كل هذه الحقائق، وتجليتها بالأدلة الشرعية، وذلك من خلال حديث الاستهام على السفينة، **ونبدأ بما يلي**:

---

[١] وأقصد من ذلك: أن قهر المجموع على تصرف ما، كالهروب من المكان، لمن استطاع، وكذلك المسارعة إلى إنقاذ من يمكن إنقاذه، كل هذا هو من قبيل التسيير والتسخير، ولا يتأتى هذا إلا إذا كان التسيير والتسخير منطبقا، بصورة من الصور، على كل فرد على حده، والله أعلى وأعلم.

لا يجري شيء في الكون إلا لحكمة

تجري أمور الكون بحكمة بالغة، والتي لولاها لما استقام شيء في الوجود، ولكانت أمور الدنيا كلها من قبيل العبث وتنزه الله عن ذلك وعلا علوا كبيرا.

ولهذا فلابد أن ننظر إلى كل مجريات الكون من المنظور الشرعي وليس من منظور العقل القاصر الذي يستحيل عليه الإحاطة بحكمة ما يجري في الكون من ظواهر مختلفة، إلا ما أخبرت به نصوص الشرع، ولا طاقة للعقل على إدراكها على وجه الاستقلال.

ومن هنا ندرك أن المصائب مهما كان عظم ضررها إلا أنها تحمل في طياتها حكما كثيرة، سواء أدركنا منها الكل أو البعض، فإنها لا محالة موجودة.

ومن هذه الحكمة ما يكمن من رحمة لا تنفك غالبا عن مثل هذه المصائب - كما في مسألة الزلازل والبراكين، والأعاصير وغيرها.

ومن معالم هذه الرحمة، ما لا غنى للحياة عنه، حيث تدفع المصائب الكبرى التي لا يتحملها البشر، بمثل هذه المصائب، التي مهما بلغ قدرها فهي مقارنة بغيرها محتملة"[1].

---

[1] ومن ذلك، ما يلي: **أولا:** تنفيث ما بباطن الأرض من ضغط وغازات، الناشئة عن ارتفاع درجة حرارة الأرض والتي قد تبلغ آلاف الدرجات المئوية.
ثانيا: هذه المصائب تقوم بتجديد القشرة الأرضية والتي تتآكل بصفة مستمرة بسبب الاستخدام البشري الدائم، سواء في الزراعة أو الصناعة، أو غير ذلك،

والذي يعنينا في المقام الأول في هذا البحث، هو ما تحمله هذه المصائب من جوانب الرحمة التي تتعلق بمقام العبودية، نظرا لأنه هو الأصل في خلق البشر، وجوانب الرحمة هذه لم تتوقف على علوم البشر، بل جاءت نصوص الشرع لتدل عليها.

ومن هذه النصوص، ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يُونُس : ١٠١]، ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأَنبِيَاء : ٤٤]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرَّعْد : ٣ - ٤]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾ [الفُرْقَان : ٤٥ - ٥٠].

ولولا تجديد القشرة عن طريق هذه الظواهر لتعذرت حياة البشر. **ثالثا:** أن هذه الظواهر تعيد اتزان الجبال التي جعلها الله أوتادا، ولولا هذه المصائب لفقدت الأرض اتزانها، بسبب أن الجبال ـــ كما أثبت العلم ـــ تميل دائما نحو البحر، فتأتي هذه الظواهر لتعيدها لاتزانها السابق، وغير ذلك مما يعلمه الناس، أو لم يعلموه بعد، والله أعلى وأعلم.

وتدبر هذه النصوص، وغيرها يساعد في إدراك بعض جوانب الرحمة، والتي تهدف إلى إعلاء مقام العبودية في نفوس الخلق.

📖 **ومن أهم هذه الجوانب:**

رسوخ اليقين أن كل ما يقع في الكون إنما هو محكوم بمراد الله تعالى، وأن خصائص الأشياء، وصفاتها التي تؤدي إلى وقوع هذه المصائب، إنما هي الأداة التي هيأ الله بها مخلوقاته لتؤدي وظيفتها تلك، طبقا للناموس الذي ارتضاه الله لتسيير الكون، ولو شاء الخالق سبحانه لضبط الكون بنواميس وخصائص أخرى مختلفة، لتؤدي نفس الوظيفة، التي أرادها الله تعالى، وما كانت العقول تتصور أن تقوم بها.

ولتقريب الصورة ننظر إلى النار التي أصبحت بردا وسلاما على إبراهيم، مع أنها ظلت في أعين الناس نارا كما هي، ولكن الله أعطاها خصائص مختلفة، فليست خاصية الإحراق بلازمة لها عند الله تعالى، ولكن هي الوظيفة التي خلقها الله لتقوم بها، ولو شاء سبحانه، لبقيت الصورة وتغيرت الخصائص والصفات، أو لتغير الكل، فما كان الله ليعجزه من شيء في الكون كله.

ومما يؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم: ٤٨]، وهذا التبدل سيكون موافقا للأبدية التي تكون عليها الحياة الآخرة، كما يشير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ [النساء: ٥٧].

والله أعلى وأعلم.

📖 **والذي أهدف إليه:**

أن لا ننظر إلى نظام الكون على أنه نظام لازم محتم، ما كان يمكن أن يكون على نمط آخر، بل كما قال تعالى ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٠﴾ [النحل : ٤٠] ، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يس : ٨٢].

ووضوح هذا المعنى واستقراره في نفوس العباد سيؤدي إلى درجة كبيرة إلى عدم تعلق قلوب الخلق بالأسباب، بل برب الأسباب، سبحانه وتعالى.

ويترتب على ذلك اتجاه العقول إلى البحث عن الحكمة من وقوع هذه المصائب الكونية، بدلا من الركون إلى أن هذه ظواهر ضرورية لابد أن تحدث، وبالتالي يضيع جانب العظة والاعتبار منها، ويغيب الفهم والتدبر، والنظر إليها على أنها من جنود الله تعالى، ورسله إلى الخلق، وليست صنيعة المادة ومكونات الأشياء.

وليس من شك في أن حياة الناس الخاصة، كثيرا ما تتعرض لخطوب ونوازل تحمل من المعاناة والآلام ما يضاهي، أو يزيد على قدر الألم والفجيعة، الذي ينال كل فرد على حده، كنصيب من الكوارث العامة، ممن يبتلون بهذه المصائب.

فلا تكاد تمر لحظة من لحظات الحياة إلا ويوجد إنسان ما قد أصابته مصيبة فقد المال، أو فقد الولد أو هما معا، وكم من مرضى ألم بهم المرض، حتى أتى على كل ما يملكون، ولم يبق لهم إلا ما يجود به الناس عليهم من صدقات، وغير ذلك مما يصيب البشر في كل وقت وحين كثير وكثير.

☜ **ومع هذا**: ونظرا لما ألفه الناس من هذه المصائب اليومية، أصبحت تمر بما فيها من فجيعة وألم، دون أن تترك ـ غالبا ـ كبير أثر في تعلق المبتلى بها باللجوء إلى الخالق ـ عز وجل ـ بالتضرع والتذلل بين يديه سبحانه، طمعا في سكينة النفس، وطمأنينة القلب، والإعانة على حسن الطاعة، والامتثال لأحكام الشرع، بل يكون ـ غالبا ـ تعلق القلب بالأسباب التي ترفع المصيبة أو تخفف منها، وهكذا تضيع العبرة والعظة والاعتبار.

☜**ومن هنا**: وكما هو معهود الشرع، تُقطع التكاليف الشرعية المتكررة بتكليف مختلف، حتى ينتبه الناس، ويتحرروا من إسار الإلف والعادة، وتكتسب العبادة ـ قدر المستطاع ـ منزلتها اللائقة، في تعبيد القلب والنفس للخالق سبحانه، ظاهرا وباطنا، وليس صورة وحركات جوارح فقط.

وهكذا هي الكوارث الكبرى، التي قدرها اللّه تعالى في دنيا البشر، تؤدي هذه الرسالة، التي لا غنى عنها، لانتشال الناس من غفلتهم، وكذلك دفعهم إلى تعظيم الخالق سبحانه، طوعا أو كرها، تعظيما يفرضه الخوف والرجاء معا، واللّه أعلى وأعلم.

فإن الكوارث والمصائب الكبرى تزلزل نفوس الخلق وتصيبهم بالرعب، من هول ما يرونه من آثار مفجعة، حدثت في لحظات معدودة، دون أن يحتاط لها الناس أو يتجنبوها، بل هي القدر المحتوم، الذي لا ملاذ منه إلا إلى اللّه تعالى بالتضرع والدعاء.

وهذه المعاني يشير إليها قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ٥٩﴾ [الإسراء من الآيه : ٥٩]، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ

أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ﴿١٠٣﴾﴾ [هُود: ١٠٢ - ١٠٣].

وتدل هذه الآيات على أن آيات الله تخوف العباد، والخوف لا يكون إلا عن رهبة من المخوِّف، فإذا ما استقر ذلك في النفس، سارع الناس إلى دفع الخوف عن أنفسهم، كل بما آمن به، وهكذا تقوم الحجة على العباد، وتتباين تصرفاتهم، فتكون هذه الآيات سببا في كسر رتابة حياة الناس، ودفعهم، كل إلى ما يوافق قدره المحتوم، والذي يخضع لمشيئته سبحانه وقدرته، وليس متروكا لحياة الناس، تقلبهم كيف تشاء، بدعوى أن هذا هو العدل وقت الحساب، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

والذين يقولون بالتخيير التام يؤمنون تماما بدلالة النصوص الشرعية التي تتحدث عن أفعال البشر، وتتعلق بالهداية والضلال، كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزُّمَر: ٢٣]، وقد علمنا أن مشيئة الخالق سبحانه لا تتعارض مع التخيير والعدل، ولكن بما تقوم به الحجة على العباد في بعض تصرفاتهم، وليس في كل فعل أو تصرف، يقومون به، وإلا لانتفى مفهوم العبودية، واضطربت حياة الناس، وأكل بعضهم بعضا، كما أكدنا أكثر من مرة.

📖 **وهكذا يقسم الخوفُ الناسَ ـ بدافع الخوف وليس بالاختيار ـ إلى فئتين:**

☜ **الفئة الأولى:** فئة تخاف الخالق جل في علاه، فترجع إليه سبحانه وتتقيه، ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ (الزمر: من الآية ١٦).

☜ **والفئة الثانية:** حالهم هو التكذيب والإنكار، والعياذ بالله، والتكذيب هنا يتمثل في إرجاع هذه الكوارث والمصائب إلى الطبيعة، وكأنها هي المتسببة في إحداث هذه الآيات ووقوعها، ومفاد ذلك أنهم إن تغلبوا على السبب، أمنوا هذه الكوارث، وبالتالي، لا تعلق لها بقدر، ولا مشيئة، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ١٠١﴾ (يونس: ١٠١).

وهكذا يُخرج الخوف ما تكنه النفوس، حتى ولو لم تكن تنتبه له، وهذه آية عظمى لو أدركها الناس على حقيقتها، وقد تكون من دلائل قيام الحجة عليهم، والله أعلى وأعلم.

يقول الإمام الطبري: (**عن قتادة، قوله** {وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلا تَخْوِيفًا} وإن الله يخوّف الناس بما شاء من آية لعلهم يعتبرون، أو يذكّرون، أو يرجعون، ذُكر لنا أن الكوفة رجفت على عهد ابن مسعود، فقال: يأيها الناس إن ربكم يستعتبكم فأعتبوه)[1].

وقوله: (لعلهم يعتبرون، أو يذكّرون، أو يرجعون)، دليل على اختلاف أفعال الناس حيال الكارثة، بما يوافق ما في قلوبهم.

[1] تفسير الطبري (١٧/ ٤٧٨)، ففي مصنف ابن أبي شيبة (٢/ ٢٢١)، عَنْ شَهْرٍ، قَالَ: زُلْزِلَتِ الْمَدِينَةُ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «إِنَّ رَبَّكُمْ يَسْتَعْتِبُكُمْ فَأَعْتِبُوهُ».

يقول الإمام الرازي: (قَالَ تَعَالَى: {وَما نُرْسِلُ بِالْآياتِ إِلَّا تَخْوِيفاً} قِيلَ: لَا آيَةَ إِلَّا وَتَتَضَمَّنُ التَّخْوِيفَ بِهَا عِنْدَ التَّكْذِيبِ إِمَّا مِنَ الْعَذَابِ الْمُعَجَّلِ أَوْ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ، فَإِنْ قِيلَ: الْمَقْصُودُ الْأَعْظَمُ مِنْ إِظْهَارِ الْآيَاتِ أَنْ يُسْتَدَلَّ بِهَا عَلَى صِدْقِ الْمُدَّعِي فَكَيْفَ حَصَرَ الْمَقْصُودَ مِنْ إِظْهَارِهَا فِي التَّخْوِيفِ، قُلْنَا: الْمَقْصُودُ أَنَّ مُدَّعِيَ النُّبُوَّةِ إِذَا أَظْهَرَ الْآيَةَ فَإِذَا سَمِعَ الْخَلْقُ أَنَّهُ أَظْهَرَ آيَةً فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ تِلْكَ الْآيَةَ مُعْجِزَةٌ أَوْ مَخُوفَةٌ، إِلَّا إِنَّهُمْ يُجَوِّزُونَ كَوْنَهَا مُعْجِزَةً، وَبِتَقْدِيرِ أَنْ تَكُونَ مُعْجِزَةً فَلَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِيهَا وَلَمْ يَسْتَدِلُّوا بِهَا عَلَى الصِّدْقِ لَاسْتَحَقُّوا الْعِقَابَ الشَّدِيدَ، فَهَذَا هُوَ الْخَوْفُ الَّذِي يَحْمِلُهُمْ عَلَى التَّفَكُّرِ وَالتَّأَمُّلِ فِي تِلْكَ الْمُعْجِزَاتِ، فَالْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: {وَما نُرْسِلُ بِالْآياتِ إِلَّا تَخْوِيفاً} هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ)[1].

وأتوقف أمام **قول الإمام الرازي**: (فَهَذَا هُوَ الْخَوْفُ الَّذِي يَحْمِلُهُمْ عَلَى التَّفَكُّرِ وَالتَّأَمُّلِ فِي تِلْكَ الْمُعْجِزَاتِ).

حيث يشير إلى حقيقة كبرى، تلفت الأنظار إلى عظمة الخالق سبحانه، وتفرُّدِهِ في الخلق بمشيئته، فالخوف يعتري الإنسان بغير إرادة منه، ولو كان مختارا لاختار عدم الشعور بالخوف، ولو فطن القائلون بالتخيير إلى ذلك، لما قالوا بقولهم الذي قالوه أبدا.

لأن الخوف مخلوق لله تعالى، يؤدي وظيفة لا يتخلف عنها أبدا، هذه الوظيفة تؤثر في أجهزة الجسم، وتتسبب في تصرفات قد يتفاجأ بها صاحبها، لوقوعها قهرا عنه، كالقلق والاضطراب، والتوتر الشديد، وغير ذلك.

---

[1] تفسير الرازي (٢٠/ ٣٥٩).

وقد يؤدي الخوف إلى تصرفات تحدث بسببه، كالبحث عن مطمئن ما، وعون ما، وملاذ آمن، وغير ذلك.

وكل هذا يؤكد أن حياة البشر ليست مرهونة بالتخيير المطلق أبدا، إذ لو كان الأمر كذلك لمَا ابتلى الله الإنسان بالخوف، لأن الخوف يسلب الإنسان الإرادة والاختيار الحقيقي، ويدفعه إلى تصرفات وأفعال من الممكن أن يستنكرها، بعد زوال حالة الخوف عنه، وكل هذا سيحاسب عليه، لا محالة، والله أعلى وأعلم، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البَقَرَة : ١٥٥].

ولعل ما يؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأَعْرَاف : ١٤٦]، فهذه الآية وعيد شديد لمن لم يتعظ بآيات الله، حيث سيكون مآله أن تتدخل القدرة الإلهية لتسخره وصولا إلى سوء عاقبته، وذلك بأن يصرفه الله عن الاتعاظ بآياته والاعتبار بها، والعياذ بالله.

ومعنى هذا أن الذي استكبر مختارا، قد قامت عليه الحجة أمام الله تعالى، فاستحق أن يسخره الله ليصل إلى سوء العاقبة، ولا ظلم، **يقول الإمام الطبري**: (القول في تأويل قوله: {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ}، **قال أبو جعفر**: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أخبر أنه سيصرف عن آياته، وهي أدلته وأعلامه على حقيقة ما أمر به عباده وفرض عليهم من طاعته في توحيده وعدله، وغير ذلك من فرائضه، والسموات والأرض، وكل موجود من خلقه، فمن آياته، والقرآن أيضًا من آياته، وقد

عم بالخبر أنه يصرف عن آياته المتكبرين في الأرض بغير الحق، وهم الذين حقّت عليهم كلمة الله أنهم لا يؤمنون، فهم عن فهم جميع آياته والاعتبار والادّكار بها مصروفون، لأنهم لو وفّقوا لفهم بعض ذلك فهُدوا للاعتبار به، اتعظوا وأنابوا إلى الحق، وذلك غير كائن منهم، لأنه جلّ ثناؤه قال: {وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا}، فلا تبديل لكلمات الله)[1].

وكل هذا يؤكد أن الكوارث الكبرى ومنها الزلازل تجمع بين التخيير والتسيير والتسخير، وفق مراد الله تعالى، وكما هو مقدر أزلا، والله أعلى وأعلم.

☜ **من جانب آخر**: لولا أن الله عز وجل خلق الخوف في النفس البشرية، ليكون قيدا على تخييرها، بالتسيير والتسخير أحيانا، لولا ذلك لأمكن أن يقع الإنسان في العجز، والهلكة، بالإقدام على فعل أشياء لولا الخوف ما تجنبها، ولكنها حكمة الله تعالى، التي جعلت الخوف ليس ابتلاء فقط، بل أيضا وقاية، من مهالك وشرور كثيرة.

وهذا يؤكد أن الخالق سبحانه اختص كل مخلوق بما يناسب دوره في الحياة تماما، ومن ذلك غريزة الخوف في الإنسان، وعلى هذا المعنى، كل خصائص المخلوقات، كما يشير قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (طه: من الآية ٥٠).

ولو كان لمخلوق تخيير تام في تصرفاته التي يحاسب عليها، لما تحتم وقوع قضاء قط، بل قد يقع أو لا يقع، فقد يهم القوي بظلم ضعيف ما، فيمنع هذا الظالم من هو أقوى منه، فيكف عن أذى الضعيف قهرا عنه، وفي هذا المثال لو توقف القضاء على العلم

---

[1] تفسير الطبري (١٣/ ١١٣).

الكاشف وحده، فلن يُحكم على هذا الظالم بأنه ظالم، مع أنه في حقيقته ظالم، ومعنى ذلك أن تكون مشيئة الخالق مرهونة بمشيئة العباد، والعياذ بالله، من فحش هذا القول"[1]، أو يكون الله قد قضى قضاء، أن هذا العبد ظالم، ثم تخلف حيث لم يظهر ظلمه، وكل هذا طعن في العقيدة والدين كله، والعياذ بالله.

ومن عجب أن هؤلاء الذين يُرجعون المصائب العامة إلى الطبيعة، إنما يعتبرون المخلوقات إنما وجدت دون إرادة عظمى، وهذا معناه نفي وجود الخالق، والعياذ بالله.

والقول الذي نؤكد بطلانه، بالأدلة والبراهين"[2] ـ أي القول بأن المكلف له إرادة مطلقة وتخيير تام فيما يحاسب عليه ـ يمكن أن يقود إلى نفس النتيجة الكفرية ـ والعياذ بالله ـ أو يقترب منها.

لأن القول بتخيير الإنسان فيما يحاسب عليه، مع أن الله سخر له ما في الكون، يؤدي أيضا إلى تعلق المقادير، أو جزء منها بإرادة الإنسان المنفردة، الناشئة عن التخيير التام، وعلى سبيل المثال تكون أقدار الذين ماتوا بسبب القنابل، وغيرها من الأسلحة الفتاكة، إنما تعلقت ـ آجالهم بإرادة الذين اخترعوا هذه الأسلحة، والذين حملوها واستعملوها في القتل، وكأن هؤلاء البشر قد قاسموا الخالقَ سبحانه في تصاريف القدر، وآجال الناس، ويا له من قول فادح، هو والكفر سواء، والعياذ بالله.

[1] وقد بينا بطلان هذا القول في القسم الثاني من البحث، بيانا شافيا وافيا، فليرجع إليه.

[2] كما سبق في القسم الثاني.

المصائب العامة بين العقوبة والابتلاء

لله في الخلق حكمٌ، لا تحيط بها العقول، ولو اجتمعت، ولكن الله يجري من الآيات ما يتوصل به إلى بعض من هذه الحكم، حتى تستقيم أمور الحياة، وتقوم الحجة على العباد، أنه المعبود بحق، ولا معبود بحق سواه.

وتتنوع الأسباب الموصلة إلى حكمته سبحانه، لتناسب أحوال البشر جميعا، ومن هذه الأسباب المصائب والمحن، ومنها الكوارث العامة ويظهر بها قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ٣٥﴾ [الأنبياء : ٣٥].

فعندما يحصد الموت حياة الكثيرين دفعة واحدة، منهم الرضيع، والشيخ الكبير، والشاب الفتي، ومع هذا ينجو من هؤلاء أيضا من يستحيل ـ في مقدرات العقول ـ أن ينجو من الموت، بالنظر إلى ما أحاط به من عوامل الهلاك المؤكد من كل جانب، ومع هذا ينجو.

وكأن ذلك آية تؤكد أن الموت ليس معلقا بالسبب المجرد، بل بالقضاء والقدر، ولا يمكن أن يتخلف السبب، إلا بتدخل القدرة الإلهية، لأنه ما من قوة من القوى المادية ادعت قدرتها على ذلك، وكل من ادعى ذلك، كذَّبه الواقع، بما لا يحتاج إلى مزيد إثبات على كذبه.

وهكذا يقيم الخالق سبحانه وتعالى الحجة على العباد أنه: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ (البقرة: من الآية ٢٥٥)، وهكذا تكون المحنة سبيلا إلى الطاعة، واللجوء إلى الله ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ (الفرقان:٥٨) لتصبح في حقيقتها منحة.

📖 **وهكذا يتمايز الناس عند الابتلاء:**

فريق منهم استسلموا ورضوا بقضاء الله تعالى وقدره، إيمانا بأن قدر الله كله خير، إذا ما أحسنوا التعامل معه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البَقَرَة: ١٥٥ - ١٥٧].

ومن عجب أن هذا الزلزال، والذي يمثل واحدة من الكوارث الكبرى، أدى رسالة، كان يعجز عنها كل العقلاء، وفصحاء الناس، في مثل هذه المحن، ألا وهي صدق التوكل، واليقين في الله تعالى.

ويتمثل ذلك في هؤلاء الذين لم تفتر ألسنتهم عن ذكر الله تعالى واللجوء إليه وهم محاطون بالأنقاض والأحجار من كل جانب، ولا يظن ظان أنهم يخرجون منها أحياء، وليس هذا وفقط بل تترامى أمامهم أشلاء الأحبة وأجساد الأهل والأصدقاء، وبدلا من الاستسلام لتسويل الشيطان، نطقت ألسنتهم بكل آيات التوكل والرجاء، في موقف لا يحتمل أي قدر من الزيف أو النفاق.

إنها رسالة إلى أهل الدعة والرفاة، وإلى كل من كان له عقل قادر على فهم الأشياء، والتمييز بين الطيب منها والرديء، ألستم أحق من هؤلاء بالاستجابة لخالق الكون وما فيه؟، ولكن هيهات هيهات، ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يُونُس: ١٠١]، وهؤلاء هم الفريق الثاني، فريق الغفلة والاستكبار.

وكأن هذه الكوارث الكبرى هي التي تكره الإنسان ـ وينعدم اختياره ـ في هذه اللحظات الخاطفة فتبوح نفسه بما كان خافيا، وتنطق كل جوارحه بما يعبر عن سوء طويته، وكفى بذلك عليه حجة، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٢ - ٤٤].

يقول الإمام الطبري: (**قوله**: {وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ} **يقول**: ولكن أقاموا على تكذيبهم رسلهم، وأصرُّوا على ذلك، واستكبروا عن أمر ربهم، استهانة بعقاب الله، واستخفافا بعذابه، وقساوة قلب منهم، {وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، يقول: وحسنَّ لهم الشيطان ما كانوا يعملون، من الأعمال التي يكرهها الله ويسخطها منهم)[1].

وهكذا يتمايز الناس، وتقوم الحجة على كل من الطرفين، وكذلك على كل من علم بمثل هذه الكوارث، وما أصاب الناس فيها، لتكون العظة والاعتبار واللجوء إلى الله إعلاء من درجات أهل الطاعة والإيمان، وتكون قساوة القلب والاستخفاف عقوبة أهل الغفلة والعصيان، بسبب ما تسوقهم إليه هذه المصائب من سوء المصير، والعياذ بالله.

[1] تفسير الطبري (١١/ ٣٥٧).

العقوبة والابتلاء

من الأخطاء التي يقع فيها بعض الناس، أنهم في مثل الكوارث الكبرى يتعجبون، لأن المصاب يعم المؤمن وغير المؤمن، وأهل الهداية وأهل الضلال، في لحظة واحدة ومكان واحد، ويحسبون أن المصيبة قد جمعت بين الجميع في نتيجة واحدة، بمعنى أن العاصي والطائع قد عمهم العقاب.

وليس الأمر كما يظنون مطلقا، فوقوع المصيبة على جمع من الناس في لحظة واحدة، إنما تم بقضاء الله وقدره، حيث تدخلت القدرة الإلهية ليجتمع هؤلاء المصابون بأشخاصهم، دون تبديل ولا تغيير، لحكمة يريدها الله تعالى، ومع هذا فإن كل إنسان محاسب عن نفسه، دون تعلق بمن معه، ولا بما حوله، ﴿وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ (الأنعام: من الآية ١٦٤).

ففي الآخرة كل نفس تحاسب عن نفسها، ولا أثر للحساب في الوسيلة، التي جاءت بالنهاية، سواء أكانت ضمن المجموع، أم كانت على انفراد، فالكل أمام الله يوم الحساب لا يُسأل إلا عن نفسه فقط، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ (النحل: ١١١).

وهكذا تكون المصيبة الواحدة ـ أو الكارثة الكبر ـ ابتلاء للبعض وتمحيصا، وعقوبة لآخرين، ولا تأثير لأي منهما على الآخر، والله أعلى وأعلم.

يقول الإمام يحي بن سلام: (**قَوْلُهُ**: {يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا}، **قَالَ الْحَسَنُ**: إِنَّ كُلُّ نَفْسٍ تُوقَفُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ لِلْحِسَابِ لَيْسَ يَسْأَلُهَا عَنْ عَمَلِهَا إِلا اللَّهُ، قَالَ: {وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ}، أَمَّا الْكَافِرُ فَلَيْسَ لَهُ مِنْ حَسَنَاتِهِ فِي الآخِرَةِ شَيْءٌ، قَدِ

استوفاها فِي الدُّنْيَا، وأمَّا سَيِّئَاتُه فيُوفاها فِي الآخِرَةِ، يُجازَى بِهَا النَّارَ، وَأمَّا المُؤمِنُ فهُوَ الذِي يُوفى الحَسَنَاتِ فِي الآخِرَةِ، وَأمَّا سَيِّئَاتُهُ فَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ لمْ يَخْرُجْ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى ذَهَبَتْ سَيِّئَاتُهُ بِالبَلايَا وَالعُقُوبَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَبْقَى عَلَيْهِ مِنْ سَيِّئَاتِهِ فَيَفْعَلُ اللَّهُ فِيهِ مَا يَشَاءُ.

قَالَ يَحْيَى: وَبَلَغَنِي أنَّ مِنْهُمْ مَنْ تَبْقَى عَلَيْهِ مِنْ سَيِّئَاتِهِ فَيُشَدَّدُ عَلَيْهِ عِنْدَ المَوْتِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَبْقَى عَلَيْهِ مِنْهَا فَيُشَدَّدُ عَلَيْهِ فِي القَبْرِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَبْقَى عَلَيْهِ مِنْهَا فَيُشَدَّدُ عَلَيْهِ فِي المَوْقِفِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْقَى عَلَيْهِ مِنْهَا فَيُشَدَّدُ عَلَيْهِ عِنْدَ الصِّرَاطِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْقَى عَلَيْهِ مِنْهَا فَيَدْخُلُ النَّارَ فَيُنْتَقَمُ مِنْهُ ثُمَّ يُخْرِجُهُ اللَّهُ مِنْهَا إِلَى الجَنَّةِ[1].

وبذلك تصبح الكارثة كالمصفاة، التي تفرق بين ما فيها، ليمتاز كل صنف عن الآخر، والله أعلى وأعلم.

ونكتفي بهذا القدر، لننتقل إلى النقطة التالية.

[1] تفسير يحيى بن سلام (١/ ٩٤).

عود إلى حديث السفينة

قلنا إن حديث السفينة هو مثال لدنيا البشر، وسواء أكان هذا المثال عاما لحياة الأمة كلها، وكأن السفينة المعنية سفينة واحدة، أم كان المثال خاصا بواحدة من السفن، وأن السفن متعددة، على أن كل سفينة تمثل جزءا أو بلدا من جملة بلاد المسلمين، فالمثال قد كشف عن حقيقة مؤكدة، ألا وهي ارتباط نجاة السفينة بالامتثال لأوامر الشرع، وذلك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإلا فالعاقبة هي الغرق والهلاك المؤكد.

وقبل أن نتناول مسألة الزلازل يحسن بنا أن نتعرض لهذا الأمر القدري، المتعلق بالسفينة، والذي يؤكد أن ربط الأقدار بالعلم الكاشف وحسب، لهو من أفدح وأشنع الأقوال، فيما يتعلق بأمر العقيدة، وذلك لكل الأسباب التي ذكرناها، والتي نتمثلها بالسفينة محل المثال، **ومن ذلك ما يلي:**

📖 **الأثر المترتب على القول بتخيير البشر في كل ما يحاسبون عليه:**

إن القول بأن المقادير تتعلق بالعلم الأزلي، الذي لا يتخلف ولا يتبدل أبدا، ودون تدخل القدرة الإلهية، يقتضي أن تسير أمور البشر دون أي تأثير للقدرة الإلهية في توجيه تصرفاتهم، بدعوى أن هذا هو العدل وعدم الظلم، وبدعوى قيام الحجة على العباد، وذلك بأن يكون لهم مطلق الإرادة والاختيار التام، في كل تصرفاتهم التي يحاسبون عليها.

وقد بينا فساد هذا القول وبطلانه بطلانا تاما، ومن أهم أوجه البطلان أن هذا القول يجعل مشيئة الخالق تابعة لمشيئة العباد،

والعياذ بالله من مثل هذا القول، وقد جاءت النصوص، قطعية الدلالة على أن مشيئة العباد تابعة لمشيئة الخالق، جل في عليائه، وليس العكس.

وسوف نبين أثر هذا القول ـ التخيير التام ـ على مثال السفينة، تجسيدا للمعاني التي نقولها، وقطعا لأي التباس، والله ولي التوفيق والهداية.

متى تغرق السفينة

نبدأ ببيان الأثر المترتب على عدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بمعنى عدم الأخذ على يد من يخرق السفينة، لنرى النتيجة المحتمة، كما بينها الحديث الشريف، ألا وهي غرق السفينة، وهلاك من فيها.

☜ **ومعنى هذا**: أن نجاة السفينة أو غرقها ـ في ظل القول بالعلم الكاشف وفقط ـ مرهون تماما بتخيير الأفراد ـ الركاب ـ فهل هذا صحيح؟

لو قلنا بصحة هذه الصورة، التي تعنى التخيير التام فيما يحاسب عليه البشر ـ وهو في مثال السفينة يتمثل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ لتعطلت كل نصوص الشرع والعياذ بالله.

لأن النصوص تؤكد أن كافة مقادير الأمور في الكون كله، إنما هي بيد الله وحده لا شريك له، وهذا لا يمكن أن يكون بالعلم الكاشف وحده، بل لابد أن توجد القدرة مع العلم، القدرة التي تسيِّر وتسخِّر، و يخضع لها الكون وما فيه.

ولولا تدخل القدرة الإلهية بالتسيير والتسخير لما صح تعلق القدر بالإرادة الإلهية قط، لأنه يكون تعلقا مجازيا، وليس حقيقيا، وهذا غير جائز من وجوه عديدة، تبينها النصوص الشرعية، وكذلك الأصل أن تحمل الألفاظ على المعنى الحقيقي إلا إذا تعذر ذلك، فيمكن حملها على المعنى المجازي، وهذا غير موجود في النصوص الشرعية بل العكس هو الصحيح، حيث إن المعنى الحقيقي هو الذي تستقيم به معاني النصوص المتعددة، ولو حملت الألفاظ على المعنى المجازي

لتناقضت النصوص ـ في هذه المسألة ـ وتضاربت وهو باطل، ولا يجوز القول به مطلقا.

📖 **ومن الأدلة على ذلك:**

☜ **الدليل الأول**: قول تعالى: ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ١٠ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ١١ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ١٢﴾ [فُصِّلَت: ٩ - ١٢].

ونخص بالبحث مسألة تقدير الأقوات {وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا}، وأنه سبحانه وتعالى هو الذي قدر: {وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا}، ولا يمكن أن يحمل العلم على التقدير مطلقا، لأن العلم يكشف عن الموجودات ولا يؤثر فيها، لأن التأثير إنما يكون بالقدرة، **يقول الإمام الطبري**: (**قال ابن زيد، في قول الله**: {وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا} **قال**: قدر فيها أرزاق العباد، ذلك الأقوات)[1].

وتقدير الأرزاق وقوت العباد، يقتضي بالضرورة ـ بدلالة هذا النص الكريم ـ أن أرزاق العباد قد أحكم تقديرها وأبرم قبل أن يقوم العلم بالكشف عن تصرفات العباد، وحتى تصل الأرزاق المقدرة إلى أصحابها دون نقص أو زيادة، فلابد ومن المحتم أن تتدخل القدرة الإلهية بالتسيير والتسخير لتحقق ذلك.

ولو كانت المقادير قد أبرمت بالعلم الكاشف وحده، والذي لا تأثير له في تصرفات العباد واختياراتهم، بل إنه يكشف عنها

---

[1] تفسير الطبري (٢١/ ٤٣٥).

فقط، لكان معنى ذلك أن يذهب الرزق للأقوى دون الأضعف، وكذلك لمن امتلك وسيلة الحصول على الرزق دون من عجز عنها، وهكذا.

وبهذا المعنى يكون التفاوت في الرزق، راجعا إلى الأسباب المادية الملموسة، التي يدركها كل البشر، ويسعون إليها، فلا يمكن أن يكون قد سبق تقدير الرزق قبل تحقق وجوده، وهكذا تتعطل النصوص الشرعية التي تؤكد أن الرزق مرهون بإرادة الخالق ومشيئه، والعياذ بالله.

وكل هذا باطل، لأنه يخالف النص القرآني القاطع، الذي ينص على أن الرزق، قدره الله أزلا، ولا يمكن أن يتبدل أو يتخلف، حتى ولو اجتمعت الأسباب، فلن تغير قدرا، يقول تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ١٩﴾ [الشورى: ١٩].

ولابد أن نفطن في هذه الآية إلى قوله تعالى: {مَنْ يَشَاءُ}، والذي يفيد بالضرورة عدم خضوع الرزق للأسباب المادية المجردة، بل إن الرزق معلق بمشيئته سبحانه، هذه المشيئة التي تعنى بالضرورة تدخل القدرة الإلهية، لتنفذ مشيئته سبحانه على النحو الذي يريد، على الرغم من أن الرزق يتعلق أيضا بسعي وحركة الإنسان.

ومعنى ذلك أن عمل الإنسان وكسبه، ما هو إلا امتثال لأوامره سبحانه، اختيارا، أو اضطرارا.

ووجه الاختيار في عمل الإنسان وكسبه، هو ما كشف عنه العلم وكان داخلا ضمن الرزق المقدر المحتوم، الذي يتفاوت من إنسان إلى آخر، حتى وإن اتفقت الوسائل والأسباب، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي

رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ [النَّحل : ٧١]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ [الرَّعْد : ٢٦]، وهكذا لا يرتبط الرزق بمهارة الإنسان وعدمها، بل لله حكمة في توزيع الأرزاق، لا يعلمها إلا هو سبحانه، ولا يمكن أن تتحقق إلا بتدخل القدرة، ولو كان أمر الرزق هو ما كشف عنه العلم وحسب، لانتفت دلالة كل هذه النصوص.

وكذا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ [الشُّورَى : ٢٧]، يدل دلالة قطعية على تدخل القدرة الإلهية، وذلك بالتيسير، والتسيير والتسخير، ولولا ذلك لانعدمت دلالة النص، وكل هذا من قبيل العبث تنزه الله عنه وعلا علوا كبيرا.

☜ **ومع هذا**: فإن للتكاليف الشرعية، والأخذ بالأسباب المادية، دورها في وصول جزء من الرزق إلى صاحبه، الذي سعى وامتثل، فاستحق به هذا الجزء، بينما ما يتم به الرزق ويكتمل، كما سبق في الكتاب الذي لا تبديل فيه ولا تغيير، فإنما يكون بخلق الدوافع التي لا يملك البشر دفعها، والتي تتمثل في التيسير والتسيير والتسخير، التي توجه الإنسان إلى غاية مؤكدة، دون قهر أو إجبار، بل هي أجهزة الجسد، وتقدير العقول يوجهها الخالق كيف يشاء، والله أعلى وأعلم.

وهكذا تكون ثمرة الكسب ـ أي الرزق ـ وفقا لقضاء الله تعالى وقدره، الذي لا يتغير ولا يتبدل، وهذا لا يمكن أن يتوقف على العلم الكاشف وحده، بل لابد من تدخل القدرة الإلهية، إما بإقرار الاختيار أحيانا، وإما بالتسيير والتسخير أحايين أخرى،

لتستقيم أمور الخلق، كما أراد الله عز وجل وقدر، وليس وفق ما يترتب على تصرفات البشر الاختيارية من نتائج، تؤدي بالضرورة - لو صح ذلك - إلى تعطل الأقدار، والانتقاص من ألوهية الخالق - والعياذ بالله من مثل هذا القول.

وهكذا لابد من تدخل القدرة الإلهية في تصرفات البشر جميعا، بما فيها التصرفات التي يحاسبون عليها، ولولا ذلك لهلك الرضيع إذا غفلت عنه أمه، وهلك الضعيف إذا نسيه ذووه، أو انقطعوا عنه، ولأصبحت المشاعر البشرية ملكا لأصحابها، لا تجبرهم ولا تسيرهم إلا وفق ما تمليه العقول، وواقع حياة البشر ينفي ذلك نفيا قاطعا، ولولا ذلك لما أدرك الناس معاني الألفاظ كلفظ الرؤية المنامية، والإلهام والرغبة، وغيرها من الألفاظ، التي تدل على عدم استقلال عقول البشر بتوجه التصرفات والأفعال.

☜ **ويؤكد هذا المعنى تفسير الإمام الطبري حيث يقول:** (يقول تعالى ذكره: الله ذو لطف بعباده، يرزق من يشاء فيوسع عليه ويقتر على من يشاء منهم، {وَهُوَ الْقَوِيُّ} الذي لا يغلبه ذو أيد لشدته، ولا يمتنع عليه إذا أراد عقابه بقدرته {الْعَزِيزُ} في انتقامه إذا انتقم من أهل معاصيه)[1].

وهذه الآية قاطعة الدلالة في ارتباط الرزق بالتسخير والتسيير، لأنه قدر مقدور، لا حيلة لأحد فيه، إلا السعي والعمل، دون النتيجة المحتمة، والعجيب أن الآية جمعت بين متقابلين"[2]، اللطف والقوة، وكأنها - والله أعلم بمراده - تبين أن الرزق، وإن

---

[1] تفسير الطبري (٢١/ ٥٢١).

[2] اللطف ويقابله القوة.

لم يكن متوقفا على سعي الإنسان وكسبه وفقط، إلا أن اللّه لطيف بعباده، لا ينساهم ولا يحملهم ما لا طاقة لهم به.

وكأن الآية ـ واللّه أعلم ـ تحث الإنسان على السعي، وأنه إذا فعل فلن يخيِّبَ اللّه رجاءه، لأنه لطيف، بما يقتضيه اللطف من الحنو والرحمة، ومع هذا {وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ}، واجتماع العزة والقوة، بعد اللطف فيه إشارة ـ واللّه أعلم ـ إلى أن كل أقوياء الدنيا لا يقدرون أن يمنعوا رزقا كتبه اللّه لأحد من الخلق.

وليس بالضرورة أن يكون تدخل القدرة الإلهية في صورة ملموسة، بل قد يكون بصرف انتباه الظالم عن أحد ما، أو الحيلولة بينه وبين آخر، أو خلق الدوافع المختلفة في نفس الظالم التي توافق ما قدره اللّه تعالى ويتعلق بما يقوم به الظالم مع المظلومين.

ولو فطن الناس إلى هذه الحقيقة، واستوعبوها على نحو صحيح، لأدركوا أن ما يقوم به أقوياء الناس ووجهاؤهم، وكذلك أهل البطش والجبروت، لا يمكن أن يقع إلا على من ابتلاه اللّه بذلك، فالجبار حين يبطش بغيره، فيمنع عنه رزقا أو يتلف له قوتا، أو يعتدي عليه فيصيب منه بالجراح وغيرها، كل هذا لا يمكن أن يتم إلا بتسخير أحد الطرفين، ليتم مراد اللّه تعالى وفق ما أراد، إما أن يسوق المبتلى ليقع عليه بطش الجبار، وإما بتسخير هذا الباطش أيضا، فيكون التسخير للطرفين معا، أو لأحدهما، واللّه أعلى وأعلم.

وهكذا تدل هذه الآية أبلغ دلالة على أن كل ما يجري في حياة الناس، وما يتوقف عليه بقاؤهم، ليس مرهونا بمشيئة أحد من الخلق، حتى فيما يتعلق بالإنسان ونفسه، فهو لا يقدر أن يجزم أن عمله سيثمر ما يبتغيه من ربح وسعة، أو لا، ولا ماذا

يتيسر له من الأسباب، أو يتعذر عليه، بل هو القدر المحتوم، الذي لا يتحقق إلا بالعلم والقدرة الإلهية معا، وليس متعلقا بالعلم وحده، بحال من الأحوال، والله أعلى وأعلم، فهو سبحانه قدر الأقدار، ولم ينس أحدا، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ (مريم: من الآية ٦٤).

كذلك كل ما يتعلق بالإنسان وغيره، وتترتب عليه أعمال وتصرفات، ما كانت لتوجد لولا ذلك، كهجرة مكان ما خوفا من بطش قوي، أو بحثا عن الرزق الذي أصبح متعذرا في هذا المكان، وغير ذلك مما يجبر الإنسان على تصرف ما، لم يكن ليوجد لولا ما وقع عليه من خارجه، وكل هذا مرتبط بقضاء وقدر لا يتخلفان أبدا، مما يوجب حتما أن لا يُترك هذا الإنسان، وأي إنسان، لاختياره التام، إلا بما تقوم عليه به الحجة أمام الله تعالى، وهذا يتأتى في جزء من تصرفاته، وقد يكون هو القليل، والله أعلم.

وقوله تعالى: {وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا}، وكل ذلك يتعلق بقوت الإنسان وكسبه وعمله في الحياة، **يقول الإمام الطبري**: (**وقوله**: {وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا} **يقول**: وألقى في كل سماء من السموات السبع ما أراد من الخلق، عن **مجاهد**، قال: ما أمر الله به وأراده)[1].

وقد علمنا أن مصلحة الإنسان هي مما أراده الله تعالى، حيث يقول جل شأنه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٢ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١٣﴾ [الجاثية: ١٢ - ١٣].

[1] تفسير الطبري (٢١/ ٤٤١).

ولو كان كل شيء مسخرا لمصلحة الإنسان، ثم لم يكن الإنسان مسخرا، بل مختارا، لكان معنى ذلك أن كل ما تعلق بالقضاء المبرم فيما يتعلق بالإنسان يمكن أن يتخلف، فالبحر مسخر لتجري فيه الفلك بأمر الله، ولكن ماذا لو عجز الإنسان عن صناعة الفلك، وقد علمنا أن أحدا غيره لن يقوم له بصناعة ذلك، لا من الملائكة ولا من الجن، بل لابد أن يقوم الإنسان بصناعته بنفسه، ليظهر أثر تسخير البحر له، وهذا لا يمكن أن يتأتى إلا إذا مكنَّ الله لهذا الإنسان صناعة الفلك، وهذا لا يكون إلا بالتيسير والتسخير، وهكذا كل ما يتعلق بالكون من أسباب، والله أعلى وأعلم.

📖 **الدليل الثاني**: ومن الأدلة أيضا على استحالة أن يكون البشر مخيَّرين فيما يتعلق بعلاقتهم بالكون وما يقتضيه من تصرفاتهم، قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾ [الكهف: ٣٩ - ٤١].

وذكر المال والولد إشارة إلى الأسباب المادية التي يتحقق بها ما يصبو إليه الإنسان، ومع هذا فقول هذا المؤمن كما ورد به النص القرآني: {فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ} دليل قطعي على التسيير والتسخير، والهداية والتيسير، وكل ذلك لا يكون إلا بالقدرة الإلهية، واللفظ وإن كان قد ورد على لسان الرجل المؤمن، فهو موافق للأدلة الشرعية، بدليل أن الخالق سبحانه قد ذكره في معرض الاحتجاج، والله أعلى وأعلم.

يقول الإمام الرازي: (وأعزُّ نفراً الأعوانُ والأولادُ كأنهُ يقولُ لهُ: إنْ كُنْتَ ترانِي: أقلَّ مالا وولدًا وأنصارًا فِي الدُّنيا الفانيةِ: فعسى ربِّي أنْ يُؤتِيَنِ خيراً مِنْ جنَّتِكَ إمَّا فِي الدُّنيا، وإمَّا فِي الآخرةِ)[1].

وسواء أكان القول محمولا على أن هذا المؤمن يطمع أن يرزقه الخالق سبحانه بغير الأسباب المادية، إما في الدنيا أو الآخرة، فلا يختلف الحكم، **يقول الإمام النحاس**: (ثم قال جل وعز إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا فعسى ربي أن يؤتين خيرا من جنتك يجوز أن يكون أراد في الدنيا وأن يكون أراد في الآخرة)[2].

وعدم اختلاف الحكم، وأقصد التسيير والتسخير، فلأنه إن كان يتحقق للمؤمن في الدنيا، فهو مؤكد لانعدام الأسباب المادية التي توصل لذلك.

وإن كان في الآخرة فهو دليل كذلك على تدخل القدرة الإلهية، وليس العلم فقط، وذلك بتوفيق هذا المؤمن إلى العمل الصالح حتى يتوفاه الله تعالى ويدخله الجنة، ليتحقق المطلوب من الآية بالعظة والاعتبار.

والتوفيق إلى أن يموت الإنسان على الهداية لا يملكه البشر مطلقا، بل هو توفيق الله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ (يونس: ٢٥).

يقول الإمام عبد الرزاق: (عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ ﴿٢٥﴾﴾ (يونس من الآيه: ٢٥)، قَالَ: «اللهُ هُوَ السَّلامُ، والدَّارُ الجنَّةُ)[3].

[1] تفسير الرازي (٢١/ ٤٦٥).

[2] معاني القرآن للنحاس (٤/ ٢٤٤).

[3] تفسير عبد الرزاق (٢/ ١٧٣).

وأما قوله تعالى: ﴿ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۝ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ۝﴾ [الكهف : ٤٠ - ٤١] ، **يقول الإمام الطبري**: «قوله: {حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ} يقول: عذابا من السماء ترمي به رميا، وتقذف، فتصبح جنتك هذه أيها الرجل أرضا ملساء لا شيء فيها، قد ذهب كل ما فيها من غَرْس ونبت، وعادت خرابا بلاقع، زَلقا، لا يثبت في أرضها قدم لِامْلِسَاسِهَا "أي بسبب أنها ملساء"، وَدُرُوسِ مَا كَانَ نَابِتا فِيهَا، عن **قتادة** {أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا} أي ذاهبا قد غار في الأرض»[1].

وهكذا: كل هذه الظواهر الطبيعية الكونية تنعكس على الإنسان بالتسيير والتسخير لا محالة.

وحتى ندرك ذلك فعلينا أن ننظر إلى الأمر من الناحية الجمعية ـ كما في حياة الأمم ـ وكما يصورها قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ۝ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ۝ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ۝ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ۝﴾ [سبأ : ١٥ - ٢١].

[1] تفسير الطبري (١٨/ ٢٥).

فمن الأمور التي يدركها الجميع والتي تناقلتها كتب التأريخ أن انهيار سد مأرب ـ على سبيل المثال ـ قد أدى إلى أن فقد الناس القدرة على الزراعة وبالتالي انقطعت الأقوات، واضطروا قهرا إلى الهجرة والنزوح في شتى بقاع العالم.

📖 **ولننظر إلى دلالة ذلك:**

حتى لو قيل إن النزوح قد تم بالاختيار التام ـ فإنه لا يسلم لأنهم دفعوا إلى ذلك دفعا، وهذا هو التسيير والتسخير.

وإن قيل إن هذا كان أمرا يتعلق بالجماعة، بينما الأفراد كانوا مختارين، بدلالة اختلاف تصرفاتهم، فمنهم من لجأ إلى النهب والسلب، ومنهم من تحايل ومكر بالآخرين ليستحوذ على ممتلكاتهم، وكذلك منهم من قام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأيضا التعاون على البر والتقوى، في هذه المحنة والكارثة.

☜ **فجواب ذلك**: أن كل ذلك نشأ بسبب الأمر الكوني القهري الملجيء إلى الحركة والتصرف على نسق يغاير ما كانوا يعيشون فيه وعليه، وقد يكون هذا الأمر القهري التسخيري لتقوم الحجة على من ألم بهم الفجيعة، فيكون مختارين بعدها، إلى حين، مصداقا لقوله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنفال: ٣٧].

وليس هذا وفقط: بل قد يكون بعض الناس مخيرا وبعضهم ميسرا ومسيرا، وبعض آخر مسخرا، لينفذ مراد الله تعالى، على وفق ما أراد.

وقد تكون المصائب العامة سببا لدفع أهل العلم للبحث والاجتهاد، ليتعلموا كيف يواجهون مثل هذه الكوارث.

وقد تكون مثل هذه الكوارث الكبرى، ومنها الجفاف، محتمة الوقوع، لأن عددا كبيرا من الناس قد قدر عليه الموت، مع اختلاف صور الموت، وإن كانت كلها قد نشأت بسبب الجفاف وانعدام الأقوات، ولا يمكن أن يكون أمر الموت إلا بالقضاء المبرم الذي لابد منه من تدخل القدرة الإلهية.

☜ **وقد يكون كذلك**: أن شاءت إرادة الله تعالى انتقال بعض هؤلاء الناس إلى أماكن أخرى ليعمروها، أو غير ذلك، والله أعلى وأعلم.

وكم هو غريب أمر هؤلاء الذين قالوا بمسألة العلم الكاشف وحده، وكأن الإنسان عبارة عن كيان مستقل، كل فرد على حده، لا يتأثر بغيره، ولا بالكون الذي يعيش فيه، وكل هذا في غاية البطلان.

فمن المعلوم أن حركة الكواكب والنجوم تؤثر في حياة البشر، من حيث نزول المطر، ونمو المزروعات المختلفة، وتحول الأرض من الجدب إلى الخصوبة، وسهولة العيش، أو انعدام القوت، وما يستتبعه ذلك من تصرفات قهرية للناس.

وكذلك حركة المد والجزر وتآكل السواحل وتعذر الإقامة والعيش في بعض الأماكن بعد أن كانت عامرة، مما يقهر الإنسان على تصرفات، لم تكن لتخطر له على بال.

وغير ذلك من الأسباب العديدة، كالأمراض، والآفات وغير ذلك، مما لا يحدث إلا بقدر.

ويترتب على هذا أن كل إنسان سيتجه وجهة لابد أن تبلغه وتوصله إلى قضاء محتم مكتوب، وكل ذلك لا يمكن أن

يوجد إلا بالتسيير والتسخير، أي بالقدرة الإلهية، ولا يجوز بحال أن يكون بالعلم وحده، والله أعلى وأعلم.

☜ **وهكذا**: فليست حياة الناس موقوفة على تصرفاتهم، بل إنها محكومة بحركة الكون كله، هذه الحركة لا يملكها إلا الله تعالى، ولولا هذا لهلك من على الأرض جميعا، لو اختل نظام الكون ولو للمحة بصر، فكيف يكون القضاء والقدر مرهونا بالعلم الكاشف وحده؟؟؟

وإذا كان كل القائلين بالتخيير، يقرون أن كل ما في الكون مسخر ومسير لمراد الله تعالى، كما يشير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فُصِّلَت: ١١].

ومع هذا فإنهم غفلوا عن أن حياة البشر مرهونة أيضا بحركة الكون، وليس فقط ما يتعلق بأقواتهم وأرزاقهم، وهذا يؤكد أن أي طرف من سائر المخلوقات لو امتلك التخيير التام، لما أمكن القطع بقضاء وقدر قط، وهذا طعن في العقيدة، وتعطيل للنصوص الشرعية، والعياذ بالله.

ولو تأملنا دليلا ـ من أدلة لا حصر لها ـ لأدركنا ذلك يقينا، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ [الإِسْرَاء: ١٢].

إن أي خلل في حركة الليل والنهار، قد يترتب عليه هلاك أناس أو أقوام، ولا يعلم ذلك إلا الله، فإن من رحمة الله تعالى أن النبات في النهار يتنفس ثاني أكسيد الكربون ويخرج الأكسجين، ولولا هذه العملية لهلك الناس ـ أو الكثير منهم ـ

بسبب نقص الأكسجين في الجو، فهل سخر الله كل هذا من أجل البشر، ثم ترك هؤلاء البشر عبثا يهلكون أنفسهم، بسبب جهل منهم أو عجز، أو كِبر، أو غير ذلك، مما يستلزمه التخيير؟

إن مثل هذا القول لهو من أبطل الباطل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

📖 **الدليل الثالث**: ومن الأدلة أيضا، التي تقطع بأن الأمور القدرية المجمع عليها لا يمكن أن تنضبط أبدا لو ترك للناس التخيير فيما يحاسبون عليه، ومما يبين هذا المعنى ويؤكده قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ٣٤﴾ [لُقْمَان : ٣٤].

تبين هذه الآية الكريمة اختصاص الخالق سبحانه وتعالى بمسائل غيبية، ترتبط بالقضاء والقدر المبرم المحتم المتعلق بحياة الناس، ويستحيل تحقق ذلك بالعلم الكاشف وحده، بل لابد من القدرة الإلهية.

ومع ملاحظة أن الآية الكريمة قد علقت المذكورات فيها بالعلم حيث قال سبحانه معقبا {إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}، ومع هذا توجد أدلة لا حصر لها، تثبت أن هذه الأمور الغيبية المذكورة ليست متعلقة بالعلم وحده، بل بالقدرة الإلهية أيضا.

📖 **وبيان ذلك فيما يلي :**

أما علم الساعة: فليس متعلقا بالعلم وحده، بل أيضا بالقدرة الإلهية، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ٧٣﴾ [الأَنْعَام : ٧٣].

فقوله تعالى: {وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ}، دليل مؤكد على القدرة الإلهية، ولا يماري في ذلك أحد.

وكذا قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزُّمَر : ٦٨].

ومن المؤكد أنه لا يوجد من يقول إن أمر النفخة قد كُتب وكشفه العلم، بل هي القدرة الإلهية لا محالة.

ونزول الغيث وإحياء الأرض وما يترتب عليه من حركة البشر، وتصرفاتهم لإعداد الأرض للزراعة، وإحيائها، ولو شاء الله لانقطع المطر، وتصحرت الأرض، وهجرها أهلها كما سبق وبينا.

ويؤكد قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فُصِّلَت : ٣٩]، أن كل ذلك يتم بالقدرة الإلهية، فقد نسب الخالق سبحانه إحياء الأرض إلى نفسه، مما يدل على أن حركة البشر في هذا الإحياء إنما هي بالتيسير والتسيير والتسخير، كما أسلفنا، وإن كان هذا لا يمنع من وجود جزئي للتخيير، والله أعلى وأعلم.

وكذا علم ما في الأرحام، ليس علما كاشفا وحسب، بل هو القضاء والقدر المحتم الذي لا يقع إلا بالقدرة الإلهية، كما في قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًاۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشُّورَى : ٤٩ - ٥٠].

وهذا نص قطعي الدلالة على تعلق ذرية البشر بالقدرة الإلهية وليس بالعلم الكاشف فقط، ولو كان الأمر بالعلم وحده

لانعدمت دلالة المشيئة في الآية، وهذا قوله في غاية البطلان، ونعوذ بالله من ذلك.

📖 **ومعنى المشيئة يقتضي التسيير والتسخير، كما يمكن أن نتخيله أو نفهمه كما يلي:**

أن أمر الزواج هو أمر قدري، قدره الخالق سبحانه ويسخر له من يقوم به قضاؤه وقدره، فلا يمكن أن يكون النسل مرهونا بالصدفة، أو كما يقال بالعادة والاتفاق، لأن كل مولود قد سبق به القضاء والقدر لا محالة.

ولا يمنع ذلك أن يوجد اختيار جزئي، ويترتب عليه العقم، مثلا، أو عدم اكتمال الجنين، أو غير ذلك.

لكن المقطوع به أن كل مولود يولد لأبوين معينين، ما يمكن أن يوجد لغيرهما، لأن القضاء قد سبق على وجه التفصيل والكيفية، وليس الوجود فقط، مما يقتضي تعيين الوالدين، والله أعلى وأعلم.

ولعل مما يؤكد هذا ما نشأت عليه البشرية منذ عصرها الأول ـ آدم وحواء ـ وما ترتب عليه من توأمة الحمل، من ذكر وأنثى، **يقول الإمام الطبري**: (عن السدي فيما ذكر، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ: وكان لا يولد لآدم مولود إلا ولد معه جارية، فكان يزوّج غلام هذا البطن، جارية هذا البطن الآخر، ويزوج جارية هذا البطن، غلامَ هذا البطن الآخر)[1].

ويقول الإمام الثعلبي: (وكان آدم إذا شبّ أولاده تزوّج غلام هذا البطن جارية البطن الآخر وتزوج بجارية هذا البطن غلام البطن

[1] تفسير الطبري (١٠/ ٢٠٦).

الآخر وكان الرجل منهم يتزوّج أي أخواته يشاء إلا توأمته التي ولدت معه فإنها لا تحل له، وذلك أنه لم يكن يومئذ نساء إلا أخواتهم وأمهم حوّاء)[1].

وما كان ذلك ليتم إلا بالقدرة الإلهية، ومحال أن يكون بالعلم وحده.

وإن قيل إن هذا كان بسبب بداية الخلق، فيجاب عنه بأن هذا يؤكد ما نقول ولا ينفيه، بمعنى أن حياة الأفراد، فيما بينهم لا يمكن أن تنضبط ويكتب لها البقاء، كما أراد الله تعالى، إلا بتدخل القدرة الإلهية في تصرفات البشر، والله أعلى وأعلم.

وأما قوله تعالى: {وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ}، فهو غيب ولكنه قائم بالبشر، ويترتب عليه بالضرورة التسيير والتسخير.

📖 **يقول الإمام الماوردي**: (قوله تعالى: {وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ} **فيه وجهان**:

📖 **أحدهما**:

على أي حكم تموت من سعادة أو شقاء، حكاه النقاش.

📖 **الثاني**:

في أي أرض يكون موته ودفنه وهو أظهر.

عن أبي عزة الهذلي قال: قال رسول الله ﷺ: "إِنَّ اللّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا أَرَادَ قَبْضَ رُوحِ عَبْدٍ بِأَرْضٍ، جَعَلَ لَهُ فِيهَا، أَوْ قَالَ: بِهَا حَاجَةً"[2]، ثم قرأ ﷺ: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ} إلى قوله: {بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ})[3].

---

[1] تفسير الثعلبي (٤/ ٤٩).

[2] مسند أحمد (٢٤/ ٣٠١).

[3] تفسير الماوردي (٤/ ٣٥٠).

وهكذا يبين الحديث الشريف وجها من أوجه التسيير والتسخير، حيث يدفع القضاء والقدر صاحبه، ليتحرك ويتصرف تماما كما هو مكتوب، وقد تكون هذه التصرفات لم تخطر له على بال من قبل، وهكذا هو التسيير والتسخير، والله أعلى وأعلم.

غرق السفينة والقضاء والقدر

علمنا بنص الحديث الشريف أن غرق السفينة متعلق بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولما كان غرق السفينة معناه هلاك من عليها، كما دل عليه الحديث، فإننا ندرك ومن خلال الأدلة التي سقناها، أن هذا لا يمكن أن يتحقق إلا بالقدرة الإلهية، التي يستلزمها القضاء المبرم المحتم، والذي لا يمكن أن يتحقق بالعلم الكاشف وحده، والذي لا تأثير له في الموجودات، بل هو يكشف عنها فقط.

ولكن مسألة غرق السفينة، وهلاك من عليها، يقتضي أن يجتمع على ظهرها كل من ارتبط موته بغرق السفينة، ولو ترك ذلك للتخيير التام لما تحقق ذلك، ولهذا فلابد من التسيير والتسخير، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأَعْرَاف : ٣٤].

والأمر المتيقن أن غرق السفينة يمكن أن يتقدم أو يتأخر إن كان مرهونا بالتخيير، وقد نصت الآيات، والأدلة أن ذلك مستحيل، ومن هنا علمنا أنه لابد من تدخل القدرة الإلهية، بالتسيير والتسخير، وذلك لاجتماع من كتب عليه الغرق والموت، وكذلك ليكون الغرق في نفس البقعة التي سبق بها القدر المحتوم.

وكل ذلك يتحقق كما دل عليه الحديث بوضوح أن اللّه عز وجل يخلق الدافع في نفوس الأفراد، حتى يقوموا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى تسلم السفينة من الغرق، ولا يمكن أن يتركوا ذلك أبدا إلا إذا انتفى الدافع لديهم، أو غفلوا عن رسالتهم

تلك، ويكون ذلك منضبطا تماما بالقدر المحتوم، الذي يترتب عليه غرق السفينة، وهلاك من فيها، والله أعلى وأعلم.

وهكذا نتحقق وبيقين تام أنه يستحيل أن يتعلق القضاء والقدر بالعلم الكاشف وحده، بل لابد من القدرة الإلهية، التي يتحقق بها التسيير والتسخير، والله أعلى وأعلم.

التسخير والثواب

لعل مما يلبس الأمر على كثير من العقول، وتعجب له أن الله عز وجل هل يسخر الناس إلى العمل الصالح الذي يؤجرون عليه؟

والذي يغلب على الظن أن المقادير لا تجري هكذا، وكأنها محددات خالصة، أو مسائل حسابية، لا تداخل فيها بين حال وحال، بل الأقرب إلى العقل أن الأمر ليس بهذه البساطة والسهولة، بل إن الأمر الواحد قد يجتمع فيه التخيير والتسيير، وكذا الهداية والتسخير، وكل ذلك لا يعلمه إلا الله، ولكن كما قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [التوبة: ١٠٥]، ولهذا فالعاقل هو الذي ينصرف إلى العمل كما أمره الله تعالى، دون أن ينشغل بما يعجز العقل عن استيعابه، من جهة هل هو مخير في هذا العمل أم مسير أم هما معا، فلا يملك هذا إلا الخالق سبحانه، ولهذا استعبدنا الله بالعمل، وليس بهذه القضايا.

وأما ما نقوم به في هذا الصدد فالقصد منه تصحيح خطأ شاع على ألسنة الناس، وكذلك فهم النصوص الشرعية، فهما صحيحا، تعظيما لقدر الخالق عز شأنا بقدر ما تطيقه عقولنا.

وكل هذا استدلالا بنصوص الشرع، من القرآن الكريم والسنة المطهرة، والتي تنفي نفيا قاطعا المعنى الذي يقول به أهل التخيير، والذي يتنافى بالكلية مع الإيمان بمقام الألوهية الحق.

ولتقريب المسألة ننظر في قوله تعالى: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ (الحج: ٧٤)، ونفهم من الآية الكريمة أن الخلق مهما بلغوا من علم وقدرة تمكنهم من الاطلاع على بعض الحقائق الكونية، فإنهم أبدا لن يقدروا الله حق قدره، لأن ما علموه من

حقائق الكون هو أقل القليل، فإذا كان هذا القليل الذي اطلعوا عليه معجزاً إعجازا يفوق كل طاقات البشر، فكيف بما غاب عنهم، وهو الأكثر كثيرا مما علموه، وكأن الخالق سبحانه يلفت أنظار الخلق إلى هذه الحقيقة بقوله عز من قائل: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ (غافر: ٥٧)، وقد يدرك بعض الناس بعض حقائق خلق البشر، لأن فهم جوهر الإنسان"[1] مقدور عليه بالنسبة لعامة البشر، من جهة الإحاطة المادية به، وبكل أجزاء جسده، ومع هذا يعجز الخلق جميعا، ولو اجتمعوا عن الإحاطة بهذا الجسد علما، حيث يقول تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فُصِّلَت : ٥٣].

ومن هنا: ندرك كيف نتعامل مع نصوص الشرع، والتي تعجز العقول عن الإحاطة بفهمها، وما ذلك إلا لأن الإنسان، بل البشر جميعا، أحقر من أن يحيطوا بحكمة الله في خلقه، بل إن ما يعلمونه هو أقل القليل، ولو أدركوا هذه الحقيقة لتأدبوا، عند تناول الحقائق الغيبية واكتفوا من علمها بما تنبئ عنه النصوص الشرعية.

ومن ذلك الحكمة من التيسير والتسخير، ولماذا يخص الخالق ﷻ بعض الناس بالهداية، وبعضا آخر بالضلال، دون أن ندرك الحكمة الكاملة من التفريق بين الصنفين، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القَصَص : ٥٦].

[1] جوهر الإنسان: التركيب الجسدي والصفات الخلقية وغيرها.

يقول الإمام الطبري: (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: {إِنَّكَ} يا محمد {لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ} هدايته {وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ} أن يهديه من خلقه، بتوفيقه للإيمان به وبرسوله، ولو قيل: معناه: إنك لا تهدي من أحببته لقرابته منك، ولكن الله يهدي من يشاء، كان مذهبا {وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} يقول جل ثناؤه: والله أعلم من سبق له في علمه أنه يهتدي للرشاد، ذلك الذي يهديه الله فيسدده ويوفقه، وقوله: {وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} يقول: وهو أعلم بمن قضى له الهدى)[1].

ومن أدق ما قيل بيانا لعجز البشر عن الوصول إلى مكامن الحكمة الربانية بتمامها، ما روي عن هذه المناظرة بين كل من **الشيخ أبي الحسن الأشعري وأبي علي الجبائي المعتزلي**: يقول ثلاثة إخوة أحدهم كان مؤمنا برا تقيا والثاني كان كافرا فاسقا، والثالث كان صغيرا فماتوا، كيف حالهم؟

فقال الجبائي: أما الزاهد ففي الدرجات، وأما الكافر ففي الدركات، وأما الصغير فمن أهل السلامة، **فقال الأشعري**: إن أراد الصغير أن يذهب إلى درجات الزاهد هل يؤذن له؟

فقال الجبائي: لا، لأنه يقال له: إن أخاك إنما وصل إلى هذه الدرجات بسبب طاعاته الكثيرة، وليس لك تلك الطاعات، **فقال الأشعري**: فإن قال ذلك الصغير: التقصير ليس مني، فإنك ما أبقيتني ولا أقدرتني على الطاعة، **فقال الجبائي**: يقول الباري جل وعلا: كنت أعلم أنك لو بقيت لعصيت وصرت مستحقا للعذاب الأليم، فراعيت مصلحتك، **فقال الأشعري**: فلو قال الأخ الكافر: ياإله العالمين، كما علمت حاله فقد علمت حالي، فلم راعيت

[1] تفسير الطبري (١٩/ ٥٩٨)، وما بعدها.

مصلحته دوني، فانقطع الجبائي - يقصد لماذا لم يمته الله صغيرا حتى لا يكفر ويدخله الجنة كما أدخل أخاه الصغير - وهذه المناظرة دالة على أن الله تعالى خص من شاء برحمته، وخص آخر بعذابه، وأن أفعاله غير معللة بشيء من الأغراض، أو الأعراض)[1].

وليس من شك في أن هذه المناظرة ليست في حاجة إلى إثبات لأن ما ورد فيها يدركه الناس جميعا، وأن الشرع قد رفع التكاليف الشرعية عن الصغير حتى يبلغ، حتى وإن كان مميزا قبل البلوغ، وكل هذا رحمة من الله تعالى، ولا يمكن أن يحيط الناس بواسع حكمته في كل ذلك، مع أنه يدل قطعا على معاني التسيير والتسخير بوضوح شديد.

📖 **والذي أهدف إليه**: أنه على الرغم من ترتب الثواب والعقاب على الهداية وعدمها، إلا أن ظاهر الآيات يدل على أنها ليست خالصة للبشر - بمعنى أنهم ليسوا مخيرين تخييرا تاما - بل الهداية معلقة بالتوفيق والتيسير، ولا يملك ذلك إلا الله جل في عليائه، حتى وإن عجزت العقول عن استيعاب ذلك.

ولكن يمكن أن نقرب الفهم، من خلال النصوص، كما في آية الميثاق التي سبق الاستدلال بها، وكذا قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [اللَّيْل: ٥ - ١٠].

والخالق سبحانه وتعالى غني عن ظلم العباد، ولهذا يمكن أن نفهم أن الحجة قد قامت على المكلفين، من خلال ما قاموا به من عمل، باختيارهم التام، فكفاهم هذا عند الله تعالى، فكانت الثمرة أن يسر سبحانه أهل الصلاح للخير والهداية والتوفيق، وأما

[1] وفيات الأعيان (٤/ ٢٦٨).

أهل المعصية فزين لهم سوء أعمالهم، ليكون مآلهم والعياذ بالله إلى سوء العاقبة، والله أعلى وأعلم.

وهكذا يفهم معنى تيسير وتسيير الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر، ليقوموا بهذا العمل الصالح الذي يؤجرون عليه، وما ذلك إلا بما علمه الله من حقيقة قلوبهم، التي لا يطلع عليها إلا هو سبحانه وتعالى، وكفى بالله حسيبا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ۝٤٠﴾ [النِّسَاء: ٤٠].

📖 **وما أجمل ما ورد في الأثر**: (**عن مَنصُورِ بْنَ عَبْدِ اللهِ قال: سَمِعْتُ أَبَا الْعَبَّاسِ بْنَ عَطَاءٍ يَقُولُ**: "تولدَ ورَعِ المُتورّعِينَ مِنْ ذِكْرِ الذَّرَّةِ، وَالخَرْدلَة، وَأنَّ رَبَّنَا الذِي يُحَاسَبُ عَلى اللّحظة وَالهَمْزةِ وَاللّمْزةِ لمُستقصٍ فِي المُحَاسَبَة، وَأشَدُّ مِنْهُ أنْ يُحَاسِبَهُ عَلى مَقَادِيرِ الذَّرَّةِ وَأوْزَانِ الخرْدَلة، وَمَنْ يَكُنْ هَكَذَا حِسَابُهُ لحَرِيٌ أنْ يُتقَى"[1].

وبذلك تستقيم أحوال الخلق، دون أن تكون متوقفة على مشيئة العباد، بل إن مسألة التسيير والتسخير، أدلُ على عظمة الخالق، وعزته وسلطانه جل جلاله، مما لو قيل بمسألة التخيير، تلك التي قال بها القائلون، والتي خضعوا فيها لمقتضيات العقول، دون الجمع بين دلالات النصوص، كما قال بها السلف الصالح، والله أعلى وأعلم.

ومن هنا ننتقل إلى:

---

[1] شعب الإيمان للبيهقي (١/ ٤٥٩).

الزلازل والقدر المحتوم

على ضوء ما بيناه بالنسبة لركاب السفينة، ومسألة التيسير والتسيير، وقيامهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومتى يتوقف، وتغرق السفينة، ويهلك الناس، كما هو مقدر أزلا، دون تبديل ولا تغيير، كذلك هي كارثة الزلازل، وما شابهها من الكوارث العامة، كالأعاصير، والبراكين، وغير ذلك، من الكوارث والمصائب العامة، التي لا تخرج عن هذا المعنى الذي ذكرناه، وبيان ذلك فيما يلي:

🕮 متى يحدث الزلزال:

ترجع أساب حدوث الزلازل - بصفة خاصة - إلى عوامل طبيعية، وقد تتأثر بالعوامل البشرية أيضا - على نحو ما ذكر بعض أهل العلم.

🕮 أما العوامل الطبيعية:

فما يهمنا منها هو أنها محكومة بقوانين ونواميس كونية، أحكم الله - جل شأنه - بها نظام الكون وما فيه، كما تشير النصوص القرآنية ومنها قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنبياء: ٣٠ - ٣٣]، وقوله عز وجل: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾

لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٣٧ - ٤٠].

وكذا قوله تبارك وتعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾ [المُلْك: ١٦ - ١٧].

وغير ذلك من الأدلة كثير، والتي تدل على إحكام نظام الكون وضبطه.

ويمكن أن نقول إن الله عز وجل قد ضبط أسباب الكون أزلا لتقع هذه المصائب على النحو الذي قدره في المكان والزمان، تماما كما ينزل المطر، وتتحرك الجبال، وغير ذلك من الظواهر الكونية التي يطلع عليها، ويمكن أن يسبر العلم بعض أغوارها.

وهكذا يفهم أن هذه الظواهر مسخرة تماما لمراد الله تعالى، ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤].

والأدلة كثيرة ومتعددة على ذلك.

وأما كيف يرتبط التسخير بأقدار البشر، فيمكن فهمه تماما كما سبق بيانه، بالنسبة لسلامة السفينة وغرقها.

وذلك أن الله عز وجل يخلق الدافع ـ التسيير والتسخير ـ في نفس كل من قدر عليه أن يموت بهذه المصيبة في زمانها ومكانها تماما.

وبالمقابل سيكون هذا أيضا هو حال من وجد في المكان ولم يكتب عليه الموت، فيخلق الله له حاجة في مكان آخر بعيد عن موطن الهلاك، ليدفعه إلى مغادرة المكان، وهذا هو التسيير والتسخير.

أو أن ينجو حتى ولو كان في نفس بؤرة الزلزال، ومن أعجب ما نقل ورأته الأعين، هذه القصة التي تبين بيقين مسألة الأقدار وتعلقها بالتسيير والتسخير، أو القدرة الإلهية، وليس العلم وحده، روي: أنه بعد أن انتهت فرق الإنقاذ في بعض مناطق الزلزال من البحث عن الناجين والجثث، وبعد أن يئسوا من وجود ناجين أحياء تحت الأنقاض، وبخاصة بعد التأكد من أن البيت المذكور لم يكن فيه أحد غير من عثر عليهم، وهكذا توقفت عملية الإنقاذ وبدأت عملية إزالة الأنقاض، **ولكن حدث أمر عجيب**:

كلما أراد فريق العمل التحرك لإزالة الأنقاض في أحد الجوانب توقفت الآلات عن العمل، وهكذا تكرر الأمر ثلاث مرات متتابعة، وهنا قال أحد القائمين بالأمر لابد أن نوقف عمل الأجهزة في المنطقة كلها لنتبين الأمر، وبعد توقف أصوات الآلات تماما، إذا بهم يسمعون صوت أنين في هذا الجانب الذي توقفت فيه آلات العمل، وتم انتشال جثتين وإنقاذ اثنين آخرين، فلما سألوا مرة أخرى علموا أن أسرة جاءت بالأمس ليلا، ولم يعلم بمجيئهم أحد من الموجودين، وهذا هو السبب في عدم توقف أحد للبحث عنهم، وهكذا أنقذ اثنان، وسبحان رب العزة والملكوت"[1].

[1] والقصص المشابهة بالصوت والصورة على اليوتيوب وبأعداد كثيرة، وسبحان الله العظيم.

وهكذا ترتبط هذه الظواهر الكونية بالمقادير، والله أعلم.

📖 **تدخل العوامل البشرية :**

وأما فيما يقع من مصائب عامة ويتدخل فيها البشر، سواء أكان بالتأثير الذي يعجل أو يساعد على وقوع الزلازل والبراكين وغيرها أم كان بالأسلحة التي تسبب دمارا شاملا، فيجاب عن كل ذلك بما يلي:

📖 **وهذه ينظر إليها من جهتين :**

الجهة الأولى : جهة التسبب.

الجهة الثانية : جهة الأثر المترتب.

📖 **أولا ، جهة المتسببين في وقوع الكارثة، أو التعجيل بوقوعها :**

ومن الأمور المستقرة عقلا أن ذلك لا يتحقق إلا بنوع قدرة تفوق استطاعة الأفراد ، بل تحتاج إلى أنظمة كبرى تتبنى مثل هذه القدرات من الجهة المادية ومن الجهة العلمية.

وإذا ما استحضرنا أن كل هذه الطاقات إنما توظف لتحصد حياة الناس، مع علمنا أن الخالق سبحانه هو الذي يملك وحده أمر الموت والحياة.

📖 **ومن خلال هذه الحقيقة، يمكن أن نفهم جانب المتسبب على النحو التالي :**

جريان الأمور بحسب أقدار الله تعالى يقتضي أن تتوفر القوة المادية والقوة العلمية، وهذا لا يمكن أن يكون ممكنا بإرادة البشر المنفردة، أي اختيارهم التام، لأن معنى ذلك أنهم قد ينجحون في توفير ذلك أو يعجزون، وكما أكدنا أن الأقدار لو توقفت على العلم الكاشف وحده، لكان معنى ذلك أن تكون

مشيئة الله تابعة لمشيئة الخلق وهذا القول بينا بطلانه وفساده من كل وجه.

وعلى هذا: فلا يمكن أن تقع هذه الكوارث التي تتعلق بالعامل البشري إلا بتسخير وتسيير من الخالق سبحانه، حتى تتوفر القوة المادية والقوة العلمية، وسوف نزيد هذا الجانب تفصيلا في نقطة تالية بإذن الله تعالى.

🕮 **أما ما يثار على بعض الألسنة من تعجب، كيف يسخر الله العصاة والظلمة ويعطيهم ما يتمكنون به من ظلم العباد، ومنهم كثير من أهل الطاعة؟**

☜ **فيجاب عن ذلك**، بأن الدنيا دار ابتلاء، وليست دار بقاء، وأن وقوع المصيبة سيتحقق سواء بتدخل البشر أم بعدم تدخلهم، وما هي إلا مجرد أسباب، ليست فاعلة بذاتها ولكنها جنود الله تعالى يوظفها كيف يشاء، **وهذه أيضا سنتناولها بمزيد تفصيل بإذن الله تعالى.**

وهكذا نقطع بتدخل القدرة الإلهية في تسخير الجانب المتسبب، والله أعلى وأعلم.

🕮 **ثانيا، جهة المتأثرين:**

وأقصد من ستقع عليهم المصيبة، بالموت، أو الابتلاء، وهؤلاء ـ أيضا ـ محكومون بقدر الله تعالى، مصداقا لقوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١١﴾ [التَّغَابُن: ١١].

والمعنى كما يبينه الإمام الفراء: (يريد: إلا بأمر الله)[1]، والإرادة - أمر الله - تقتضي القدرة، وذلك يكون بالتسيير والتسخير.

وهكذا يتحقق خلق الدوافع في النفوس، كما سبق بيانه في الحديث الشريف، ولا يمكن أن يعترض على ذلك بأن مثل هذه المصائب قد تحصد آلافاً أو ملايين، فإن الله عز وجل لا يعجزه شيء، ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر: ٤٤].

وهكذا نرى كيف ترتبط المصائب والكوارث بالأقدار، والتسيير والتسخير، والله أعلى وأعلم.

---

[1] معاني القرآن للفراء (٣/ ١٦١).

القضاء والقدر وتعلقهما بالأفراد والجماعات

كان من أثر تناول كارثة الزلزال أن تنبهت إلى مسألة تصرفات الأفراد، وتصرفات الجماعة ـ وأقصد بها الأنظمة التي تسوس أمر الجماعة ـ وتأثر كل منهما بالآخر، وكيف يختلف الأداء الجماعي المنظم، في مواجهة وعلاج الآثار المترتبة على مثل هذه الكوارث، عن الأداء الفردي، مهما كثر عدد الأفراد.

ولم أكن قد تعرضت لذلك بصورة مقصودة، بل فقط ما كانت تحمله الأدلة من إشارات، دون تخصيص لهذا الأمر بالذكر، على الرغم من أهميته الكبرى، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

🕮 التخيير والتسخير ونذارة المرسلين:

حضرني من المعاني ما جعلني أوقن أن مسألة التسيير والتسخير تختلف من حال الفرد وحال الجماعة، وإن كان لا غنى عنها، لكل منهما، ولكن هل يكون ذلك قادحا في رسالة المرسلين، والتي تقتضي ـ كما تؤدي إليه العقول ـ أن يكون للأفراد مطلق الإرادة والاختيار التام فيما يقابلون به دعوة المرسلين، وهذا ما سنتعرض له بتوفيق الله تعالى فيما يلي:

التخيير وقيام الحجة على العباد

شاءت إرادة الخالق سبحانه أن يقيم الحجة على عباده، في حياتهم وتصرفاتهم، بأنه الإله المعبود بحق، ولا معبود بحق سواه، ومع هذا لم يحاسبهم بموجب الميثاق الذي أخذه عليهم، وعلى الخلق جميعا، وكفى به حجة، ولكن رحمة منه سبحانه أن أرسل إليهم الرسل، وترك لهم حرية الاختيار، قطعا لأي حجة لهم أمامه عز وجل عند الحساب، كما في قوله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ١٦٥﴾ [النِّسَاء: ١٦٥].

☜ **ومع هذا:** فلا يوجد دليل واحد أن قيام الحجة يقتضي التخيير التام، بل إن كل الأدلة تقطع بأن الحجة، تقوم بما يعلم الله تعالى أنها قامت به، وبهذا تكون المساءلة والحساب، وفق مشيئته وإرادته سبحانه.

ولو كانت الحجة لا تقوم فيما يعجز العقل عن إدراكه، لانتفى تماما مفهوم العبودية، ولأصبح إيمان الناس قهرا، لأن هذا يقتضي أن تكون جميع التكاليف الشرعية، التي لا تقوم العبودية إلا بها، في متناول فهم البشر جميعا، وإدراكهم التام للحكمة منها، وهذا غير صحيح، لأن الكثير من حكمة التشريع لا تحيط بها العقول، وإن أدركت جزءا منها"[1]، وليس أدل

[1] ومن أمثلة ما تعجز العقول عن إدراك الحكمة منه، بعض مسائل المواريث، واختلاف ميراث الإخوة الأشقاء، عن ميراث الإخوة لأم، حيث جعل للذكر ضعف الإنثى بالنسبة للأشقاء، بينما ساوى بين الذكر والأنثى بالنسبة للإخوة لأم.

على ذلك من معجزات الرسل التي لم يملك معها أهل الإيمان إلا التسليم، كما في معجزة الإسراء والمعراج، ووجوب تصديق الرسول ﷺ في كل ما أخبر به عن ربه جل في علاه، **يقول الإمام الطبري**: (فكل موجود إلى وَحدانيته داع، وكل محسوس إلى رُبوبيته هاد، بما وسَمهم به من آثار الصنعة، من نقص وزيادة، وعجز وحاجة، وتصرف في عاهات عارضة، ومقارنة أحداث لازمة، لتكونَ له الحجة البالغة، ثم أرْدف ـ سبحانه ـ ما شهدتْ به من ذلك أدلته، وأكد ما استنارت في القلوب منه بهجته، برسلٍ ابتعثهم إلى من يشاء من عباده، دعاةً إلى ما اتضحت لديهم صحّته، وثبتت في العقول حجته، {لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} وليذَّكَّر أولو النهي والحلم، فأمدَّهم بعوْنه، وأبانهم من سائر خلقه، بما دل به على صدقهم من الأدلة، وأيدهم به من الحجج البالغة والآي المعجزة، فجعلهم سفراءَ بينه وبين خلقه، وأمناءه على وحيه، واختصهم بفضله، واصطفاهم برسالته، ثم جعلهم ـ فيما خصهم به من مواهبه، ومنّ به عليهم من كراماته ـ مراتبَ مختلفة، ومنازل مُفترقة، ورفع بعضهم فوق بعض درجات، متفاضلات متباينات)[1].

ولقد كانت أعظم معجزة للرسل جميعا، هي القرآن الكريم، الذي قطع الله به الحجة على البشر جميعا، بعد رسول الله ﷺ، وحتى تقوم الساعة، ومع هذا فلن يحيط البشر ــ وإن اجتمعوا على قلب رجل واحد ــ لن يحيطوا بتمام حكمته البالغة، كما بينها تبارك وتعالى في كتابه الكريم، وخير

[1] تفسير الطبري (١/ ٣).

شاهد على هذا قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ٨٢].

يقول الإمام الماتريدي: (كذلك الناس: خلقوا من آدم - عليه السلام - فينزل عليهم من السماء تذكرة واحدة؛ فترق قلوب، فتخشع وتخضع، وتقسو قلوب، فتسهو وتلهو وتجفو، أو كلام نحوه، ثم قال الحسن: والله؛ ما جالس القرآن أحدٌ إلا قام من عنده بزيادة أو نقصان، ثم تلا قوله: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا})[1]، ومما لا شك فيه أن الزيادة والنقصان تأثير لا إرادي ولا اختيار للإنسان فيه، بل هي حالة تنشأ عنها تصرفات، أقرب ما تكون إلى التيسير والتسخير، كالإلهام والخواطر.

☜ **يقول الإمام القرطبي**: (**اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي كَوْنِهِ شِفَاءً عَلَى قَوْلَيْنِ**: **أَحَدُهُمَا**: أَنَّهُ شِفَاءٌ لِلْقُلُوبِ بِزَوَالِ الْجَهْلِ عَنْهَا وَإِزَالَةِ الرَّيْبِ، وَلِكَشْفِ غِطَاءِ الْقَلْبِ مِنْ مَرَضِ الْجَهْلِ لِفَهْمِ الْمُعْجِزَاتِ وَالْأُمُورِ الدَّالَّةِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، **الثَّانِي**: شِفَاءٌ مِنَ الْأَمْرَاضِ الظَّاهِرَةِ بِالرُّقَى وَالتَّعَوُّذِ وَنَحْوِهِ)[2]، ومن الحقائق التي يغفل عنها الناس: أن الأمراض وما في معناها تدفع الإنسان إلى تصرفات، ما كان ليقوم بها لولا المرض، مع أنها في ظاهرها بالاختيار التام، ولكن الحقيقة ليست كذلك، وكذلك تعطله عن أمور كان سيقوم بها لولا المرض، وكل ذلك تترتب عليه نتائج لا حيلة للمريض في شيء منها، إلا القليل، وكل هذه الأمور ما هي إلا الأقدار، التي

[1] تفسير الماتريدي (٦/ ٣٠٨).

[2] تفسير القرطبي (١٠/ ٣١٦).

يجريها الخالق سبحانه على الناس، وتقع بفعلهم وتصرفاتهم، التي في ظاهرها الاختيار التام، وفي حقيقتها التيسير والتسخير، والله أعلى وأعلم.

وهكذا يكون القرآن الكريم شفاء ورحمة، دون أن تدرك العقول المجردة الحكمة بتمامها، بل لابد من الإيمان والتسليم، فينشرح القلب والعقل لتتنزل الشفاء والرحمة والبركة على أهل الإيمان، بينما أهل الضلال تعمى قلوبهم، وتعجز عقولهم عن تلقي هذه المعجزات، بسبب صدهم، ومكابرتهم وعنادهم، مع أن آيات الكتاب التي تنزلت على كل من الطرفين واحدة، فهل يحاجون الله بأنهم لم يفهموا كيف يكون القرآن الكريم رحمة وشفاء، ولهذا لم يؤمنوا به؟ إن هذا لا يقول به ذو عقل وقلب سليم.

يقول الإمام الطبري: (فقطع حجة كلّ مبطل ألحدَ في توحيده وخالف أمره، بجميع معاني الحجج القاطعة عذرَه، إعذارًا منه بذلك إليهم، لتكون لله الحجة البالغة عليهم وعلى جميع خلقه)[1].

ولو لم تنقطع الحجة إلا بالتخيير التام، لكان لزاما أن يفهم أهل الضلال الدلائل والبينات على الوجه الذي لا يملكون معه إلا التسليم بها، حتى يذعنوا ويسلموا طواعية واختيارا، وهذا يقتضى أن يتساوى الناس في استيعاب وفهم ما يتلقونه ويرونه من معجزات حسية، وعينية، وهذا ما تكذبه أحوال الناس في الاستجابة لدعوات المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

---

[1] تفسير الطبري (٩/ ٤٠٨).

وصدق المولى تبارك وتعالى إذ يقول: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ٢٧﴾ [الرَّعۡد : ٢٧]، **يقول الإمام الطبري**: (يقول تعالى ذكره: ويقول لك يا محمد، مشركو قومك: هلا أنزل عليك آية من ربك، إمّا ملك يكون معك نذيرًا، أو يُلقى إليك كنز؟ فقل: إن اللّه يضل منكم من يشاء أيها القوم، فيخذله عن تصديقي والإيمان بما جئته به من عند ربي، {وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ}، فرجع إلى التوبة من كفره والإيمان به، فيوفقه لاتباعي وتصديقي على ما جئته به من عند ربه، وليس ضلالُ من يضلّ منكم بأن لم ينزل علي آية من ربّي ولا هداية من يهتدي منكم بأنها أنزلت عليّ، وإنما ذلك بيَدِ اللّه، يوفق من يشاء منكم للإيمان ويخذل من يشاء منكم فلا يؤمن)[1].

فها هو إمام المفسرين يؤكد تأكيدا قاطعا ما نقوله بأن الإعذار بإرسال الرسل لا يقتضي التخيير التام، بل هو التوفيق والهداية والتيسير، أو التخذيل والتسيير والتسخير، واللّه أعلى وأعلم.

وفي هذا الإطار: نفهم كل أدلة الشرع والتي قد يدل ظاهرها على التخيير التام، بينما المعنى الحقيقي لهذه الأدلة ليس على هذا الظاهر، كما يتضح من قوله تعالى: ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ١٥﴾ [الإِسۡرَاء : ١٥]، وقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ [الكَهۡف من الآيه : ٢٩].

[1] تفسير الطبري (١٦/ ٤٣١).

فمشيئة العباد تلك ليست مطلقة، بل محكومة بمشيئة الخالق سبحانه، والتي يترتب عليها تدخل القدرة الإلهية، بالتوفيق أو التخذيل، والله أعلى وأعلم.

التسيير والتسخير ومؤاخذة الأمم

بينا فيما سبق ما يتعلق برسالة الرسل، وقيام الحجة على الأفراد، ويقتضي ذلك أن ننظر في استجابة الأفراد وعدمها، بالنسبة للأمم وأثر ذلك عليها، وهل يستقيم القول بأن أقدار الأمم تنضبط بالعلم الكاشف وحده، كما قال القائلون، أم أن هذا مستحيل كما نقول، وبخاصة أنه ما من رسول من المرسلين ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ إلا وقد آمن من قومه من قد آمن، وكفر به من كفر، فكيف يكون حال الأمم، مع تباين موقف أفرادها، ومسألة التخيير والتسيير؟

☜ **وللإجابة عن ذلك:**

نستحضر بعض الأدلة التي تتحدث عن الجماعات ـ القرى ـ وليس الأفراد، ومع هذا فلم تستقل أقدارها بالعلم وحده، بل أيضا تدخلت القدرة الإلهية، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ١٦٣﴾ [الأعراف: ١٦٣].

والأمر المؤكد أن مسألة العلم الكاشف وحده لو قيل بها في هذا الموضع لكان معنى ذلك أن هناك من يدير أمر الخلق غير الله، ونعوذ بالله من مثل هذا القول.

ووجه ذلك: أن مسألة الحيتان لا يمكن أن تمتنع من تلقاء نفسها عن المجيء طوال أيام الأسبوع إلا يوم السبت، ومعنى ذلك أنها مسخرة لرسالة محددة، وقد انعكس تسخيرها على تصرفات الأفراد، بالمعصية، ولولا ذلك لأمكن ألا يعصوا.

ومع التسليم بأن هذا هو من قبيل الاختبار، ولكنه اختبار تعلق بكسبهم ومعايشهم، التي تنشأ الحاجة بسببها، إلى بعض التصرفات الاضطرارية، غير الاختيارية أحيانا، بسبب قلة الدخل، وكثرة الهموم.

ولعل قوله تعالى: {كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} ، يبين أن ما حدث من مسألة الحيتان، وكأنه كان تسخيرا - من قبيل الاستدراج - لأهل هذه القرية، بوجه من الوجوه، لإظهار خبيئة أنفسهم، وفساد طويتهم، والله أعلى وأعلم.

يقول الإمام الطبري: (وقوله: {ويوم لا يسبتون}، يقول: ويوم لا يعظمونه تعظيمهم السَّبت، وذلك سائر الأيام غير يوم السبت {لا تأتيهم}، الحيتان {كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون}، يقول: كما وصفنا لكم من الاختبار والابتلاء الذي ذكرنا، بإظهار السمك لهم على ظهر الماء في اليوم المحرم عليهم صيده، وإخفائه عنهم في اليوم المحلل صيده، {كذلك نبلوهم}، ونختبرهم {بما كانوا يفسقون})[1].

وتعريضهم لهذا الاختبار إنما كان بسبب فسقهم السابق، فتعرضوا لهذا الابتلاء، ليستحقوا العقوبة ويصبحوا قردة، ولو سارت الأمور بموجب العلم وحده، لما تم استدراجهم، إلى هذه العقوبة، والله أعلى وأعلم.

يقول الإمام الطبري: (**عن مجاهد، عن ابن عباس في قول الله**: "حاضرة البحر"، قال: حرمت عليهم الحيتان يوم السبت، وكانت تأتيهم يوم السبت شُرّعًا، بلاء ابتلوا به، ولا تأتيهم في غيره إلا أن

[1] تفسير الطبري (١٣/ ١٨٣).

يطلبوها، بلاء أيضًا، بما كانوا يفسقون. فأخذوها يوم السبت استحلالا ومعصية، فقال الله لهم: {كونوا قردة خاسئين})[1].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ۝٩٧﴾ [يُونُس : ٩٦ - ٩٧]، **يقول الإمام الطبري**: (**عَنْ قَتَادَةَ**: {إِنَّ الَّذِينَ حقت عليهم كلمت رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ}، حَقَّ عَلَيْهِمْ سَخَطُ اللَّهِ بِمَا عَصَوْهُ)[2].

وعدم إيمان هؤلاء ـ إلا بعد العذاب الأليم ـ كما في النص كان بسبب سخط الله عليهم، وهذا لا يكون إلا بالقدرة، وليس بالعلم وحده.

وذلك كما يفسره الإمام الطبري في موضع آخر بقوله: (قال: نحول بينهم وبين الإيمان ولو جاءتهم كل آية فلا يؤمنون، كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة)[3].

وكل هذه المعاني تتوافق إذا علمنا أن كل من حق عليه ذلك إنما قامت عليه الحجة، وكان له الاختيار التام، فأجرم وعصى، فاستحق أن يسوقه الله تعالى إلى قدره المحتوم، ولعل هذا ما يشير إليه **قول الإمام الطبري**: (يقول جل ثناؤه: وما تغني الحجج والعبر والرسل المنذرة عباد الله عقابه، عن قوم قد سبق لهم من الله الشقاء، وقضى لهم في أم الكتاب أنهم من أهل النار، لا يؤمنون

---

[1] المرجع السابق (١٣/ ١٩١).

[2] تفسير الطبري (١٥/ ٢٠٥).

[3] المرجع السابق (١٢/ ٤٤).

بشيء من ذلك ولا يصدِّقون به، {ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم})[1].

وهكذا تستدرج الأمم ـ القرى ـ إلى قضائها المبرم، والاستدراج ضمن التسيير والتسخير، والله أعلى وأعلم.

ونفس هذا المعنى يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ١١٢﴾ [النَّحل: ١١٢].

يقول الإمام الطبري: (يقول تعالى ذكره: فأذاق الله أهل هذه القرية لباس الجوع، وذلك جوع خالط أذاه أجسامهم، فجعل الله تعالى ذكره ذلك لمخالطته أجسامهم بمنزلة اللباس لها. وذلك أنهم سلط عليهم الجوع سنين متوالية بدعاء رسول الله ﷺ، حتى أكلوا العلهز والجِيَف، قال أبو جعفر: والعلهز: الوبر يعجن بالدم والقُراد يأكلونه؛ وأما الخوف فإن ذلك كان خوفهم من سرايا رسول الله ﷺ التي كانت تطيف بهم، وقوله {بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} **يقول**: بما كانوا يصنعون من الكفر بأنعم الله، ويجحدون آياته، ويكذّبون رسوله، وقال: بما كانوا يصنعون)[2].

وكذا قوله جل شأنه: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ٥٠ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ٥١﴾ [النَّمل: ٥٠ - ٥١]، **يقول الإمام الطبري**: (يقول تعالى ذكره: وغدر هؤلاء التسعة الرهط الذين يفسدون في الأرض بصالح ـ عليه السلام ـ بمسيرهم إليه ليلا ليقتلوه وأهله، وصالح ـ عليه السلام ـ لا

[1] المرجع السابق (١٥/ ٢١٥).

[2] تفسير الطبري (١٧/ ٣١١).

يشعر بذلك {وَمَكَرْنَا مَكْرًا} يقول: فأخذناهم بعقوبتنا إياهم، وتعجيلنا العذاب لهم {وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ} بمكرنا.

وقد بيَّنا فيما مضى معنى: مكر اللّه، بمن مكر به، وقد يحتمل أن يكون معنى "مكر اللّه بهم"، استدراجه إياهم ليبلغ الكتاب أجله، وأنه أخذه من أخذه منهم على غرّة، أو استدراجه منهم من استدرج على كفره به، ومعصيته إياه، ثم إحلاله العقوبة به على غرّة وغفلة)[1].

وقوله: (استدراجُه إياهم ليبلغ الكتاب أجله)، واضح فيه المعنى الذي نقصده، وهو عدم استقلال العلم بإثبات أقدار الأمم، بل لابد من تدخل القدرة، تماما هو الحال بالنسبة للأفراد، واللّه أعلى وأعلم.

ومن الأدلة التي تدل على وجود التسيير والتسخير، مع وجود الرسالة، وتعلقها بالأمة والجماعة كلها، ما أخبرت به نصوص الشرع عن بني إسرائيل، وكذلك أمة خير الأنام محمد ﷺ، ونشير إلى ذلك فيما يلي:

📖 **التسيير والتسخير وأمة بني إسرائل**

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧﴾ [البَقَرَة : ٤٧]، **يقول الإمام الماتريدي**: (قيل: فضلوا على جميع من على وجه الأرض، على الدواب بالجوهر، وعلى الجن بالرسل، وعلى البشر بالإيمان، ويَحتمل تفضيلهم على العالمين وجوهًا أيضا: ما ذكرنا من بعث الأنبياء منهم، والنجاة من أيدي العدو، وإهلاك العدو وهم يرونه، وفرق البحر

[1] المرجع السابق (١٩/ ٤٧٩).

بهم، والنجاة منه، وإهلاك العدو فيه، وذلك من أعظم النعم: أن ترى عدوَّك في الهلاك وأنت بمعزل منه آمن، ويحتمل: فضَّل أوائلهم)[1].

ومن المتيقن أن ما تذكره الآية ليس خبرا، بموجب العلم الأزلي، بل هو نبأ عن تدخل القدرة الإلهية بالقطع واليقين، ولو كان الأمر بالتخيير التام، دون تدخل القدرة الإلهية لما أمكن القول بالتفضيل على العالمين، ولكن تحقق ذلك بتمكين الله لهم على عدوهم، وهذا هو التسيير والتسخير.

وهكذا نتأكد من تدخل القدرة الإلهية، وعدم توقف الخبر بالتفضيل على العلم الكاشف وحده، والله أعلى وأعلم.

ونفس المعنى ينص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ۝٣٠ مِن فِرْعَوْنَۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٣١ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٢ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ ۝٣٣﴾ [الدُّخَان: ٣٠ - ٣٣].

يقول الإمام الماتريدي: (وقوله: {عَلَىٰ عِلْمٍ} يخرج هذا على وجوه: **أحدها**: أي: {اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ} أي: بسبب علم آتيناهم ذلك، لم يؤت ذلك غيرهم، لتظهر فضيلة العلم على العالمين وشرفه، والله أعلم، **والثاني**: يحتمل: {اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ} منا بأسباب فيهم وأشياء لم تعلم تلك الأسباب والمعاني في غيرهم، بها استوجبوا الاختيار على العالمين.

والثالث: أي: {اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ} أي: بسبب علم أحوجنا غيرهم إليهم، فصاروا مختارين مفضلين بسبب تعليمهم إياهم ما احتاجوا إليه، فيكون لهم فضل الأستاذ على التلميذ، فعلى ذلك يحتمل أنه ـ

[1] تفسير الماتريدي (١/ ٤٥٢).

أحوج إلى بني إسرائيل غيرهم في معرفة أشياء، فاستوجبوا بذلك الاختيار والفضيلة على غيرهم، والله أعلم)[1].

وما ذكره الإمام (بسبب علم أحوجنا غيرهم إليهم) قول غاية في الأهمية، ووضوح البيان، وقوله: بأسباب فيهم يفهم منه بالضرورة أن ما فيهم من أسباب قد خصهم الله بها، فهم خلق الله وينطبق عليهم قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ١٤﴾ (الملك: ١٤).

والكلام كله يؤكد وجود القدرة وليس العلم وحده.

[1] تفسير الماتريدي (٩/ ٢٠٦).

أمة الإسلام ومجريات القدر

التسيير والتسخير وأمة الإسلام:

استعرضنا الكثير من الأدلة فيما يتعلق بأمة رسولنا ﷺ والتي تدل على التسيير والتسخير الجماعي أيضا، وليس ما كشف عنه العلم وحده، بل تدخلت القدرة الإلهية، ليتحقق مراد الله تعالى كما سبق في أم الكتاب، والله أعلى وأعلم.

وسوف نشير هنا إلى هذا السؤال الذي استوقفني كثيرا ألا وهو: هل يناقض القول بالتسيير والتسخير ما هو عليه أمة الإسلام من ضعف وهوان؟

والجواب: لولا أن الآيات التي دلت على ارتباط القضاء والقدر بالتسيير والتسخير قاطعة الدلالة على ذلك، لظننت بنفسي ظنا غير حسن مطلقا، **حيث حدثتني نفسي بالقول**: هل يعقل أن تتدخل القدرة الإلهية في تصاريف الأقدار، والتي تجري على أيدي البشر، ثم تتأخر أمة الإسلام، عن معظم أمم الأرض، من كفرة أهل الكتاب، وأهل الشرك كذلك؟.

وقد اجتهدت في الإجابة عن هذا السؤال، قدر استطاعتي، كما يتضح مما يلي:

مكانة أمة الإسلام بين الأمم

عرضنا فيما سبق اختصاص أمة بني إسرائيل بالتفضيل، سواء على زمنهم، وما كان قبله، أو التفضيل العام الذي يشمل كل الأزمنة، بحسب الاختلاف في ذلك، ويقتضي هذا بالضرورة أن نبين كيفية التوفيق بين هذا التفضيل وبين اختصاص أمة رسولنا ﷺ بأنها خير الأمم.

📖 **ويمكن أن نختصر الإجابة في العبارة التالية :**

إن التفضيل يمكن أن يكون متعلقا بالحياة الدنيا، ولا يترتب عليه بالضرورة أي فضل في الآخرة، بينما الخيرية تؤكد أن ذلك يتعلق بالآخرة تعلقا تاما، لأن الخيرية وصف لا يمكن القطع بمعناه من خلال مصطلحات البشر، نظرا للتفاوت الهائل في مصطلحاتهم، ولهذا لا حقيقة للخيرية إلا بما عرفها الله تعالى به، وجماع ذلك الإيمان بالله، وما يستوجبه من أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، وكل هذه الصفات، يظهر أثرها في الآخرة، وقد لا يظهر في الحياة الدنيا، ومن هنا كان الفرق.

الخيرية والتسيير والتسخير

بينا أن تفضيل أمة بعينها على غيرها من الأمم يقتضي بالضرورة أن تتدخل القدرة الإلهية، كما بينت النصوص الشرعية، ومحال أن تتبوأ أمة بني إسرائل هذه المكانة بالتخيير، وبخاصة أن النبوغ في الأخذ بالأسباب المادية قد يتعدد من الأفراد في الأمم المختلفة، **فكيف تمتاز به أمة عن غيرها، ونبوغ الأفراد ليس قاصرا عليها؟**

☜**ولعل الجواب:** أن التفضيل ليس عاما في كل الأسباب الدنيوية، بل قد يكون خاصا بسبب دون بقية الأسباب، وقد يكون هذا السبب الخاص ببني إسرائل هو ما يتعلق بإدارة المال، وتنميته، على وجه الخصوص، وقد يشير إلى ذلك قول الإمام الطبري: (فمعلومٌ بذلك أن بَني إسرائيل في عصر نبينا لم يكونوا - مع تكذيبهم به ﷺ - أفضلَ العالمين، بل كانَ أفضلَ العالمين في ذلك العصر وبعدَه إلى قيام الساعة، المؤمنون به المتبِعون منهاجهُ، دون من سِواهم من الأمم المكذِّبة الضالة عن منهاجه)[1]، والله أعلى وأعلم.

أما الخيرية، فهي وصف عام شامل يتناول كل الأسباب المؤدية إليه، دون استثناء، والله أعلى وأعلم، وهذا ما نبحث عنه فيما يلي:

قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عِمْرَان من الآيه : ١١٠]، ونلحظ بوضوح في هذه الآية

[1] تفسير الطبري (١/ ١٥١).

الكريمة قوله تعالى: {أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ}، ولفظ الإخراج يشير بالضرورة إلى مسألة التسيير والتسخير، وذلك لينفذ القضاء المحتوم وفق مراد الله تعالى، وتأكيدا لقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ (الفرقان: من الآية ٢)، فكل ما يجري في الكون قدره الله تقديرا، ولا يناقض ذلك أن يقال إن تخيير الإنسان في كل ما يحاسب عليه من التقدير أيضا، لأنه قد ثبت باليقين القاطع أن التخيير التام يتعارض تماما مع القدر المحتوم، ولهذا علمنا أن تقدير الله تعالى لا يمكن أن يكون إلا بتدخل القدرة الإلهية، وهذا هو الحق والصواب.

وهكذا تكون أمة الإسلام خلقها الله تعالى، وابتعثها بكل ما هي عليه لتكون هي الأمة التي خيرها على العالمين ولهذا اختصها بخير خلقه جميعا ﷺ.

يقول **الإمام الطبري** مبينا دلالة هذه الآية الكريمة: (وقال بعضهم: عنى بذلك أنهم كانوا خير أمة أخرجت للناس، وقد زعم بعض أهل العربية أن معنى ذلك: كنتم خير أمة عند الله في اللوح المحفوظ، أخرجت للناس)[1].

وتضعيف **الإمام** الطبري لقول من قال بذلك، ليس حجة على قائل هذا القول، بل هي قدرات الخلق لا يمكن لأي أحد أن يدرك الحق والصواب دائما، لأن هذا ليس من صفات البشر، ولهذا ليس بالضرورة أن يكون تضعيف **الإمام الطبري** لهذا القول أنه ضعيف فعلا.

[1] تفسير الطبري (٧/ ١٠٤).

وبخاصة أن ما رجحه **الإمام الطبري** لا يتعارض ـ كما نرى ـ مع هذا القول، إذ **يقول**: (وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية ما قال الحسن، وذلك كما في حديث الرسول ﷺ في قوله تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ}، قال: أنتم تتمُّون سبعين أمة، أنتم خيرُها وأكرمها على الله")[1].

وما أجمل ما أورده **الإمام الماوردي** من دقائق هذه الآية الكريمة إذ **يقول**: (فإن قيل: فلِمَ قال كنتم خير أمة ولم يقل أنتم خير أمة؟ **ففيه أربعة أجوبة**: **أحدها**: أن الله تعالى قد كان قدم البشارة لهم بأنهم خير أمة ، فقال: {كُنْتُمْ} يعني إلى ما تقدم في البشارة، وهذا قول **الحسن البصري**، وقد روي عن النبي ﷺ قال: "أنتم تُتِمَّونَ سَبْعِينَ أمة أنتم خَيرُها وأكْرمُها عَلى اللّهِ"، **والثاني**: أن ذلك لتأكيد الأمر لأن المتقدم مستصحب وليس الآنف متقدما، وذلك مثل قوله تعالى: {وكان الله غفوراً رحيماً}، **والثالث**: معناه خلقهم خير أمّة، **والرابع**: كنتم خير أمة في اللوح المحفوظ)[2].

ويضيف الإمام الرازي ملمحا في غاية الأهمية وذلك في قوله: (أمَّا قَوْلُهُ: {أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} فَفِيهِ قَوْلَانِ الْأَوَّلُ: أَنَّ الْمَعْنَى كُنْتُمْ خَيْرَ الْأُمَمِ الْمُخْرَجَةِ لِلنَّاسِ فِي جَمِيعِ الْأَعْصَارِ، فَقَوْلُهُ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ أَيْ أُظْهِرَتْ لِلنَّاسِ حَتَّى تَمَيَّزَتْ وَعُرِفَتْ وَفُصِلَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ غَيْرِهَا)[3].

---

[1] المرجع السابق.

[2] تفسير الماوردي (١/ ٤١٦).

[3] تفسير الرازي (٨/ ٣٢٥).

وفي إطار ما أخبر به المفسرون سوف أجتهد في تصور حال أمة الإسلام، وإن كان ما أقوله ليس منقولا بصورته عن أحد من المفسرين، ولكنه لا يناقض أقوالهم.

الأمة القدوة والمثال

ولفهم المعنى الذي أقصده، لابد أن نستحضر أن الخالق سبحانه خلق الجنة والنار، وخلق لكل منهما نصيبه من البشر، وكل ذلك مكتوب في أم الكتاب، قبل أن يخلق الخلق بخمسين ألف سنة.

وقد شاءت إرادة الله تعالى أن تكون أمة الإسلام هي الأمة الخاتمة، والتي قد يمتد وجودها إلى آلاف السنين، ولا يملك مخلوق أن يحدد لها وقتا معلوما، بل هو الغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالى.

وإذا كانت الجنة والنار، وحتمية القيامة، مما تعجز عقول البشر عن إدراك حكمته، على وجه الكمال والتمام، بل لابد من تفويض الأمر إلى الله عز وجل، فكذلك مسألة التخيير والتسيير، وتعلقها بأمة الإسلام.

ولكن لابد من التنبيه أن الله عز وجل، قد عصم الأمة من أن تفنى على أيدي أعدائها، بل نصرها سبحانه، بالقدرة الإلهية، بالتسيير والتسخير، وتثبيت الملائكة، ودعم الفئة المؤمنة.

وكل هذا يؤكد أن مسألة التخيير المطلق للبشر فيما يحاسبون عليه، ما هي إلا هفوة نطقت بها الألسنة، دون أن تتمهل قبل إلقائها، لأن موجب هذا التخيير أن تفقد الأمة خيريتها، وتعجز عن القيام برسالتها.

وكل هذا ـ وإن كان لا يناقض مقتضيات العقول، إلا أنه يناقض دلالة كل النصوص، ولهذا فهو قول لا مكان له من الصواب مطلقا.

ومع تعهد الخالق الأمة بالنصر، إلا أن هذا لم يمنع من تغلب أهل الكفر عليها في بعض المواقع، حتى أصيب رسول الله ﷺ نفسه بالجراح البالغة، كما حدث يوم أحد، على وجه الخصوص، ويصور ذلك **الإمام ابن هشام** صاحب السيرة والشمائل **فيقول**: (مَا لَقِيَهُ الرَّسُولُ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ: **قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ**: وَانْكَشَفَ المُسْلِمُونَ، فَأَصَابَ فِيهِمْ العَدُوَّ، وَكَانَ يَوْمَ بَلَاءٍ وَتَمْحِيصٍ، أَكْرَمَ اللَّهُ فِيهِ مَنْ أَكْرَمَ مِنْ المُسْلِمِينَ بِالشَّهَادَةِ، حَتَّى خَلَصَ العَدُوُّ إلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَدُثَّ - رمي - بِالحِجَارَةِ حَتَّى وَقَعَ لِشِقِّهِ "لجانبه" فَأُصِيبَتْ رَبَاعِيَتُه، وَشُجَّ "جرح وأصيب" فِي وَجْهِهِ، وَكُلِمَتْ "جرحت" شَفَتُهُ)[1].

وما من مخلوق أحب إلى الله تعالى من حبيبه المصطفى ﷺ، ومع هذا أجرى عليه جل جلاله هذه المصائب، وما كان ذلك ليكون، إلا لحكمة يريدها الخالق جل في عليائه.

ولعل هذه الحكمة أن تتأهل الأمة لرسالتها التي ابتعثها الله بها ولها، والتي يشير إليها قوله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد : ٢٣]، وإذا ما عايش المسلمون ما حدث لرسول الله ﷺ بأعينهم، علموا أن ما يجري عليهم من مصائب إنما هي بقدر الله تعالى، ولحكمة مقصودة، فيبحثوا عنها، ولعلها في هذه الموقعة، أنه لا يمكن أن يتحقق النصر مع معصية الرسول، وأن الفتنة والمصيبة تعم الجميع، ابتلاء وتدريبا وتأهيلا، كما في قوله تعالى:

[1] سيرة ابن هشام (٢/ ٧٩).

﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥﴾ [الأنفال: ٢٥].

ومفاد ذلك: أن الله ابتعث الأمة الإسلامية، وخصها بهذه الفترة أو الحقبة الزمنية، واختصها بخاتم المرسلين ﷺ، وأجرى عليها من المصائب والمحن، ما تتعلم منه كيف تقوم برسالتها على خير وجه، كما أراد سبحانه، ولا مندوحة لهم في التقصير بعد أن عاينوا ما أصاب رسول الله ﷺ بسبب معصية الرماة منهم، فيعلموا أن لا عذر لهم بعد ذلك فيما يلاقونه بسبب معصيتهم، ولن يصلوا إلى ذلك إلا بالخبرة والتجربة، ليصلوا إلى مكانتهم المعدة لهم أزلا كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وفي ظل هذه المعاني، وباستحضار آية الزلزال، يمكن تصور الأمر القدري على النحو التالي، والله أعلم.

آية الزلزال فجيعة مرعبة، تهدد حياة الناس، وسيدفع الخوف الناس إلى سبر أغوار العلوم المختلفة، وصولا إلى التغلب على آثار المصيبة أو منعها، أو التخفيف منها.

ولن يتحقق ذلك بالتسيير والتسخير وحده، بل لابد من التخيير التام أولا، وإذا ما تحقق ذلك، يسر الله لهم وسخر الأسباب، ليصلوا إلى ما قدر لهم من العزة وعلو الشأن بين الأمم جميعا.

وهكذا هو حال التخيير والتسيير في أمة الإسلام.

فقد خلق الله البشر وجعل من خصائصهم أنهم يكتسبون العلم بالممارسة والتجربة، والتي لا تؤتي ثمارها إلا بالكد والتعب، والصبر والمثابرة.

لو كانت مقادير أمة الإسلام ترتبط فقط بالقدرة والتسيير والتسخير، فسوف يكون هذا من عوامل الركون إلى الاستسلام، والانصراف إلى الرهبنة والدعاء، وترك الأسباب التي خلقها الخالق سبحانه، والتي من أهم وظائفها تقريب الناس لإدراك عظمة الخالق سبحانه، وظواهر حكمته في تصريف المقادير، عز وجل.

وذلك بما يظهر لهم من آيات السماوات والأرض، ولا يتوصل إليها بالدعاء، بل بالجهد والعلم والمثابرة، ووضع الأسباب في مظانها كما أمر الله، سبحانه جل في علاه.

وكثير من هذه العلوم لا يتوصل إليها بمطلق العلم والبحث والتجربة، ولكن بقهر الحاجة، وهكذا تكون آيات الله في الخلق ومنها الكوارث، من أهم مظاهر التسخير والتسيير، ولكن ليس من كل الوجوه، بل لابد من دور اختياري للإنسان، وهو ما لم تقم به أمة الإسلام بعد.

ولو سارت الأمور بالتسيير والتسخير، لكان معنى هذا الاكتفاء بالركون إلى الدعاء، لتقضى به كل الحاجات، ويصبح حال البشر، أقرب إلى حال العجماوات، التي سخر الله لها سبل عيشها، دون أن تمتلك عقلا أو فهما يحركها، فكذلك يكون حال البشر الذين يأبون أن يقدموا من أنفسهم ما يستحقون به العون والتوفيق.

ولم يخلق الله أمة الإسلام لتكون كالبهائم، بل هي الأمة المثال، التي فضلت على العالمين بحق، لأنها خير أمة أخرجت للناس، وقد ابتعثهم سبحانه ليظهر على أيديهم عظيم خلقه، ودلائل قدرته، ولو دان لهم ذلك بغير جهد منهم، لانعدم المراد منه، ولهذا كانت المصائب والكوارث، مع ضرورة التخيير في مواجهتها،

بالقدر الذي يكسب كل خلايا العقول وأجهزة الجسد الخبرة والدربة والمهارة، التي تناسب مهمتها التي انيطت بها، والله أعلى وأعلم.

فكما لا تقوم الحجة إلا بالتخيير، فكذلك لا يستحقون الدعم، بالتسيير والتسخير، إلا إذا نجحوا وقت تخييرهم، فيستحقون الثمرة والمكافأة، وهي العزة التي وعدهم الله بها.

ولعل مما يجسد كل هذه المعاني حديث الرسول ﷺ، ومع هذا فليس الأمر متروكا بالكلية للتخيير، بل هو قدر محتوم، وتعلق بالعلم والقدرة معا، كما يدل عليه حديث حذيفة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا، فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا جَبْرِيَّةً، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ نُبُوَّةٍ»[1] ثُمَّ سَكَتَ.

☜ **ومحل الاستدلال:** أن قوله ﷺ: "ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ نُبُوَّةٍ"، دليل على مسألة التسيير والتسخير، ولعل ما سبقها من مرحلتي الملك، إنما كان بسبب خلل أدى إلى انتهاء الخلافة على منهاج النبوة.

ومما نقطع به أن هذا الخلل متعلق بنظام الحكم، ولهذا وعلى الرغم من كل الفتوحات التي تمت في فترة الملك، إلا أنها لم تتمكن من الاستمرار، بسبب انحرافها عن منهاج النبوة.

---

[1] مسند أحمد (٣٠/ ٣٥٥).

الإهمال والتفريط وأثرهما في مسار الأمة

لا جدال أن حال الأفراد يؤثر بالضرورة في حال الأمة كلها، ولكن لا يمكن أن يكون هذا التأثير ظاهرا إلا إذا أصبح ظاهرة عامة، يجتمع عليها القوم أو أكثرهم، وينبئ عن ذلك نظام الحكم، كما يمكن أن يستفاد من الحديث، وهكذا لا يمكن أن تنهض أمة الإسلام وتعود لمكانتها، إلا عندما تعود الخلافة على منهاج النبوة كما أخبر الحديث الشريف، وعندها تتدخل القدرة لتتبوأ الأمة مكانتها التي تليق بها بين الأمم، واللّه أعلى وأعلم.

ولعل هذا المعنى هو الذي أدى إلى شيوع مقولة: "الناس على دين ملوكهم"، كما أورده **الإمام القلعي:** (نظام أمر الدّين وَالدُّنْيَا مَقْصُود وَلَا يحصل ذَلِك إِلَا بِإِمَام مَوْجُود لَو نقل بِوُجُوب الْإِمَامَة لأدَّى ذَلِك إِلَى دوَام الِاخْتِلَاف والهرج إِلَى يَوْم الْقِيَامَة لَو لم يكن للنَّاس إِمَام مُطَاع لانثلم شرف الْإِسْلَام وَضَاع لَو لم يكن للْأمة إِمَام قاهر لتعطلت المحاريب والمناظر وانقطعت السبل للوارد والصادر لَو خلا عصر من إِمَام لتعطلت فِيهِ الْأَحْكَام وضاعت الْأَيْتَام وَلم يحجّ الْبَيْت الْحَرَام لَوْلَا الْأَئِمَّة والقضاة والسلاطين والولاة لما نكحت الْأَيَامَى وَلَا كفلت الْيَتَامَى لَوْلَا السُّلْطَان لكَانَتْ النَّاس فوضى ولأكل بَعضهم بَعْضًا وَفِي الحَدِيث السُّلْطَان ظلّ اللّه فِي الأَرْض يأوي إِلَيْهِ كل مظلوم.

وَقَالَ **عُثْمَان** رضي الله عنه مَا يَزع اللّه بالسلطان أَكثر مِمَّا يَزع بِالْقُرْآنِ وَمعنى يَزع أي يمْنَع وَيكف ويردع وَقَالَ بعض الْقدماء الدّين

وَالسُّلْطان توأمان وَقيل الدّين أس وَالسُّلْطان حارس فمَا لا أس لهُ فمهدوم وَمَا لا حارس لهُ فضائع)[1].

والنتيجة التي نخرج بها أن أحوال الأمم لا يمكن أن تتوقف على أحوال الأفراد، فقط، بل إن الأصل والأساس هو حال الأمة نفسها والذي يقوم عليه نظام الحكم، وعندها تتبوأ مكانتها، والله أعلى وأعلم.

[1] تهذيب الرياسة وترتيب السياسة لأبي عبد الله محمد بن علي بن الحسن القَلْعي الشافعي (المتوفى: ٦٣٠هـ) (ص: ٩٤)

الخاتمة

الثمرة المرجوة من البحث والفهم الصحيح لنصوص الشرع

من أعجب الأمور التي وجدتها أثناء حواراتي مع الآخرين ـ فيما يتعلق بمسائل هذا البحث ـ أن أغلب من تحدثت معهم يسلمون سريعا بكل ما ورد في البحث، وذلك من خلال قولهم: "كله بأمر الله"، وليس معنى هذا أنهم قد استوعبوا الأمر استيعابا معقولا، بل على العكس عندما أبدأ في التمثيل لما أقول ـ من خلال الوقائع والأحداث ـ أجد أن الأمر قد رجع تقريبا إلى نقطة البداية، ويبدأ التشكك أو عدم التسليم.

وكل هذا يتفق تماما مع ما أوردته عن أئمتنا الكبار، عند تمثيلهم لقضية القضاء والقدر بمسألة المدرس وطلابه.

وهكذا تجسدت لدي الأهمية القصوى لتمثيل المسائل النظرية، وتنزيلها على الوقائع والأحداث الحياتية، لتتضح المعاني المرادة، وتتشكل المفاهيم على نحو واعٍ صحيح، يؤهل صاحبه للانتفاع بما يقال، وليس مجرد الكلام النظري، الذي لا يتعدى النطق باللسان.

وكما أن عضلات الجسد تكتسب قوتها تدريجيا بما تواجهه من مشاق، فكذلك مسألة اليقين تترسخ في النفس رويدا رويدا، بالفهم الصحيح لأدلة الشرع، الذي يغرس معاني العبودية، والتسليم للخالق سبحانه، كلما ارتوت الأنفس من هداها،

وتبينت العقول مكامن الحكمة فيها، ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥﴾ [الأَنْعَام : ٧٥]، ﴿إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ ٦﴾ [يُونُس : ٦]، ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٣﴾ [الجَاثِيَة : ٣].

وحتى نصل إلى الثمرة المرجوة من هذا البحث، فلابد أن ندرك أن الوصول إلى ذلك لن يتيسر إلا بتوفيق اللّه تعالى أولا، ثم التفكر والتدبر والجهد المخلص في استيعاب دلالات نصوص الشرع، من قرآن وسنة، لنكون أهلا لفيوضات نورها، وجليل هداها، واللّه من وراء القصد.

وفي ظلال هذه المعاني، نخرج من البحث بهذه الثمرات المرجوة، بإذن اللّه تعالى، والتي يمكن إيجازها فيما يلي:

📖 **أولا**: أعلى ثمرات البحث هو الفهم الصحيح لنصوص الشرع، والبعد عن الفهم السطحي، الذي لا يسمن ولا يغني من جوع، وهذه الثمرة من أجلِّ الثمرات التي نطمع أن تتحقق في ظل هذا البحث، واهتداء بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فَاطِر من الآيه : ٢٨]، ولن يتأتى هذا الفهم إلا بالتطبيق العملي للنصوص ومدى تعلقها بالأفعال والأحداث، وهو ما تبناه هذا البحث، بحمد اللّه تعالى.

📖 **ثانيا**: التغلب على الخوف والقلق، واطمئنان النفس وسكينة القلب، كلما فزعت إلى الدعاء والسجود بين يدي الخالق سبحانه.

فإذا ما استقر في النفس، أن أحدا من المخلوقين، لا يملك نفعا ولا ضرا لأحد، إلا بإذن اللّه تعالى، فإن ذلك يكون من أهم مقومات

هزيمة الخوف والتغلب على القلق، وذلك باطمئنان الضعيف أنه في كنف من لا يعجزه شيء سبحانه، ولا يحتاج إلى واسطة بينه وبين ربه سبحانه ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ۝١٨٦﴾ [البقرة: ١٨٦]، وهكذا يرتقي الدعاء بالعبد ليكون في معية الخالق سبحانه، مكفولا بحفظه ورعايته، فلا يبقى خوف ولا وجل، بفضل الله تعالى.

📖 **ثالثا**: أن كل ما يجري في الحياة إنما يقع بقدر الله تعالى، مع كونه فعل بشر، يظن من نفسه أنه فعل ما فعل باختيار تام وإرادة مطلقة (التخيير)، ولكن حقيقة الأمر ليست كذلك، بل الحقيقة أن ما قام به البشر إنما يخضع للتيسير أو التسخير، أو هما معا، ليقع مراد الله كما قضى وقدر جل جلاله.

ومعنى هذا أن نتيجة أفعال البشر من سعي وحركة ليست موكولة إلى إتقان الفعل أو عدمه وفقط، بل هي مرهونة ومتعلقة بقدر أزلي قديم غير حادث، لا يتخلف أبدا، لا طاقة لهم على معرفته، أو الاطلاع عليه، بل هم العبيد الذين لا ملاذ لهم إلا اللجوء إليه سبحانه، ولهذا شرع الدعاء، وشرعت الاستخارة في الأمور كلها، كما في الحديث أن رسول الله ﷺ "كَانَ يُعَلِّمُ أَصْحَابَهُ الِاسْتِخَارَةَ فِي الأُمُورِ كُلِّهَا، كَمَا يُعَلِّمُهُمُ السُّورَةَ مِنَ القُرْآنِ"[1].

[1] صحيح البخاري (٩/ ١١٨).

📖 **رابعا :** إذا ما ترسخت هذه المعاني في النفوس فسوف يكون شكر النعمة والرضا في كل حال من أهم الثمرات المستفادة بإذن اللّه تعالى.

فإذا ما تيقن العبد أنه في كل أحواله، إنما هو صنعة الخالق سبحانه، التي لا يعلمها إلا هو، فسوف يكون أشد تعلقا به سبحانه، ولن يرجع شيئا مما جناه ـ من سعيه وحركته في الحياة ـ إلى مواهب الذات، أو الأسباب التي أخذ بها، بل يوقن أن كل هذا إنما هو توفيق اللّه تعالى وتيسيره، فيخر للّه ساجدا شاكرا نعمه سبحانه وعطاياه، ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ [إبراهيم : ٧].

والوصول إلى ذلك يستوجب استحضار معاني العبادة على نحو صحيح، وليس فقط الأداء، برتابة الإلف والعادة، كما نرى كثيرا من الناس الذين يتوجهون إلى اللّه تعالى بالشكر والثناء، ويستخيرونه سبحانه في أمورهم، ولكن دون قدرة حقيقية على جعل هذه المعاني الإيمانية الغيبية ظاهرة ملموسة، محسوسة في نفوسهم، ومن هنا كان الغرض من الاستفاضة في شرح هذا الحديث الشريف، هو الوصول إلى أقصى ما نستطيع من تجسيد معاني التوكل، والدعاء واليقين في الخالق سبحانه، وأنه لا ملاذ إلا إليه سبحانه، في كل أمور حياتنا، فهو الذي يلهمنا سبحانه الفعل أو يصرفنا عنه، أو يَكِلُ من يشاء إلى نفسه، والعياذ باللّه، ولا طاقة للمخلوقين أبدا على معرفة ثمرة أعمالهم، إلا بعد وجودها بالفعل، وليس قبل ذلك، ومن هنا يعظم أمر التوكل والدعاء.

🕮 **خامسا:** وجوب السعي والأخذ بالأسباب، قدر الاستطاعة، دون تعلق القلب بالأسباب بل برب الأسباب عز وجل، فمن لوازم العبودية أن يطلب الإنسان ما يبتغيه بالسعي إليه في مظانه، لأن الذي خلق الكون تبارك في علاه ضبطه بأسباب، ليتعرف الخلق على عظيم قدرته سبحانه، ولهذا كان وجوب الأخذ بالأسباب، من لوازم العبودية.

ومع هذا فالإنسان قد يكد ويجتهد في السعي طلبا للرزق، ومع هذا ليس بالضرورة أن يحصل من الرزق على ما يكافئ سعيه وتعبه، لأن الرزق ليس موكولا إلى هذه الأسباب، بل هو قدر لا حيلة فيه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ٣٤﴾ [لُقۡمَان: ٣٤].

وليس معنى هذا إهمال السعي والاجتهاد، والأخذ بالأسباب، بل إن من يفعل هذا مغيب تماما عن فهم دينه وشريعته، وعن حقيقة التوكل على الله تعالى، فالذي قدر الأقدار هو الذي أمر بالسعي والاجتهاد.

فالذين يتكلون ويتكاسلون قد تركوا عمدا واجبا شرعيا، أمر به الخالق سبحانه، وكل من فرط في أمر من أوامر الله أو قصر فيه، فهو عاصٍ وليس في مأمن من أن يعجل الله له العقاب في الدنيا، والذي قد يتمثل في الحرمان من الرزق أو التضييق فيه، أو الحرمان من التوفيق والنجاح، أو بعض من ذلك، نتيجة تقصيره وعدم القيام بتكاليف العبودية المتمثل في أداء التكاليف الشرعية ومنها السعي الواجب لنيل المقاصد، كما أمر سبحانه.

كذلك فإن من أتى بالأسباب التي تنال بها المقاصد، على وجهها الأتم الأكمل، فليس من المحتم أو اللازم أن يتحقق مبتغاه المكافئ لما قدمه وقام به، من أخذ بالأسباب المشروعة، وبذل الجهد والتعب اللازم، فإن الأسباب والوسائل ما هي إلا مخلوقات للّه تعالى، محكومة بقدره سبحانه وإرادته، فتتخلف إن أراد سبحانه، وتختلف أحيانا وتجود أحيانا، وكل ذلك بما يوافق قدره عز وجل.

فكل خصائص الأشياء هي مخلوقات للّه يصرفها كيف يشاء، ولهذا تتفاوت النتائج من إنسان إلى آخر ومن وقت إلى آخر، حتى وإن تساوت الأسباب والوسائل، وما قدمه الإنسان من جهد وعناء.

🕮 **سادسا :** أقدار اللّه تعالى لا تتبدل ولا تتغير، ولكن الإنسان هو الذي يجهل حقيقة الأمر، كما في مسألة الاستهام على السفينة والتي قد تتغير نتيجتها من مرة إلى أخرى، كلما تكررت، وهذا من الأمور المعلومة والتي يدركها الناس بأعينهم، ولكن ما لا يدركونه هو أنهم مدفوعون إلى طلب تكرار القرعة، مرة بعد مرة حتى تستقر على شيء، فيسكتون عنده ويرتضونه، وهم يعتقدون أنهم انتهوا عن تكرار القرعة ورضوا من تلقاء أنفسهم، ولكن حقيقة الأمر أنهم يُلهمون، أو يُسخرون أو يُسيرون ليقع منهم ما يريده اللّه تعالى، والذي هو قدره الذي لا يتخلف أبدا، وكل ذلك يجري بأمور غيبية غير مادية، مع أن كل ما يترتب عليها مادي ملموس.

وفي حياة الناس ما يدل على ذلك بغير حصر، فكثيرا ما يشعر أحد ما برغبة معينة تلح عليه فيفعلها وقد تكون لم تخطر له على بال مطلقا.

وكثيرا ما يريد واحد من الناس فعل شيء ويقبل عليه بشدة، ولكن يحول بينه وبين ذلك حائل ما، وقد يهم بالشيء يفعله ثم يعتريه شيء ينسيه ذلك الشيء، الذي كان يريد فعله، وكل هذه أمور متكررة لا حصر لها، يمر عليها الناس دون أن يتوقفوا عندها، ليدركوا أن كل ذلك إنما يجري وفق مقادير اللّه تعالى، التي لا تتخلف ولا تتبدل، مع أن ظاهرها أنها تجري بإرادة البشر واختيارهم المطلق، وليس الأمر كما يظنون.

وهكذا يجب أن يستقر في النفوس والقلوب والعقول وكل خلايا الجسد أن نيل المطالب لا أمل في تحقيقه إلا بالامتثال لمراد اللّه تعالى والدعاء الصادق وحسن التوكل على من بيده مقاليد كل شيء سبحانه.

ونوقن ونتأكد أن كل ما يقع من الإنسان أو فيه أو عليه، إنما هو قدر اللّه تعالى الذي لا يتخلف، حتى وإن بدا الفعل أنه باختيار الإنسان وإرادته.

نتائج البحث

تتلخص نتائج البحث في قسم يتعلق بالأحاديث بوجه عام، وقسم يتعلق بمعنى حديث السفينة على جهة الخصوص، وما يترتب عليه من نتائج.

القسم الأول: الذي يتعلق بعموم الأحاديث

📖 **أولا :** في كثير من الأحاديث الشريفة نجد أنه يغلب على الشروح تناول الناحية الخبرية، دون الاهتمام بناحية السياق العام، وما كنيت عنه بالناحية القصصية، وترتب على ذلك الاهتمام بلفظ الاستهام، على أنه يدل على مشروعية القرعة، مع أن معنى الحديث لا يتوقف على عملية القرعة مطلقا.

📖 **ثانيا :** عللنا التناول الخبري لنصوص الشرع من قبل الشراح إلى اهتمامهم بالجانب التكليفي في نصوص الشرع والذي يتعلق بالأحكام الشرعية، والأوامر والنواهي، والحل والحرمة، نظرا لأنه لا تقوم العبادة إلا به، وأقوال السلف هي مناط بيان الأحكام الشرعية.

📖 **ثالثا :** ومن أهم مقومات اهتمام السلف بالأحكام الشرعية، أن الحق عند الله واحد، وأن السلف مخاطبون بالاجتهاد للوصول إليه، وكل من بعدهم تبع لهم في ذلك، ولا يمكن أن يخرج المتأخرون عن مجموع أقوال الأئمة من السلف رضي الله عنهم.

📖 **رابعا :** أن الجانب العقدي يغلب عليه الاهتمام بكل ما هو من قبيل العظة والاعتبار، وإقامة الحجة على العباد، والتي لا يترتب عليها حكم خاص بأفعل أو لا تفعل، ولكنه من أهم الأسباب التي تأخذ بأيدي الناس إلى الأحكام، فالأصل في الجانب العقدي أنه الحجة والبرهان على أن المعبود بحق هو اللّه، ولا معبود بحق سواه، وأن ما جاء به الشرع هو الحق، الذي لا يتحقق مقام العبودية إلا به.

📖 **خامسا :** أن الزيادة على مجموع أقوال السلف، لا تجوز ولا يعتد بها، فيما يتعلق بالأحكام الشرعية، أما فيما يخص جانب العظة والاعتبار وإقامة الحجة، فالأصل ألا تعود على أقوال السلف بالإبطال، وبخاصة فيما اشتهر من أقوال، أما ما لم يشتهر من الأقوال، أو ما كان راجعا إلى العقل والنظر، فأرجح الأقوال أنه لا يمنع إحداث قول جديد، لم يقل به السلف، واللّه أعلى وأعلم.

وهذه هي أهم النتائج التي تتعلق بالقسم الأول.

القسم الثاني: المتعلق بمعاني الحديث الشريف

🕮 **أولا :** انعكس التناول الخبري لنص الحديث الشريف على عدم التعرض للجانب العقدي، والذي يدل عليه لفظ الاستهام، مع أن هذه الدلالة تمثل ركيزة من أهم الركائز التي يدل عليها الحديث، والتي تؤكد أن السفينة، وما يجري عليها، هي مثال لحياة البشر، والتي لا تنضبط إلا بالقضاء والقدر، وإلا لفسدت الحياة لو كانت خاضعة للتخيير المطلق للبشر فيما سيحاسبون عليه، واضطربت اضطرابا شديدا.

🕮 **ثانيا:** إن القول بأن القضاء والقدر هو ما كشف عنه علم الله الأزلي القديم وحسب، فأجراه الله عز وجل، دون تأثير منه سبحانه، في كل ما يتعلق به التكليف والحساب، هو قول في غاية الفساد والبطلان، ويؤدي إلى الطعن في العقيدة وتعطيل القدر، حيث يترتب على هذا القول أن بقاء الحياة مرهون بتصرفات الناس وأفعالهم، وهذا القول من قبيل الغفلة والعبث، وتنزه الله عن ذلك وعلا علوا كبيرا، فالأمر المؤكد الذي لا شك فيه أن كل علوم الدنيا، التي وصل إليها الإنسان، إنما هي مرهونة بالأقدار، وليس بمشيئة الناس، وجهودهم، وكل اختراعات الأسلحة المدمرة والمهلكة، والقدرة على استعمالها في دنيا الناس، لم تحدث أو تتم إلا بقضاء الله وقدره، ولولا ذلك لدمر أهل الأرض بعضهم بعضا، وكل هذا لا يقول به من يؤمن بوجود الخالق سبحانه، وهكذا نتبين فساد هذا القول وشناعته، والذي يجري على لسان أهل العلم المتأخرين، بكل أسف.

🕮 **ثالثا**: إن من لوازم القول بأن الإنسان مخير تماما، في كل ما يحاسب عليه، معناه ـ والعياذ بالله ـ أن الله خلق الخلق، وجعل مشيئته تابعة لمشيئتهم، وهذا القول المنكر طعن تام في مقام الألوهية، ونعوذ بالله من ذلك، ولا أدري كيف غابت هذه النتيجة عن أذهان القائلين بهذا القول، لأن مؤداه أن الظالم يظلم الناس كما يريد، ثم تكون مهمة الأقدار أن تسجل ذلك وتثبته، وياله من فحش في القول، وإلغاء لكل معاني الألوهية والربوبية، وكل هذا سَقطَ فيه أهل العلم هؤلاء، دون أن يفطنوا إلى هذه النتيجة.

🕮 **رابعا**: أن هذا القول والذي مثل له المتأخرون بمثال المدرس والطلاب، يمنع القضاء ويعطل القدر، فلا آجال محتمة، أو مؤقته بميقات لا يتقدم ولا يتأخر، ولا أرزاق ثابتة أو مقدرة، ولا ابتلاء يتعلق بأحد بعينه، بل هي حياة الناس وما يفعلونه، وما يتعرض به بعضهم لبعض، وهذا تعطيل لنصوص الشرع، وإلغاء لدلالتها ومقتضاها، فهذا القول وإن كان ظاهره يدل على حسن النوايا، ظنا أن هذا القول هو دليل العدل وعدم الظلم، ولكنه في حقيقته في غاية السوء والبطلان، ولا يمكن لمؤمن قط بعد هذا البيان أن يجري على لسانه هذا القول أو ما يماثله.

🕮 **خامسا**: إن هذا القول الذي يرجع القضاء والقدر إلى ما كشفه العلم الأزلي وأثبته القلم في اللوح المحفوظ، يقطع تعلق الناس بالإله تبارك وتعالى، ويجعل تعلقهم بالأسباب لأن الأسباب ستكون فاعلة لما خلقت له، لا محالة، دون تعلق بسبب قدري تسخيري، وهكذا يصبح الدعاء لا معنى له، ولا قيمة للاستخارة، ولا معنى للتوكل على الله، وكل هذا يهدم العقيدة من جوانبها كلها، والعياذ بالله من ذلك، فهل يظن

عاقل أن هذه النتيجة يقصدها مؤمن قط؟، يقينا لا، ولكن لا يعلم إلا الله كيف غفل هؤلاء الأعلام الجهابذة في مجالهم، عن هذه النتيجة، الضالة المضلة، والعياذ بالله.

🕮 **سادسا**: هذا القول ينسب الغفلة ـ والعياذ بالله ـ إلى رب العباد، حيث خلقهم وترك قويهم يأكل ضعيفهم، دون نصير أو مجير، وكأن أمر الخلق ـ والعياذ بالله ـ لا حيلة له فيه، والعياذ بالله، وهذا قول لا يقول به عاقل، فمثل هذا القول الفاسد لا يقال عن وجهاء الدنيا، الذين لا يقبلون أن تتخلف أوامرهم، أو يهان أحد من حاشيتهم، أو من يعملون لهم، فهل ينسب إليهم من صفات العلو والرقي ما لا يتصف به خالقهم؟ نعوذ بالله من الوقوع في هذه الغفلة، التي توصل إلى هذه النتيجة النكراء، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

🕮 **سابعا**: إن الحجة التي استدرجت القائلين بهذا القول، إنما هي نظرتهم إلى العدل وعدم الظلم، وغفلوا عن أن العدل المطلق وعدم الظلم إنما هو للخالق سبحانه وتعالى جل في علاه وحده لا شريك له، ومع هذا لا تطيق عقول البشر، ولو اجتمعت أن تحيط بذلك علما، وليس لها إلا الإيمان بما أخبر به سبحانه عن نفسه، والتسليم له جل وعلا كما أمر تبارك وتعالى.

ومن عجب أن أصحاب هذا القول قد أوقعهم قياسهم هذا ـ دون أن ينتبهوا ـ في فساد التمثيل والتشبيه، لأنهم نظروا إلى العدل فيما يجري بين المخلوقين ونسوا أن مقاييس العدل هذه إنما ترجع إلى أن الكل سواسية، لا فضل لأحد مهما علا على أحد غيره، مهما قل شأنه، بل قد يكون هذا الأشعث الأغبر عند الله تعالى في أعلى الدرجات، ولا يدانيه في درجته هذه كبراء ووجهاء، وعظماء في أقوامهم.

وهكذا عندما قالوا بقولهم الفاسد هذا أنزلوا المقاييس التي تحكم البشر، لتكون حكما على خالق البشر، وتنزه الخالق عن هذا وعلا علوا كبيرا، فهل فطن أصحاب هذا القول إلى هول هذا القول الفاسد؟؟

📖 **ثامنا**: إن القول الصواب الذي دلت عليه نصوص الشرع - غير المحصورة - هو أن التخيير لا يكون متروكا للبشر في أفعالهم، إلا بما تقوم به الحجة عليهم فقط، وما سوى ذلك فيخضع للتسيير والتسخير، والذي يتعلق القضاء والقدر بهما، وتنضبط بهما حياة الناس.

ولو أن الذين يقولون بالتخيير كما أوضحنا من أقوالهم ألغوا مقاييس البشر فيما بينهم، وبحثوا عن حكمة الخالق سبحانه الذي ليس كمثله شيء سبحانه، لعلموا أن التسيير والتسخير لهو من أعظم الأدلة على واسع رحمته بعباده سبحانه، حتى فيما يتعلق بأنفسهم، ولو ترك الأمر لإرادة الناس واختياراتهم فسيهلكون أنفسهم لا محالة، فكم من أعمال حيل بينهم وبينها بعدما هموا بفعلها، ثم تبين لهم بعد ذلك أنه لو تركوا لما أرادوا لكانوا وقعوا فيما يكرهون، ولكن الله سلم، كما في قوله تعالى ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ [البَقَرَة : ٢١٦]، وأصحاب هذا القول الساقط يعلمون هذا علم اليقين، ولكن كيف غفلوا عن هذه النتيجة المترتبة على قولهم هذا؟

📖 **تاسعا**: أن كل أفعال البشر هي مخلوقة لله تعالى، وهي من كسبهم، وأقدرهم الله تعالى على القيام بها دون قهر أو إكراه، ودون أن يحول بينهم وبينها حائل، فليس التسيير والتسخير من القهر في شيء، بل هما الإلهام والتوفيق، وكل المعاني البشرية

من خوف وجهل ونسيان وغير ذلك، إنما هي مخلوقات اللّه تعالى، يسيرها كيف يشاء سبحانه، وأن مشيئة العباد في كل ما يفعلون إنما هي تابعة لمشيئة اللّه تعالى ومراده، ولا يقع إلا ما قضى به سبحانه وقدره، جل في علاه.

ومفاد هذا القول المردود غير اللائق يجعل العباد كأنهم هم الذي يخلقون أفعالهم، مع أن القائلين بهذا القول الباطل، لا يقولون أبدا بأن العباد هم الذين يخلقون أفعالهم، ومع هذا جمعوا بين هذه المتناقضات بقولهم هذا، ومن هنا كان من الواجب ترك هذا القول ومحوه مما تتفوه به الألسنه محوا تاما.

📖 **عاشرا**: إن الإنسان لا قدرة له على إدراك صفة ما يقوم به من أفعال، وهل هو مخير أم مسير أم غير ذلك، فكل هذا لا يعلمه إلا اللّه، ولكن فقط هو اطمئنان القلب، أن اللّه ييسر أهل الطاعة والصلاح لكل الخير، وأما أهل الضلال فييسرون للعسرى ويساقون لها، وإذا ما استقر هذا اليقين الذي يمثل الحق والصواب فلن تكون للإنسان حيلة إلا اللجوء إلى اللّه تعالى والتوكل عليه حق توكله، دون الخوض فيما لا طاقة للعقول بفهمه.

ومفاد القول بالتخيير أن الإنسان قادر على معرفة نتيجة ما يقوم به وثمرته، وهذا خطأ بين يكذبه الواقع ومجريات الحياة، وليس الندم إلا دليلا على عجز الإنسان عن معرفة مآل أفعاله على وجه اليقين، ومن هنا يصبه الندم والغم والحسرة ويتمنى أن ما وقع منه لم يقع، وكل هذا ثمرة القول بالتخيير الذي نقلناه عمن يقولون به.

📖 **الحادي عشر**: أن للقضاء كتابين، كتاب يغير اللّه فيه ما يشاء، وهو الذي تتطلع عليه الملائكة، وكتاب لا تبديل فيه ولا تغيير، وهو القضاء المبرم، وقيل هو أم الكتاب، وهو علم اللّه تعالى، وهو اللوح المحفوظ، ولعل أهم فائدة من ذلك أن يوقن العبد أن الدعاء هو الملاذ الذي لا مناص منه، ولا حائل أمامه، فيجتهد ولا يثنيه عِظم المطلوب من السجود بين يدي ربه ومولاه متذللا، داعيا بكل ما يبتغيه، مما له فيه صلاح، وللّه فيه رضا، بكل حاجة من حوائج الدنيا أو الآخرة، طامعا في كرمه ومنه وعطاياه سبحانه، أن يقضيها وييسرها، كما يحب سبحانه ويرضى، فخزائنه سبحانه لا تغيض ولا تنضب.

📖 **الثاني عشر**: وكذلك فإن القول بالتسيير والتسخير، وتعلق القضاء والقدر بهما، يؤدي بالضرورة إلى إعلاء مفهوم التوكل على اللّه تعالى، وتمكن اليقين في النفوس، وتعلق القلوب بالدعاء، والاطمئنان إلى أن الضعيف ليس وحده، والظالم لا تغفل عنه عين اللّه تعالى، وأنه لا يقع في ملك اللّه تعالى، إلا ما أراد اللّه جل في علاه.

هذا فإن كان من توفيق فمن اللّه، وإن كان غير ذلك فمني، ومن الشيطان، وما توفيقي إلا باللّه عليه توكلت وإليه أنيب.

القسم الثالث
ما يتعلق بدلالة الحديث على المصائب العامة

أهم النتائج المتعلقة بالقسم الثالث ما يلي

📖 **أولا**: أحكم الخالق جل في علاه أمور الكون بحكمة بالغة، والتي لولاها لما استقام شيء في الوجود، ومن رحمته سبحانه أن المصائب مهما كان عظم ضررها إلا أنها تحمل في طياتها منافع كثيرة، سواء أدركنا منها الكل أو البعض، فإنها لا محالة موجودة.

ولعل من أهم جوانب الرحمة التي تحملها هذه المصائب ما يتعلق بمقام العبودية، والذي هو الأصل في خلق البشر، بما تمثله من ضآلة البشر وعجزهم، وانقطاع حيلتهم، مما يدفعهم دفعا إلى التفكر في الغيب الذي لا تدركه العقول، ولا قدرة للعقول على إدراكه إلا ما أخبر عنه الخالق سبحانه، وكم أجبرت المصائب من أناس كانوا على الكفر فقادتهم من خلال التفكر فيها والرسالة التي تحملها إلى الإسلام، والتي هي أعظم نعم الحياة جميعا.

📖 **ثانيا**: إن المتأمل في هذه المصائب الكبرى يدرك لا محالة أن القول بتخيير الإنسان في كل ما يحاسب عليه، لهو من أفسد الأقوال، لأنه يعنى تعلق مقادير العباد، أو جزء منها بإرادة الإنسان المنفردة، الناشئة عن التخيير التام، والذي يترتب عليه أن أقدار الذين ماتوا بسبب الأسلحة الفتاكة وغيرها، إنما تعلقت آجالهم بإرادة الذين اخترعوا هذه الأسلحة، والذين حملوها

واستعملوها في القتل، وكأن هؤلاء المخترعين ومن معهم قد قاسموا الخالقَ سبحانه في تصاريف القدر، وآجال الناس، وياله من قول جلل، هو والكفر سواء، والعياذ بالله.

📖 **ثالثا**: يتمايز الناس، في حال وقوع المصائب العامة الكبرى، وتقوم الحجة على كل من الطرفين، وكذلك على كل من علم بهذه الكوارث، وما أصاب الناس فيها، لتكون العظة والاعتبار واللجوء إلى الله إعلاء من درجات أهل الطاعة والإيمان، وتكون قساوة القلب والاستخفاف عقوبة أهل الغفلة والعصيان، بسبب ما تسوقهم إليه هذه المصائب من سوء المصير، والعياذ بالله.

وهكذا تكون المصيبة الواحدة، ابتلاء للبعض وتمحيصا، وعقوبة لآخرين وتنكيلا، ولا تأثير لأي منهما على الآخر، والله أعلى وأعلم.

📖 **رابعا**: دل الحديث الشريف على أن غرق السفينة متعلق بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وغرق السفينة، وهلاك من عليها، يقتضي أن يجتمع على ظهرها كل من ارتبط موته بغرق السفينة، ولو ترك ذلك للتخيير لكان معنى ذلك إمكان تقدم الأجل وتأخره بحسب أحوال الناس، وهذا يغاير ما أكدته أدلة الشرع أن الآجال لا تتقدم ولا تتأخر، عن القضاء المبرم المحتم، الذي سبق عند الله تعالى أزلا.

والأمر المتيقن أن غرق السفينة يمكن أن يتقدم أو يتأخر إن كان مرهونا بالتخيير، وقد نصت الآيات، والأدلة أن ذلك مستحيل، كما يبينه قوله تعالى: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ} وهكذا نتحقق وبيقين تام أنه يستحيل أن يتعلق القضاء والقدر بالعلم الكاشف وحده، الذي

يستلزمه التخيير، بل لابد من تدخل القدرة الإلهية، بالتسيير والتسخير، حتى يجتمع كل من كتب عليه الغرق والموت، وكذلك ليكون الغرق في نفس البقعة التي سبق بها القدر المحتوم، والله أعلى وأعلم.

📖 **خامسا**: أن مسألة التسيير والتسخير يختلف أثرها على الفرد منها على الجماعة، وإن كان لا غنى لأحدهما عن الآخر، فالفرد هو واحد من جماعة يتأثر بها ويؤثر فيها، ولكن ليس معنى هذا أبدا أن يكون مصير كل أفراد الجماعة واحدا، حتى وإن ألمت بهم مصيبة عامة، بل يهيء الله لكل فرد من الأسباب ما يقوده إلى ما قدر له، مهما تشابهت ظروفهم وأحوالهم، فما كان الله ليعجزه من شيء.

📖 **سادسا**: أنه مما تقتضيه العقول أن يكون للأفراد مطلق الإرادة والاختيار التام فيما يقابلون به دعوة المرسلين، تحقيقا للعدل وعدم الظلم، كما ذهب كثير من المتأخرين من أهل العلم.

ولكن ليس الأمر كذلك، بل شاءت إرادة الخالق سبحانه أن يقيم الحجة على عباده، في حياتهم وتصرفاتهم، بأنه الإله الحق، ولا معبود بحق سواه، ومع هذا لم يحاسبهم بموجب الميثاق الذي أخذه عليهم، وعلى الخلق جميعا، وكفى به حجة، ولكن رحمة منه سبحانه أرسل إليهم الرسل، وترك لهم حرية الاختيار في إجابة المرسلين.

☜ **ومع هذا**: لا يوجد دليل واحد على أن قيام الحجة يقتضي التخيير التام، بل إن كل الأدلة تقطع بأن الحجة، تقوم بما يعلم الله تعالى أنها قامت به، وبهذا تكون المساءلة والحساب.

ولو كانت الحجة لا تقوم في كل ما يعجز العقل عن إدراكه، لانتفى تماما مفهوم العبودية، ولأصبح إيمان الناس قهرا، وهذا غير صحيح.

فلو لم تنقطع الحجة إلا بالتخيير التام لاقتضى هذا أن يتساوى الناس فيما يرونه من معجزات حسية، وعينية، يجريها اللّه تعالى على أيدي الرسل، وهذا ما تكذبه جميع رسالات المرسلين، فقد وقعت المعجزات ورآها بعض العباد، ولم يرها آخرون، وكذلك الحال بعد موت الرسول في الأمة التي أرسل إليها، وكل هذا يؤكد أن كيفية العدل وعدم الظلم لا يعلمها إلا اللّه جل في علاه.

📖 **أخيرا**: ابتعث اللّه أمة الإسلام، واختصها بهذه الفترة أو الحقبة الزمنية، وشرفها بخاتم المرسلين ﷺ، وأجرى عليها من المصائب والمحن، ما تتعلم منه كيف تقوم على رسالتها كما يليق بكونها خير الأمم، ولولا المصائب لما تقدمت حياة الناس أبدا، وليست معنى الخيرية أن ينعدم مقام العبودية، بل على العكس تماما لا تتحقق الخيرية إلا بإعلاء مقام العبودية كما يحب سبحانه وتعالى ويرضى.

وفي ظل هذه المعاني، وباستحضار آية الزلزال، يمكن تصور الأمر القدري على أن الزلزال فجيعة مرعبة، تهدد حياة الناس، وسيدفع الخوف الناس إلى سبر أغوار العلوم المختلفة، وصولا إلى التغلب على آثار المصيبة أو منعها، أو التخفيف منها، وقديما قالوا إن الحاجة أم الاختراع، ولن يتحقق ذلك بالتسيير والتسخير وحده، بل لابد من التخيير التام أولا، فيما تقوم به الحجة على أمة الإسلام، ثم يأتي بعد ذلك تيسير اللّه لأفراد المسلمين وتسخير

الأسباب لهم، ليصلوا إلى ما قدر لهم من العزة وعلو الشأن بين الأمم جميعا.

ولو سارت الأمور بالتسيير والتسخير وفقط، لكان معنى هذا الاكتفاء بالركون إلى الدعاء، لتقضى به الحاجات، ويصبح حال البشر، أقرب إلى حال العجماوات، التي سخر الله لها سبل عيشها، دون أن تمتلك عقلا أو فهما يحركها، فكذلك يكون حال البشر الذين يأبون أن يقدموا من أنفسهم ما يستحقون به العون والتوفيق.

ولم يخلق الله أمة الإسلام لتكون كالبهائم، بل هي الأمة المثال، التي فضلت على العالمين بحق، لأنها خير أمة أخرجت للناس، وقد ابتعثهم سبحانه ليظهر على أيديهم عظيم خلقه، ودلائل قدرته، ولو دان لهم ذلك بغير جهد منهم، لانعدم المراد منه، ولهذا كانت المصائب والكوارث، مع ضرورة التخيير في مواجهتها، بالقدر الذي يكسب كل خلايا العقول وأجهزة الجسد الخبرة والدربة والمهارة، التي تناسب مهمتها التي انيطت بها، والله أعلى وأعلم.

القسم الرابع والأخير

📖 **وهذا القسم العام أضافه الأستاذ الدكتور السيد مصطفى السيد:**

إذا كان القضاء والقدر مجرد علم كاشف فليس هناك من مبرر لنزول القرآن الكريم منجمًا حسب الوقائع التي كانت تحدث ويمر بها المجتمع المسلم والجماعة المسلمة والتي كان القدر ينقل خطاها من مرحلة إلى مرحلة ويؤيدهم بالملائكة وهم جزء من القدر ويكشف ما كان يعتلج صدورهم ويصحح مسارهم.

كان اللّه ولا شيء معه، وأننا لم نكن شيئًا ثم كنا، وكان مريدًا ولم يزل، ولم تكن هناك إرادة غير إرادته، وهو المهيمن سبحانه وما من مشيئة أو إرادة إلا تابعة لمشيئته وإرادته، لا تنفك عنها ولا تستقل بذاتها.

الذين قالوا بالتخيير التام أغفلوا جانب العظمة الكاملة والرحمة التامة التي استوى بها على عرشه والتي من خلالها يدبر وينظم وينسق جميع الخيوط المتشابكة لجميع خلقه وإرادتهم من جن وإنس وجمادات وبقية الكائنات لتحقق مراده الأعلى سبحانه ـ بحكمة وعلم ورحمة شاملة محيطة، تعجز عنها العقول، وتحار فيها الأفهام، عظمة ورحمة؟؟؟ بهما يجري كل شيء في الكون، ومثال ذلك ما حدث للقاضي **علي الطنطاوي**"[1].

[1] قصة المرأة المظلومة ــ يقول الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله: كنت قاضيا في الشام وحدث أن كنا مجموعة نمضي المساء عند أحد الأصدقاء فشعرت

وما العجب وما الظلم في أن يسيرهم بمرادهم ليحققوا مراد مولاهم والذي به تظهر ربوبيته على جميع خلقه فقدر اللّه كله خير والشر ليس إليه سبحانه سواء أدركوا أم لم يدركوا... وسيفنى هذا العالم بمن فيه، ويبقى وجه اللّه وحده لا شريك له في ملكه.

والعجيب في أمر الذين قالوا بالتخيير التام أنهم يحكون ويروون قصصًا مبهرة لجميل صنع اللّه ـ في حركة البشر ـ تبرهن على صدق ما نطق به البحث، من أن قدر اللّه غلاب، و نحن مأمورون بالتفكر في هذا القدر، امتثالا للعبودية، وملامسة لأقدار اللّه تعالى، حتى يتحقق لنا الرضا والطمأنينة، وحتى

بضيق نفس واختناق شديد فاستأذنت أصدقائي للرحيل، فأصروا أن أتم السهرة معهم، ولكني لم أستطع، وقلت لهم: أريد أن أتمشى، لأستنشق هواء نقيا! خرجت منهم مشيا وحدي في الظلام، وبينما أنا كذلك إذ سمعت نحيبا وابتهال آت من خلف التلة! نظرت فوجدت امرأة يبدو عليها مظاهر البؤس كانت تبكي بحرقة، وتدعو الله إقتربت منها وقلت لها: ما الذي يبكيك يا أختي قالت: إن زوجي رجل قاس وظالم طردني من البيت، وأخذ أبنائي، وأقسم أن لا أراهم يوما، وأنا ليس لي أحد، ولامكان أذهب إليه، فقلت لها: ولماذا لا ترفعين أمرك للقاضي؟ بكت كثيرا وقالت: كيف لامرأة مثلي أن تصل للقاضي؟!! ثم يكمل الشيخ وهو يبكي يقول: المرأة تقول هذا وهي لا تعلم أن الله قد جر القاضي (يقصد نفسه) من رقبته ليحضره إليها، سبحان من أمرَهُ بالخروج في ظلمة الليل، ليقف أمامها بقدميه، ويسألها هو بنفسه عن حاجتها، أي دعاء دعته تلك المرأة المسكينه ليستجاب لها بهذه السرعه وبهذه الطريقه.

يتحقق بنا وفينا مراد اللّه جل في علاه، والذين يعاينون الأقدار ويغالبونها هم الأقدر والأجدر على الإحساس بالقرب من اللّه ومشاهدة عظمة ربوبيته في جميل صنعه، وعظيم تقديره، فيرون يد اللّه تعمل في كل شيء، وتحرك كل شيء وتهيمن على كل شيء، وهذا ما أراد أن يبينه **الخضر عليه السلام** لسيدنا **موسى عليه السلام** من خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار.

الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها إئتلف وما تناكر منها اختلف كما حدث الصادق المصدوق ﷺ وفي بعض شروح الحديث ما يفيد وجود عالم سابق على عالمنا هذا حدث فيه التعارف والتناكر والذي يترتب عليه الائتلاف والاختلاف في الدنيا وهي ومضة خاطفة من عالم غيبي تؤثر في حياتنا تأثيرًا كبيرًا ولا ندرك إلا آثارها.

شتان بين من يعتقد أن اللّه علم أزلا أنه سيفعل طاعة بعينها وأنه سيمرض وأنه سيرتكب معصية بعينها ثم كتب ذلك في اللوح المحفوظ وبين من يعتقد أن اللّه علم أزلا أنه سيهديه وييسر له الطاعة ويوفقه إليها وأن اللّه سيجري عليه المرض وأنه سبحانه سيحول بينه وبين المعصية لحكمة شاملة محيطة عليمة تنطوي على رحمة من اللّه غير محدودة فالأول نسب الأمور إلى نفسه ورفع يد اللّه عن التدخل في شئون حياته ومجرياتها... والثاني يعلم أنه عبد لمولاه ترك اختياره لسيده ومولاه لأنه يعلم أنه أرحم به من نفسه ورضى بما يجريه عليه فاحتمى به وقنع بما أعطاه.

ركن الاعتقاد الوحيد الذي يعطي إجابة تقنع العقل وترضي القلب وتشبع العاطفة على تساؤل: لماذا خلقنا؟ هو ركن القضاء والقدر... ولسنا نعني بالسؤال العلة من الخلق فاللّه عز

وجل حددها بقوله سبحانه: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} **ولكننا نتساءل عن الحكمة من خلق الإنسان فكثيرًا ما نسمع من الملاحدة: لماذا خلقنا؟** ولماذا هذه الابتلاءات والفتن والأمراض والكوارث؟ ولِمَا أخلق بلون أسود أو ببعض التشوهات والإعاقات؟ ولما أوضع تحت ضغوط وإرهاق عصبي وتكاليف وأوامر ونواهي ثم يترتب على ذلك حساب وجزاء وجنة ونار وعذاب ونعيم بالقبر؟ بالطبع الرد أنه سبحانه إله لا يسأل عما يفعل وهم يسألون لكن هؤلاء الملاحدة لا يؤمنون بوجود إله وهم يخدعون أنفسهم **لكننا نقول لهم:** لقد خلقتم أو وجدتم في هذه الدنيا وهذا الواقع فما بمقدوركم أن تفعلوه؟ إن استطعتم أن تمنعوا الموت فافعلوا وإن استطعتم أن تغيروا جلودكم فافعلوا وإن استطعتم ألا توجدوا فافعلوا ولكن هيهات هيهات.. فليس أمامكم إلا أن ترضوا بهذا الواقع وتنتفعون بكل ما فيه وتتجنبوا ما يؤذيكم ويؤذي الآخرين وتتأقلموا على وجودكم ووجود الكائنات الأخرى في حياتكم وتتعرفوا على كيفية التعامل معها وتنصاعوا للأقدار التي تجري عليكم وتغالبوها لتفلحوا.

الفهرس العام

(حديث السفينة ومجريات القدر)

الموضـــــــــــــــــــــــــــــــــوع	الصفحة
مضمون البحث	٧
في دائرة البحث،	١٣
بين يدي البحث،	٢١
المقدمة،	٢٤
التمهيد	٣٦
من ثمرات حديث الاستهام على السفينة	٦٢
منهجي في هذا البحث	٦٣
القسم الأول	٦٩
حديث السفينة دراسة تحليلية	٧١
الاستهام على السفينة	٧٣
نص الحديث الشريف	٧٤
الموازنة بين روايات الحديث	٨٧
حكم الزيادة على مجموع أقوال السلف	١١٥
القسم الثاني	١٢٣
لفظ الاستهام، وتعلقه بالقدر	١٢٥
حتمية الاستهام في حديث السفينة	١٢٧
الاستهام ودلالة النهي عن الكلام في القدر	١٣٩
دلالة لفظ الاستهام في الحديث الشريف	١٥٦
مشيئة الخالق ومشيئة العباد	١٥٨
الأخذ بالأسباب وتعلقه بالقدر	١٧٨
القدر والسبب الغيبي غير المعلوم	١٩٨
القدر وفطرة الخلق	٢٠٤
الأسباب والوسائل وتعلقها بالنتائج	٢٠٦
القدر والعلم الكاشف	٢١٤
أقسام العلم الكاشف	٢٣٨
التسخير والحساب	٢٥٠
الابتلاء والحساب	٢٥٨
أفعال الإنسان وتعلقها بالقدر	٢٩٥
الدعاء والقضاء	٣٣٣

الكتابة في اللوح المحفوظ ٣٤٩
أمثلة تطبيقية على تعلق أفعال العباد بالقدر وليس بمشيئتهم وإرادتهم ٣٦٩
القسم الثالث ٤١٥
الظواهر الكونية وتصاريف القدر ٤١٧
المصائب العامة بين العقوبة والابتلاء ٤٣٢
العقوبة والابتلاء: ٤٣٥
عود إلى حديث السفينة ٤٣٧
غرق السفينة والقضاء والقدر ٤٥٧
التسخير والثواب ٤٥٩
الزلازل والقدر المحتوم ٤٦٤
القضاء والقدر وتعلقهما بالأفراد والجماعات ٤٧٠
التسيير والتسخير ومؤاخذة الأمم ٤٧٧
أمة الإسلام ومجريات القدر ٤٨٤
التسيير والتسخير وأمة الإسلام ٤٨٤
الخاتمة ٤٩٧
الثمرة المرجوة من البحث والفهم الصحيح لنصوص الشرع ٤٩٩
نتائج البحث ٥٠٦

الفهرس التفصيلي

الموضـــــــــــــــــــــــــــــوع	الصفحة
حديث الاستهام على السفينة ومجريات القدر..	١
مضمون البحث ويشتمل على:..	٧
(في دائرة البحث، وثلاثة أقسام، وخاتمة ونتائج)	
في دائرة البحث، ويشتمل على:..	٩
(إهداء، شكر وتقدير، شكر وتقدير خاص، بين يدي البحث، المقدمة، التمهيد)	
التمهيد..	٣٦
حديث السفينة ومسألة التخيير والتسيير...	٣٩
من ثمرات حديث الاستهام على السفينة...	٦٢
منهجي في هذا البحث..	٦٣
الركيزة الأولى: الاستدلال بعصور الإجماع المعتبرة.................................	٦٣
الركيزة الثانية: الاستطراد والتكرار..	٦٤
الركيزة الثالثة: الإكثار من الأدلة..	٦٥
الركيزة الرابعة: بيان المصطلحات المستعملة....................................	٦٧
القسم الأول..	٦٩
حديث السفينة دراسة تحليلية..	٧١
الاستهام على السفينة...	٧٣
نص الحديث الشريف..	٧٤
الرواية الأولى في صحيح البخاري...	٧٤
وفي الرواية الثانية في الصحيح أيضا..	٧٤
المعنى المتبادر من الحديث الشريف...	٧٥
تقريب البيان بضرب المثال...	٧٧
دلالة اللفظ في سياق الأخبار وفي سياق التشبيه..................................	٨٣
الموازنة بين روايات الحديث..	٨٧
أسباب اختلاف الروايات:..	٩٦
تعدد الروايات والاعتداد بها شرعا..	١٠٠
{وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ .....}.............................	
المغزى العام المستفاد من الحديث..	١٠٣
{كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ....}..	
زيادة المبنى وأثره في خفاء المعنى..	١٠٧

ما يترتب على الفهم التام للحديث ١١٥
حكم الزيادة على مجموع أقوال السلف ١١٥
نصوص الشرع من الجهة التكليفية وعدمها تنقسم إلى قسمين ١١٥
القسم الأول: نصوص تتناول أحكام التكاليف الشرعية ١١٥
{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} ....
{إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ....} ....
{وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ....} ....
{إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} ....
القسم الثاني: نصوص لا تتعلق بالأحكام الشرعية، بل بإقامة الحجة والإثبات بالبرهان. ١١٥
{سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ} ....
{إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ....} ....
{مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ....} ....
حديث السفينة بين مقام التكليف ومقام الحجة والبرهان ١٢٢
القسم الثاني ١٢٣
لفظ الاستهام، وتعلقه بالقدر ١٢٥
حتمية الاستهام في حديث السفينة ١٢٧
{وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا} ....
{إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} ....
{وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ} ....
أهمية لفظ الاستهام في الحديث الشريف: ١٣٤
والذي نقصده بلفظ الحتمية هنا أمران: ١٣٦
{وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ....} ....
{فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ .....} ....
{أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} ....
الاستهام ودلالة النهي عن الكلام في القدر ١٣٩
{فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} ....
اعتقاد الأئمة الأربعة ١٥٢
دلالة لفظ الاستهام في الحديث الشريف ١٥٦
مشيئة الخالق ومشيئة العباد ١٥٨
ونبدأ هذا البيان من خلال حديث السفينة ١٦١
الأصل الأول: أن الله ليس بظلام للعبيد ١٦٢

الأصل الثاني: أن مشيئة الله نافذة ١٦٢
الأصل الثالث: أن مشيئة العبد مقيدة وليست مطلقة ١٦٢
{وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ.......... } ....
{أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} ....
والذي أريد أن أثبته من خلال هذا البحث هو ١٦٧
أنه: "لا يوجد لمخلوق قط إرادة كاملة واختيار مطلق في أفعاله التي يحاسبه الله عليها، لأن القول بذلك طعن في العقيدة وتعطيل للقدر"
وليس معنى ذلك نفي وجود الإرادة والاختيار للإنسان، بل المنفي هو الإرادة والاختيار المطلقين، وحسب ١٦٧
الدليل الأول: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ.. } ١٦٩
الدليل الثاني: {وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ ....} ١٧٠
{رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ....} ١٧٢
الدليل الثالث: {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ} ١٧٣
{وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} ١٧٣
الأخذ بالأسباب وتعلقه بالقدر ١٧٨
{وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ....} ....
{إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ....} ....
{إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} ....
{قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ....} ....
{أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ} ....
{أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ} ....
{سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ} ....
{أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا} ....
{وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ ....} ....
{فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ....} ....
{وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا ....} ....
تعلق السبب بالقدر: ١٨٥
{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ} ....
{وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} ....
{وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ ....} ....
{إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} ....

{إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض ....} ....
{تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن ....} ....
{ثم استوى إلى السماء وهي دخان ....} ....
{ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ....} ....
حديث السفينة وتعلقه بالسبب والقدر: ١٩٣
{ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد} ....
{قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى} ....
{ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون} ....
{وكان أمر الله قدرا مقدورا} ....
{إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علما} ....
{عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا ....} ....
{هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها} ....
{هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا ....} ....
القدر والسبب الغيبي غير المعلوم سلطان١٩٨
{وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا ....} ....
{قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا ....} ....
{ونقلب أفئدتهم وأبصارهم ....} ....
القدر وفطرة الخلق: ٢٠٤
الأسباب والوسائل وتعلقها بالنتائج ٢٠٦
(وأوحى ربك إلى النحل) ....
{ونفس وما سواها ....} ....
{فتبارك الله أحسن الخالقين} ....
يقول تعالى: {وعنده مفاتح الغيب ....} ....
{للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ....} ....
{أمن يجيب المضطر إذا دعاه ....} ....
القدر والعلم الكاشف ٢١٤
{وكان أمر الله قدرا مقدورا} ....
العلم الكاشف ٢١٨
هل العباد مسيرون مجبورون؟ ٢٢١
قوله تعالى: {واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها..............} ....
الفرق بين القهر والتسخير ٢٢٤

والعلم الكاشف له متعلقان	٢٢٤
التعلق الأول: وهو علم ما يتعلق بدنيا الوجود، (أي دنيانا)	٢٢٤
التعلق الثاني: وهو علم ما يتعلق بما لم يكن لو كان كيف سيكون	
وتصوير المسألة التي نريد الحدث عنها فيما يتعلق بدنيا الوجود	٢٢٤
وذلك من جوانب	٢٢٦
الجانب الأول: أن الله عز وجل نسب إلى نفسه الابتلاء	٢٢٦
{وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ....}	
الجانب الثاني: ويؤكد ـ أيضا ـ بطلان قول من قال: إن القدر هو ما كشف عنه	
العلم، أن هذا القول ينفي الإرادة الحقيقية للرب فيما يتعلق بالعباد	٢٢٩
{قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ}	
{بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ}	
{وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا}	
الجانب الثالث: أنه لو تعلقت المقادير بالعلم الكاشف وحده لتعطلت نصوص	
الشرع، وعلى سبيل المثال لا الحصر	٢٣٠
{قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ....}	
ومن الأدلة أيضا:	٢٣٢
{أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ....}	
الجانب الرابع: في ظل القول بأن المقادير تتعلق بالعلم الكاشف وحسب تتحول	
الحياة إلى غابة يأكل القوي فيها الضعيف	٢٣٢
{أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ}	
{أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ....}.	
الجانب الخامس: أن أفعال المخلوقين جائزة أو ممكنة	٢٣٥
يقول تعالى: {أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا ....}	
{لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ}	
{وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ}	
{إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ}	
{وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ.........}	
أقسام العلم الكاشف	٢٣٨
نقسم ما ينكشف بعلمه سبحانه إلى قسمين	٢٣٨
القسم الأول: ما هو واقع بالفعل في دنيا الوجود	٢٣٨
القسم الثاني: ما لم يقع في دنيا الوجود، ولكن كان سيوجد لولا أن حال الله بينه وبين	
الوجود.	٢٣٨

قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ..........} ......
{أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ....} ....
القسم الثاني: وهو ما لم يقع في دنيا الوجود، ولكن كان سيوجد، لولا أن حال الله بينه وبين الوجود. ٢٤٢
{إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ .... } ....
{وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى} ....
{فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ....} ....
{وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا ....} ....
{لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ ....} ....
{يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ....} ....
{وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا}. ....
التسخير والحساب ٢٥٠
{وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} ....
{وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ....} ....
{وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا} ....
{إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} ....
{وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ} ....
{يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} ....
{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ.........} ....
الابتلاء والحساب ٢٥٨
{وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ ....} ....
{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ....}. ....
{هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا} ....
أدلة التسخير والحساب ٢٦٧
{فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ ....}. ....
{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ ....} ....
ومن أدلة التسخير والحساب أيضا ٢٧١
{لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ....} ....
{إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ} ....
ومن الأدلة الصريحة ـ كذلك ـ على التسخير ومعه الحساب ٢٧٥
{وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ....} ....

{وَإِذَا قرأتَ القرآنَ جعلنا بينكَ وبينَ الذينَ لا يؤمنونَ بالآخرةِ حجابًا مستورًا} ......
{ألم ترَ أنا أرسلنا الشياطينَ على الكافرينَ تؤزهم أزًا} ....
{وَمَن يعشُ عن ذكرِ الرحمنِ نقيضْ له شيطانًا فهوَ له قرينٌ ....} ....
وهذه الآيات ينظر لدلالتها من جانبين: ٢٨٢
الجانب الأول: جانب المسخّرين أنفسهم ٢٨٢
الجانب الثاني: من يتعلق بهم أفعال المسخرين ٢٨٣
الأدلة غير المباشرة على التسخير والحساب: ٢٨٣
{مِن أجلِ ذلكَ كتبنا على بني إسرائيلَ ....} ....
{ولو يؤاخذُ اللهُ الناسَ بظلمهم ....} ....
فأي مقتول على وجه الأرض يجتمع فيه أصلان: ٢٨٤
الأصل الأول: أنه إنما لاقى بالقتل قدره المحتوم. ٢٨٤
الأصل الثاني: من قتل مظلوما فإنما وصف الظلم الذي وقع عليه هو بالنظر إلى أفعال العباد بعضهم مع بعض، وليس بالنسبة لمطلق القتل، فليس في القدر ظلم.... ٢٨٤
{والذينَ لا يدعونَ معَ اللهِ إلهًا آخرَ ولا يقتلونَ النفسَ ....} ....
{يضاعفْ له العذابُ يومَ القيامةِ ويخلدْ فيهِ مهانًا}، ....
{وليحملنَّ أثقالهم وأثقالًا معَ أثقالهم ....
ويترتب على مسألة التسخير وتعلقها بالحساب ما يلي: ٢٩١
{وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا } ....
وعلى هذا كيف يكون التسخير والحساب في نفس الوقت "مقترنين": ٢٩١
ومن الأدلة التي تفيد التسخير ٢٩٢
{وإذا أردنا أن نهلكَ قريةً ....} ....
أفعال الإنسان وتعلقها بالقدر ٢٩٥
{لو كانَ فيهما آلهةٌ إلا اللهُ ....} ....
{الذي له ملكُ السماواتِ والأرضِ ولم يتخذْ ولدًا ....} ....
{إنا كلَّ شيءٍ خلقناه بقدرٍ} ....
{للهِ ملكُ السماواتِ والأرضِ يخلقُ ما يشاءُ ....} ....
{قالَ الملأُ الذينَ استكبروا من قومهِ لنخرجنكَ يا شعيبُ ...} ....
{اللهُ لطيفٌ بعبادهِ يرزقُ من يشاءُ وهوَ القويُّ العزيزُ} ....
(في قوله تعالى {وما تشاءونَ إلا أن يشاءَ اللهُ ربُّ العالمينَ} ....
قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ {أولئكَ الذينَ لم يردِ اللهُ أن يطهرَ قلوبهم} ....

خطأ أهل العلم المتأخرين في مسألة التسيير والتسخير ٣١٠
تصويب الخطأ وبيان المصطلحات ٣١٣
{قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا .....} ....
{فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ......} ....
{ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون ....} ....
{إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار} ....
{يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود ....} ....
الاستعمال الشرعي لهذه المصطلحات ٣١٦
{ثم استوى إلى السماء وهي دخان ....} ....
{الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ....} ....
{من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره ....} ....
{أهم يقسمون رحمت ربك ....} ....
القدر لا ينافي التخيير التام أحيانا ٣١٨
{وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ....} ....
الدليل الأول: {تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض .....} ٣١٩
الدليل الثاني: {إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق.......} ٣٢١
الدليل الثالث: {والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا ....} ٣٢٢
الدليل الرابع: {فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ......} ٣٢٦
الدليل الخامس: {لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما} ٣٢٨
{سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم ....} ....
{رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة ....} ....
{وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ....} ....
{إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ....} ....
الدعاء والقضاء ٣٣٣
الأصل الأول: علم الله واسع محيط بكل شيء، ما كان وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون. ٣٣٣
{إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علما} ....
{وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون} ....
{ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه .....} ....
{هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم} ....
{الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض ....} ....

{أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين} ....
{يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور}..........
{إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي} ....
{وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ....} ....
{فأما من طغى ﴿٣٧﴾ وآثر الحياة الدنيا ....} ....
{أرأيت من اتخذ إلهه هواه}، ....
{ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه} ....
المراد بعلم الله تعالى ٣٣٦
{ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء} ....
{عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا ....} ....
{ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام ....} ....
{قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم} ....
{إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ....} ....
الأصل الثاني: أن علم الله تعالى أزلي قديم غير حادث. ٣٣٧
الأصل الثالث: أن علم الله تعالى لا يتخلف أبدا. ٣٣٩
{ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد} ....
{وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم} ....
{وخلق كل شيء فقدره تقديرا} ....
{وكان أمر الله قدرا مقدورا} ....
الجواب عن شبهة التغيير والتبديل ٣٤٤
{يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب} ....
{وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو .....} ....
{وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن...........} ....
{وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين} ....
{وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها..........} ....
الكتابة في اللوح المحفوظ ٣٤٩
الغرض من الكتابة في اللوح المحفوظ ٣٥٢
{ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز} ....
{هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات ....} ....
هل الدعاء يرد القضاء؟ ٣٥٦
{هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده} ....

{فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون} ....
المقصود برد القضاء ٣٥٨
{لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم} ....
{يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب} ....
أمثلة تطبيقية على تعلق أفعال العباد بالقدر وليس بمشيئتهم وإرادتهم ٣٦٩
الدليل الأول: {هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب........} ٣٧٠
الوجه الأول: {ما ظننتم أن يخرجوا} ٣٧١
الوجه الثاني: {فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب} ٣٧٣
الوجه الثالث: {يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار} ٣٧٥
الوجه الرابع: {ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء......} ٣٧٧
{وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض.....} ....
{وخلق كل شيء فقدره تقديرا}، ....
الدليل الثاني: {لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك ......} ٣٨٢
ودلالة هذه الآيات من أوجه عدة: ٣٨٣
الوجه الأول: {فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا} ٣٨٣
الوجه الثاني: {وكف أيدي الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين} ٣٨٥
الوجه الثالث: {ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ....}. ٣٨٦
الوجه الرابع: "وهو الذي كف أيديهم عنكم ....} ٣٨٨
الدليل الثالث: {إن فرعون علا في الأرض ....} ٣٩٢
{وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله} ....
{وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا} ....
{ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم ....} ....
{إنما النجوى من الشيطان ....} ....
{وليس بضارهم شيئا إلا بإذن الله} ....
{هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ....} ....
{ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه ....} ....
{ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم ....} ....
{فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون ....} ....
الدليل الرابع: {إلا تنصروه فقد نصره الله ....} ٤٠٢
{إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا ....} ....
الدليل الخامس: {حتى إذا استيأس الرسل وظنوا ....} ٤٠٥

{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا ....}	
ومن الأدلة أيضا، {سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ}	٤٠٧
{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ ....}	
{أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ ....}	
{فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ ....}	
{فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ....}	
ومن الأدلة العديدة: {وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ ....}	٤١٠
{ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا ....}.	
{فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ....}	
{وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ}	
{وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ ....}	
{وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ ....}	
القسم الثالث	٤١٥
الظواهر الكونية وتصاريف القدر	٤١٧
الظواهر الكونية وتصاريف القدر	٤١٩
لا يجري شيء في الكون إلا لحكمة	٤٢١
{قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ....}	
{...أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ}	
{وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا.............}	
{أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ....}	
{يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}	
{جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا}	
{إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ}	
{إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ}	
{.. وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا}	
{وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ ....}	
{اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ ....}	
وهكذا يقسم الخوف الناس ـ بدافع الخوف وليس بالاختيار ـ إلى فئتين:	٤٢٧
الفئة الأولى: فئة تخاف الخالق جل في علاه، فترجع إليه سبحانه وتتقيه،	٤٢٧
{ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ}	٤٢٧
والفئة الثانية: حالهم هو التكذيب والإنكار	٤٢٧

{قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون}.
{ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ....}. ....
{سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض ....} ....
{وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها} ، فلا تبديل لكلمات الله ....
المصائب العامة بين العقوبة والابتلاء ٤٣٢
{الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم} ....
وهكذا يتمايز الناس عند الابتلاء: ٤٣٣
فريق منهم استسلموا ورضوا بقضاء الله تعالى وقدره، إيمانا بأن قدر الله كله خير، إذا ما أحسنوا التعامل معه: {ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع.....} ٤٣٣
{قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون}.
وهؤلاء هم الفريق الثاني، فريق الغفلة والاستكبار: ٤٣٣
{ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء ....} ....
العقوبة والابتلاء: ٤٣٥
{ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى} ....
{يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها ....} ....
عود إلى حديث السفينة ٤٣٧
متى تغرق السفينة: ٤٣٩
الدليل الأول: {قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين ....} ٤٤٠
{الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزيز} ....
{والله فضل بعضكم على بعض في الرزق ....} ....
{الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ....} ....
{ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ....} ....
{وأوحى في كل سماء أمرها} ....
{الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ....} ....
الدليل الثاني: {ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله ....} ٤٤٦
{والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم} ....
{ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا ....}. ....
{لقد كان لسبإ في مسكنهم آية جنتان ....} ....
{ليميز الله الخبيث من الطيب ....} ....
{ثم استوى إلى السماء وهي دخان ....} ....
{وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا ....} ....

الدليل الثالث: {إنّ الله عنده علم الساعة ....} ٤٥٢

{وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحق ....} ....

{ونفخ في الصور فصعق ....} ....

{ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة ....} ....

{لله ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء ....} ....

{وما تدري نفس بأي أرض تموت} ....

غرق السفينة والقضاء والقدر ٤٥٧

قوله تعالى: {ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون}.....

التسخير والثواب ٤٥٩

{وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ....} ....

{ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز} ....

{لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون} ......

{سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم ....}. ....

{إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين} ....

{فأما من أعطى واتقى ....} ....

{إن الله لا يظلم مثقال ذرة ...} ....

الزلازل والقدر المحتوم ٤٦٤

متى يحدث الزلزال ٤٦٤

أما العوامل الطبيعية ٤٦٤

{أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا..........} ....

{وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ....} ....

{أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض ....} ....

{إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ....} ....

تدخل العوامل البشرية ٤٦٧

وهذه ينظر إليها من جهتين ٤٦٧

الجهة الأولى: جهة التسبب ٤٦٧

الجهة الثانية: جهة الأثر المترتب ٤٦٧

أولا، جهة المتسببين في وقوع الكارثة، أو التعجيل بوقوعها ٤٦٧

ثانيا، جهة المتأثرين ٤٦٨

القضاء والقدر وتعلقهما بالأفراد والجماعات ٤٧٠

التخيير وقيام الحجة على العباد ٤٧١

{رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة .....} ....
{ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه .....} ....
{من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ....} ....
{وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر} ....
التسيير والتسخير ومؤاخذة الأمم ٤٧٧
{واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر ....} ....
{إن الذين حقت عليهم كلمت ربك لا يؤمنون ....} ....
{وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة ....} ....
{ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون ....} ....
التسيير والتسخير وأمة بني إسرائل ٤٨١
{يابني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ....} ....
{ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين ....} ....
أمة الإسلام ومجريات القدر ٤٨٤
التسيير والتسخير وأمة الإسلام ٤٨٤
مكانة أمة الإسلام بين الأمم ٤٨٥
الخيرية والتسيير والتسخير ٤٨٦
الأمة القدوة والمثال ٤٩٠
الإهمال والتفريط وأثرها في مسار الأمة ٤٩٥
الخاتمة ٤٩٧
الثمرة المرجوة من البحث والفهم الصحيح لنصوص الشرع ٤٩٩
نتائج البحث ٥٠٦
القسم الأول: الذي يتعلق بعموم الأحاديث ٥٠٦
القسم الثاني: المتعلق بمعاني الحديث الشريف ٥٠٨
القسم الثالث: ما يتعلق بدلالة الحديث على المصائب العامة ٥١٤
وأهم النتائج المتعلقة بالقسم الثالث ما يلي ٥١٤
القسم الرابع والأخير: وهو القسم العام ٥١٩

محمد رسول الله

تنسيق وتنفيذ وإخراج

محمد جمال عبد القدوس

موبايل/ واتس / 01004558611